

تيسير التفسير

لقطب الأئمة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف اطفيش

(ت: ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م)

(الجزء الأول)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

وضع التراجم وتخریج الأحادیث
الأساتذان: كروم الحمدر ونازیر عمر

الفهرسة ومابعة الطبع
الأساتذان: مصطفی السرفنی ومحمد بیاحمی

حقوق الطبع محفوظة لدى
وزارة التراث والثقافة
ص.ب: ٦٦٨ - الرمز البريدي: ١١٣ مسقط
سلطنة عمان



﴿ قل نزلته بروح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين

ءامنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل آية 102)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله حقَّ حمده، الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده.
 اللهم ألهمنا الرشد، وثبّت قلوبنا على الإيمان بك والتصديق
 بكتابك، واجعلنا اللهم من الموفين بعهدك المرادين لحقك، الشاكرين
 لنعمك، العاملين في سبيل مرضاتك، المتبعين لهدي سيّدنا محمد النبيء
 الأمي، الفاتح لما أُغلق، الخاتم لما سبق، الذي لا نبيء من بعده.
 اللهم صلّ عليه وعلى آله وصحابه الأبرار، وعلى التابعين لهم
 بالإحسان ﴿فالذين آمنوا به، وعزّروه ونصروه، واتّبعوا النور الذي
 أنزل معه، أولئك هم المفلحون﴾ (سورة الأعراف: ١٥٧).
 وبعد، فإنّه لم يحظ كتاب من الكتب السماويّة أو غيرها بمثل ما
 حظي به القرآن الكريم، ولم تهتم أمة من الأمم بدستورها وما يجسّم
 معتقداتها من المبادئ والمثل التي تعلقت بها مثل ما اهتمّ المسلمون
 بكتاب الله العزيز الذي نزل على سيّدنا محمد ﷺ، مُكمِل نعمه الله

عليهم، منجي أولهم وهادي آخرهم.

ولقد أولى المسلمون وجوههم نحو هذا الكتاب، وتلقّوه منذ أن كان ينزل على صاحب الوحي ﷺ غصّاً طريّاً، حفظاً وعملاً، وكتابةً وجمعاً، وتبليغاً وتفهُماً.

وما لبث المسلمون أن أمكن الله لهم في الأرض، وفتحت لهم الأمصار، ودانت لهم الأمم، فانتشروا في الأرض عاملين، دعاة إلى نور الله المبين، وهدية المستقيم، فكانوا بناء الحضارة الإسلامية، ورواد أجمادها؛ وقد لازموا في مسيرتهم تلك كتاب الله، واستلهموا وحيه المبين، تفسيراً وشرحاً، واستنباطاً وتعمُّقاً، في كشف أسراره واستخراج أحكامه.

وبعملهم هذا، وفي أثناء مسيرتهم مع كتاب الله، نشأ حول القرآن الكريم وما كتب عليه في الشأن ما يعجزُ القلمُ عن وصفه ويفوتُ العاديين حصره.

وهذا السفر الجليل في تفسير القرآن الكريم - الذي أقدمه للقراء الكرام - ينهل من ذلكم البحر العباب، ألفه الشيخ أحمد بن يوسف اطفيش - رحمه الله - بعد أن تجاوز الستين بنيف، وجلس أكثر من أربعين سنة للتدريس والتحقيق والتأليف.

فهو حصيلة عمل طويل وشاقٍ لحياة وهبها الله خدمة لكتابه وللعلوم التي تخدم كتاب الله تعالى، وقد كان - رحمه الله - يعتزُّ بهذا

نصف قرن تقريبا، وكنا نرجع في دروس التفسير إلى ذلك الكتاب، ولكن كنا نهابه ونضيق به أحيانا لما عليه النسخة المطبوعة طبعا حجريا من هنات، وكنا نتمنى لو يتاح للكتاب أن يطبع على الخطة الفنية التي توصلت إليها الطباعة في زماننا.

وبعد أن اشتغلت مع ثلثة من تلاميذي بحاشية ترتيب «الجامع الصحيح» للربيع بن حبيب في الحديث، خدمة وتحقيقا وإخراجا، وأتمت ذلك بحول الله وفضله سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م^(١)، طلب مني بعض الإخوان من أهل الفضل وطلاب المعرفة - وألحوا في ذلك - أن أوجه عنايتي إلى خدمة هذا التفسير الهام، وتحقيقه وإخراجه إلى التداول، على وجه يقرب القارئ إلى الفهم ولا يُبعد به، ويُعين على المتابعة والاستفادة ولا يُعرب.

وبعد امتناع وتهيب بسبب ضعفي وقلة إمكانياتي، وطول الكتاب وتعدد أسفاره، فكنت أخاف أن يحول ذلك بيني وبين القيام بالواجب على أحسن وجه، وعن الوفاء بالعمل على أكمل صورة، ثم استخرتُ الله تعالى في ذلك، واعتمدت عليه وتوكلت وهو حسبي ونعم

١- (١٩٥٤م). وقد أسهم في إنشاء المعهد الجابري ودرّس فيه من سنة

١٣٦١هـ/١٩٤٣م إلى أن وافته المنية، وله عدّة مؤلفات. وقد تخرّج على يده كثير

من الذين حملوا مشعل الثقافة في هذه الأيام.

١- طبع الكتاب في خمسة أجزاء بمطبعة البحث بقسنطينة.

التفسير كثيرا، ويحثُّ طلابه على الإقبال عليه والرجوع إليه. وسمَّاه المؤلف «تيسير التفسير» فهو حقًا تيسير لفهم الأوجه المختلفة للنصِّ القرآني التي تتقبَّلها الصناعةُ وأساليب اللُّغة العربيَّة، وطرق البيان فيها، فهو - رحمه الله - في هذا الصنيع يقوم بعمل المدرِّس الماهر الذي يدفع طلابه ويحدو بهم إلى فهم المعاني المحتملة من النصِّ، دون أن يطغى عليهم بفرض رأيه وما ذهب إليه، ولا يغفل مع ذلك عن بيان الوجه الراجح من المرجوح في الغالب.

الكتاب من ناحية ثلاثة يغنيك عن مراجعة كثير من التفاسير، تلك التي تعتمد النقل والرواية، أو تعتمد الرأي والدلالة اللُّغوية، فهو يجمع بين ذا وذاك في أسلوب مختصر مفيد.

وفي أثناء ذلك لا يترك وجهها من وجوه الإعراب أو البيان دون أن يدفع بك إلى قواعد النحو والبيان وضوابطه، والتنبيه إلى ما تُحيزه الصناعةُ وما لا تحيزه، فهو باز من بزاة النحو وما إليه، كما يقول هو ذلك عن ابن عصفور الأندلسي.

كما لا يترك مسألة فقهية أو أصولية إلا ويتعرَّض لها ويبين وجه الصواب وما اختاره هو أو جمهور علماء الأمة.

وقد كانت صلتِي بهذا الكتاب القيِّم منذ أن كنت تلميذا في حلقات شيخِي الفاضل: إبراهيم بن أبي بكر^(١) في المعهد الجابري قبيل

١- هو الشيخ إبراهيم بن أبي بكر حفَّار (و: ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م - ت: ١٣٧٣

الوكيل.

فشرح الله صدري لهذا العمل، ويسّر لي من الأساتذة وذوي الفضل من أعاني ووقف بجانبني في هذا الدرب الطويل الشاق، جزاهم الله خيراً، وكفاني وإيّاهم حوادث الأيام ومصائب الزمان، وأعاننا بحوله وقوّته على إتمامه والوفاء بما التزمنا به.

اللهمّ اجعل لنا نصيباً مع الذين أنعمتَ اللهمّ عليهم ﴿من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصّالحين﴾ (سورة النساء: 69)، وانفعنا به ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾ آمين

إبراهيم محمد طلحي

ينبغي برفق - المطبعة - الجمهورية الجزائرية

١٥ ربيع الأول ١٤١٧هـ / ٣١ جويلية ١٩٩٦م

عملنا في الكتاب

لقد تبَّعنا في تحقيق الكتاب وإخراجه للطبع في ثوبه الجديد الخطوات التالية:

١. تصحيح الكتاب وتحقيق النصِّ فيه بالمقابلة بين النسخ المعتمدة، وإذا أشكلت علينا جملة أو كلمة ولم يتضح لنا وجه الصواب فيها ننَّبِه إلى ذلك بكلمة (هكذا في النسخ)، أو بإدراج الكلمة التي ظهرت لنا أنَّها تصوِّب العبارة، ووضعها بين معقوفين لأنها منَّا هكذا: [...].

٢. تخريج الأحاديث المذكورة في الكتاب وبيان موضعها في مشاهير كتب الحديث والتفسير.

٣. تخريج الآيات التي يوردها المصنِّف أثناء البحث، والإشارة إلى رقمها في السورة حتَّى يمكن للقارئ الرجوع إليها إن شاء.

٤. التعريف ببعض الأعلام الذين ذكرهم المصنِّف، ويظهر لنا أنَّها مجهولة لا يعرفها القارئ، ولانتعَّرض لمشاهير الأعلام.

٥. وضع عناوين جانبية لبعض البحوث التي يتعرَّض لها المؤلف بشيء من التفصيل أخذًا بيد القارئ، وخدمة له. وهي هكذا: (أسباب النزول)، (أصول الدين)، (فقه)، (نحو)، (لغة)، (بلاغة)، (قصص)...

٦. وضع فهرس في آخر كلِّ جزء للمسائل الفقهية التي تعرَّض لها المصنِّف، وفهرس آخر للمسائل الأصولية، دون بقية البحوث.
٧. تقسيم الآيات إلى مقاطع، ووضع عنوان مناسب لكلِّ مقطع، وإدخال ذلك ضمن عمل المؤلف، وقد اخترنا في ذلك صنيع الدكتور محمد وهبه الزحيلي في كتابه «التفسير المنير»، واتَّبعنا خطواته في الغالب.
٨. وضع فهرس عام لمواضيع تلك المقاطع والعناوين التي اخترناها لها حسب ورودها في النص القرآني.
٩. اعتذار: قد توجد أحياناً بعض كلمات لم ترسم على خطِّ المصحف العثماني، وقد أجاز المحققون ذلك في غير المصاحف القرآنية.

وصف النسخ المعتمدة

النسخة الأولى (أ):

وهي نسخة من الطبعة الحجرية في مكتبة المرحوم الشيخ حمَّو بابا وموسى الداوي^(١).

وقد عُرضت النسخة على المؤلف من تلميذه صاحب المكتبة،

١- هو الشيخ حمَّو بن باحمد باباوموسى الداوي (ت: ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م)، وهو من أبرز تلاميذ القطب، وقد كوَّن مكتبة ثرية بنفائس المخطوطات، منها بعض مؤلفات الشيخ اطفيش. وتولَّى مشيخة المسجد الكبير بغرداية، والإفتاء والتدريس فيه لمدة طويلة، رحمه الله.

ووضع فيها تعاليق استفدنا من بعضها، وتصحيحات القطب للطبعة الحجرية بخط يد صاحب المكتبة وذلك سنة ١٣٢٧.

والطبعة الحجرية كانت في حياة المؤلف قبيل وفاته وذلك سنة ١٣٢٦هـ، من عمل الحاج عمر بن حاج ابراهيم العطفراوي، والحاج محمد بن الحاج صالح اليزقني.

النسخة الثانية (ب):

وهي مخطوطة تحمل المواصفات التالية:

الخط: مغربي مقروء؛ لون الحبر: بني، وأحمر أحيانا؛ الحجم: أربعة مجلدات؛ معلومات النسخ: دون اسم الناسخ، ودون تاريخ النسخ؛ المقاس: ٢٤ سم في ١٧ سم؛ والملاحظ أنَّ في الهامش حواشٍ وزيادات بخط يد المؤلف.

تحصلنا على هذه المخطوطة من مكتبة الشيخ حمو باباوموسى أيضاً.

كتب على الورقة الأولى: «دخل ملك الفاضل أخانا سليمان بن سعد الله بالشراء من مؤلفه، وحبسه لوجه الله تعالى لا يباع ولا يشتري».

وقد ذكر أيضاً أنَّ مجموعة من تلامذة المؤلف استعاروا بعض كراريس ردت إليه وهم: إبراهيم بن بكير، وأخوه محمد، والحاج عمر بن حمو، وسليمان بن عبد الله.

النسخة الثالثة (ج):

تحصلنا عليها من مكتبة الشيخ الحاج عمر بن الحاج مسعود بالقرارة، وتحمل المواصفات التالية: الخطُّ: مغربيٌّ واضح؛ لون الحبر: بني، وأحمر أحياناً؛ معلومات النسخ: دون اسم الناسخ، ودون تاريخ النسخ؛ المقاس: ٢٤ في ١٧ سم. بدون حواش أو زيادات، يبدو أنهما حديثة النسخ.

كتب عليها اسم المالك وهو: الشيخ عمر بن الحاج مسعود بن يحيى بن عمر^(١).

النسخة الرابعة (د):

تحصلنا عليها من مكتبة القطب بيني يزقن، وهو المؤلف نفسه، وهي مكتوبة بخطِّ يده، ولعلها تكون بكتابة النسخة الأم للنسخ الأخرى.

وتحمل المواصفات التالية: الخطُّ: مغربي واضح؛ لون الحبر: بني وأحمر أحياناً؛ ليس فيها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ؛ المقاس: ٢٢×٣٢ سم، فهي من الحجم الكبير في مجلِّد واحد يشمل ٩٣٨ صفحة؛ عليها حواش وزيادات بنفس الخطِّ؛ إلاَّ أنَّها أقلُّ من الزيادات والحواشي التي في نسخة (ب).

وللمشرفين على هذه المكتبات آيات الشكر والثناء على ما أمدُّونا به، جزاهم الله خيراً

ترجمة المؤلف

فطرب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف الطنيس، البسجى

(١٢٣٧ - ١٣٣٢هـ / ١٨١٨ - ١٩١٤م)

في مدينة غرداية العريقة^(١) بشمال صحراء الجزائر، ولد الشيخ
أحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح، اطفيش لقباً^(٢)، وهو من عشيرة
آل بالمحمد ببني يزقن، وينتهي نسبه إلى الحفصيين بتونس^(٣).
والده من أعيان زمانه، مارس التجارة في شمال الجزائر ثم في
ميزاب.

وأُمُّه هي السيدة: مامه ستي بنت الحاج سعيد بن عدون، من
عشيرة آل يدّر ببني يزقن، وكانت من خيرة نساء زمانها.
توفي الوالد قبل أن يرى ابنه يدرج إلى حلقات العلم، وهو يتمنى
أن يكون أحد علماء زمانه، إذ كثيراً ما ذكر ذلك لأصدقائه، فشمرت
الأمُّ عن ساعد الجهد لتربية ابنها وتحقيق الآمال المرجوة فيه.

١ - نهضة الجزائر لمحمد علي دبور، ج ١/ص ٢٩٠.

٢ - هذه الكلمة بربرية مركبة تركيباً مزجياً معناها: (خذ - تعالى - كل). الأعلام
للزركلي، ج ٨/ص ٣٢.

٣ - وينهي القطب نسبه إلى عمر بن الخطاب العدوي رضي الله عنه في قصيدة له. انظر
أبو إسحاق إبراهيم في تقديمه للذهب الخالص؛ ومحمد علي دبور في النهضة.

أسرته:

للقطب اطفيش ثلاثة إخوة ذكور: موسى وعيسى تاجران، وإبراهيم عالم وهو شيخه، وقد توفيت له شقيقتان في صغره، وذلك حين نشأته الأولى بغرداية^(١).

وما لبثت أن عادت به الأم بعد وفاة الأب إلى موطنه الأصلي بني يزقن، وقد حظي بالرعاية الكافية والحنان طوال حياته مع أمه.

تعلم:

في سنة ١٢٢٤هـ / ١٨٢٣م ألحقته أمه بإحدى الكتاتيب القرآنية، فتخرج فيها حافظا لكتاب الله ولما يبلغ التاسعة من عمره، فتكوّنت لديه شهية عجيبة للقراءة والكتابة، ورغبة ملحة في حضور مجالس العلماء، وغشيان حلقاتهم في دور العلم وفي المساجد، وقد أتاح الله له الفرصة في أن يحضر كثيرا من حلقات العلم لمشايخ عصره في واد مزاب منهم:

١. أخوه الأكبر إبراهيم بن يوسف^(٢)، وذلك أوان رجوعه من رحلته المباركة في طلب العلم بعمان ومصر والمغرب، وقد أخذ عنه

١- السلاسل الذهبية لإبراهيم بن أبي بكر، ص ١٨ - ١٩.

٢- هو الشيخ إبراهيم بن يوسف بن عيسى بن صالح اطفيش (ت: ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م): عالم ومدرّس، بمسجد بلده، ترك مؤلفا عنوانه: مختصر المناسك للحيطالي.

أكثر مبادئ العلوم التي نبغ فيها.

٢. الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبَار^(١)، بعدما رجع من عمان،

وقد حضر دروسه بمسجد بني يزقن.

٣. الشيخ الحاج سعيد يوسف وثن^(٢)، ببني يزقن.

٤. الشيخ سليمان بن عيسى عدون^(٣)، حضر دروسه في مسجد

بني يزقن

٥. الشيخ بابا بن يونس^(٤)، في المسجد العتيق بغرداية، ويذاكر معه

في غار بجبل موركي.

٦. الشيخ الحاج أحمد بن داود أمعيز^(٥).

وفي أوقات الفراغ كان يغشى المكتبات ويلتهمها التهاما، حتى

١- هو الشيخ محمد بن عيسى ازبار (ت: ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٢ م): عالم وموجه، وقد حلف مكتبة ثرية بنفيس المخطوطات.

٢- هو الشيخ سعيد بن يوسف بن عدون وينتق اليسجني، المعروف بـ: الحاج سعيد ان بافو (حي في ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٩ م).

٣- هو الشيخ سليمان بن عيسى اليسجني (١٢٣٠ - ١٢٦٥ هـ / ١٨١٤-١٨٤٨ م)، شيخ عالم، تولى إمامة الدفاع، ومشیخة بلدته وميزاب عامّة.

٤- هو الشيخ بابا بن يونس الداوي (النصف الثاني ق ١٣ هـ / ١٩ م): شيخ لغرداية، وأحد أساطين الإصلاح في زمانه.

٥- هو الشيخ الحاج أحمد بن داود امعيز (حي في: ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٧ م): من علماء مليكة، له باع في علم الفلك، وقد أخذ عنه القطب أسس هذا الفن.

إنَّه كان إذا بدأ في دراسة فن من العلم عند أحد المشايخ، أتمَّه وحده، وطلب الانتقال إلى كتاب أوسع في ذلك الفن.

زواجه:

تزوَّج القطب^(١) ثلاث نسوة وجمع بينهنَّ، وهو أب لتسعة أولاد، ويعتبر زواجه مدرسة من المدارس التي ساهمت في تكوينه، فثلاثتهن من بنات العلماء ذوات الصلة بالعلم والكتب، وما أعزَّها في ذلك الزمان.

كفاحه في سبيل العلم وخدمة الشريعة:

لم يلبث القطب أن فتح خلال تكوينه العصامي المتواصل جبهات متعدِّدة لإعلاء كلمة الله: من نشر العلم وتعليمه، وخدمة الشريعة ونصرتها، ومحاربة البدع والردائل، وذلك بكلِّ إخلاص وتفان وثبات. فنخص بالذكر من بين آثاره العلميَّة والعملية:

١. التدريس ونشر العلم: فتح القطب داره للتعليم ولمَّا يبلغ العشرين من عمره، واستمرَّ على ذلك إلى أن وافته المنية، فتوالت على حلقاته العامرة طيلة حياته التعليمية حشودٌ من الطلبة من جميع قرى

١ - أختار لقب القطب للشيخ مثلما اختاره الأستاذ الباحث يحيى بوتردين، وأول من لقبه بهذا اللقب صديقه العالم الشيخ عبد الله بن حميد السالمي العماني (ت: ١٣٣٢هـ/

وادي مزاب، وورجلان، وجربه، وجبل نفوسه.
 فكانت دروسه تستمر طيلة أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة.
 وطريقته في ذلك هو أن يكلف لكل فن من فنون العلم طالبا
 يختص به ليقراً النص - نص الكتاب المدرس - أمامه في حصّة الدرس،
 فيشرحه للحاضرين، يتولّى الشيخ التعليق والشرح، وهو لا يملّ من
 التكرار والتوضيح، حتى يفهم الطلاب. ويقول تلميذه الشيخ إبراهيم
 بن بكر: «إنّهُ كان يجمع في النصف الأوّل من النهار في المسجد
 والمدرسة بين عديد من الفنون في حصص»، وغالبا ما يعتمد في
 التدريس الكتب التي ألفها، فإن لم تكن فإنّه يقرّر إحدى الكتب في
 ذلك الفن أو يؤلف لهم».

فقد كان رحمه الله رجل علم وبحث وتحقيق وكتابة.

٢. الفتوى: يخصّص الشيخ الفترة المسائيّة من كلّ يوم للإجابة
 عن الأسئلة الفقهيّة، والنوازل التي توجّه إليه من داخل مزاب
 وخارجه، ومن داخل الجزائر وخارجها: كعمان، وليبيا، وتونس،
 وزنجبار، وحتىّ من اسطنبول ومصر.

وعندما تقدم به السن اتّخذ كتابا لتحرير الأجوبة، ومن هؤلاء
 نذكر: الشيخ الحاج سليمان مطهري^(١)، والشيخ حمو بابو وموسى

١- هو الشيخ سليمان بن أبي بكر بن الحاج أيّوب المطهري المليكسي (١٨٦٢-

١٩٤٨م): عالم من مليكة، وأحد شيوخها، ترك مكتبة ثرية بنفيس المخطوطات،

المتقدّم ذكره رحمهم الله.

٣. الوعظ والإرشاد: لقد انضمّ القطب إلى حلقة العزابة بمسجد بني يزقن في زمن الشيخ الحاج سليمان بن عيسى عدون، فارتقى في مهام الحلقة إلى أن تولى مشيختها خلفاً لشيخه الحاج محمّد أزيار المتوفّى ١٨٧٢م ١٢٩٦هـ،^(١) فأصبح يلقي دروساً في المسجد بعد صلاة الصبح إلى شروق الشمس حسب العادة المتبعة، يتعرّض فيها لاستنهاض الهمم ونشر التعاليم الإسلامية ومحاربة البدع والآفات الاجتماعية، فتمكّن بذلك من تقويم المجتمع ودفعه إلى جادة القرآن الكريم، والسنة النبويّة، وسيرة السلف الصالح.

٤. التأليف:

أثناء هذا العمل الدؤوب كان القطب - رحمه الله - يخصص الحظّ الأوفر من وقته للتأليف والكتابة، فهو فارس قلم وكتابة كما كان رائد علم وتربية، لا يستريح من النظر إلا إلى التحقيق، ولا من البحث إلا إلى التأليف والتعليق، فهو يعي الوعي كلّه بأنّه: «يذهب العقل ويبقى أثره، ويفنى العلم وتبقى كتبه» - كما قال الجاحظ -.

خاصّة كتب شيخه قطب الأئمة. وقد لازمه مدّة اثنين وعشرين سنة.

١ - يرى الأستاذ الحاج سعيد أنّه خلف الشيخ الحاج محمّد بن يحيى باحيو في المشيخة في

نفس التاريخ - تاريخ بني مزاب، ص ١٣٤.

وقد كان يستغلُّ الفترة اللَّيلية لمهامِّ التأليف، عندما تهدأ الأصوات وتسكن الحركات.

ويقول أحد تلامذته، وهو الشيخ أبو اليقظان: «إنَّه لم يكن يؤلِّف كتابا بعد كتاب، بل كان يؤلِّف عدَّة كتب في فنون مختلفة في وقت واحد، حتى إذا ملَّ من فنٍّ رُوِّح عن نفسه في مؤلِّفٍ آخر، وهكذا دواليك إلى أن ينتهي»^(١).

وقد كان يؤلِّف في الحضَر والسفر، في وقت الشدَّة والرخاء، حفاظا على وقته الثمين^(٢)، ولا يفوته مع هذا حضور الصلوات الخمس في المسجد مع الجماعة، وحثُّ تلاميذه على ذلك.

أمَّا اليوم الأخير من الأسبوع - يوم الجمعة - فقد اتَّخذه راحة يقضي نهاره في بستانه أحيانا؛ وفي العشرية الأخيرة من عمره ألحق به يوم الخميس ليوفِّر للتأليف أوقاتا أكثر وجهدا أوفر^(٣).

٥. مكانته العلميَّة:

تمكَّن القطب بفضل عصاميته المتمكِّنة، وعزيمته الصادقة، وإخلاصه الشديد، وطموحه الواسع، من الوصول إلى درجة الاجتهاد ولم يتجاوز الستين من عمره.

١ - ملحق السير لأبي اليقظان، ص ١٥٧.

٢ - نهضة الجزائر لمحمد علي دبور، ج ١/ص ٣٠٨.

٣ - السلاسل الذهبية لإبراهيم بن أبي بكر، ص ٤٦.

وقد أشار في إحدى تأليفه إلى هذا المعنى، فقال: «وقد كنت أجتهد بالقياس على أصل أمامي، ولا أكاد أصيب إلا قولاً يوافق ما قلت والحمد لله، ثم انتقلت عن هذه الدرجة إلى ما فوقها والحمد لله»^(١)

ويقول الشيخ أبو اليقظان: «ناقش علماء الحرم وتباحث معهم فشهدوا له بالتفوق العلمي»^(٢)

يعني بذلك: الشيخ زيني دحلان، والشيخ حسبي الله الشافعي، والشيخ ابراهيم حقي الحنفي، والشيخ عيش المالكي^(٣).
وقد عرف الشيخ محمد عبده المصري قدر القطب فعظمه واحترمه، وقد جاء ذلك في بعض مراسلات كانت بينهما^(٤).

٦. مراسلاته ورحلاته:

لم يخرج القطب من بلده ميزاب إلا عندما سافر إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وقد كان ذلك مرتين الأخيرة منهما في أوائل القرن، وقد زار في طريقه بعض الحواضر العلمية مثل: جامع الزيتونة

١ - شامل الأصل والفرع، ج ١/ص ١٣.

٢ - ملحق السير، ص ١٥٩.

٣ - رسالة الرد على العقبي للقطب، ص ١٠٩.

٤ - السلاسل الذهبية لإبراهيم بن أبي بكر، ص ١٠.

بتونس، والجامع الأزهر بمصر؛ وألقى دروساً في الحرم المدني^(١).

وكانت له زيارات محلية يقوم بها في فصل الخريف والربيع إلى القرارة وبريان وورجلان لنشر العلم وترسيخ العقيدة في أوساط العموم لبعدهم عن الاتصال به، وعن مقر عمله، مع نقص وسائل الاتصال وندرتها آنذاك^(٢).

وقد ولع بالمراسلات العلمية مع علماء وملوك عصره، ومع أنصاره في الجزائر، وفرنسا، ولندن، ومصر، والحجاز، وزنجبار، وعمان، والبحرين، وتركيا، وجبل نفوسة، وليبيا، وتونس، والمغرب الأقصى.

كما زاره بعض من أعيان زمانه مثل سليمان ابن الناصر المكي أمير دار السلام بزنجبار سنة ١٩٠٠م، والزعيم سليمان الباروني باشا، وكان قد تتلمذ على الشيخ في فتوته.

٧. وفاته:

بعد هذا العمل الجبار في الحقل العلمي، والصراع المرير محاربة للجهل والرذيلة اختاره الله إلى جواره الكريم في فجر يوم السبت ٢٣ ربيع الثاني ١٣٣٢هـ / ٢١ مارس ١٩١٤م عن عمر يناهز ٩٦ عاماً،

١ - نهضة الجزائر لدبوز، ج ١/ص ٣٥٢.

٢ - تاريخ بني مزاب للحاج سعيد، ص ١٣٦.

بعد مرض خفيف وحمى ألمَّت به لبعض الأيام، فبكاه القريب والبعيد، والعدوُّ والصدِّيق، واهتزَّ عرش العلم والدين لفقده وغيابه، وتنافس الخطباء والشعراء في ذكر مناقبه الجليلة، ومآثره العظيمة ولا يزالون.

وضريحه معروف في مقبرة بامحمد ببني يزقن.

تغمَّده الله برحمته الواسعة، وأسكنه فسيح جنانه مع الذين ﴿أَنعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. آمين.

٨. آثاره من بعده: ^(١)

من آثار القطب في مسيرته العلميَّة والعملية المباركة نذكر:

(أ) في التدريس: تخرج في حلقاته العامرة مشايخ وأئمَّة، ودعاة وأساتذة، وقضاة ومجاهدون، فهؤلاء إمَّا تلقَّوا عنه العلم مباشرة أو بواسطة تلامذته.

١- لتتوسَّع في آثار القطب العلميَّة، وفي شخصيته البارزة انظر الدراسات الأكاديمية التي ألَّفت حوله، ومنها: الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش لجهلان عدون رحمه الله؛ الشيخ محمد بن يوسف اطفيش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم (التيسير) مقارنة إلى تفسير أهل السنة؛ الشيخ اطفيش ومنهجه في تفسير القرآن الكريم (هميان الزاد) لعكي علواني؛ آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش العقديَّة لمصطفى ويتن. وكلُّها رسائل ماجستير.

من الجزائر وتونس وليبيا وعمان وزنجبار، وقلَّ أن نجد من المشايخ من تهيء له من الطلاب والعلماء الذين بلغوا الأمانة وواصلوا المسيرة العلميَّة بعدهم مثلما تهياً للقطب رحمه الله^(١).

(ب) - في التأليف:

ألَّف القطب في كثير من علوم الشريعة، وفي اللُّغة والتاريخ، والطب والمنطق، والحساب والفلسفة والفلك، والأخلاق، بل وحتىَّ في الفلاحة والشعر.

وقد عدَّ بعضهم مؤلفاته فوجدها تتجاوز ثلاثمائة مؤلَّف ما بين صغير وكبير ومتوسط^(٢) وهي في غالبيتها إمَّا شرح لمختصر، أو اختصار لموسَّع، أو حاشية على شرح سابق.

وأما الرسائل والرود والأجوبة والفتاوى فهي تعدُّ بالآلاف لو جمعت لتكوَّنت منها موسوعة علميَّة مفيدة، وقد وصل بها إلى جميع أصقاع العالم آنذاك.

وناهيك عن موسوعته الفقهيَّة الرائدة في الفقه المقارن: شرح النيل وشفاء العليل، التي تعتبر العمدة في الفقه الإباضي، في جميع أنحاء العالم اليوم.

١ - عن أسماء هؤلاء العلماء راجع المصادر المعتمدة في هذه الترجمة.

٢ - ملحق السير لأبي اليقظان. غير أنَّ الباحث ويتن مصطفى حقَّق أنَّ عدد مؤلِّفات

القطب هو: ١٠٦ مؤلفاً. إل جانب المراسلات الكثيرة.

وأما عناوين كتبه فمنها المعروف، ومنها المفقود، ومنها المطبوع ومنها المخطوط^(١).

فتجمّع لدى القطب خلال هذه المدّة الطويلة من مسيرته العلميّة مما ألفه ومما وصل إليه من مختلف المصادر مكتبة زاخرة بالمراجع والمصادر المعتمدة في علوم الشريعة واللغة العربية تشهد له بتمكّنه العلمي وتفتح ذهنه وسعة أفقه. (٢)

٩. شخصيته

لقد تضافرت صفات مختلفة في تمييز شخصية القطب اطفئش نذكر منها على سبيل العدّ فقط:

الذكاء الوقّاد، وقوّة الحافظة، والاستمرارية في العمل، والشجاعة، والإخلاص للعلم وخدمته طاعة لله، والغيرة الشديدة على الإسلام، والكرم والسخاء.

ولا يسمح لنا المقام للتوسّع في بيان هذه الخلال الحميدة، والاستدلال على تمكّنها منه رحمه الله.

١ - عن عناوينها راجع دليل مخطوطات وادي ميزاب لجمعية التراث، جزء مكتبة القطب والأجزاء الأخرى، ومعجم أعلام الإباضية لجمعية التراث.

٢ - عن بعض محتوى هذه المكتبة راجع فهرس موضوعي لمخطوطات مكتبة القطب ببني يزقن تأليف الأستاذ يحيى عاشور، بحث مقدّم لنيل شهادة الليسانس في علم المكتبات

بطاقة تعريف عن تفاسير القطب^(١)

إضافة إلى كون التفسير مادة رئيسية في حلقاته العلمية كما هي الطريقة المتبعة لدى كثير من علماء السلف، فقد ألف القطب اطفيش ثلاثة تفاسير للقرآن الكريم في مراحل مختلفة من عمره الطويل، وإليك بيانها بالترتيب:

الأول: هميان الزاد إلى دار المعاد

أتم تأليفه سنة ١٢٧١هـ / ١٨٥٢م، أي عندما بلغ السن الرابعة والثلاثين من عمره وقد طبع مرتين.

إحداهما في زنجبار على نفقة السلطان برغش في ١٤ جزءاً من

١٣٠٥هـ إلى ١٣١٤هـ.

١- أختصرت هذه البطاقات من رسالة ماجستير حول منهجية القطب في تفسير التيسير

للأستاذ يحي صالح بوتردين ص ١٨٦ وما بعدها.

ومن محاضرة للشيخ إبراهيم محمد طلاي: جهود القطب في تفسير القرآن، ألقاها

في المهرجان الأول للشيخ اطفيش ١٩٨١م.

وثانيهما في سلطنة عمان على نفقة وزارة التراث القومي والثقافة
في ١٥ مجلدا من سنة ١٩٩١م.

الثاني: داعي العمل ليوم الأمل

ما يزال مخطوطا ولا توجد منه نسخة كاملة حسب علمنا إن كان
قد أكمله الشيخ، وتوجد نسخة من أجزائه الأخيرة في مكتبة المؤلف
تنقصها كراريس.

ويقال إنَّ القطب أتمَّ فيه تفسير القرآن الكريم كاملا خلافا لما
هو مشهور من أنَّه أطنب فيه كثيرا، وبدأ من سورة الرحمان. ولم
يذكر أيَّ تاريخ فيها ليعرف متى شرع فيه القطب.^(١)

الثالث: تيسير التفسير:

أتمَّ فيه تفسير القرآن كاملا بعد أن تجاوز السنَّ الثمانين من

١- هذا التفسير حقَّقه كلُّ من الأساتذة: باجو مصطفى، وباباعمي محمَّد، وشريفي مصطفى. وقد بدأه من سورة الرحمن، وما بقي منه إلى غاية آخر سورة المزمل. غير أنَّ القرائن - من داخل النص نفسه - تدلُّ أنَّ الشيخ لم يفسِّر فيه القرآن كاملا. والملاحظ أنَّ الناسخ كتب فوق جزء سورة الرحمن: الجزء التاسع والعشرون، وفوق جزء سورة المنتحنة: الجزء الثلاثون، وفوق جزء سورة القلم: الجزء الواحد والثلاثون، فيكون جزء عم بالتالي هو الجزء الثاني والثلاثون. فنقول والله أعلم: إنَّ الشيخ - رحمه الله - قد قسَّم القرآن حسب الحروب، وكلَّ حروبة إلى جزأين، فيكون بالتالي عدد الأجزاء: ٣٢ جزءا.

عمره.^(١)

نسخة المخطوطة موجودة في مكتبة المؤلف، وبعض مكاتب تلاميذه.
وقد طبع الكتاب مرتين:

الأولى: طبعة حجرية بالجزائر في سبعة مجلدات من سنة ١٣٢٥هـ إلى

سنة ١٣٢٦.

الثانية: طبعة جديدة بدون تحقيق في خمسة عشر مجلدا على نفقة

وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان ١٩٨٨م.

لقد تعرّض بعض العلماء للحديث عن هذا التفسير بعبارات تبرز

المكانة العلمية التي حظي بها هذا التفسير الذي نحن بصدد التقديم
له وتحقيقه، منهم المؤلف نفسه يقول عنه: «وذكرت ذلك في تفسيري
المسمى بالتيسير وهو تفسير دقيق لا تطويل فيه»^(٢).

ويقول تلميذه الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش: «ومن وقف

على تفسيره تيسير التفسير شاهد تبهره في علوم القرآن وغزارة مادته
ومقدرته على إظهار حقائق التفسير»^(٣).

١- أخذنا هذا التاريخ من رسالة جواب عن أسئلة وجهها إلى الشيخ عبد الله بن حميد
السالمي، والشيخ عيسى بن صالح الحارثي تحدّث فيها عن هذا التفسير وقال: «قرب
كمال» وهي مؤرخة بـ ٧ رجب ١٣٣٢. أنظر كشف الكرب، ج ١/ص ٩٦.

٢- مجموعة رسائل وأجوبة، ص ١٥١

٣- مقدمة كتاب الذهب الخالص.

وعندما تحدّث الشيخ إبراهيم بيوض - رحمه الله - عن مراجعته في التفسير قال: «إذا أردت أن أعرف أحيانا قول الإباضية في بعض الأحكام الشرعية الواردة في الآية فإنني أرجع إلى كتاب التيسير للشيخ الحاج أحمد اطفيش»^(١).

ويقول الباحث عكى علواني: «إنّ تفسيره (التيسير) يعتبر دائرة معارف لآراء أشهر المفسرين السابقين، الذي جمع فيه وجهات نظر معظم المدارس الإسلامية، وكذا بعض الفرق، مع إبراز وجهة نظر الإباضية، من هذا تظهر أهميته بين كتب التفاسير في العالم الإسلامي»^(٢).

وفي رسالة وجهها المؤلف إلى الشيخ عبد الله بن حميد السالمي والشيخ عيسى بن صالح الحارثي قال: «ولكما الآن - والحمد لله الرحمان الرحيم - من تفسير المذهب ما يغنيكم إن شاء الله عن تفسير غيره، فإن ذكرت مذهبهم فإمّا لأردّه، وإمّا لأنّه حقّ، وقد اعتقدناه قبل أن نراه لهم، ولست مقلّدا لأحد، ولا سيما التيسير الذي قرب إن شاء الله الرحمان الرحيم كماله، وما ذكرته إلا لترغبوا فيه لأنّه غير

١- أعلام الإصلاح لمحمد على دبور: ج ٣/ ص ١٢٦.

٢- محمّد بن يوسف اطفيش ومذهبه في تفسير القرآن، رسالة الماجستير في العلوم

الإسلامية ١٩٩١ ص ٢٨٢ مرقونة.

طويل بل متوسط مع جمعه ما ليس في المطوَّلات، والحمد لله^(١).

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللهُ عَلَي سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

مقدمة المؤلف

الحمد لله حمداً يجدد دقائق الجديدين، وتستمليه استملاء مقبولا لحظات الملوين، على تيسير القرآن بياناً؛ يخزُّ به على أهل الكفر كلُّ إيوان، ويردُّ الله به عنَّا شرَّ الخلق وأهل العدوان؛ والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد وآله وصحبه، وكلِّ عبد مجلُّ لله عابد لرَّبِّه، صلاة وسلاماً أنجو بهما من حرِّ النيران، ويكونان لي قلائد عقيان، وأسكن بهما تحت عرش الرحمن، دائمين ما دامت الأزمان

أمَّا بعد، فإنَّه لَمَّا تقاصرت الهمم عن أن تهيم بـ«هميان الزاد إلى دار المعاد» الذي ألفته في صغر السنِّ، وتكاسلوا عن تفسيره «داعي العمل ليوم الأمل»، أنشطت هممتي إلى تفسير يُغتبط ولا يُملّ.

فإن شاء الله قبله بفضلُه وأتمه قبل الأجل، وأنا مقتصر على حرف نافع، ولمصحف عثمان تابع، وأسأل ذا الجلال أن ينعم عليَّ بالقبول والإكمال. آمين

تفسير سورة الفاتحة وآياتها ٧

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٣ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: أتبرك في كلِّ مباح وعبادة، ولا تكتبُ البسمة في أول ديوان الشعر، إلا إن كان كتابتها علماً، أو وعظاً، أو نفعاً لا محذور فيه شرعاً؛ وأجاز سعيد بن جبير كتابتها في أول ديوان الشعر، ووجدتها مكتوبة في نسخة قديمة بأكثر من خمسمائة عام، من ديوان الشعراء الستة، معروضة على أبي علي السلوئين^(١)، وأعطى الإجازة فيها لبعض تلامذته.

١ - أبو علي السلوئين عمر بن محمد بن عمر الأزدي الإشبيلي الأندلسي (٥٦٢-٥٦٤هـ): إمام في النحو، الملقب بالسلوئين - أي الأبيض الأشقر -، كان إماماً لا يشقُّ له غبار في النحو، وله تصانيف مفيدة. تهذيب سير أعلام النبلاء،

وعنه عليه السلام: «لو أنَّ أحدكم قبل أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّرَ بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً»^(١). وقال عليه السلام: «سئُرُ ما بين الجنِّ وعورات بني آدم، إذا دخلوا الكنيف، أن يقولوا: بسم الله»^(٢) أو إذا أرادوا الدخول.

والله مختصُّ به تعالى، والإله أعمُّ سواء أقلنا: أصل لفظ "الله" إله أم لا، فلا تهمُّ. وقرئ بنصب الرحمن وجرِّ الرحيم، والنصب على تقدير أحمد، وسمَّاه أبو حيان^(٣) عطف توهُّم، أي على طريق التوهُّم وأصاب، ووجه توهُّمه أنَّ الاتباع بعد القطع ضعيف فلتسميته وجهه، ونصَّ هو على ضعف ذلك لاختصاص التوهُّم بالعطف.

١ - رواه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم ١١٩.

ومسلم في النكاح، باب ١٨، رقم ١١٦ (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس.

٢ - رواه ابن ماجه في الطهارات، باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، رقم ٢٩٧.

والترمذي، في الصلاة، من حديث علي بن أبي طالب.

٣ - محمد بن يوسف الغرناطي، أبو حيان (٦٥٤-٧٤٥): عالم نحوي لغوي، ومفسر

محمدت مقرئ، ومؤرِّخ وأديب، درس بالأندلس وغيرها من بلاد الإسلام، ظاهري المذهب، ثم شافعي، ولد بمصر وتوفي بها، ومن تصانيفه "البحر المحيط" في تفسير

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: إخبار بأنَّ الله تعالى مالك لجميع الحمد من الخلق ومستحقُّ لأنَّ يحمده، ومن ذكر جملة وأراد بها الثناء على الفعل الجميل الاختياريَّ تعظيمًا كان محصلاً للحمد ولو لم يقصد الإنشاء، ولا يجوز قصد الإنشاء، على أنَّ الآية نزلت إخباراً إلاَّ لمن أراد غير الآية، وإلاَّ أن يقال: المعنى قولوا: هذه السورة، فحينئذٍ يجوز لقارئها التصرُّف في الحمد بالإخبار أو الإنشاء، لكنَّ الإنشاء بالجملة الاسميَّة قليل، ومختلف فيه.

(أصول الدين) ولا يحمد الله على صفاته بل على أفعاله، وقيل بالجواز على إسقاط لفظ الاختياريِّ من الحدِّ، أو على أنَّ المراد نفي الضرورة، وصفاته ليست ضروريَّة كما أنَّها ليست اختياريَّة، لا إله إلاَّ الله، سبحانه الله.

ولفظ الجلالة لا يدلُّ على فعل ولا صفة بل على الذات، فهو جامد، وقيل: أصله الاشتقاق من لفظ يدلُّ على معنى العبادة أو العلوُّ أو الطرب أو الفزع أو التحير أو الاحتجاب أو نحو ذلك، بمعنى أنَّ خلقه احتجبوا عن رؤيته بأنَّ حجبه عنها ومنعهم، وليس هو بمحتجب؛ وفزعوا إليه واضطربوا وتحيروا.

﴿رَبِّ﴾ سيِّد ﴿العالمين﴾، أو مالِكِهِمْ؛ الناسُ عالم، والملائكة عالم، والجنُّ عالم، والحيوان عالم، والجبال عالم، والنبات عالم، والفعل عالم، والاعتقاد عالم، وهكذا... كلُّ صنف عالم، والجمع: عالمون، جُمِيع تغليبا للعاقل جمع قلةٍ إيذاناً بقلَّتهم بالنسبة إلى قدرته تعالى على خلقه أصنافا غير الموجودة، وسمِّيَتْ لأنَّ فيها علامة الحدوث كالتركيب والحلول، وعلامة

وجود الله.

﴿الرَّحْمَنُ﴾: المنعم بالنعم العظيمة، أو مرید الإنعام به، وليس معرباً من رحمن بالخاء المعجمة كما قيل.

﴿الرَّحِيمُ﴾: المنعم بالنعم التي دون تلك، أو مریدها، وليس بينها عموم وخصوص على هذا، فضلاً عن أن يقال: قدّمت الخاصّة على العامّة، وإنّما ذلك لو فسّر الرحيم بالمنعم بمطلق النعم، أو هما سواء كنديم وندمان جمعاً تأكيداً، كما روي: «رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما»، وعلى الأخصيّة فقد قيل: بجواز تقديم الصفة الخاصّة على العامّة للفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿رؤوف رحيم﴾ وقوله تعالى: ﴿رسولاً نبياً﴾. وقيل: يارحمن الدنيا لأنّه يعلم المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة لأنّه يخصّ المؤمن، وقيل: يارحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا لأنّ نعم الآخرة كلّها عظام، وأمّا نعم الدنيا فجليلة وحقيرة، وهي هنا مبنية على الميم نظير النون في ﴿العالمين﴾ و﴿الدين﴾.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء بالجنّة والنار، وخصّه لأنّه لم يجعل فيه ملكاً، بخلاف الدنيا ففيها ملوك، والملك السلطان القاهر، هو ملك يوم الجزاء إذا حضر يوم الجزاء، أو صفة مبالغة، أي أنّه مالك ليوم الدين ملكاً قوياً إذا شاء أحضره. ولك تقدير: ملك الأمور يوم الدين، كما كان ملكها في الدنيا، أو ملكها فيه وحده.

﴿إِيَّاكَ﴾: قدّم للحصر، والثاني للحصر والمفاضلة.

ومقتضى الظاهر: إيّاه نعبد وإيّاه نستعين ليهدينا، بلام الدعاء، أنعم

عليهم بصيغ الغيبة مثل ما قبله، إلا أنه لما أتى بالأوصاف الكاملة من كمال الرحمة المشاهدة، وصفات الجلال المحمود عليها، وقدرته الكاملة بتدرج الأفهام في ذلك على وجه الغيبة، وقوي برهان ذلك صار الغائب شاهداً، يتكلم معه بصيغ الخطاب، وفي صيغة تلذذ.

﴿نَعْبُدُ﴾: نخدم بكل ما نقدر عليه، وهذا العموم أفاده الإطلاق القابل، لكن ممكن على سبيل البدلية فيحمل على العموم الشمولي الشامل لكل أفراد البدلي، وكذا في قوله:

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: على تحصيل العبادة والمباح، وعلى دفع المعاصي عنّا والمضار.

(فقه) وخدمته - تعالى - إمّا للثواب والهروب من العقاب، وذلك زهد، وهي عبادة؛ وإمّا للشرف بها والنسبة إليه تعالى وهي عبودية؛ وإمّا لإجلاله وهي عبودية وهي أعلى. وقدم العبادة لتوسل بها إلى دفع المكروه وجلب المحبوب، أو قدمها لأن المراد بها التوحيد، فذكر بعدها الاستعانة على مطلق العبادة، وأياً كان الأمر فالواو لا ترتب؛ وفي الوجه الأخير حصول التحلي قبل التحلي.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: ما لم يكن عندنا من الدين حتى يتم عندنا، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَوَعَايَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (سورة محمد: ١٧)، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (سورة مريم: ٧٦)؛ أو أهدنا عليه. والأصل: إهدنا للصرط، أو إلى الصراط؛ والمراد هدى البيان، أو هدى الإيصال بأن

نقيم عليه ولا نموت على خلافه، أو التوفيق للعمل والتقوى.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يعلم الدين والعمل به من النيئين والصدّيقين والشهداء والصالحين من كلّ أمة.

(نحو) ﴿غَيْرِ﴾ قال سييويه: نعت الذين، لأنّ «الذين» كالنكرة، لأنّه جنس ولفظ غير نكرة ولو أضيف لمعرفة، ولاسيما أنّه أضيف لمعرفة هي للجنس فهي كالنكرة، وعندني جواز إبدال المشتقّ الوصف وما أوّل به.

﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود المخالفين لموسى وعيسى. ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ النصارى المخالفين لهما. قال عليه السلام: «المغضوب عليهم اليهود، والضالّون النصارى»، رواه أحمد وحسنه ابن جرّان (١). وقدّم المغضوب عليهم لتقدّمهم زماناً، ولأنّ الإنعام يقابل بالانتقام، ولأنّهم أشدّ في الكفر والعناد والفساد، وأشدّ عدواة للذين آمنوا، ولأنّهم كفروا بنبيئنا عيسى ومحمّد صلى الله عليهما وسلّم، والنصارى بواحد وهو سيّدنا محمّد عليه السلام. وروى ابن عديّ والديلميّ والسلفيّ عنه عليه السلام: «من لم يجد صدقة فليعلن اليهود».

١ - ورواه الترمذي في كتاب التفسير، باب ٢، ومن سورة فاتحة الكتاب، رقم ٢٩٥٤.

ورواه أحمد في مسنده، من حديث عدي بن حاتم.

تفسير سورة البقرة وآياتها ٢٨٦

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْآيَةَ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
 لِلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْآخِرَةُ هُمْ يَرْجُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥﴾

صفات المؤمنين وجزاء المتقين

﴿أَلْم﴾: الله هو العالم بمعناه، ومعنى أَلْمَصَّ، وَالْمَرَّ، وَالرَّ،
 وَكَهَيَّعَصَ، وَطَهَ، وَطَسِيمٌ، وَطَسٍ، وَيَسٍ، وَصِ، وَحَمٍ، وَحَمٍ عَسِيقَ،
 وَقَ، وَنَ.

وأذكرُ بعض ما قيل: الهمزة: الله، واللام لطيف، قال الخليل: نحو به
 وكة بالحركة وهاء السكت مسميات، ونحو الباء والكاف اسم، قلت
 فمسمي الهمزة اهـ بالحركة بعدها هاء السكت، والاسم عاءً بهمزتين بينهما
 ألف، ولم ينطق غيري بهذا.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: القرآن الشبيه في علو شأنه بالعالى حساً كالعرش،

وأصل الإشارة أن تكونَ إلى محسوس، فإذا أُشيرَ إلى غير محسوس لاستحالة إحساسه، مثل: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أو لعدم حضوره نحو ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾، فلتَحَقِّقْهُ كالمشاهد، وعبارة البعد للتعظيم، ولأنَّ كلَّ ما انقضى أو ليس في يدك فهو بعيد.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: ليس أهلاً لأن يشكَّ فيه عاقل لظهور براهينه، ومن شكَّ فيه أهو من الله فليَقْصُرْ نظره، أو عدم استعمال عقله؛ قيل: أو لا ريب فيه عند الله والمؤمنين والنبِيِّ، ويضعف أن يكون المعنى لا تشكُّوا فيه، لما علمت من ضعف مجيء الجملة الاسمية للإنشاء.

﴿هُدًى﴾: من الشرك والمعاصي. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: الذين قضى الله أن يرجعوا إلى التوحيد، والعبادة، وترك المعاصي، والحذر منها ومن العقاب عليها؛ أو ذلك ثابت لهم، أو زيادة، أو أراد للمتقين وغيرهم فَحَذِفَ، وهذا ضعيف؛ أو خصَّهم لأنَّهم الفائزون كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَن يَخْشَاهَا﴾ (سورة النازعات: ٤٥)، وكذا على الحذف.

والتقوى: تقوى الشرك وهي تقوى العوام، ولا تنفع في الآخرة بلا أداء فرض واجتناب فسق؛ وتقوى الخواص وهي تقوى الشرك والمعاصي مع أداء الواجب والسنن المؤكدة؛ وتقوى خواص الخواص هي تقوى ما يُشغِلُ عن الله عزَّ وجلَّ، ويسمِّيهِ بعض العلماء ورع الصديقين.

وهدى: خبر ثانٍ لذلك، أو لا ريب محذوف الخبر، وفيه: خبر هدى.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾: في قلوبهم وألستهم لا فيها فقط. ﴿بِالْغَيْبِ﴾: بذي الغيب أو الغائب وهو الله جلَّ جلاله، وما أخبر عنه مما سيكون في الدنيا أو الآخرة، أو كان ولم يشاهدوه، أو آمنوا بذلك وهم في غيب عنه.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: يأتون بها في وقتها المختار لا الضروري - إلا لعذر - بطهارة، وخشوع، وإخلاص، وترك ما يكره حتى كأنها كجسم مستقيم لا عوج فيه، أو كسوقٍ أقيمت ورُغِب فيها، وذلك مستتبع لإقامة صلاة النفل، إلا أنه لا عقاب عليها.

وقال الجمهور: المراد صلاة الفرض، وعليه ابن عباس، ومثل هذا اللفظ حقيقة شرعية عن معنى لغوي مجاز لغوي كما هو المشهور، وقال الباقلاني^(١): مجاز، وقال المعتزلة: حقيقة شرعية مخترعة وليست منقولة عن معان لغوية.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: طعاما، أو دراهم، أو ثيابا، أو دواب، أو عقارا، أو غير ذلك من الحلال، إذ لا مدح بإنفاق الحرام؛ لأنَّ التصرف فيه وإمساكه

١ - محمد بن الطيب بن محمد، أبو بكر الباقلاني (٣٣٨-٤٠٣هـ): فقيه، قاضٍ، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد ونشأ بالبصرة وتعلم بها، واستدعاه عضد الدولة إلى بغداد، فسولي القضاء فترة، وكانت وفاته ببغداد.

كفر نعمة.

﴿يَنْفِقُونَ﴾: في طاعة الله، كإففاق مَنْ تجب نفقته مِنْ أهل ورحم، وتنجية مضطر وضيعف، وإففاق الزكاة، وإففاق تطوُّع، وإففاق نفسه بنية أن يتقوى على العبادة وأن ينفر عن مال الناس.

قيل: إن أُريدَ بالتقوى في قوله ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ اتقاء الشرك فالذين إلخ صفة مخصّصة، أو ترك المعاصي فكاشفة، أو ترك ما لا بأس به مخافة أن يقع في البأس فمادحة؛ كما في حديث الترمذي عنه رضي الله عنه: «لا يبلغ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً ممّا فيه بأس» (١).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: القرآن وسائر الوحي. ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: على الأنبياء من كتب وغيرها. ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾: البعث والموقف، والجنة والنار. قدّم للاهتمام والفاصلة على قوله: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وذكر الذين يؤمنون بما أنزل إليك تخصيص بعد تعميم، وهو شامل لمن لم يكفر - من أهل الكتاب - بسيدنا موسى أو سيدنا عيسى عليهما السلام، ولما

١ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ١٩، رقم ٢٤٥١.

ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب البيوع، ج ٥، ص ٥٤٦، رقم ١٠٨٢٠، من حديث عطية السعدي.

بُعث سيدنا محمد ﷺ لم يكفرُ به ولكنه طلبَ الدليلَ، فأمن به ﷺ كعبد الله بن سلام، وكعب الأجار، ﴿أولئك يوتون أجرهم مرتين﴾ (سورة القصص: ٥٤)، وقيل هم المراد.

وفي الآية ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان، وعطف الذين عطف صفة في وجه العموم، وإن أريدَ مؤمنوا أهل الكتاب فمجرد عطف، أو مبتدأ خبره أولئك إلخ.

﴿أولئك﴾: الموصوفون بتلك الصفات، العالون شأنًا ومرتبة، [قلت:] وقس على ذلك سائر إشارات البعد في سائر القرآن، وما كان في السوء فإشارة البعد فيه للبعد عن مقام الخير. ﴿على هدى﴾: متمكنون من الهدى تمكن الراكب من مركوبه القوي، المطاوع، الملحم في يد المستولي. ﴿من ربهم﴾: آت من ربهم، أو ثابت منه دلالة وتوفيقا. ﴿وأولئك﴾: كرر الإشارة إذ لم يقل: وهم المفلحون، تنبيها على مزيد الاعتناء بشأنهم، وعلى أن أتصافهم بتلك الصفات يقتضي أن يحصل لهم الكون على الهدى من ربهم، وكونهم مفلحين كما قال:

﴿هم المفلحون﴾: الفائزون بالخط الأكمل: النجاة من النار، ودخول الجنة؛ وهذا حصر، فمن ترك الصلاة أو الزكاة فليس مفلحا، فهو في النار مخلد، لأنَّ مقابل الإفلاح الخسارُ والهلاك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

صفات الكافرين

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: من سبقت له الشقاوة كأبي جهل وأبي لهب، ممن نزل فيه الوحي أو لم ينزل. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: أعلمتهم بما أنزل إليك من تخويف في وقت إمكان أن يتحرزوا بالإيمان عن الوعيد. ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ لسبق القضاء بأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أخبره الله بذلك، لئلا يتأسف على من أعلمه الله بشقاوته، وليقلل تأسفه على من أبى من الإيمان ولم يعلم أنه شقي، إذ يقول: لعله شقي فكيف أكثر التأسف عليه، وعلى كل حال لا يترك الإنذار والتبليغ إليه.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: لم يوفقهم، سُمِّيَ القلب قلباً لتقلبه، روى البيهقي عن أبي عبيدة بن الجراح عن رسول الله ﷺ: «قلبُ ابن آدم مثلُ العصفور، يتقلبُ في اليوم سبع مرَّاتٍ». وليس المعنى في الآية الإخبار - جلَّ اللهُ -

شبه الخِذْلان بالربط أو الإغلاق على شيء حتى لا يدخله غيره،

فقلوبهم - من حيث عدم نفوذ الحق إليها واستقراره فيها - كالخاوية والخريطة^(١) المختوم عليهما؛ وهذا تصوير للمعقول بصورة المحسوس للإيضاح، وكذا الحتم في قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾: أي آلات سمعهم فلذلك لا يتنفعون بما سمعوا من الحق، قال ﷺ: «إذا أذنب العبد ضُمَّ من قلبه هكذا - فضمَّ خنصره -؛ وإذا أذنب ضُمَّ من قلبه هكذا، فضمَّ التي تليها، وهكذا إلى الإبهام»^(٢).

والمراد بالقلوب هنا الجسم اللطيف القائم بالقلب الكثيف الصنوبري الشكل، قيام العرض بالجسم، وقيام الحرارة في الوقود، والبرودة بالماء، وبهذا اللطيف يحصل الإدراك، وترتسم المعرفة، وكذا الإسماع يقوم بصماخها جسم لطيف يدرك الأصوات.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾: غطاء عظيم كأنهم لا يرون بها، فيستدلون بما يرون على قدرة الله؛ لما لم يتنفعوا في الدين بالنظر بها كانوا كمن جعل على بصره غشاوة.

(بلاغة) وفي "حتم" استعارة تصريحية تبعية، وفي

١ - الخريطة: هنة مثل كيس من خرق أو أدر، تشرح على ما فيها، ومنه خرائط كتب

السلطان لسان العرب

٢ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، والهندي في كنز العمال: ج١/ص٢٤٢، رقم ١٢١٣

من حديث أبي عبيدة بن الجراح.

"غشاوة" تصريحية أصلية، أو الاستعارة تمثيلية، شبه قلوبهم، وأسماعهم، وأبصارهم، وأحوالهم المانعة من الانتفاع بأشياء معدة للانتفاع منع مانع من الانتفاع بها.

﴿وَأَلْهَمُوا﴾: على كفرهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عِظَمَ شِدَّةِ وَأَنْوَاعِ وَدَوَامٍ؛ ولم يعطف ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لِأَنَّ الْمُرَادَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - اسْتِنَافَ بَيَانٍ أَنَّ عَدَمَ اهْتِدَاءِ الْأَشْقِيَاءِ لِسَبْقِ شِقْوَتِهِمْ، وَبَيَانَ مَقَابِلَتِهِمْ بِإِصْرَارِهِمْ لِمَنْ أَتَّصَفَ بِالْكَمَالِ وَمُضَادَّتِهِمْ، لَا لِقُصُورِ فِي الْقُرْآنِ عَنِ الْبَيَانِ فَإِنَّهُ غَايَةٌ فِي الْبَيَانِ.

وإنما ضلُّوا باختيارهم للسوء، كما قال قائل:

والنجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيتهَ والذنبُ للطرفِ لا للنجمِ في الصغرِ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٨﴾
 يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩﴾
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٠﴾

صفات المنافقين (١)

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: أصله النَّوَسُ، بفتح الواو، قلبت ألفًا لتحركها بعد فتح؛

من ناس ينوس. بمعنى: تحرك.

(لغة) ولا يخلو بنو آدم من تحرك، ووجه التسمية لا يوجبها، فلا يلزم أن يسمي ناساً كل ما يتحرك. أو أصله أناس، حذف الهمزة وعوضت بأل، وهو من الأنس ضد الوحشة، فالألف زائدة، والناس يستأنس بهم. قال بعض: وما سمى الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب.

أو الأصل: نيس بكسر الياء، قلبت ألفاً لتحركها بعد فتح، ووزنه على هذا: فلع من النسيان، إذ لا يخلو من نسيان، قال الله عز وجل في آدم: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (سورة طه: ١١٥) ويطلق على الجن مجازاً، وقيل: حقيقة.

﴿مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ في قلوبنا وألسنتنا إيماناً مستمراً ﴿بِاللَّهِ﴾ وجوداً وألوهية، ومخالفة لصفات الخلق ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الوقت الآخر، وهو وقت البعث إلى ما لا نهاية له، والوقت الأول وقت الدنيا؛ ولا يقال: الوقت الآخر وقت دخول الجنة والنار وقته، وهو البعث، وما بعده إلى الدخول، لأن الإيمان بالبعث والموقف والحساب أيضاً واجب. ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ذلك الإيمان الذي ادَّعوه، بل الإيمان في ألسنتهم، والكفر في قلوبهم، والخروج عن مقتضاه في جوارحهم.

﴿يَخَادِعُونَ﴾ أي يخدعون بفتح الياء وإسكان الخاء، فالمفاعلة ليست على بابها، بل بمعنى الفعل، وهو إظهار ما يوهم السلامة، وإبطان ما يقتضي

الإضرار بالغير، أو التخلُّص منه، أو هو أن توهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه وتصيبه به، ودخل في المكروه جلب نفع منه لا يسمح به لك أو لغيرك. ﴿اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يظهرون خلاف ما أبطنوا، ويظنون أن الله لا يعلم ذلك منهم، فأخبرنا الله عزَّ وجلَّ أنهم عاملوا الله والمؤمنين بالمكر، والله لا يخفى عليه شيء؛ أو يخادعون الله مخادعة مجاز، على أنهم معتقدون لكون الله عالمًا بما في قلوبهم، وذلك أن تلفظهم بالإيمان وإظهار مقتضياته، مع مخالفته في الأعمال والقلوب، شبيه بالخداع؛ ويقدر محذوف، أي ويخادعون المؤمنين خداعًا حقيقياً، إذ يدفعون - بإظهار الإيمان وشأنه - القتل والسبي وما يصنع بالمشركين، ويجلبون الإكرام والمعاملة بمعاملة المؤمنين، وإنما قدرت محذوفاً لئلا يكون لفظ «يخادع» في مجازه وحقيقته معاً.

أو أراد: يخادعون الذين آمنوا، وذكر الله معهم إكراماً وتعظيمًا لهم بأنه من خانهم فقد خان الله، أو يخادعون نبيء الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (سورة الفتح: ١٠)، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠). والحاصل أن لفظ المفاعلة مبالغة، ويجوز إبقاؤها على معناها مجازاً، وذلك أنهم أظهروا الإيمان وهم كافرون، والله عزَّ وجلَّ أجرى عليهم أحكام المؤمنين، وهم عنده غير مؤمنين، ولهم عنده الدرك الأسفل من النار.

(بلاغة) وإجراء المؤمنين تلك الأحكام تشبه صورة

المكر بهم، إذ ليس لهم ما لمن تحقّق إيمانه في الآخرة، وذلك استعارة تمثيلية في الكلام، أو مفردة تبيّة في «يخادعون» والله عزّ وجلّ لا يكون خادعاً إذ لا يخاف أحداً، ولا يُنقص فعله أحدٌ إذا أجهره، ولا مخدوعاً لأنه لا يخفى عليه شيء، ولا يناله مكروه، ولا ينتفع بشيء. وإذا قدرنا: «يخادعون نبيء الله» تقدير معنى ففيه إيقاع الفعل على غير ما يوقع عليه للملابسة بينهما وهي الخلافة، وذلك مجاز عقليّ في النسبة الإيقاعية لا الوقوعية.

﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ ما يُعاملون بمضرة الخداع إلا أنفسهم وهي الافتضاح بإخبار الله سبحانه وتعالى نبيّه ﷺ بما أخفوه والعقاب في الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون أنّ وبال العقاب راجع إليهم. وإنّما فسرتُ يخادع بيخدع لأنّ الله والمؤمنين لا يخدعونهم.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ كفر بالقرآن والنبيء ﷺ، وعداوته وعداوة المؤمنين وسوء الاعتقاد والجهل، وذلك شبيه بمرض الجسم في الإيصال إلى مطلق الضرّ، فإنّ المرض موجه وقاتل ومانع من التصرّف في المصالح، وما في قلوبهم مؤدّ إلى النار مانع من التصرّف بأعمال الإسلام.

(بلاغة) أو يُشبهه تألّم قلوبهم بقوة الإسلام وانتظام أمره بتألّمهم بمرض البدن، فسّمى التألّم مرضاً، وحقيقة المرض حالة خارجة عن الطبع ضارّة بالفعل لا بالقوّة خاصّة، والقرينة المشروطة في

المجاز تمنع الحقيقة، ولا يلزم أن تمنع احتمال مجاز آخر فلك حمل الآية على هذا التألم وعلى ما ذكرت قبل.

﴿فَزَادَهُمْ﴾ بسبب ذلك المرض ﴿اللَّهُ مَرَضًا﴾ بما أنزل من القرآن بعدما كفروا بما أنزل منه قبل، والله يجازي المذنب بالإيقاع في ذنب آخر، كما يجازي المطيع بالتوفيق إلى طاعة أخرى، وكلما نزلت آية أو وحي كفروا به لأنه طبع على قلوبهم، وذلك زيادة مرض. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع بفتح الجيم.

(بلاغة) والموجع بفتحها حقيقة هم لا العذاب، لكن أكد شدة العذاب حتى كأنه معذب بفتح الذال، وهذا بليغ، ولا بلاغة في قولك: «عذاب موجع» بكسر الجيم، فأليم، فعيل، بمعنى مُفَعَّل، بضم الميم وفتح العين، ولك إيقاؤه على ظاهره، أي متوجع بكسر الجيم، ففيه البلاغة.

﴿بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي بتكذيبهم النبي ﷺ. و«ما» مصدرية، وجرت عادتهم بالاكتفاء بالمصدر من خبر كان الذي بعدها، والأصل أن يقال: يكونهم يكذبون، ولا حاجة إلى قولك: بالتكذيب الذي كانوا يكذبونه النبي ﷺ، أو بتكذيب يكذبونه النبي ﷺ، على أن «ما» اسم موصول أو نكرة موصوفة، والهاء مفعول مطلق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
 الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا
 أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

صفات المنافقين (٢)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ المعنى: من الناس من يقول: آمناً بالله وباليوم الآخر وهو كاذب، ويقول: إننا نحن مصلحون إذا قيل لهم لا تفسدوا، ويقول: أنؤمن كما آمن السفهاء إذا قيل لهم: آمنوا، ويقول للمؤمنين آمناً، ويقول لأصحابه: إننا كافرون. ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر وأعماله، والمعاصي، ومنع الناس عن التوحيد وأعماله، فإن الإسلام صلاح للأرض والكفر فساد، وليس من صفات الله ولا أفعاله، فإذا أزال الله الثمار أو نور البصر أو نحو ذلك فلا تقل: أفسدها، والأرض أرض المدينة، أو جنس الأرض، وليست للاستغراق. ﴿قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ للأرض من مكارم الأخلاق، كالصدقة وقرى الضيف.

وهذا جواب بالإعراض عما نهوا عنه من الكفر والمعاصي، والأولى أن يكون الجواب له فيكون المعنى: مصلحون الأرض بما نفعل من الكفر وأعماله، والمنع عن التوحيد، والإفساد هو ما عليه المؤمنون من التوحيد

والدعاء إليه، والعمل بمقتضاه؛ وعطف الجملة على ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أو على ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فينسحب عليها معنى الباء، والأصل في التعليل أو السببية في غير مقام مجرد الإخبار أن يكون بوصف معلوم عند المخاطب ولو بالالتزام، وهذه الشرطية غير معلومة الانتساب، لكن لا مانع من التعليل أو التسبب بما ليس عنده إخبارا بالواقع، وأنه أحق، ولو لم يعرف، وأنه كيف لا يعرف!.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾: انتبهوا أيها الناس، قد تأكد أن هؤلاء مفسدون دون المؤمنين، فالحصر إضافي، وإن فسّرنا الفساد بالنفاق كان حقيقياً، لأنه لا نفاق إلا فيهم، بخلاف مطلق الفساد ففي غيرهم من المشركين أيضاً، والوجهان في أنهم هم السفهاء. ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنهم المفسدون، أو بوبال كفرهم، أو لا شعور لهم بالبتة هكذا، ولو استعملوا عقولهم لشعروا.

ذكر هنا الشعور لأن الفساد يعرف بلا تأمل، والسفه يعرف بالتأمل، فذكر معه العلم، كما قيل:

يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مِخْنَتِهِ حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ
ولم يذكر لكن في المخادعة لأنه لم يتقدم عليها ما يتوهم منه الشعور.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي قال النبي ﷺ أو بعض أصحابه ﴿لَهُمْ، ءَامِنُوا﴾ بما

يقول النبي ﷺ ﴿كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ المعهودون الكاملون، أصحاب النبي ﷺ ومن آمن به ولم يحضره بعد إيمانه وهو من التابعين لا من الصحابة ولو كان في عصره. ﴿قَالُوا﴾ فيما بينهم، أو بحضرة من أمرهم بالإيمان بحيث يجدون السبيل إلى إنكار القول، أو عند المؤمنين بحيث لا يسمعون قبل، أو عند من لم يفش سرهم من المؤمنين لقرابة أو مصلحة وهو قول ضعيف، والأصل أن المؤمن لا يستر عليهم، وعلى كل كشفهم الله عز وجل ولو جهروا مطلقاً لم يسموا منافقين.

﴿أَنُومِنُ﴾ تويخ لمن أمرهم بالإيمان ولو غاب، أو إنكار لأن يكون الإيمان حقاً يؤمر به. ﴿كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الصحابة ومن آمن ولو لم يكن صحابياً، نسبوا من آمن إلى السفه، وهو الجهل ووضع الشيء في غير وجهه، ويطلق على نقصان العقل والرأي؛ أو أرادوا من يُحتقر من المسلمين لفقره أو ضعفه أو عبوديته كصهيب وبلال، وأكثر المسلمين فقراء؛ أو أرادوا بالسفه مطلق الخسة بالجهل أو الفقر أو غيره. والحاصل أنهم قالوا: لا نفعل فعل السفهاء وهو الإيمان وذكّر الله عز وجل، نهى الناهي لهم عن الفساد ثم أمر الأمر لهم بالإيمان لأنّ التحلي قبل التحلي. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ الجهلاء المحقرون لكفرهم، ردّ عليهم بأنّ السفه بالكفر ومساوى الأخلاق لا بالفقر، فلا يلزم أن يكون هذا معيّنًا للتفسير الأوّل في السفهاء. ﴿وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ من السفهيه وما السفه.

ذكر هنا العلم وهناك الشعور لأن الإفساد يدرك بأدنى تأمل، بخلاف السفه والأمر بالإيمان، وأيضاً السفه خفة العقل والجهل بالأمور، فناسب نفي العلم أتم مناسبة.

﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ۚ
 إِنَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

صفات المنافقين (٣)

﴿وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي ذكروا ما يفيد أنهم آمنوا من سائر الأقوال والأفعال، وذلك أن الإيمان قد علم منهم في الظاهر قبل ذلك، وذلك دفعاً للمؤمنين عن أنفسهم واستهزاء.

ولا يتكرر مع ما مرّ لأنه إبداء لخبثهم وخوفهم، وادّعاء أنهم أخلصوا الإيمان، ولأنه بيان لكونهم يقولون ذلك خداعاً واستهزاءً وأنهم يقولون ذلك عند الحاجة إليه فقط، وذلك عند لقاء المؤمنين. ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ عن المؤمنين راجعين ﴿إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ أو خلوا مع شياطينهم، يقال خلوت إليه أي معه، وشياطينهم رؤسائهم: كعب بن الأشرف من اليهود في «المدينة»، وأبو بردة في «أسلم»، وعبد الدار في «جهينة»، وعوف بن عامر في «أسد»، وعبد الله بن الأسود في «الشام»، وغيرهم ممن يخافونه من كبار المشركين والمنافقين، سمّاهم شياطين تشبيهاً لمزيد فسادهم وإغوائهم.

وذكر بعض أن هؤلاء المذكورين كهنة، وقيل الشيطان حقيقة في كل متمرّد من الجنّ أو من الإنس، وليس المراد الكهنة خلافًا للضحّاك، ولو كان مع كل كاهن شيطان لأنهم أهون من أن يتملّقوا إليهم بقولهم «إنّا معكم» كما قال الله عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين اليهودي إن أريد بشياطينهم اليهود، وإن أريد به مشركوا العرب فالمراد: معكم في الإشراف. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بالمؤمنين في قولنا: آمنّا لا مؤمنون حقيقة، بل قلنا ذلك لنكفّ عنّا القتل والشرّ والسبي، ونجلب الخير كالأخذ من الصدقة والغنيمة مع الاحتقار والتهمك بهم، ولا تظنّوا أنّنا تبعناهم.

(لغة) والاستهزاء بمعنى الهزاء كالاستعجاب بمعنى العجب، وهو الاستخفاف والسخرية، وأصله الخفة، يقال: هزأت به الناقة أسرع به.

روي أن ابن أبي عبد الله وأصحابه جاءهم نفر من الصحابة لينصحوهم فقال لقومه: انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر الصديق فقال: مرحبًا بالصديق وشيخ الإسلام، ثم أخذ بيد عمر وقال: مرحبًا بالفاروق القوي في دينه، ثم أخذ بيد علي وقال: مرحبًا بابن عم رسول الله وسيد بني هاشم، فقال له: يا عبد الله اتق الله ولا تنافق، فقال له: مهلاً يا أبا الحسن، إنّي لا أقول هذا والله، إلا أنّ إيماننا كإيمانكم، ثم افترقوا، وقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت، فأتوا عليه وقالوا: لا نزال بخير ما عشت فينا، وأخبر المسلمون النبي بذلك ونزلت الآية، وليس ذلك عين سبب النزول بل مناسبة، لأنّ أبا قال

لأصحابه: انظروا كيف أفعل.

(بلاغة) والجملة مستأنفة في كلامهم بلا تقدير سؤال هكذا: ما لكم توافقون المؤمنين؟ لقول عبد القاهر: موضوع "إنّما" أن تجيء الخبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته، إلاّ أنّه قد يصوّر السؤال في صورة لا تحتاج إليه فيجوز التقدير المذكور؛ وقد لا نسلم قول عبد القاهر إلاّ إن ادّعى أنّ ذلك أصل "إنّما" و"أنّ" مدخولها معلوم، وجيء بها لإفادة الحصر، وليس كذلك أيضاً، فإنّك تقول: إنّما قام زيد، لمن لا شعور له بقيامه وحده لا مع غيره ولا بقيام غيره دونه.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على استهزائهم مرّة بعد أخرى، فإنّ نكاية الله فيهم متعدّدة في الدنيا ولا تنقطع في الآخرة، فذلك استعارة تبيّة أو مجاز مرسل، لأنّ بين الفعل وجزائه مشابهة في القدر ونوع تسبّب مع وجود المشاكلة، أو يراد إنزال الحقارة من إطلاق السبب على المسبّب.

ومن الاستهزاء بهم في الآخرة أنّه يفتح باب إلى الجنّة فيجيء في كربته حتّى إذا وصله أغلق، أو يكرّر له ذلك حتّى يفتح له ولا يجيئه، كما ورد في الحديث. ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يطيل أعمارهم، أو يزيدهم طغياناً ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ مجاوزتهم الحدّ بالكفر ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتزّدون هل يقون عليه أو يتركونه، أو هل يعكفون فيه ويلازمونه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ تركوا الهدى الذي في وسعهم وطاقتهم، جعل الهدى الذي لم يوجد لهم كالموجود، لأنه في طاقتهم ويولدون عليه، ولظهور حججه حتى كأنهم قبلوه، وجعل الإعراض عنه والتلبس بضده الذي لا يجتمع معه كالشراء فسماه شراء.

الإشارة إلى المنافقين المذكورين في تلك الآيات بتلك الأوصاف لا إلى أهل الكتاب كما قيل، ولا إلى الكفار مطلقاً كما قيل، لأنَّ النزول في غيرهم لا فيهم، ولو وجد المعنى فيهم فضلاً عن أن تفسر بهم. ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ انتفى عنهم الربح في تجارتهم المعهودة التي هي شراء الضلالة بالهدى، بل خسروا أبدانهم وأوقاتهم وأموالهم إذ لم ينالوا بها الجنة، وأضاعوا منازلهم وأزواجهم في الجنة، وصاروا للنار بتلك الضلالة.

والهدى هنا هو اسم مصدر بمعنى الاهتداء، أو اسم للمعنى الحاصل من الهداية، كأنه قيل: اشتروا الضلالة بالاستقامة، وإسناد الربح إلى التجارة إسناد إلى السبب أو الملزوم أو المحل.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق التجر والربح إذ أضاعوا رأس المال والربح، والآية كناية عن انتفاء مقصد التجر وهو الربح مع حصول ضده وهو الخسارة، وذلك شأن الذين إما الربح أو الخسارة، بخلاف تجارة المال، فقد لا تربح ولا تخسر، أو كناية عن إضاعة رأس المال، فإنَّ من لم يهتد بطرق التجر تكثر الآفات على ماله، أو المراد أنهم لم يتجروا فلا ربح، كقوله:

على لأحِبِّ لا يَهْتَدِي بِمَنَارَةٍ أَي لا منار فيه.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

إيراد الأمثال للمنافقين

﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم الشبيهة في الغرابة عقلاً وشرعاً بما يضرب مثلاً لغرابته
﴿كَمَثَلِ﴾ كصفة ﴿الَّذِينَ﴾ الرجل الذي، ولا بأس بتشبيه الجماعة بالمفرد،
والمراد الجنس فضمير المفرد بعده للفظه، وضمير الجمع لمعنى الجنس، ويجوز
أن يقدر: الفريق الذي؛ والكلام في الضمائر كذلك. ﴿اسْتَوْفَدُوا﴾ ليلاً
﴿نَارًا﴾ بالغ في إيقادها، وعالجه في ظلمته، وهذا لبقائه على الأصل أولى من
تفسيره بأوقد.

ويجوز أن تكون النار تمثيلاً بنار لا يرضى الله إيقادها كمنار الفتنة
للإسلام، أو حقيقة أوقدها الغواية للشرك فيليق بالحكيم إطفائها. ﴿فَلَمَّا
أَضَاءَتْ﴾ أنارت إنارة عظيمة ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ في جهاته من الأرض، وتمكن

مِمَّا أوقدها لأجله من الإبصار والاستدفاء، والأمن مِمَّا يخاف والطبخ للأكل ونحو ذلك من المنافع ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أذهب الله نورهم بإطفائه فلا نور فضلاً عن الإضاءة.

والنور منشأ الضياء، وورداً جميعاً في شأن سيّدنا محمد وسيّدنا موسى صلى الله وسلّم عليهما؛ وقيل: الضياء أقوى من النور لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (سورة يونس: ٥)؛ وقيل: مترادفان، وقيل: الضياء ما للشيء من ذاته، والنور من غيره؛ ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ صيرهم ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ظلمة واحدة كأنّها ظلمات لشدّتها، أو ظلمات متراكبة من الليل، أو ظلمة الليل وظلمة الغمام وظلمة انطفاء النار، وذلك من حال المستوقدين يُشبهه من حال هؤلاء المنافقين مضرة الكفر ومضرة النفاق وظلمة يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ (سورة الحديد: ١٢) ومضرة العقاب. ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم من الطريق فضلاً عن أن يستدفتوا، أو يطبخوا، أو يحصل لهم الأمن من مضارّ الحفير والسبع والحية ونحو ذلك، وهذا منهم يشبه حال المنافقين إذا ماتوا جاعهم الخوف والعذاب بعد أمنهم في الدنيا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم بكلمة الشهادة في ألسنتهم.

﴿صُمُّ﴾ أولئك المُشْتَرَتُوا الضلالة صُمُّ، أو هُم صُمُّ ﴿بِكُمْ غُمِّي﴾ شُبِّهُوا في عدم قبول الحقِّ بمن لا يسمع ولا يتكلّم ولا يبصر، فهم لا يعرفون الحقَّ كأنّهم لم يسمعه، ولا يتكلّمون به ولا يبصرون طريق الهدى ﴿فَهُمْ﴾

لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ إِلَى الْحَقِّ كَمَا أَنَّ الْأَصْمَّ لَا يَسْمَعُ، وَالْأَخْرَسَ لَا يَتَكَلَّمُ،
وَالْأَعْمَى لَا يَبْصُرُ، ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ ﴿١٨﴾ إلخ.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ وكمثل أهل صيب، أو: بل كمثل أهل صيب.

أو يتنوع من ينظر إليهم في شأنهم بعقله إلى من يشبههم بالمستوقد المذكور، وإلى من يشبههم بأهل الصيب، أو يشك الناظر في شأنهم أنهم كالمستوقد أو كالصيب، أو يباح للعاقل أن يشبههم بمن شاء منهما، أو يخير أن يقصر التشبيه على أحدهما.

(لغة) والصيب المطر المنحدر من السماء،
والصوب الانحدار، والأصل: صيوبٌ على الخلاف في باب سيّد قلبت
الواو ياءً وأدغمت فيها الياء، وهو وزن في مُعلّ العين، وشدّ في
الصحيح كصيقل، وقيل: هو بوزن طويل فقلب، وشهر أنّ لفظ صيب
اسم، وقيل: وصف بمعنى نازل، وزعم بعض أنّه بمعنى مُنزل، وبعض
أنّه اسم بمعنى السحاب.

﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب، أو من جهة السماء وجهتها
السحاب، وذكر ذلك مع أنّه لا يكون الصيب إلا من السحاب
وجهة السماء تلوياً إلى أنّه من جميع آفاقها. ﴿فِيهِ﴾ في الصيب كما
يتبادر، أو في السماء أي السحاب وهو أولى، لأنّ الرعد ملكاً كان أو

صوته أو صوت ماء هو في السحاب لا في المطر، ولو كان البرق يصل الأرض لأنه أولاً يجيء من السحاب. ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ متراكمات، ظلمة السحاب ففيه ظلمة ولو في أجزائه، وظلمة المطر وظلمة الليل المدلول عليه بقوله: ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾.

يجوز كون «فيه» نعناً لـ«صَيَّبَ»، أو حالاً وظلمات فاعله. ﴿وَرَعْدٌ﴾ الرعد: ملك سُمِّيَ صوته باسمه، أو يقدر مضاف أي صوت رعد أو اسم موضوع لصوت ملك السحاب، أو هو صوت تضارب الماء، وذلك الصوت مطلقاً صاعقة كما يأتي قريباً، والمراد أصوات بدليل جمع الصواعق. ﴿وَبَرْقٌ﴾ قيل: ملك على هيئة النور، أو نور سوطه الذي يزجر به السحاب، لا كما قيل: إنه سوط من نار يزجر به السحاب، وأفرداً لأنهما مصدران الآن، أو في الأصل؛ وزعم بعض أنهما أفرداً لأن الرعد يسوق السحاب فلو كثر لتفرق السحاب ولم يكن مطبقاً فتزول شدة الظلمة، ولو كثر البرق لم تطبق الظلمة، وبعض أنه لم يجمع النور في القرآن فلم يجمع البرق. ﴿يَجْعَلُونَ﴾ يجعل الناس الذين حضرهم الصيَّب، دلَّ عليهم أن المقام لذكر ظلمات الصيَّب، والجعل لكونه أدلَّ على الإحاطة أبلغ من الإدخال، ﴿أَصَابِعَهُمْ﴾ أطراف أصابعهم على المجاز بالحذف، أو سَمَّاهَا باسم الأصابع لأنها بعضها، والمجاز لغوي، ونكته التهويل بصورة جعل الأصابع إلى أصولها؛ أو لا مجاز، لأنَّ واضح طرف إصبعه على شيء يصدق عليه أنه وضع إصبعه عليه بلا قرينة ولا علاقة، كما أن قولك: مسسته بيدي حقيقة، ولو كان اللمس ببعضها، وكما في قوله: ﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ فإنه حقيقة مع أن

الجعل ليس في كلِّ الأذن، وأطلق الأصابع مع أنَّ المعهود السبَّابة لدهشهم، حتى إنَّهم يدخلون أيَّ إصبع اتَّفقت؛ ويجوز أن يكون المجاز عقلياً بإسناد الجعل للأصابع مع أنَّه للأنامل. ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ المعهودة بالمعنى في قوله: ﴿وَرَعْدٌ﴾ لا باللفظ كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالْأُنْثَى﴾ فإنَّ قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ أرادت به الذكر، والمراد بها شدة الصوت.

والأكثر في الصاعقة صوت مع نار، أو نار بلا صوت، لا تمرُّ على شيء إلاَّ أحرقتَه وذلك من الجوّ، وقد يكون معها حجر أو حديد. ويجوز حمل الآية على الصوت مع النار على أنَّهم توهموا أنَّ عدم سماع ذلك الصوت منجِّ لهم من أن تصيبهم نار، فيكون الكلام تمثيلاً بقوم شأنهم ذلك التوهم، فجعلوا أصابعهم في آذانهم لئلاً يسمعوا، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ المشهور أنَّ الصاعقة الرعد الشديد معه قطعة نار، بل هي قطعة النار سواء مع صوت أو دونه.

(لغة) وهو في الأصل صفة من الصعق بمعنى الصراخ، وتاؤه للتأنيث صفة لمؤنث، أو للمبالغة كراوية لكثير رواية الشعر، وليس قولهم للنقل من الوصفية إلى الاسمية خارجاً عن ذلك لأنَّ حاصله أنَّه كان وصفاً مؤنثاً بالتاء ثمَّ صار اسماً؛ وقيل: مصدر كالعافية والعاقبة.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ لأجل حذر الموت بالسمع، وهو تعليل للعلة الأولى

التي هي قوله: ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ مع معلله، وإنما الممنوع ترادف علل على معلول مجرد بلا تبعية، أو يقدر: حاذرين من الموت، أو: ذي حذر من الموت، أو: يحذرونها حذر الموت.

(بلاغة) وحاصل الشبه بالصيب المذكور أن القرآن شبيه بالمطر إذ هو سبب حياة الدنيا، والقرآن سبب حياة القلوب، وأن الكفر شبيه بالظلمات في مطلق الإهلاك وعدم الاهتداء، وفي مطلق الحيرة، والوعيدُ عليه شبيه بالرعد في الإرهاب، والحججُ شبيهة بالبرق في الظهور والحسن، وسدُّ آذانهم عن سماع القرآن شبيه بسدّها عن الصواعق، وتركُ دينهم شبيه بالموت عندهم، وذلك تشبيه مفردات بمفردات، وإن شئت فتشبيه بمجموع بمجموع تمثيلي.

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ بأجسامهم واعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم، ولا يخفى عنه ما يعاقبهم عليه، أو قل: وعقاب الله محيط بالكافرين؛ شبه قدرته بإحاطة المحيط بالشيء تشبيه الكامل بالناقص على الاستعارة الأصلية، واشتق منه محيط على التبعية، أو الاستعارة تمثيلية، أو الإحاطة الإهلاك، ومن معناه: ﴿بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ فَأَلْكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (سورة البقرة: ٨١)؛ أو عالم علم مجازاة، ومن معناه: ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ (سورة الجن: ٢٨).

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ المعهود في الآية قبل ﴿يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أبصار أهل الصيب، يقرب أن يأخذها بسرعة، وإسناد الخطف إلى البرق مجاز للسببية.

(لغة) ونفي كاد نفياً، وإثباتها إثبات كسائر الأفعال، وغير هذا تخليط، وإذا قلت: كاد يقوم، فمعناه: قرب، وإذا قلت: لم يكد يقوم مع أنه قام فمعناه: لم يقرب للقيام ثم قرب وقام.

﴿كَلَّمَآ أَضَاءَ﴾ ظهر البرق، أو أظهر البرق الطريق ﴿لَهُمْ مَشَوْآ فِيهِ﴾ يمشون في ضوئه كلَّ إضاءة، أي كلَّ وقت إضاءة، أو في الطريق المدلول عليه بالمشي، كما قدّر بعض: كلَّما أضاء لهم ممشى مشوا فيه، وذلك أنّ المشي في مطرح البرق لا في البرق، والهاء للبرق، وكلَّ ظرف لإضافته إلى المصدر المنسبك بما المصدرية المستعمل ظرفاً كحئت طلوع الشمس؛ ويجوز أن يكون لازماً بمعنى: وقعوا كما فسّرتُه أولاً: كلَّما لمع مشوا في مطرح ضوئه.

﴿وَإِذَا أَظْلَمَ﴾ الطريق المدلول عليه، أو أظلم البرق أي زال، أو الجوّ ﴿عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أمسكوا عن المشي ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ أي لو شاء إذهب سمعهم وأبصارهم ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ أي سمع المنافقين، الإضافة للحقيقة أو الاستغراق، وكأنّه قيل: بأسماعهم كما قال: ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ عيون المنافقين الظاهرة كما ذهب ببيصائر قلوبهم الباطنة فلا تقبل الحقّ، ويجوز عود الهاءين لأصحاب الصيّب، لأنّ بصائرهم ولو كانت لا تعمى بالظلمات لكن المراد التقوية للصيّب وشأنه، المشبه بهما حال المنافقين فإنّ تقويتيهما تقوية لحالهم في الهول فيكون شبههم بالمستوقد ثمّ الصيّب الموصوف بما ذكر، وبأنّه لولا أنّ الله حفظ سمع أهله وأبصارهم لذهبت بالبرق والرعد.

ومشيهم في البرق تشبيه لميلهم إلى بلاغة القرآن وصلقه ووعده بالخير، وإمساكهم عن المشي عند ذهاب البرق تشبيه لوقوفهم عما يكرهون من تسفيه دينهم ورفض أهتهم. والمشية والإرادة بمعنى، ولا يصح ما قيل: إن أصل المشية الإيجاد واستعمل بمعنى الإرادة، والباء للتعدي، أي أذهب أسماعهم، وقيل: ذهبت بكذا، وذهبت معه، وإذا لم يذهب فالتعدي، أو مجاز في المعية. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي على كل شيء ممكن.

(أصول الدين) وأما المستحيل في حقه كاتخاذ صاحبة والولد، فلا تقل: هو قادر عليه لأن الاتصاف بالقدرة عليه اتصاف بجوازه، ولا غير قادر عليه لأن هذه صيغة عجز تعالي عنها، ولأنه فرع عن تقرر هكذا في الجملة وهو غير متقرر تعالي عنه.

أو المعنى: كل شيء شاءه، أي لا يرده راداً عما أراد وقوعه، مع ذلك هو قادر على إيقاع ما لم يسبق قضاؤه بوقوعه من الممكنات إجماعاً، وما لم يكن ولا يكون لا يسمي شيئاً، ونسبه بعض لأصحابنا، وقيل: شيء، وهو الصحيح عندي، وأما المستحيل فلا يسمي شيئاً. والآية ونحوها من الآي والحديث تدل على جوازه في كل معدوم ممكن، ويطلق على المحال بمعنى ملاحظته؛ ولا يقال: قادر عليه ولا غير قادر، ومعنى ﴿هُوَ عَلِيُّ هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ (سورة مريم: ٩) لم تكن شيئاً موجوداً بل شيئاً معدوماً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
 مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

الأمر بعبادة الله وحده والأسباب الموجبة لها

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لم يقع النداء في القرآن بغير "يا"، وهي الأصل، فما حذف منه حرف النداء مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ وآية المومنون قُدِّر فيه يا لذكرها في غيره ولأصلتها. و«يا أيُّها الناس» مكِّيٌّ، وقلَّ مدنيًّا كما في هذه السورة و«النساء» و«الحجرات» فإنَّهنَّ مدنيَّات.

(بلاغة) والنداء هنا وفي ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ ونحوها للتنبيه على ما يصلح، ويأتي للمدح نحو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وللذمِّ نحو: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وليس منه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ إلاَّ المعنى الذي ادَّعوا أنَّهم تابوا إلى الله، إلاَّ أن يُدعى خروجه عن معناه الأصلي إلى معنى الذين بقوا على اليهوديَّة مع بعثة محمَّد ﷺ؛ ويكون للعتاب كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ والآيتان للإنشيط والإراحة من ضيق كالمفاتيح لغيره، ويكون لغير ذلك.

والخطاب في مثل هذه الآية للموجودين المكلفين والآتين بعدد إلى قيام الساعة، ولو مجانين أو صيانا بقاءة الإفاعة والبلوغ، وذلك تغليب؛ وقيل: للمكلفين الموجودين في مهبط الوحي، وأما غيرهم فبالنص أو القياس، أو الإجماع، لا بصيغة النداء ونحوها، وعلى الأول خوطبوا إذا بلغوا أو أفاقوا من زمان الوحي.

قال بعضهم: الأصح أن نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يشمل الرسول ﷺ ولو قرن بقل، أو اكتب إليهم، أو بلغهم، أو نحو ذلك، وقيل: لا يشمل لأنه ورد على لسانه للتبليغ لغيره، لأنه إن كان أمراً أو مبلغاً فلا يكون مأموراً، لأن الواحد بالخطاب الواحد لا يكون أمراً ومأموراً أو مبلغاً ومبلغاً إليه للضرورة، ولأن الأمر أو المبلغ طالب والمأمور أو المبلغ إليه مطلوب، وإن قيل: قد يكون أمراً ومأموراً مبلغاً مبلغاً إليه من جهتين قلت: الأمر أعلى رتبة من المأمور، ولا بد من المغايرة، إلا أنه لا يشترط أن يكون المبلغ أعلى رتبة من المبلغ إليه، لكن الخطاب يصل المبلغ قبل؛ وقيل: إن قرن بنحو «قل» لم يشمل الرسول ﷺ لظهوره في التبليغ، وإلا شمله.

والأصح أن نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يشمل العبد المكلف شرعاً كما يشمل لغة وعليه الأكثر؛ وقيل: لا يشمل لصرف من معه إلى سيده في غير أوقات ضيق العبادات، وشمل الكافر أيضاً لأنه مخاطب بفروع الشريعة على الصحيح، وشمل الموجودين وقت النزول؛ وقيل: يتناول من سيوجد أيضاً،

وفيه أنه لا يظهر أن يقال للمعدوم: يا فلان، أو نحو ذلك.

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وحّدوه، لا تجعلوا له شريكاً، أو اعملوا الصالحات واجتنبوا المحرمات له، ومن ذلك ترك الأصنام والهوى ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وتعليق الحكم بالمشقّق أو بما بمعناه يؤذن بكونه علّة، أي اعبدوا الذي هو سيّدكم أو مربّيكم، وخلقكم وخلق الذين من قبلكم، أي اعبدوه لسيادته وملكوته وخلقكم، فما ليس سيّداً لكم ولا مالكاً ولا خالقاً لا يستحقُّ أن يُعبد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال سيوييه: عسى في كلامه تعالى للتحقيق، ولا يشكل عليه قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ، إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُدْلَّهُ أَزْوَاجاً خيراً منكن﴾ (سورة التحريم: ٥) لأنّ تحقيقه تبديل أزواج خير معلق بالتطبيق، والتطبيق غير واقع، و«لعلّ» مثل «عسى» فمعنى الآية: تحقق حصول الوقاية عن عقاب الله بالعبادة أو اعبدوه راجين حصول الوقاية، فقد لا تكون العبادة وقاية لخللها أو إبطالها برياء أو ردّة أو نحوهما؛ أو اعبدوا لتحصلوا الوقاية.

(بلاغته) أو شبه طلب التقوى منهم بعد اجتماع أسبابها ودواعيها بالترجّي في أنّ متعلّق كلّ منهما مخير بين أن يفعل وأن لا يفعل مع رجحان ما بجانب الفعل فينتقل ذلك إلى كلمة لعلّ، فتكون استعارة تبعيّة، أو تشبه ذواتهم بمن يرجى منه التقوى فيثبت له بعض لوازمه وهو الرجاء فتكون الاستعارة بالكناية.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ فِي جَمَلَةٍ مِّن سَوَاءِكُمْ ﴿٢١﴾﴾ ﴿الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ ﴿بَسَاطًا﴾
خارجًا عن الماء مع ثقلها ينتفع به لا صلبًا ضارًا، ولا رخوًا مغرقًا، وسمًاها
بساطًا ولو قيل: إنَّها كرية الشكل لأنَّ الكرة إذا عظمت كان كلُّ قطعة
سطحًا، وكانت قبل خلق السماء كريةً وبعد خلق السماء دُحِيت أي
بسطت ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ من فوقكم كالسقف، كما جاء في آية أخرى
أنَّها كسقف للأرض، أو كقبة مضروبة على الأرض، والمراد مبنية، وأفردها
لإفراد الأرض ولو أريد بها الجنس، وقدم الأرض لتقدم خلقها، ولأنَّهم فيها،
ولأنَّ انتفاعهم بها أكثر، ولأنَّها ما يحتاج إليه بعد الوجود إذ لا بدَّ من مكان
يستقرُّ فيه، أو لأنَّها أفضل من السماء لأنَّ الأنبياء منها وفيها، وهذا قول.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من جهته، أو من السحاب سمًا سماء
﴿مَاءً﴾ والله قادر على أن ينزل من السماء إحدى السبع ماء في سرعة
﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أخرج به ﴿رِزْقًا﴾ من الثمرات ﴿لَكُمْ﴾
تأكلونه وتعلقون دوابكم، وتلبسونه كالقطن والكتان؛ وما لدواب الناس
هو لهم.

(نحو) «من الثمرات» حال من «رزقًا». و«مِن»

للتبعية أو للبيان، و«رزقًا» مفعول به؛ أو «مِن» اسم بمعنى بعض
مفعول به، و«رزقًا» حال من «مِن». والثمرات جميع ما تخرج الأرض
حتى الحشيش أو الثمار، ونواها داخل فيها علف، وذلك أسباب أن لا
تجعلوا له أندادًا كما قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ شركاء في العبادة

مقاومين لله تعالى عن ذلك، فَإِنَّ كَلَّ ما سواه عاجز ذليل خلقه الله وملكه، وذلك أَنَّ ما يصنعونه بأصنامهم وما يعبدونه في صورة المقاومة، قالوا بها أو لم يقولوا.

(لغة) والنَّدُّ المقاوم مثلاً أو خلافاً أو ضدّاً، وهم لا يقولون بالمناداة أو النَّدُّ الكفو أو المثل، وإذا جمع مع غيره كالكفو والصدُّ والمثل والشبيه كان كلُّ بمعنى على حدة، والنَّدُّ مثل الشيء الذي يضادّه ويخالفه في أمره وينافره، من ندا البعيرُ إذا نفر؛ وقيل: النَّدُّ المشارك في الجوهرية، والشكل المشارك في القدر والمساحة، والشبه المشارك في الكيفية والمساوي في الكمية، والمثل عامٌّ. وفي تسمية الأصنام أندادا استعارة تهكمية، لأنهم علموا أنّها عاجزة لا فعل لها، ولا تشارك الله تعالى في شيء، كما يستعار أسد للجبان، والتبشير للوعيد، وحكمة ذلك الإشارة إلى أنّ عليهم ذنب من اعتقدها مشاركة له في صفاته وأفعاله.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنه ليس في كتاب من كتب الله تعالى ثبوت النَّدُّ له تعالى، وتعلمون أنّه الخالق وغيره ليس خالفاً فكيف يصحُّ لكم جعل ما لا يخلق شيئاً إلهاً مع ما تشاهدون من حدوث غيره وعجز غيره، ﴿هل من شركاءكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ (سورة الروم: ٤٠)؟ أو تعلمون عن أهل التوراة والإنجيل أنّه ليس فيهما جواز اتّخاذ الأنداد، بل النهي.

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

تحدي المجاحدين بالإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ﴾ عبر بيان مع تحقق ارتيابهم إشارة إلى أنه بعيد جداً، حتى أنه يشك في وقوعه وذلك توييح؛ أو لأنَّ فيهم من لم يتحقق ارتيابه فغلب على غيره ممن تحقق ارتيابه، أو لما اختلفوا جعلوا كأنه لا قطع بارتياهم. ﴿فِي رَيْبٍ﴾ شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ من القرآن أهو من الله أو من عنده أو غيره من الناس، ومقتضى الظاهر الغيبة في ريب مما نزل على عبده، ولكن عدل إلى التكلم تفخيماً للقرآن ورسول الله ﷺ؛ قالوا: ما يقول محمد لا يشبه الوحي وإنَّا لفي شك منه، فنزلت الآية: ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ أي بسورة هي مثل ما أنزلنا في البلاغة وحسن التأليف، والأخبار بالغيب مع الصدق، أو فاتوا بسورة صدرت أو كانت من مثل عبدنا من فصحاء العرب وبلغائها، ولو كان يقرأ الكتب والأخبار ويسمعها، وكيف تأتون بها من أمي مثله لا يقرأ ولا يكتب ولا يسمع الأخبار! ويدلُّ للأول قوله: ﴿وادعوا...﴾ إلخ وقوله تعالى في سورة أخرى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فاتوا بسورة مثله﴾ (سورة يونس: ٣٨) وقوله

تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فاتوا بعشر سورٍ مثله مفتریات﴾ (سورة هود: ١٣) فإنه لا يصحُ فيهما عود الضمير إليه ﷻ.

وأقلُّ السور ما فيه ثلاث آيات كسورة الكوثر، وسورة والعصر، وسورة قريش إلا أن يعدَّ ﴿إيلافِ قريش﴾ آية، وكسورة الفتح إن عدَّ ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾ آية وهو المكتوب، والواضح أنَّها آيتان آخر الأولى: ﴿أفواجاً﴾، وآخر الثانية: ﴿توآباً﴾، فأقلُّ السور آيتان، إلا إن جاء حديث في أنَّ آخر الأولى: ﴿والفتح﴾.

﴿وادْعُوا﴾ نادوا واطلبوا ﴿شهداءكم﴾ جمع شهيد أو شاهد لتعينكم آهتكم التي تشهد لكم على زعمكم أنكم عبدتموها وتقربكم إلى الله زلفى، أو تنصركم أو تحضركم للنفع، أو تكون إماماً لكم، فإنَّ الشهادة تكون من تلك المعاني. ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ غير الله.

(لغة) أصل «دون» التفاوت والانحطاط في الحسِّ كقرب مكان، وكقولك: عمرو دون زيد في القامة، وتستعمل في غير الحسِّ نحو: عمرو دون زيد شرفاً، ثمَّ شاع استعماله في كلِّ تفاوت، وكأنَّها أداة استثناء.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنَّ القرآن من غير الله.

﴿فَإِنْ لَمْ﴾ مجزوم إن لم ومجزومها، أو لم والجملة بعدها، فهي من الجمل التي لها محلٌّ كما قيل بأنَّ محلَّ جملة الشرط إذا سبقت بمبتدأ في محلِّ رفع خبر

له نحو: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (سورة النساء: ١٢٣) وهو قول بعض.
 ﴿تَفْعَلُوا﴾ إتياناً بالمثل لعجزكم ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إتياناً بالمثل لظهور إعجازه
 وعجزكم، والحال أنكم مقدرين أن لا تفعلوا أبداً، ولا يضرُّ تصدير جملة
 الحال بأداة الاستقبال إذا كانت الحال مقدّرة، ولا يصحُّ العطف لأنَّ أداة
 الشرط لا تليها لن، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ بالإيمان بالقرآن من الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ
 إنكاره موجب لها، أو فاتَّقوها مع بقائكم على الكفر إن وجدتم وقاية، ولكن
 لا تجدونها، وعرفَّ النار عهداً من تنكيرها (١) في آية التحريم النازلة في مكة،
 وأول التحريم إليها مدني ﴿الَّتِي وَقُودُهَا﴾ أي الجسم الذي توقد به
 ﴿النَّاسُ﴾ الكفرة، قدَّم الناس لأنَّهم المعبَّدون، ولأنَّ لحومهم وشحومهم
 أليق بالنار تزداد بها وقوداً، والمراد ما يشمل الجنَّ أو لم يرادوا في الآية، لأنَّ
 السياق لكفار قريش، وذكروا في غير هذه الآية ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ المعبودة،
 ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (سورة
 الأنبياء: ٩٨) وما شاء الله من الحجارة لتعذيب الكفرة مطلقاً، ولزيد التحسُّر
 إذا رأوا أنَّهم عذبوا بما عبَدوا ولم يَدفع عذابهم فضلاً عن أن ينفعهم، وهي
 نار تتقد بالحجارة لشدَّة حرارتها، لا كنار الدنيا تتقد بالحليل أو بالحطب،
 ويوقى عنها الناس، وقيل: حجارة الكيريت لشدَّة حرَّها وكثرة الالتهاب

١ - المقصود أنَّه تعالى عرفَّ النار هنا بأل العهدية، ونكرها في آية التحريم في قوله: ﴿قُوا﴾

أنفسكم وأهليكم ناراً... ﴿ (الآية ٦).

وسرعة الإيقاد، ومزيد الالتصاق بالأبدان وتنن الرياح وكثرة الدخان، وقيل: الذهب والفضة لأنهما يسميان حجراً ولا يتبادر، ولا مانع من أن يراد ذلك كله. ﴿أَعِدَّتْ﴾ هيأها الله وأوجدها ووكل عليها ملائكة قبل يوم القيامة، ولا تنفى، وإن فنيت أعادها.

وحكمة إيجادها قبله الإخبار بأحوالها الواقعة للزجر، وهو أقوى من الإخبار أنها لم تكن وأنها ستكون بوصف كذا، وإن لم تكن الآن فكانت. كانت لتحقق الوقوع، فعبر بأعدت والمراد: سعت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يعذبون بها، أو الكافرون كفار قريش ونحوهم، عدل عن الإضمار مع تقدم ذكرهم إلى ذكرهم باسم الكفر الموجب للنار المذكور، أو جنس الكفار فيدخل هؤلاء أولاً وبالذات.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

جزء المؤمنین العاملين

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وأن القرآن منه عز وجل، أخبرهم إخباراً يظهر الفرح بها على أبقارهم أي جلودهم، والتبشير أخص من الإخبار لأنه

أَوَّلًا بِالْخَيْرِ، وَالْإِنْجَارِ أَوَّلًا وَغَيْرِ أَوَّلٍ وَبِالْخَيْرِ وَغَيْرِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الفرائض ولا بدَّ، أو مع النفل إن كان، ومن العمل الصالح ترك المعاصي لأنَّ تركها جَبْدٌ لِلنَّفْسِ عَنْهَا، وهو عمل، ولا سيما إن قارن جدها عمل الجارحة، وذلك التَّركُ تَقْوَى، ومن التَّقْوَى أداء الفرض.

والـ" في الصالحات للجنس فتصدق بعملين وبعمل واحد في شأن من لم يدرك من حين كَلَّفَ إِلَّا ذَلِكَ، كمن بلغ ومات عن قريب أو أسلم كذلك، أو مات قبل نزول سائر الفرائض، ومن عمل قليلاً فجَنٌّ، ولا يخفى أنَّه من مات قبل أن يعمل شيئاً ما من الأعمال لسرعة موته أو نحوه يدخل الجنة.

﴿أَنْ لَهُمْ﴾ أي بَأَنَّ لَهُمْ، أو ضَمَّنَ بَشَّرَ مَعْنَى الْإِعْلَامِ ﴿جَنَّاتٍ﴾ حدائق فيها كلُّ صنف من الثمار حتَّى ما لا يؤكل كالخنظل يحلو فيها، وفيها مساكن وقصور ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ تحت أشجارها ومساكنها، والجنة الأرض كما رأيت بتقدير مضاف، وإن شئت فلا تقدِّر بل اردد الضمير إلى الأرض، والمراد به الأشجار استخداماً، وإن أريد الأرض والشجر فالضمير عائد إليها باعتبار جزئها، أو تحتها جانبها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ تنبع من تحتها ولم تجيء من محلٍّ آخر أو جاءت من بحر غائرة في الأرض حتَّى إذا وصلت الجنَّاتِ نبعث ظاهرة، وجرت على وجه الأرض في غير أخطود، وحصباؤها دُرٌّ وياقوت، أو بعض تجري من بعيد تحتها، وبعض تنبع تحتها

(لغة) والنهر والبحر أرض، ذلك لأنَّ الماء ينهره

أي يوسِّعه، والجري للماء، وأسندة لخلِّه، والنهر يجمع الماء الذي يجري

الماء منه إلى غيره، وإن قلنا: النهر الماء الجاري في متسع فلا مجاز؛ و"ال" للحقيقة أو للعهد في قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ أو نابت عن الضمير.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ من الجنَّاتِ ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ حال من قوله: ﴿رُزِقُوا﴾ أي شيئاً مرزوقاً.

(نحو) و«رُزِقُوا» مفعول ثان، و«من» للبيان أي رزقاً هو ثمرة لا بدل بعض لأدائه إلى حذف الرابط، ولأفرادها، ولا يرزق من الثمرة ولأدائه إلى استعمال النكرة في الإثبات للعموم الشمولي مع وجود التخلُّص من ذلك، و"لا" بدل اشتمال لأنَّ الثمرة بعض الجنة لا شيء غيرها ملابس لها، ولأدائه إلى استعمال النكرة في الإثبات للشمول، ولو قيل به في ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ (سورة التكويد: ١٤) والثمرة الأفراد أو الأنواع، وما مصدرية وكلُّ ظرفٌ لإضافته للمصدر النائب عن الزمان أي كلَّ رزق منها - بفتح الراء - على المعنى المصدرية متعلِّق بقوله: ﴿قَالُوا﴾ أي يقولون كلَّ وقت رزق منها:

﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، ولا يزالون يقولون: هذا الذي... إلخ، أي مثل الذي رزقناه من قبله في ظنهم بحسب اللون والصورة، وإذا أكلوه وجدوا طعمه غير طعم الأوَّل وأحلى، وكلُّ طعام أفضل ممَّا قبله أبداً، فإذا رزقوا الرزق الأوَّل في الجنة قالوا: هذا الذي

رزقنا في الدنيا، وإذا رزقوا ثانيًا قالوا: هذا الذي رزقنا في الجنة قبل، وهكذا إلى ما لا نهاية له، وقيل: كلُّ ذلك في الآخرة لم يدخل فيه ما في الدنيا، ولا دليل على أنَّ المراد: ما ﴿رزقنا من قبل﴾ هو الأعمال الصالحة في الدنيا تسمية للمسبب باسم السبب.

﴿وَأَتُوا بِهِ﴾ أي أتاهم الملائكة به أو الولدان، كقوله تعالى: ﴿ويطوفُ عليهم وِلدانٌ مُخلِّدون﴾... إلخ (سورة الإنسان: ١٩) أو تارة الملائكة وتارة الولدان ﴿مُتَشَابِهًا﴾ يشبهه بعضه بعضًا لونا ويختلف طعمًا، أخبرنا الله بتشابه اللون تليذًا لنا بغرابة تشابه اللون واختلاف الطعم، وذلك مدح للجنة أو متشابهًا لونا وطعمًا إلا أنَّ الطعم متفاوت فضلًا.

قال الحسن: إنَّ أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثمَّ يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول: هذا الذي رزقنا من قبل، فتقول الملائكة: اللون واحد والطعم مختلف، وعنه عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده إنَّ الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي واصلة إلى فيه حتى يبدل الله مكانها مثلها»^(١) فيحوز أن يحمل للتشابه وهذا الذي رزقنا من قبل على هذا.

١ - أورده الألويسي البغدادي في تفسيره لهذه الآية دون ذكر السند.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ حور عين و آدميات أفضل منهن، وللجن جنّيات و حور.

(لغة) و جمع الأزواج للقلّة و المراد الكثرة، و المفرد زوج بلا تاء، و أمّا زوجة بالتاء في المؤنث فشاذ أو خطأ، و قيل: لغة تميم و كثير من قيس، قال الفرزدق:

إنّ الذي يسعى ليُفسد زوجتي كساعٍ إلى أسدٍ الشرى يستميلها
﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ منزّهة عن أن يكون فيهنّ الحيض أو شعر الإبط أو شعر العانة أو نتن أو بلل مستقذر أو بول أو غائط أو سوء خلق، كما هم طهّروا كذلك، و المطهّر هنّ الله تعالى، و ليس ذلك جمعاً بين الحقيقة و المجاز إذ كان التطهير في الآدميات و الجنّيات إذهاب نحو الحيض عنهنّ بعد إذ كان أو تأهلن له و لم يكن، و في الحور من أوّل الأمر لأنّ المراد تحصيلهنّ و هنّ طواهر هكذا، و ليس في ذكر الزوجات ما يدلّ على الولادة في الجنة فليل: لا ولادة فيها و هو المشهور، و قيل: بها. ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون ولا يموتون ولا تزول بعض حواسّهم و أجسادهم، و لا بعض قواهم، و لا تصيبهم آفة.

(أصول الدين) و لا تنفى الجنة و النار و أهلها كما زعمت الجهميّة قبحهم الله عزّ و جلّ لأنّه ليس في دوامهما اشتراك مع الله فيه، لأنّ دوامه غير دوامهم، فإنّه بالذات و دوامهم بإدامته، و أنفاس أهلها مع دوامهم فيها معلومة له، بل قيل: يقال إنّ معلوماته

محصورة عنده مع أنها لا تنقضي، وذلك من كمال قدرته ومخالفته للخلق، فلا يلزم الجهل له تعالى بدوام أنفاس أهلها، والنصوص دلت على ذلك، ولو كان لأهل الجنة فناء لا غتموا ولم تتخلص لذاتهم ولفرح أهل النار وليس لهم فرح.

(سبب النزول) روي عن ابن عباس وابن مسعود أن رجلين من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد وبرق وصواعق، فجعلا كلمًا أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلها، وإذا لمع البرق مشيا إلى ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرًا لهما مكانهما فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً فنضع أيدينا في يده، فأتياه فأسلما ووضعنا أيديهما في يده وحسن إسلامهما، فضرب الله شأن الرجلين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة.

وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقا من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء أو يذكروا بشيء فيقتلوا، كما يجعل الرجلان أيديهما في آذانهما، وإذا أضاء لهم مشوا فيه، أي إذا كثرت أموالهم وأصابوا غنيمة وفتحوا مشوا فيه، وقالوا: إن دين محمد صدق واستقاموا كما يمشي الرجلان في البرق، ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي إذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء قالوا: هذا لدين محمد، وكفروا كما يمسك الرجلان عن المشي إذا زال البرق.

قيل: لَمَّا مَثَلُ اللَّهِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ بِالَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا أَوْ بِالصَّيْبِ مِنَ السَّمَاءِ قَالَ الْمُنَافِقُونَ: اللَّهُ أَجْلٌ وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يَضْرِبَ هَذِهِ الْأَمْثَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فائدة ضرب الأمثال للناس في القرآن الكريم

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾

(نحو) «ما» نعت لمثلاً ولو كان جامداً، لأنَّ معناه حقيراً وكائن ما كان، وهو مشهور بذلك مستعمل فيه كثيراً، بخلاف بعوضة فلا يكون نعتاً لأنَّه جامد ولو قصد به الوصف لأنَّه لم يشهر أو لم يرد، لا يقال: جاء رجل بعوضة؛ بل بعوضة مفعول أوَّل لِضَرْبٍ، ومثلاً مفعول ثانٍ له، لأنَّه بمعنى صير؛ وإنَّ عُدِّي لواحد فمثلاً مفعول، وبعوضة بدل، أو مفعول، ومثلاً حال.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للدنيا وأهلها، فإنَّ البعوضة تحيي ما جاءت، وإذا امتلأت ماتت، ومن امتلأ من الدنيا هلك، أو لأعمال العباد، يجازى عن القليل منها.

(سبب النزول) والصحيح ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر الله سبحانه أصنام المشركين فقال: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ﴾ (سورة الحج: ٧٣) وذكر كيدها وجعله كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ (سورة العنكبوت: ٤١)، فقالوا: كيف ينزل الله ذكر الذباب والعنكبوت؟! فنزلت الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي...﴾. وعن الحسن لما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ قال المشركون: ما هذا من الأمثال! فنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي...﴾ وفيه أن ذكر المشركين لا يلائم كون الآية مدنيّة، ويجاب بأنهم منافقون في المدينة يقولون ذلك فيما بينهم وهم مشركون في قلوبهم، وعن ابن عباس لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت - قيل: ومستوقد النار - قال اليهود: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيصة! فنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي...﴾ إلخ، أي لا يترك لقول اليهود والمشركين تصوير البعوضة فما فوقها في الصغر كجناحها مثلاً أو في الكبر كائناً ما كان، أو يصير المثل شيئاً ما بعوضة فما فوقها؛ وإذا ضرب ما زاد على البعوضة في الصغر فأولى أن

يضربه لما فوقها في الكبر كالذباب والعنكبوت.

(أصول الدين) والحياء انكسار وانقباض عن عيب، والله منزّه عن ذلك فيحمله في حقه على لازم ذلك وهو الترك، فالاستحياء من الله الترك، تعبيراً باللازم، لأن حقيقة يُنزّه الله عنها، وهي انكسار يعتري الإنسان لخوفه من أن يعاب بما فعل، أو أراد فعله، وهو مشتق من معنى الحياة، لأنه يؤثر في القوّة، ولا يحسن أن يبقى على ظاهره، ويوكل أمره إلى الله عزّ وجلّ - ألهمنا تأويلاً صحيحاً بلا تكلف - ولا أن يقال: هو بظاهره بلا كيف لأنه كفر، والخجل حيرة النفس لشدة الحياء، وقيل: قبل الفعل والخجل بعده.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي المثل هذا أولى لأنه أقرب، أو الضرب لأنه مصدر لفعل مقرون بأن، وليس من باب: ﴿اعدلوا هو أقرب...﴾ ويعد عوده لترك الاستحياء، وأبعد منه عوده للقرآن؛ ﴿الحق﴾ الثابت، أو خلاف الباطل حال كونه ﴿من ربهم﴾، أو الحق الصادر من ربهم، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يهود وغيرهم، ﴿فَيَقُولُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ من حيث التمثيل، إنكاراً وتعجباً من صحته مثلاً، وهذا برهان على أنهم لا يعلمون إذ لا يقوله من يعلم، فهو أبلغ من قولك: وأمّا الذين كفروا فلا يعلمونه حقاً، وأجابهم الله عزّ وجلّ، ونصب «مثلاً» على التمييز كما رأيت من اسم

الإشارة لجواز تمييزه وتمييز الضمير إذا كانا مبهمين أو حال منه، ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ بالمثل ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، يصيِّرهم ضالِّين لكفرهم به ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ لتصديقهم، فإنَّ التصديق هداية من الله عزَّ وجلَّ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ من سبق القضاء عليه بأن يموت على فسقه الذي هو شرك، ومن لم يؤمن به وسيؤمن فإنكاره فسق يتوب منه.

(أصول الدين) والسعيد في حال فسقه فاسق عند الله عزَّ وجلَّ بما فعل لكنَّه في ولاية الله عزَّ وجلَّ بما علم أنَّه يتوب فهو فاسق في الحال بفعله، ومسلم في الأزل وما بعده لسعادته، وليس المراد أنَّه مسلم كافر عند الله باعتبار واحد، لأنَّه اجتمع فيه إيمان وكفر في حال واحد، ولا تقدر أن تقول: هو في حال فعله للكبيرة أنَّ فعله هذا مباح، ولا أنَّه طاعة ولا غير ذنب ولا غير فسق ولا غير كفر، وكلُّ خروج عن الشيء فهو فسق إلاَّ أنَّه لا يطلق حيث يوهم، والهداية والإضلال يتحدَّدان ويزدادان، فإن شئت فقل: يزيد به هدى وإضلالاً، وقدمه لأنَّ الكلام في الردِّ على الضالِّين، وقولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ﴾ ناشئ عن الضلال، وما في القرآن سبب له، ولذلك أكَّده بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ فيكون بدأ به وختم به.

﴿الَّذِينَ يَقْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ يُطِيلُونَ إِبْطَالاً شَبِيهَاً بِفِكَ طَاقَات

الحبل، العهد الشبيه بالحبل في التوصل به إلى المراد من نجاة من مكروه وفوز بما يحب، وهو ما أنزل الله عز وجل في كتبه القرآن وما قبله من الإيمان به ﷺ فإن ذلك كالمعلوم، ولو لم يُعلم لقوة حُججه كأنه معلوم ولو لمن لم يعلمه، وزاد أهل الكتاب بما في كتبهم من أخذ الميثاق عليهم وعلى أنبيائهم وأممهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ.

وقد أخذ الله العهد بالإيمان على بني آدم يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ وأخذ الله العهد على الأنبياء أن يقيموا الدين، ويؤمنوا بمحمد ﷺ، وأخذوا العهد على أنفسهم أن يؤمنوا به، وأخذ العهد على العلماء وعلى من علم أن يبنيوا الحق، والآية في الكفار عموماً.

(بلاغة) شبه العهد - وهو ما عهد الله عز وجل إلى الخلق من الدين - بالحبل لجامع التوصل إلى المقصود والارتباط، ولم يذكره، ودل له بذكر مناسبه وهو النقض، فالحبل استعارة بالكناية، وقرينتها تصريحية تبعية وهي ينقض، فهنا استعارة مكنية قرينتها استعارة تحقيقية لا تخيلية، شبه إبطال العهد بقطع الحبل أو فك طاقاته فسمي الإبطال نقضاً، واشتق منه ينقض.

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ تأكيد الله وإبرامه للعهد بالأدلة العقلية والنقلية كالكتب من الله، فالهاء للمضاف إليه وهو "الله"، ولا إشكال فيه إذا

كانت الإضافة لفظية كالإضافة إلى الفاعل كما رأيت، أو المفعول كما ستراه إن شاء الله، فإنها في منزلة عدم الإضافة؛ أو من بعد ميثاق العهد أي إبرامه كذلك أو تأكده وتقويته من الله، أو منهم بالقبول والالتزام، فالهاء للعهد.

والميثاق: التوثق أو التوثيق، أو آلة؛ أي ما وثق الله تعالى به عهده من الآيات. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي بأن يوصل أي بوصله وهو الإيمان بالنبى ﷺ والأنبياء، وعدم التفرقة بين رسول وآخر، وكتاب وآخر، والرحم والمؤمنين والجهاد وسائر الدين.

وما ذكر من العموم أولى من تفسير ما أمر الله به بمحمد ﷺ وإطلاق ما عليه، ومن تفسيره بالقرآن أو بالرحم، ومن تفسيره بوصل القول بالعمل ومن تفسيره بالأنبياء. و﴿أَنْ يُوصَلَ﴾ بدل اشتمال من الهاء كما رأيت. والأمر طلب الفعل جزماً ولو ندباً أو بشرط العلو ولو ادعاءً، أو بشرط تحقق العلو.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي مطلقاً أو بالمنع عن الإسلام وقطع الطريق عمّن يهاجر وهو أولى، ﴿أَوْلَانِكَ﴾ البعداء عن مقام الخير بصفاتهم الخبيثة ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المبتلون لمصالح أنفسهم، إذ صاروا للنار إذ لم ينتفعوا للآخرة بعقولهم وأموالهم وأبدانهم وأولادهم وجاههم، وأبطلوا نساءهم في الجنة ومنزلهم فيها فلا رأس مال ولا ربح.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وإماتته وخلق الأرض والسماء

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ وبخهم الله على ما مضى من كفر واستمراره، وأنكر عليهم لياقته بحال صحّة ومرض، ويسر وعسر، وعزّ وذلّ، وغير ذلك من الأحوال، أو ذلك تعجيب، وذلك لقيام البرهان.

والخطاب لأهل مكة، ونزلت الآيتان فيها، وجعلتا هنا على ترتيب اللوح، أو خطاب لهم من المدينة بعد غيبة تأكيداً عليهم، كما يغتاب ثم يخاطب مخافة ألا يصل الكلام، حاشا لله عزّ وجلّ، أو خطاب لكلّ من كفر، كيف يكفر كافر والحال أنّه غير موجود ثم وجد كما قال: ﴿ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا ﴾ المراد بالموت نفي الحياة، بقطع النظر عن أن تكون قد تقدّمت، لا نفيها بعد أن كانت لأنّ الإنسان لم يكن حيّاً ثم مات، أو أراد أنّهم كانوا نطفاً والنطفة كانت حيّة في الإنسان وماتت بالانفصال وحيث في الرحم، أو كنتم كأموات، وعلى كلّ حال لا يشكل أنّهم في الجماد لا يوصفون بموت ولا حياة ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ في الأرحام ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ لأجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ في قبوركم ويخرجكم ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ للجزاء.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم أو ملك لكم ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ حتى العقارب والحيات والسباع، فإنكم تنتفعون بها اعتباراً أو انزجاراً عن عقاب الله، كما تنتفعون بالثمار والمعادن والماء والحيوان، وما في السمّ نفع لقتل المؤذيات.

(فقه) ولا ينتفع بسمّ الميتة ولا يباع ولا يشتري بل بسمّ غيرها وسمّ المعدن، أو أراد بالأرض ما في جهة السفلى فيشمل الأرض نفسها وما فيها. استدلال المعتزلة والفخر بالآية على أنّ الأشياء قبل ورود الشرع على الحلّ إن كانت نافعة وعليه كثير من الشافعية والحنفية، ولا تحتل الآيات أنّ اللام للضرر مثل: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ولا دليل على أنّ المراد بالآية الإباحة على شرط نزول الوحي بها، وقيل إنّها قبل الشرع على الحظر، وقيل بالوقف، والأول أولى.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ بعد خلق الأرض المدلول عليه بخلق ما في الأرض.

(أصول الدين) واستواؤه هنا توجّه إرادته واختار الجهل على العلم من وكل أمره إلى الله وقد وجد له تأويلاً^(١)؛ وهلك من

^١ - أي أمر الاستواء بمنّ يقولون: الاستواء معروف والكيف مجهول...

قال: إنَّه على ظاهره ولكن بلا كيف، ولا يتمُّ هنا تفسير استوى بِمَلَكٍ لقوله: ﴿إِلَى..﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ..﴾ إِلَّا بِتَكْلُفٍ أَنْ إِلَى بمعنى على، وقد ملكها قبل، ولا باستولى لتكلف توجيه الغلبة على الجماد، وثمَّ لتراخي الوقت، وإن قلنا للرتبة فلا نقض بها.

والصحيح أنَّ السماء أفضل من الأرض من حيث أنَّها محلُّ الطاعة التي لا معصية معها، والأرض أفضل من حيث أنَّها للأنبياء والرسول، والمؤمن أفضل من الملائكة، والأرض أسبق خلقاً على الصحيح. ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي إلى إيجادها كما أوجد الأرض، وخلق ما في الأرض متأخراً عن خلق السماء تشخيصاً لكنَّه متقدِّمٌ ضمناً، بخلق ما يخلق منه الحيوانات مثلاً خلق لها، فَإِنَّ الله جَلَّ وَعَلا خلق الأرض بلا بسط في يومين وخلق السموات وبسطها في يومين، وبسط الأرض وخلق ما فيها في يومين، ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي صيَّر السماء، أتى بضمير الجماعة لإرادة الجنس ولتعدُّد ما بعده في قوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ فمقتضى الظاهر: «وإن كانت» أي الأولاد، ولكن قال: ﴿كُنَّ﴾ لقوله: ﴿نِسَاءً﴾ وقدم هنا؛ وفي "حم السجدة" ما أخر في "النازعات" لأنَّ المقام فيهما للامتنان على المخاطبين، وفي النازعات للقدرة^(١).

^١ - يعني ما في آية ٣ من سورة السجدة، وما في آية ٢٧ إلى ٣٠ في سورة النازعات.

ومعنى تسويتهنَّ سبعا: خلقهنَّ من أوَّل مستويات كقولك: وسَّع الدار، أي ابنها واسعة، وسبع بدل من الهاء عائدة إلى السماء أو إلى مبهم مفسَّر به، أو مفعول ثانٍ لتضمَّن معنى صيَّر وهو ضعيف، أو حال مقدِّرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إجمالاً وتفصيلاً وذواتاً وأحوالاً، فمن قدرته وعلمه ذلك كيف يُجحدُ أو كيف يُنسب إليه العجز عن إعادة الخلق مع أنه خلق السموات الأرض وخلق الدخان من الماء قبل الأرض، ولما خلق الأرض استوى إلى السماء وهي دخان وسواها سبعا، ثمَّ بسط الأرض وفتقها سبعا، وكان بسطها وفتقها في الأحد والإثنين، وهنَّ بعض فوق بعض كالسموات، وقيل: بعض بجانب بعض يفصل بينهنَّ البحار وتظلل السماء عليهنَّ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰٓدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِآلِهَاتِنَا إِنَّا نَحْنُ بِالْأَسْمَاءِ حٰٓمِدُونَ ﴿٣٢﴾ قَالِ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

استخلاف الإنسان في الأرض وتعليمه اللغات

﴿وَإِذْ قَالَ﴾: واذكر إذ قال، وقيل ظرف لقالوا. ﴿رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾: كلهم، وقيل لطائفة هم خزّان الجنان يسمون الجنان، أرسلهم إلى الأرض ليطردوا الجنّ منها، إلى البحار والجزائر والجبال، ولا يصحّ هذا، ولا يصحّ أنّ إبليس ملك منهم، وأقرب من هذا أنّه ولد من الجنّ قبله، وليسوا ملائكة، قاتلهم الملائكة وأسروه، فتعبّد مع الملائكة، والمشهور أنّه أوّل الجنّ، وقيل ملائكة الأرض، لأنّ الكلام في خلافة الأرض، والمفرد ملئكٌ - بهمزة مفتوحة بعد اللام - وهو مقلوب مألّك - بهمزة ساكنة قبل اللام - من الألوكة وهي الرسالة، وهم رسل الله إلى الأنبياء وإلى ما شاء الله؛ وأخطأ من قال إنّ ملائكة الأرض يعصون كيني آدم. والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة، وعلى الظهور.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: ينفذ الأحكام عني وهو آدم، إذ لا يقدر أهل الأرض على تلقي الأحكام عن الله ولا عن الملائكة.

﴿قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾: بالذنوب الكبار والصغار، والمكروهات، كالعجب، والكبر، والبغي، والحسد ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾: يريقها، كناية عن القتل ولو بلا إراقة دم، فلعلّ علموا ذلك من الجنّ الذين سكنوا الأرض قبل آدم في القول به، وقاسوا عليه آدم وأولاده، أو علموا

ذلك من اللوح، أو بإخبار الله لهم، كما روي أنّهم قالوا: «يا ربنا، ما تفعل ذرية هذا الخليفة؟» فقال: «يفسدون فيها ويسفكون الدماء»، أو يلهام، أو لفهمهم أنّ من خالف الخليفة الملكية لا يخلو عن ذلك، وقولهم ذلك تعجب وطلب للمعلم، بحكمة اقتضت جعل الخليفة، مع أنّه يحصل الفساد والسفك، ولعلهم بالغوا في التعجب والطلب، فعاقبهم بقطع الوحي عنهم، إلى أن أوحى إليهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقيل: استفهام حقيقي، أي أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ أم من يصلح؟

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ نسبّحك مصاحين بحمدك، نقول: سبحان الله والحمد لله، أو سبحان الله وبجمده، أي وبجمده نسبّح.

سئل رسول الله ﷺ: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله تعالى لملائكته، سبحان الله وبجمده»^(١) ويقال: تسبيح الملائكة «سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العظمة والجبروت، سبحان الحيّ الذي لا يموت»؛ أو: «نسبّحك مثنين عليك وشاكرين لك على توفيقك لنا للحمد»؛ أو كقولك: كان كذا بحمد الله، أي بفضله وإذنه.

^١ - رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل سبحان الله وبجمده رقم

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نطهرك عن صفات النقص، أي نعتقد خلوك عنها، وجاز هذا لأن التسييح المذكور مراد به لفظ سبحان، وإذا كان ذلك حالنا فنحن أحق بالاستخلاف لأننا أحفظ لعهدك، ولا ندري ما الحكمة في العدول عنّا إلى من ذلك صفته، وذلك عجيب عندنا متعجبون نحن منه، فأخبرنا بها.

(لغة) يقال: قدّس الله و قدّس لله، وشكر الله وشكر لله، وسبّح الله وسبّح لله، ونصح الله ونصح لله، أو نذكر ألفاظ التقديس لأجلك؛ أو التسييح التنزيه عمّا لا يليق به، فالتقديس تنزيه ذاته عمّا لا يراه لائقا به؛ أو نقدّس لك نطهّر أنفسنا عمّا لا يجوز من الأدناس والمعاصي فلا نمائلهم.

﴿قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا﴾ تبدوون وما تكتُمون وأعلم ما ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ من غيوب السموات والأرض، ومن إرادتي إظهار حكمتي وقدرتي، وأنّ المطيع الواحد منهم أفضل من الملائكة، وأنهم أشدُّ عبادة وأشقُّ لأنّي أخلق لهم موانع كالنفوس والهوى والشياطين منهم ومن الجنّ، والشهوات، ولهم جهاد وقراءة كئيساً لكم، وصلاتهم تشمل عبادتكم، وعباداتهم ليست لكم، كالصوم والصدقة، وأظهر العدل فيهم ولا أبالي، وأدخل العاصي منهم النار عدلاً ولا أبالي، ويُحيون من الدين ما لا تُحيون بالتعلّم والتعليم، والأمر والنهي؛ علم الله ذلك، ولم يعلمه الملائكة، وقالوا: سرّاً فيما بينهم لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منّا، ولا

أَعْلَمَ لَتَقْدُمْنَا وَرَوَيْتَنَا بَعْضَ مَا فِي اللُّوحِ، وَأَنَّ آدَمَ يَطِيعُ وَإِبْلِيسَ يَعْصِي وَأَنَّ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَ وَرِسَالًا. وَ«أَعْلَمُ» مُضَارِعٌ لَا اسْمَ تَفْضِيلَ لِأَنَّهُ لَا يُضَافُ لِلْمَفْعُولِ.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ ألقاها في قلبه مرة لا بتعليم ملك كما قيل ﴿كُلُّهَا﴾ من جميع اللغات وهي الحروف والأفعال والأسماء، وواضع اللغة الله، فالمراد بالأسماء الألفاظ الدوال على المعاني فشملت الحرف والفعل إفراداً وتركيباً حقيقةً ومجازاً، ودخلت أسماء الله كُلُّهَا، بل قيل: أراد أيضاً ما يدلُّ بلا لفظ كالنصب والعقد والإشارة بالجراحة وحال الشيء.

والمراد الأنواع كالإنسان والفرس والجبل والنخلة، لا الأفراد كزيد وشدقم وهيلة، وكلُّ أهل لغة من أولاده وأولاد أولاده حفظ لغة ونسي غيرها، وكلُّها موجودة في أهل سفينة نوح، أو أوقد عليها في ألواح ودفنت وأخرجت بعد الطوفان، أو أوحى ما اندرس منها إلى نوح أو هود.

(لغة) وآدم بوزن أحمر من الأدمة بمعنى السمرة، ولا بأس بها في الجنة لأنه لم يدخلها جزاءً، أو سَمُرٌ بعد الخروج، وفسر بعضهم الأدمة بالبياض، أو من الأدمة بفتح الهمزة والذال، وهو القدوة، أو من أديم الأرض أي من جلدها أي ظاهرها، ومن الأدم أو الأدمة بمعنى الألفة، وألفه عن همزة، وقيل: عجميٌّ بوزن شالخ وآزر فألفه أصل، وذلك في الجنة أو خلق في الدنيا ورفعته الملائكة إلى الجنة وعاش بعد خروجه منها ألف عام أو تسعمائة.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي الأسماء بمعنى المسميات، ذكر الأسماء مراداً بها الدوال، وردَّ الضمير إليها مراداً به المدلول على الاستخدام، وضمير الذكور العقلاء تغليب على الإناث وغير العقلاء ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ القائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾؟ ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ﴾ بالفاظ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الأنواع المعروضة، أحضر كل نوع فقال: ما اسم هذا جسماً أو عرضاً مثل أن يلهمهم في قلوبهم الفرح ما اسمه والنفل ما اسمه، كما يقول: لهم: ما اسم هذا مشيراً للحجر؟.

وقد عرفوا بعض الأسماء والأفعال والحروف بلغة من اللغات كما هو نصُّ الآية، وإنما خصَّ آدم بجمعه ما لم يعلموا إلى ما علموا، وذلك تعجيز لهم لا تكليف بما لا يطاق. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم صادقين في دعوى أنكم أحقُّ بالخلافة والاقتصار عليكم عمّا يفسد ويسفك، وأنكم أعلم، وقد قالوا: لن يخلق الله تعالى خلقاً أعلم منا ولا أكرم، وكأنه قيل: فما قالوا؟ فقال: ﴿قَالُوا: سُبْحَانَكَ﴾ عن أن نكون في قولنا: ﴿أَتَجْعَلُ...﴾ الآية معترضين، ﴿لَا عَلِمَ لَنَا﴾ بتلك المسميات وغيرها، ﴿إِلَّا مَا﴾ أي إلا أعلم ما ﴿عَلَّمْتَنَا﴾ إياه، ولا معلوم لنا إلا ما علمتناه، هذا اعتراف بالعجز، وشكر على إظهار الحكمة في الخليفة لهم، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع ما فعل، وما قال، وما يقول، وما يفعل. لا يكون منه سفه أو لا يخرج الأمر عمّا أراد، يقال: أراد فلان إحكام شيء - أي إتقانه -

فأتقنه أي لم يخرج عمًا أراد.

وقدّم العلم على الحكمة لأنّ المقام له، ولقوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾ وقوله: ﴿لَاعَلَّمَ﴾؛ ولأنّ الحكمة تنشأ عن علم، وأثر له، ولا حكمة بلا علم، ولأنّ العلم لا يكون إلاّ صفة ذات، والحكمة تكون صفة ذات بمعنى أنّه أهل لأن لا يكون منه إلاّ الصواب وإلاّ الإتقان؛ وتكون فعلاً بمعنى إتقان الإمر والإتيان به صواباً.

﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ شرفه بالنداء كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ﴿يَا موسى﴾، وبأنّه حقيق أن يعلم غيره، وبمئة التعليم والإفادة على الملائكة. وفي نداءه نفي استيلاء الهيبة عليه ﴿أَنْبِئُهُمْ﴾ أي الملائكة ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ بأسماء المسمّين، وقد علمت أنّ المراد العقلاء وغيرهم، وغلب العقلاء، أي أذكر لهم الألفاظ الدالّة عليهم، وفي ضمن ذلك ذكر حكمة المسمّى.

وللملائكة بعض لغة يفهمون بها ما يخاطبهم آدم به، أو يفهمون بإشارته، أو بإلهام الله سبحانه لهم إلى الفهم عند خطابه، مثل أن يقول: لعلّ للترجّي، والإنسان أنا وولدي، والجبل ذلك الجسم الصلب، والأرض لهذه السطيحة، والقصعة وعاء لوضع الطعام، وقام بمعنى تمدّد جسده من هذه البسيطة.

(لغة) و آدم اسم عجمي لا دلالة له على معنى سوى ذاته، كما هو الأصحّ، أو أصله من الأدمة، وهو لون إلى سواد،

أي سيكون كذلك إذا خرج إلى الدنيا، أو هو كذلك، حتى إذا أدخلها جزاء كان أبيض، أو أفل من أديم الأرض وهو عربي على الوجهين، ومر ذلك.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ العطف على محذوف، أي فأنبأهم. فلما أنبأهم ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي قولوا: قد قلت لكم إنني أعلم.

لما عجزوا بادر لهم بالأمر وبالإقرار بالعجز، أو وبسخم على عجلتهم إلى الاستفهام، وكان الأولى لهم أن يترقبوا ظهور الحكمة بلا سؤال، ولا سيما أن سؤالهم على صورة الاعتراض لفعل الله، والقدح في بني آدم، بل في آدم أيضاً وذريته بصورة العموم، ولو لم يقصدوا الاعتراض والقدح إجمالاً.

والآية موجبة لمجانبة لفظ ما يوهم ما لا يجوز، ولو لم يقصد ما لا يجوز، وغيب السموات والأرض ما غاب فيهما؛ ولم يضم للأسماء تعظيماً لها، والأصل غيب السموات والأرض وشهادتهما، لأنه يلزم من العلم بغيبهما العلم بشهادتهما، وذلك على العموم.

وقيل: المراد بغيب السموات أكل آدم وحواء من الشجرة، وبغيب الأرض قتل قابيل هايل، وقيل: غيب السموات ما قضاه، وغيب الأرض

ما يفعلونه، وقيل: الأوّل أسرار الملكوت والثاني ما أغابه عن أصفياه، ﴿وَمَا تُبْدُونَ﴾: ما تظهرون من قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إِنْخِ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: من قولكم: لن يخلق الله أكرم منّا ولا أعلم؛ والإبداء والكتْم باعتبار ما بين الخلق، ولا يخفى على الله شيء.

وأدخل "كان" للإعلام بأنّه عالم بما استمرّوا على كتمانهم في الماضي، ولا تقل: إنّها زائدة، ولا إنّها للاستمرار، لأنّ الأصل عدم الزيادة، ولأنّ "تكتُمون" أدلّ على الاستمرار وحده منها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

التكريم السامي لآدم بسجود الملائكة له

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ اذكر وقت قولنا لنفس القول لا لنفس الوقت، وهكذا في القرآن كلّ اللفظ ذكر الوقت والمراد ذكر ما فيه، أو اذكر الحادث (إذ قلنا كذا...) أو اذكر وقت قلنا، أو أطاعوا إذ قلنا ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ كلّهم كما قال: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾

وتخصيص الآية بالمؤمنين بالنزول إلى قتال الجنّ في الأرض خروج

عن الظاهر بلا دليل، وكذا في الأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه
 و"ص" وذلك سبع سور ذكر فيها، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ تسليمة
 للنبي ﷺ آخر الأنبياء عن إيذاء قومه له، كما أن أولهم آدم في محنة
 عظيمة للخلق، أي لا تطمع يا محمد أن يتفق الناس على الإيمان بك إذ لم
 يتفق من آمن وعبد الله آلاف السنين، وشاهد ما لم يشاهد الناس إذ
 خرج عنهم إبليس وكفر، فكيف قومك وسائر الناس! ﴿اسْجُدُوا﴾ لي
 ﴿ءَلَادِمَ﴾ قبل رفعه من الأرض للسماء، أي إلى جهة آدم إعظاماً له كالكعبة،
 وسبباً لوجود السجود، وذلك سجود على السماء والأرض وما شاء الله
 كسجود الصلاة، وهو لله عز وجل، أو المراد بالسجود مطلق الخضوع، أو
 مع انحناء دون سجود الصلاة، وهو لآدم ونسخ، وإبليس يحسده على الانقياد
 له وعلى جعله قبة وعلى كل خير حتى يجعل له سبباً.

ونافق من جعل السجود كسجود الصلاة، وأنه لآدم تحقيقاً، ولو
 كان عبادة لله، لأن السجود كذلك عبادة يختص به الله في كل زمان،
 وفي جعله قبة تعظيم حق المعلم على من يتعلم، ﴿فَسَجِدُوا﴾ كلهم
 أجمعون: أهل السماء وأهل الأرض منهم، كل سجد حيث هو، شرع في
 السجود أولاً جبريل، فميكائيل، فإسرافيل، فعزرائيل، فالملائكة المقربون،
 يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر، ويقال بقوا في السجود مائة سنة،
 ويقال خمسمائة، وهذه الأقوال في قول تفسير السجود بسجود كسجود

الصلاة؛ وفي قول تفسيره بالانحناء.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: يمنع الصرف للعلمية والعجمة.

(لغة) وعلى أنَّ إبليس عربيٌّ من معنى الإيَّاس من الخير أو الإبعاد عنه فللعلمية، وكونه لا نظير له في الأسماء، ويردُّه وجود إحليل وإكليل ونحوهما ولو غير أعلام وهو ردُّ صحيح لا نظر فيه، لأنَّ وجود وزن العلم في اسم الجنس كافٍ في انتفاء المنع لوزنه.

أبا الجنِّ على الصحيح أو مولود منهم، الاستثناء منقطع، وفيه مناسبة للاتِّصال إذ عبدَ الله مع الملائكة وكان فيهم كواحد منهم.

حتىَّ أنَّه قيل: كان خازن الجنة أربعين ألف سنة يعبد الله، ومع الملائكة ثمانين ألف سنة، ووعظ الملائكة عشرين ألف سنة، وساد الكروبييين ثلاثين ألف سنة والروحانييين ألف سنة، وطاف حول العرش أربعة عشر ألف سنة وجاهد في الأرض أربعين ألف سنة، ولم يترك موضعاً في الجنة إلا سجد فيه، وأحبط الله عمله كلُّه بتركه السجود لآدم، وكُفِّرهُ شركاً لأنه أمرٌ معيَّنًا فخالف مواجهة، فلا يختصُّ بكفره بمذهب الخوارج، وعصيانه دليل على أنَّه ليس ملكاً، وكذا كونه من نار، وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾. ودعوى أنَّ من الملائكة من ليس معصوماً تكلف لا دليل له، وكون نوع من الملائكة غير معصوم لا يوجب أنَّه من

ذلك الجنّ، فلعلّه من جنّ الشياطين المشهورين بهذا، وقد جعل الله كونه من الجنّ سبباً لفسقه، وكونه ملكاً انسلخ عن الملكيّة فعصى دعوى، وهو مغمور في الملائكة بإيهام أنّه منهم لا باحتقار فلا ينافي رئاسته.

﴿أبَى﴾ امتنع من السجود ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ الاستفعال هنا للمبالغة، أي تفرّر فيه كِبْر عظيم، وهو أصل الإباء، أو مع الأنفة، إلاّ أنّه قدّم الإباء لأنّه ممّا يظهر، والاستكبار قلبيّ إنّما يظهر بأثره، وذُكرا جميعاً لبيان أنّ إباءه لا يزول لأنّه لكِبْرٍ راسخ فيه، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في علم الله تعالى وقضائه الأزليّ، أو من الكافرين الذين في الأرض من الجنّ قبل خلق آدم وفي اللوح المحفوظ، أو كان كافراً لترك السجود طبق شقوته الأزليّة.

(فقه) والآية دليل على أنّ الأمر للوجوب، إذ

قطع عذره بمخالفة قوله: ﴿اسْجُدُوا﴾ دون أن يقول: أوجبت عليكم أو نحو ذلك، وأمر الله رسوله ﷺ بذكر وقت قوله لآدم: ﴿اسْكُنْ...﴾ إلخ إذ قال:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾

آدم وحواء في الجنة وموقف الشيطان منهما

﴿وَقُلْنَا: يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ لم يقل: اسكنا لأنه المقصود بالذات وهي تبع له في جميع الأحكام والأمور، والأمر لهما أمر وجوب كما هو الظاهر وكما هو الأصل لا أمر إباحة، وهي جنة بين فارس وكرمان، أو في عدن، أو فلسطين، والصحيح أنها دار السعداء، وقيل: جنة في السماء غيرها، ولا دليل عليها، ولا نعرف في السماء جنة؛ ولا يلزم من كونها دار السعداء أن يذكر الله عز وجل الرفع إليها وأن ذكره أولى. وأيضاً قال: ﴿اهبطوا﴾ والأصل في الهبوط النزول من عال، ولو يطلق على الخروج من موضع ودخوله.

حملته الملائكة من الدنيا أو من باب الجنة على القول بأنه خلق عند بابها من تراب الأرض وأدخلوه الجنة؛ وقال له الله جلّ وعلا: اسكنها أنت وزوجك حواء.

ولا يمنع مانع من دخول إبليس مسارقة أو في فم الحية كما كان يدخل السموات، وليس تكليف آدم بالترك للأكل من الشجرة مناقضاً

لما ثبت من أنه لا تكليف في الجنة لأنه لا تكليف فيها على من يدخلها ثواباً لعمله. ولغو إبليس وكذبه عصيان فيها كعصيانه أولاً، وكأكل آدم من الشجرة فلا يُنافي ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا﴾ (سورة الواقعة: ٢٥)؛ وأيضاً هذه الآية لأهلها الداخلين فيها للجزاء الذي لا يشوبه شيء، وقد قيل: وسوس إليهما من باب الجنة، وبعد أن استقرَّ فيها خلق الله زوجه حواء من ضلعه القصرى اليسرى وهو نائم ولم يحسَّ ألمًا، فيقال: «لو أحسَّ الألم كان الرجل لا يعطف على المرأة»، وخلق الله في موضع الضلع لحمًا، وذلك النوم ألقاه الله عليه إذ لا تعب فيها، أو من تعب فكرٍ أو بدنٍ في أمر قضاه الله عزَّ وجلَّ، لأنه دخلها غير جزء له، ومن دخلها غير جزء له جاز له عليه فيها ما يجوز عليه في غيرها مما شاء الله من نوم وتعب وحزن وخروج، وإذا دخلها بعد ذلك جزء لم يحز عليه ذلك. وبسطت عدد الأضلاع فيها واختلاف القول فيها في وفاء الضمانة بأداء الأمانة^(١)، ومنها ما قيل: أضلاع اليسرى سبعة عشر واليمنى ثمانية عشر.

﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا﴾ أكل رعدٍ، أو أكلاً راعداً، أو ذا رعدٍ، أو نفس

^١ - وفاء الضمانة وأداء الأمانة: كتاب في فن الحديث، ط. مطابع سجل العرب، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٢م.

وانظر: ويتن مصطفى: آراء محمد بن يوسف اطفيش العقدي، ص ٣٩٢، ٤١٤.

الرغدِ مبالغة وهو الوسع ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من حيث شئتما من أشجارها، وفي أيِّ موضع من مواضعها مع سعتها، فلا داعي لكما إلى تناول شجرة واحدة غير متعدّدة أنهاكم عنها، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الواحدة شجرة الخنطة أو العنب أو النخلة أو الحمص أو الأترجة، أو التين أو الخنظل حلوة فيها أو الكافور. وتطلق الشجرة ولو على ما ليس له ساق، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقْطِينٍ﴾ (سورة الصافات: ١٤٦) أو غير ذلك.

والأصل: ولا تأكلا من هذه الشجرة، إلا أنه نُهيَ عن القرب مبالغة، وأيضا الأكل منها مسبب، أو أراد حقيقة القرب لأنَّ القرب إليها يؤمِّلها فيها لإطلاعهما على شأنها مع وسوسة الشيطان ﴿فَتَكُونَا﴾ يقول: لا تقربا فلا تكونا، فهو مجزوم على العطف، أو لا يكن منكما قرب هذه الشجرة فكونكما، فهو منصوب في جواب النفي. ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المضرِّين لأنفسهم، أو الواضعين الشيء في غير موضعه، أو الناقصين لحظهم ولحظ الحق. ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أخرجهما إخراجا شبيها بإزلال أي بالإزلاق، فذلك استعارة أصلية اشتق منها تبعية في أزل، أو حملهما على الزلة وهي الذنب، وهو راجع إلى ذلك، لأنه شبه الذنب بالزلق، ﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (سورة طه: ١٢٠)... إلخ، وقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ

هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿سورة الأعراف: ٢٠﴾... إلخ، أو مقاسمته لهما بعد إخراجهما من الجنة لإبائه وتكبره اتصلت إليهما وسوسته من حيث هو من الدنيا أو من سماء لخلق الله عز وجل له قوة على ذلك، أو ذهباً في الجنة تمتعاً حتى وصلاً بابها فأسمعهما من خارج الباب، أو دخل الجنة متصوراً في صورة دابة من دواب الجنة ولم تعرفه الملائكة، أو دخل في فم الحية فمنه سُمها، وكانت بقوائم على طولها من أحسن الدواب فعوقبت بسلب القوائم، وقيل: تسورت عن الحائط، وقيل: وقف طاوس على الجدار فذهب إليه آدم وحواء فوسوس منهما إليه، وقد جاء إلى قرب الحائط، وقيل: وسوس إليهما من وراء الجدار.

﴿عَنْهَا﴾ أي عن الجنة، أو أزلهما عن الجنة عنها أي بالشجرة إذ أمرهما بالأكل منها ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ أي الشيطان بسبب الأكل الذي وسوس به، أسند الإخراج إلى السبب ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعم واللباس والجنة وهذا في ضمن الإخراج المذكور بقوله: أزلهما، كرره تفصيلاً أو زيادة زجر لغيرهما، وطاوعه آدم وحواء نسياناً لنهي الله عز وجل أو توهماً من أوّل الأمر أن النهي للتنزيه عن أمر سهل يتحملانه من الأكل ولا يضرهما، أو توهماً التنزيه أو النسخ من قوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا﴾ وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ ودعواه النصيح مع القسم احتراماً لحق الله أن يكذب عنه ويخالف، وعد ذلك ذنباً في حقهما لعلو مرتبتهما وعظم النعمة عليهما،

فلا يَرِدُ أَنَّ الأنبياء لا يعصون قبل النبوءة ولو صغيرة؛ ولا يستحضر في قصة آدم ما يقال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» إذ لم يفعل آدم شيئاً مما عوتب عليه يدعيه حسنة بل يستحضر أنه يعدُّ في حقِّ عالي الرتبة ذنباً ما ليس ذنباً في حقِّ غيره.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ أنت وحواء، عبَّر عنهما بصيغة الجمع كما قال: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ إلى الأرض، أنتما ومن فيكما من الذريَّة، وفيه خطاب المعدوم.

أو أنتما وإبليس والحیة، قيل: والطاوس. قيل: فنزل آدم بسرنديب من الهند على جبل يسمَّى «نودا» وحواء بجدة بضم الجيم في مدَّة أربعين عاماً فيما قيل، والله قادر على أقلِّ كما ينزل جبريل وغيره في لحظة، وإبليس بالأبلة من أعمال البصرة، وزوجه بأصبهان أو سجستان، أو نصيبين، والحیة بأصبهان، والطاوس بالشام. أنتما لأكلكما من الشجرة، وإبليس لإبائه، والحیة لحملها إبليس، والطاوس لإبلاغ أمر إبليس إليها، وليس قولاً بمرّة، بل أهبط إبليس ثمَّ الحیة فالطاوس ثمَّ آدم وحواء، وللحیة والطاوس في الجنة عقل فعوقبا بالإخراج، أو ليس عقاباً^(١).

^١ - هذه تفاصيل لا فائدة منها، والأولى الاستغناء عنها وعن أمثالها ممَّا سيرد بعد، وهي من

﴿بِعُضُكُم لِبِعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يطلق على الواحد فصاعداً لأنه بوزن المصدر كالقبول، كما أنه يطلق فعيل الوصف كذلك لشبهه بالمصدر كالديب والصرير، وذلك مجموع لا جميع، فإنَّ العداوة بين آدم وحواء فريقتا، وبين إبليس والحية فريقتا، لا بين آدم وحواء، ولا بين إبليس والحية ولا بينهم وبين الطاوس؛ وقيل: الخطاب للذرية في ضمن أبويهما آدم وحواء وذلك ظلم بعض لبعض ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ«لَكُمْ» لنيابته عن ثبت أو ثابت ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار، أو موضعه، والأوّل أولى، وليس المراد الموضع الذي نزلوا فيه ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتع، أو ما يُتمتع به ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى آخر أعماركم، وقيل: قيام الساعة، لأنَّ المراد هم وذريّاتهم، تَنَازَعَهُ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ ﴿فَتَلَقَى آدَمُ﴾ وحواء لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبَّنَا...﴾ إلخ ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ دعوا بهنَّ

رسوبات الأقدمين من الأمم السابقة، والشيخ رحمه الله إنَّما يوردها حياً منه للمعرفة والرواية فقط. وقد ذكر القطب رحمه الله في كتابه الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنی (ص ٣٩-٤٠)، ما يفيد هذا المعنى، فقال: «وقد كنتُ ممارساً لعلم التصوف، ولا يخفى عليّ مقاصدهم، والحمد لله تعالى، وأجيب عمّا أشكل، وكرهته لأنّه يوهم تفسير القرآن بما هو خطأ، وكذا تفسير الحديث، والحقُّ علم الظاهر مع مراعاة العمل... ومع ذلك أذكر أقوالاً لأهل التصوف في تفسير الأسماء الحسنی إيناساً للطلبة ولنفسی، وفي ذلك وجهان:....»

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
 (سورة الأعراف: ٢٣) على الأصح، وقيل: «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وأخرج الحاكم في المستدرک عنه عليه السلام من طريق ابن عباس أنه قال: «يا ربُّ ألم تخلقني بيدك؟» قال: «بلى»، قال: «ياربُّ ألم تنفخ في الروح من روحك؟» قال: «بلى»، قال: «ياربُّ ألم تسبق رحمتك غضبك؟» قال: «بلى»، قال: «ياربُّ ألم تسكني جنتك؟» قال: «بلى»، قال: «ياربُّ إن تبتُّ وأصلحتُ أراجعي أنت إلى الجنة؟» قال: «نعم».

وتلقى الكلمات التوجهُ إليهنَّ بقبولهنَّ والدعاء بهنَّ إذ ألهمه الرحمن الرحيم إياهنَّ؛ وقيل: هنَّ توسَّله بمحمد عليه السلام حين رآه مكتوباً على ساق العرش، وقد علمه الله الكتابة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ رجع إليه بعد الإعراض عنه.

(أصول الدين) وولايته وعدواته لا تتقبلان لكنَّه شبَّه كراهته أكلهما بالإعراض، ورضاه بئدمهما بالرجوع، والله منزَّه عن الجهات والأمكنة والتنقل، أو قَبِل توبته أو وفَّقه للتوبة، وهكذا توبة الله حيث ذكرت، وبعد ما تاب الله عليه بقي ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله عزَّ وجلَّ،

﴿إِنَّهُ، هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير الرجوع وعظيمه على عباده بالإنعام وقبول التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ للعاصي والمطيع، إلا من أصرَّ من العصاة فله في الدنيا فقط.

(أصول الدين) ولا يقال: الله تائب لعدم

وروده في القرآن بالإجماع، وأسماء الله توقيفية، وقيل: تقاس فيما ورد فيه لفظ الفعل أو غيره مسندًا فتقول: الله تائب على عباده، لورود: ﴿تَابَ عَلَيْهِ﴾ و﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ وباني السماء وداحي الأرض.

(فقه) واعلم أنَّ [النطق] لفظ الشرك حرام

باتِّفاق الأمة ولو لم ينو به الشرك إلا حكاية أو اضطرارًا لأنه موهم، وذلك من الإلحاد في أسمائه كما قال بعض العلماء: إنَّ الله حكم بشرك من قال: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ أو قال: ﴿المسيحُ ابنُ الله﴾ ولو لم ينو حقيقة البنوَّة، وذلك بناء منهم على أنَّ لفظ الإِشْرَاقِ شرك ولو لم ينو، كما أنَّ نيته شرك بلا لفظ أو مع لفظ، حتَّى إنَّ من العلماء من لا يجيز للمضطرِّ أن يلقب بشرك ولو اطمأنَّ قلبه بالإيمان إلا بتأويل لفظه، أو بمعرضة، أو إسرار شيء يخالفه وينقضه، أو عناية ما ممَّا ينقض اللفظ زيادة على اطمئنان قلبه، وإنَّما منعوا ما يوهم الشرك ولو لم يقصده حسماً لمادَّة الشرك، كما نصَّ عليه بعض محشِّي البيضاوي.

وقد اختلفوا في أسماء الله أتوقيفية أم قياسية فيما ورد فيه معنى المادَّة

بشرط الإضافة على الكيفية الواردة مثل أن يقال: فارش الأرض، وداحي الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٤٨) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (سورة النازعات: ٣٠).
واتَّفَقُوا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَسْمِيَتُهُ بِمَا يُوْهَمُ شُرْكَاً أَوْ تَقْصُاً وَلَوْ بِمَجَازٍ بِقَرِينَةٍ وَاضِحَةٍ وَعِلَاقَةٍ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ بَابٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ إِجْمَاعاً مِنَ الْأُمَّةِ مَعَ أَنَّ قَائِلَهُ لَمْ يَقْصِدْ حَقِيقَةَ الْبِنُوَّةِ وَالْأَبُوَّةِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا: هَلْ يَشْرِكُ مَنْ لَمْ يَقْصِدْ حَقِيقَةَ الْبِنُوَّةِ وَالْأَبُوَّةِ، فَكَيْفَ: يَشْرِكُ، وَقِيلَ: لَا، وَأَمَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِجَوَازِ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ بَابٍ فَلَا، بَلِ اتَّفَقُوا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ وَلَوْ بِلَا قِصْدٍ لِحَقِيقَةِ الْبِنُوَّةِ وَالْأَبُوَّةِ.

وَاتَّفَقُوا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتْرَكَ إِنْسَانٌ يَقُولُهُ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ فِي بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ:

إِذَا كُنْتَ فِي الْفَرْدُوسِ جَاراً لِلرَّبْرِ فَيَلْزِمُكَ الرَّحِيلُ مِنْهَا إِلَى سَقَرِ

يَقُولُونَ: لِلرَّحْمَنِ بَابٌ، بِجَهْلِهِمْ وَمَنْ قَالَ: لِلرَّحْمَنِ بَابٌ، فَقَدْ كَفَرَ

وقد أصاب في قوله: «كفر» إن أراد أنه تلفظ بلفظ الشرك، وإن أراد أنه

أشرك، ولو لم يقصد الشرك فهو قول للعلماء كما رأيت، وهو ضعيف؛ وأخطأ

في قوله: «إذا كنت في الفردوس....» البيت، وأجابه بعض المغاربة بقوله:

كفى بك جهلاً أن تحنَّ إلى سقر بديلاً من الفردوس في خير مسقر

فإنَّ أبا الإنسان يدعون أنه كفيل وقيم رحيم به وبر

ومن قال للرحمن بابٌ وقد عني به ذلك المعنى مجازاً فما كفر

وهذا المحيب أصاب، وجرى على الواضح إلا أنه إن أراد أنه يجوز إبقاء البربري أو غيره على ذلك القول لعنايته الرحمة فقد أخطأ، فينبغي أن يفصح بأنه لم يشرك، وأنه لا يجوز له قول ذلك ولا يجوز إبقاؤه بلا نهي عن ذلك.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي من الجنة وهذا يقوي رجوع الضمير في ﴿عنها﴾ إلى الجنة، وكرر قول ﴿اهْبِطُوا﴾ لأنَّ الأوَّل مذكور برسم العقاب بالهبوط وفوتِ نعيم الجنة التي لا أجل لها، ومضارُّ الهبوط من العداوة إلى دار مؤجَّلة، ويرسم التوبة، والثاني مذكور على رسم التكليف كما قال: ﴿فَأَمَّا...﴾ إلخ. أي إنَّ ما، وما تأكيد لعموم الإتيان، وهذا يقوي أنَّ الخطاب للذريَّة في الأوَّل أيضًا، لأنَّ الحيَّة والطاوس لا تكليف عليهما، وقد يقال: الأوَّل لهما ولآدم وحواء وإبليس، والثاني للذريَّة، أو ذكره أوَّلاً بليَّة وثانياً نعمة، إذ ربَّ عليه التكليف المؤدِّي إلى الرجوع إلى الجنة مع ما لا يحصى من ولده؛ كما روي أنه رقَّ قلب جبريل على آدم وحواء، فأوحى الله إليهما: دعهما فإنَّهما سيعودان إليها مع ما لا يحصى من ذريَّتهما ويخلدون أبداً.

وقد يقال: كلا الخطابين كلٌّ لا كليَّة، وقد يقال: هبوطان، الأوَّل إلى السماء الدنيا، وخصَّ السماء الدنيا لقربها من الأرض، ولا ضعف في قولنا: اهبطوا إلى السماء الدنيا مقدرين الاستقرار والتمتع في الأرض، والثاني إلى الأرض.

﴿فَأَمَّا يَا تَيْنَكُم﴾ في الأرض ﴿مِّنِّي هُدًى﴾ وحي أو رسول،

ومقتضى الظاهر: فإذا أتاكم مني هدىً لتتحقق الإتيان، لكن لما كان بعث الأنبياء والوحي إليهم من الجائز لا الواجب — ولا واجب على الله عزَّ وجلَّ — ذكر بصيغة الشكِّ المعبرة بالمخاطبة لأنَّ العقل لا يوجبه، ولو كانت الحكمة أن لا يهمل العاقل؛ وفي صيغة الشكِّ أيضًا تدرّيج، وفيه تخفيف، أو لتنزيل العالم منزلة الجاهل الشاكِّ إذا لم يجر على مقتضى علمه ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ مقتضى الظاهر: فمن تبعه، لكن أظهر وأضاف للياء تعظيمًا، وقيل: لأنَّه لعموم ما يعقل بالاستدلال.

(فقه) واتباع الهدى: الإيمان والعمل والتقوى،

ومن آمن ومات أو تاب ومات قبل وجوب الواجبات فهو من هذا القسم، ومن أصرَّ ففي النار، ولم يذكر في هذه الآية إلا بمفهوم الشرط إذ شرط باتباع الهدى فلا خوف عليهم، والجملة جواب، وقيل: محذوف، أي اتبعوه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في آخر موتهم ولا في القبر ولا عند البعث، ويصيبهم الخوف في الدنيا من مضارَّها، ولا من سوء الخاتمة، ولا من العقاب، ولا في بعض مواطن الموقف ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة من ترك الإيمان والتقوى، إذ لم يتركوها فاستحقُّوا الجنة.

والخوف غمٌّ لتوقع مكروهه، والحزن غمٌّ لفوت مهمٍّ، ويجب التحفظ

عن المعاصي، قال بعض:

يا ناظرًا يرنو بعيني راقداً ومشاهدٍ للأمر غير مشاهدٍ

مُنِيَتْ نَفْسَكَ ضِلَّةً وَأَبْخَتَهَا طَرُقَ الرَّجَاءَ وَهَنَّ غَيْرُ قَوَاصِدِ
تَصَلُّ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَرَتَجِي دُرَجَ الْجَنَانِ بِهَا وَفَوَزَ الْعَابِدِ
وَنَسِيَتْ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في قلوبهم، أي بها، أي بآياتنا ﴿وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا﴾ في ألسنتهم وهي القرآن وسائر كتب الله العظيم، وهي آيات،
أي علامات على وجود الله وكمال قدرته وصدق الأنبياء، ويدخل
بالأولى من أنكرك الله.

(لغة) وسميت الآية لأنها علامة على معناها، أو
لأنها جماعة حروف وكلمات، يقال: خرج القوم بآيتهم أي
بجماعتهم، أو لأنها علامة على الانقطاع عما قبلها وعما بعدها
باعتبار التمام لا باعتبار المعنى، لأن المعنى كثيرا ما يتم بآيتين أو آيات،
أو لأنها يُعجَّب من إعجازها، يقال: فلان آية من الآيات.
﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملابسوها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا تنفى
ولا يفنون ولا يخرجون. خاطب الله مشركي العرب ومنافقيهم وقد
يكون الخطاب على عموم الناس.
ثم خاطب اليهود خصوصا فقال:

﴿يَلْبِسْ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي إِلَيْهِمْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِي
بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكْفُرُوا
أُولَئِكَ كَافِرٌ فِيَّ وَلَا تَسْتُرُوا بِعَاقِبَتِي تَمَتَّنَا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ

بِالْبُطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَزْكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤١﴾

ما طلب من بني إسرائيل

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ عبد الله يعقوب، واللفظان عبريانن أو أسر: القوة، أي قوة الله، أو أسرى ليلاً مهاجرًا إلى الله، أو أسيرَ جنياً لوجه الله كان يطفئ سراج بيت المقدس، وعلى الثلاثة «إيل» لفظ عبري معناه الله، وما قبله عربي.

كما قيل في «تلمسان» تلم بمعنى تجمع عربي، وسان اثنان بلغة البربر أي جمعت حسن البر والبحر، أو اتفقت اللغتان العربية والعبرية، وقيل: «أسر» صفوة أو إنسان، أو مهاجر، والمراد بنو إسرائيل الموجودون حال نزول الآية ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي﴾ اذكروها في قلوبكم لتشكروها بتعظيم القلب، ومدح اللسان، وعمل الجوارح، ولا تكتفوا بمجرد حضورها في القلب واللسان ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أنعمتها أي أنعمت بها، أو ضمن معنى أثبت، وقد أجزى حذف الرابط بلا شرط إذا علم، وهي التنجية من فرعون، وفرق البحر، والإحياء بعد موت، وتظليل الغمام، والمن والسلوى، والعفو، وغفران الخطايا، والتوراة، والماء من الحجر، والصحف... مجموعهن نعمة تتضمن نعمًا، أو الإضافة للحقيقة، أو النعمة

اسم مصدر، أي اذكروا إنعامي بذلك، وذلك لآبائهم، وما كان فخراً لآبائهم فهو فخر لهم، كما أنه نسب إليهم ما فعل آباؤهم من السوء لرضاهم عنهم مع السوء من قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (سورة البقرة: ٩٣) و﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (سورة النساء: ١٥٣) و﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ (سورة البقرة: ٦١) واتخاذ العجل، وتبديل الذين ظلموا، وتحريف الكلم، والتولي بعد ذلك، وقسوة القلب، والكفر بالآيات وقتل الأنبياء.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ بما عهدت إليكم من الإيمان بمحمد ﷺ أخذه من موسى وأخذه موسى عليكم، قال الله جلّ و علا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (سورة المائدة: ١٢) إلخ... والعهد: إنزال نبوءته ورسالته ﷺ في التوراة.

﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما عهدته لكم من الجنة على الوفاء بعهدي ﴿وَأَيَّاي﴾ ارهبوا، يقدر العامل هكذا مؤخرًا للحصر، أي خافوني وحدي على ترك الإيفاء بعهدي، والشاغل الياء المحذوفة في قوله: ﴿فَارْهَبُونِ﴾ في جميع أحوالكم، وفي نقض العهد، وفي أن تنزل نعمة عليكم كأبائكم، وكأنها مذكورة إذ وجدت نون الوقاية المكسورة لها، والفاء صلة للتأكيد، أو يقدر: أَيَّاي فارهبوا، تبهوا فارهبون، وعليه فحذف ارهبوا للدلالة عليه لا على رسم الاشتغال، والرهبة الخوف، أو مع التحرز ﴿وَعَامِنُوا﴾ يا بني إسرائيل، وقيل: المراد العلماء والرؤساء منهم ككعب بن الأشرف، ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ على محمد ﷺ من القرآن

وسائر الوحي ﴿مُصَدِّقًا﴾ أنا، فهو حال من التاء، والأولى أنه حال من الهاء المحذوفة أي أنزلته أو من ما، ﴿لَمَّا مَعَكُمْ﴾ من التوراة والإنجيل، أي صدقته بما أنزلته، أو مصدقًا ما أنزلت، لأن القرآن جاء مطابقًا لما في التوراة والإنجيل فيما ذكر الله فيهما من نبوءة سيدنا محمد ﷺ ورسالته وسيرته، ومن وصف القرآن والقصص والمواعيد والتوحيد والدعاء إليه، والعبادة والنهي عن المنكر، حتى إن أتباعهما موجب للإيمان به وبما جاء به.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ﴾ أي مثل أول ﴿كَافِرٍ بِهِ﴾ أول فريق كافر، أو لا يكن واحد منكم أول إنسان كافر به من أهل الكتاب فيتبعكم من بعدكم ومن معكم، فيكون عليكم إثم كُفْرِكُمْ، ومثل إثم من تبعكم، وقد سبقكم في الكفر به قريش وسائر العرب، ولا تكونوا مثلهم فإنكم أحق وأول من يؤمن لما تتلون في التوراة والإنجيل من الإنجيل به.

والهاء لما معكم، فكفركم بالقرآن كفر بما معكم من التوراة والإنجيل، والعرب لم تسبقكم بالكفر بهما، بل بالكفر بالقرآن.

(لغة) والواو الثانية من أول عن همزة من «وَأَلَّ» إذا نجأ، وفيه معنى السبق والتبادر، وقيل: من آل بمعنى رجع، وقيل: أصل شاذ لا فعل له، إذ لا توجد كلمة فاؤها وعينها واو، وما قيل من أن فعله «وَوَلَّ» بيان لا سماع، وقيل: وزنه فوعل، ويردّه منع صرفه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ضد البيع استعارة عن تستبدلوا ﴿بِنَيَّاتِي﴾ الآيات

التي في التوراة والإنجيل الدالات على ما أنزلتُ على محمد، بأن تحفوها أو تمحوها أو تبدلوها، أو تفسروها بغير تأويلها ﴿ثَمْنًا﴾ مِثْمًا ﴿قَلِيلًا﴾ هو ما تعطيكُم سفلتكُم مَبْنِيًّا على ذلك التغيير وعلى رئاستكم به، وفي الموسم وأزمان الثمار، فتركُ الآيات بتلك الأوجه ثمن اشتروا به مِثْمًا هو ما يعطون، أو ثَمْنَا بمعنى عوضًا، وكلُّ من الثمن والمِثْمَن ثمن ومِثْمَن من حيث أنَّ كلاً عوض.

أو تشتروا تستبدلوا، من حيث أنَّ الاستبدال أعمُّ من الشراء فذلك مجاز مرسل للإطلاق والتقييد، وما يأخذونه كثير لكنَّه بالنسبة لما تركوا من الدنيا قليل.

ويُخ الله اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بالكتم ويبيع الدين والتحريف، وقولهم: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ و﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ و﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقتل أنفسهم، وإخراج فريق منهم من ديارهم، والحرص على الحياة، وعداوة جبريل، واتِّباع السحر. ﴿وَأَيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ مثل ﴿وَأَيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾ لا تخلطوه وهو ما في التوراة والإنجيل ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ هو خلاف الحق من أنفسهم خلطوه بالحق تفسيراً وكتابة، فهو بعد كلام حق؛ وقيل: كلام آخر حق، سواء زادوه بينهما فقط أو أسقطوا كلاماً بينهما وجعلوا مكانه باطلاً ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ أي ولا تكتموا، أو مع أن تكتموا جزماً بالعطف أو نصباً في جواب النهي ﴿الْحَقَّ﴾

كصفة محمد ﷺ، ورجم المحصن إذا سئلوا أنكروا وجود ذلك في التوراة. وكرّر الحقّ للتأكيد إذ لم يضمّر له، أو لأنّ المراد بالأوّل غير صفته ﷺ ورجم المحصن.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّه حقّ، أو تعلمون أنّه موجود في التوراة، أو البعث، أو الجزاء، أو أنّكم لا بسون كاتمون وتقولون: لا يوجد، وذلك قبيح ولو لم تعلموا، فكيف وقد علمتم، أو أنتم من ذوي العلم؟ هكذا فلا يقدر له عملٌ في محذوف.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المنزلتين في القرآن لوجوب الإيمان به واتّباعه عليكم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ محمّد وأصحابه جماعة، أو الجنس.

(فقهه) فالكفّار مخاطبون بفروع الشريعة كما خوطبوا بالتوحيد، وتأويل الآية ونحوها بآمنوا بوجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليكون من الأصول دعوى بلا دليل وتكلف، والحقّ جواز الأمر بالشيء قبل بيانه، فليس ذلك من تأخير البيان عن وقت الحاجة، كما تقول لعبدك: «خِطْ هذا الثوب» فيقول: لا أعرف، فتقول: سأعلمك وأنت حين أمرته عارف بأنّه لا يعرف.

وقدّم الصلاة تدريجاً لأنّها أسهل على النفس من المال ولأنّها أفضل العبادات بعد التوحيد، وقرنها بالزكاة لأنّها تطهّر النفس من البخل وتورثها فضيلة الكرم، كما أنّها تنمّي المال وتطهّره من البخل، فإنّ

الزكاة لغة النمو والظاهرة.

وفيه تلويح بزجرهم عما هم عليه قبل من الصلاة فرادى بلا ركوع، أو المراد بالركوع الانقياد لأمر الشرع وترك التكبر، كانت اليهود تأمر سرًا من أحبوه من أقربائهم ومن حلفائهم من الأوس والخزرج وأصهارهم ومراضعيهم ومن سألهم من قريش وغيرهم من العرب باتِّباع محمد ﷺ، ويقولون لهم: إنَّه رسول الله وهم لا يؤمنون فنزل:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُمْ مَالِفُوا رِجْلَهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَتَّبِعُوا إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

نماذج من سوء أخلاق اليهود

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أنواع الخير والطاعات وترك المحرمات والمكروه، والمراد بالإيمان بمحمد ﷺ لأنه جامع لذلك، وللتوسع في الخير مع الله والأقارب والأجانب، كما هو أصل البرِّ المأخوذ من البرِّ بالفتح للفضاء الواسع ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تتركونها عمدًا من البرِّ فلا تأمرونها به، والاستفهام توبيخ لهم أو إنكار لأن يصحَّ ذلك عقلاً أو

شرعاً، ومحطه قوله: ﴿وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة، وفيها النهي عن مخالفة القول بالعمل، فإنها صورة الجاهل بالشرع والخالٍ عن العقل إذ كان يعظ ولا يتعظ، وليس عدم العمل مسقطاً لفرض الأمر والنهي، فإن لم يعمل ولم يأمر ولم ينه فقد ترك فروضاً، وإن عمل ولم يأمر ولم ينه، أو أمر ونهى وترك العمل فقد ترك بعضها.

والنسيان مشترك بين الزوال عن الحافظة والترك عمداً، وقيل: مجاز في الترك لأنه لازم ومسبب عن الزوال عنها، ونكتة التعبير به التلويح إلى أنه لا يليق أن يصدر ذلك إلا لزوال عن الحافظة.

يطلع ناس من أهل الجنة على ناس في النار فيقولون لهم: «كتم تأمرونا بأعمال دخلنا بها الجنة» فيقولون: «كنا نخالف إلى غيرها».

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟﴾ أي فألا تعقلون قُبِحَ ذلك؟ قدّمت الهمزة على العاطف لتمام صدارتها، أو دخلت على معطوف عليه محذوف، وهكذا في جميع القرآن، أي أتغفلون فلا تعقلون؟! ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ خطاب للمؤمنين لا لليهود، لأنه يليق بمن أذعن فيستكمل به، لا للشارد، ولا ينتفع الباقي على كفره بالصبر والصلاة، إلا أنه لا مانع من الخطاب لهم مراعاةً لقوله: ﴿أَوْفُوا﴾ و﴿آمِنُوا﴾ و﴿اتَّقُوا﴾ و﴿أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَعَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا﴾ ولا سيما أن ما قبل وما بعد فيهم، والمراد: اطلبوا

المعونة على عبادتكم ومباحكم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ حبس النفس على الاجتهاد في العبادة، وعمّا تشتهي من توسيع اللذات، وعلى المعاصي والمكاهر، وعلى المصيبة.

ويقال: من صبر على الطاعة فله ثلاثمائة درجة، أو عن المعصية فستمائة درجة، أو على المصيبة فتسعمائة، بين الدرجتين ما بين الأرض والسماء. ويقال: الصبر على الطاعة أعظم ثواباً من الصبر على المصيبة، وعلى المعصية أعظم منهما.

ولفظ ابن أبي الدنيا وأبي الشيخ عن علي: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية؛ فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض العليا إلى منتهى الأرضين؛ ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرضين إلى منتهى العرش مرتين» .

﴿وَالصَّلَاةَ﴾ قدّم الصبر عليها لأنّها لا تكون إلا بالصبر عن الكسل والملاذ الصارفة عنها وعلى وظائفها من الطهارة من الأنجاس، ورفع الأحداث والخشوع وإحضار القلب وسائر شروطها وشطورها؛ وأفردها بالذكر لأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا أتى بها كما أمر به.

وكان ﷺ إذا اشتدَّ عليه أمر بادر إليها، والآية أنسب باليهود فهم داخلون بالمعنى ولو على القول بأنَّ الخطاب لغيرهم، لأنَّهم منعهم عن الإيمان حبُّ الرئاسة والشهوات فأمرُوا بالصبر، ومنه الصوم، أو المراد به الصوم وهو ضعيف، وبالصلاة لأنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتورث الخشوع ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الصلاة، لأنَّها أقرب مذكور، إنَّ الاستعانة بالصبر والصلاة كقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (سورة المائدة: ٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (سورة الزمر: ٧) أي يرضى الشكر، أو إنَّ الأمور من قوله ﴿اذكروا﴾ أو قوله ﴿واستعينوا﴾ - والراجع الأوَّل - . ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقة، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ، إِلَيْهِ﴾ (سورة الشورى: ١٣) أي شقَّ عليهم.

﴿الْأَعْلَى الْخَاشِعِينَ﴾: الساكين الجوارح، الحاضري القلوب، ميلاً إلى الطاعة، فلا تثقل عليهم، وإنَّ ثقلت فأقلَّ من ثقلها على غيرهم، لاعتيادهم أمثال ذلك، ورجائهم من الثواب ما يستحقر له مشاقهم، حتى أنه ﷺ قال: «جُعِلَتْ قَرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، ويقول: «أرْحَنَا يَا

١ - أوَّل الحديث قوله عليه السلام: «حُبَّ إِلِيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: النَّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قَرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

راوه النسائي في كتاب عشرة النساء، باب حبِّ النساء، رقم ٣٩٤٩.

ورواه البيهقي، في السنن الكبرى، باب الرغبة في النكاح، ج٧، ص١٢٥، رقم ١٣٤٥٤، من

بِلالُ بِالصَّلَاةِ»^(١).

وصحَّ التفرغ لأنَّ كبيرة بمعنى لا تسهل، كما جاء بعد أبي بمعنى لم يُرد؛ أو هو منقطع أي: لكن الخاشعون لا تكبر عليهم.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يعلمون، كما استعمل العلم بمعنى الظنِّ في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ (سورة المتحنة: ١٠)، ﴿أَتَهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾: ملاقوا حسابه بعد البعث أو ثوابه وذلك حذف، أو ملاقوه بالحساب أو الثواب، فشبه المعاملة بالحساب أو الثواب بالحضور، وتعالى الله عن الحلول والجهات.

﴿وَأَنَّهُمْ، إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: للجزاء، أو هذا مطلق رجوع لمطلق الحساب، وملاقاتهم هي على ثواب الصبر والصلاة فلا تكرير، فالظنُّ على ظاهره إذ لا يجزمون بالسعادة.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: كرَّره للتأكيد والإيدان بكمال غفلتهم، وليبي عليه قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾

حديث أنس بن مالك.

ورواه أحمد كذلك.

^١ - رواه أحمد في مسنده، ج ٩، ص ٣٩، رقم ٢٣١٤٩، وأول الحديث: «يا بلال أقم الصلاة،

أرحنا يا بلال».

أي بنعمتي، وتفضيلكم هذا عطف خاص على عام. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: عالمي زمانكم من الناس، إذ جعلتُ فيكم النبوءة والرسالة، والمعجزات والكرامات وخرق العادات، كما فسّر في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة المائدة: ٢٠) كالمُنِّ والسلوى، وخلق البحر؛ أمّا غير الناس من الجمادات والحيوان فلا اعتداد به، وأمّا الجنُ فتبع للناس، أو يرادوا في العالمين؛ وأمّا الملائكة فليسوا في الآية، لأنها فيمن تمكن فيهم النبوءة وما يتبعها، ولو قلنا إنّ الإنسان المؤمن أفضل من الملائكة.

وخرج بعالمي زمانهم نبينا محمد ﷺ وأمّته، فإنّهم أفضل الخلق على الإطلاق، والدليل قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ...﴾ الآية (آل عمران: ١١٠)، وحديث: «أنا سيّد ولدِ آدم»^(١)؛ بل لا ينافي ذلك أنّهم فضّلوا علينا أي زادوا علينا بكثرة الأنبياء وما ذكر، لأنّنا أفضل منهم فرداً فرداً بالذات، بحيث أنّ ثوابنا أكبر من ثوابهم، وسومح لنا ما لم يسامح لهم.

^١ - رواه أحمد في مسنده، ج ٤، ص ٦، رقم ١٠٩٨٧، عن أبي سعيد.

والتزمذي في المناقب (١)، باب في فضل النبي، ص ٣٦١٥، من حديث ابن عبّاس.

ومسلم في كتاب الفضائل (٢)، باب تفضيل نبينا ﷺ على الخلائق (٣)، رقم ٢٢٧٨ من حديث ابن عبّاس كذلك.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: يوم القيامة، احذروا هولاه وعذابه بالإيمان وأداء الفرائض واجتناب الحرام، ويوما مفعول به كما رأيت على حذف مضاف، ويجوز أنه ظرف لمفعول به محذوف، أي العذاب في يوم.

﴿لَا تَجْزِي﴾ فيه ﴿نَفْسٌ عَنِ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تغني عنها في شيء إغناء ما، أو لا تدفع عنها شيئاً بقوتها، أو بأعوان لها لو كانوا ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ فيه ﴿مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي لا شفاعاة للنفس الأولى في الثانية، فضلاً عن أن تُقبل منها. والجملة السالبة تصدق بنفي الموضوع، قال جلّ وعلا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٠٠).

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾: من النفس الثانية ﴿عَدْلٌ﴾ فداء، أو لا يقبل من الأولى الجازية شفاعاة لعدم الشفاعاة، ولا يؤخذ منها عدل؛ أو لا يقبل من الثانية شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل؛ لا تشفع مؤمنة في كافرة، ولا يقبل منها عدل فيها ولا في غيرها، وكذا كافرة لقراءة أو محبة.

﴿وَلَا هُمْ﴾ أي النفس لتكثيرها بعد السلب ﴿يُنصَرُونَ﴾ يدفع عنهم العذاب بالمقاومة والغلبة.

(أصول الدين) والآية دليل لنا وللمعتزلة على أن لا شفاعاة لأهل الكبائر، لأن الآية ولو كانت في المشركين، لكنّها في وصف يوم من شأنه أنه لا شفاعاة فيه بدفع العذاب عن مستحقّه، ولا مقام أو زمان من مقامات الموقف وأزمته نصّ على ثبوتها للفَسَاقِ ولا لشخص مصر.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بِدِيُونِ آبَائِكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ غَرَقَتِهِ ۗ وَالْفِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ- اٰتَيْنَا مُوسَى الْكِتٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَا قَوْمِ ۖ إِنَّكُمْ ظَالِمٌ لَّأَنفُسِكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٦﴾﴾

نِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى الْعِشْرَ عَلَى الْيَهُودِ

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾: واذكروا إذ نجيناكم بإنجاء آبائكم، واذكروا نعمتي وتفضيلي، ووقت إنجاء آبائكم ﴿مِّن - آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أتباع فرعون في دينه.

وهو الوليد بن مصعب بن ريان، عمّر أكثر من أربعمائة، ولقبه فرعون.

(لغة) والفرعنة الدهاء والمكر كذا قيل، ولعله

تصرف بالعربية من لفظ عجمي لا عربي، بدليل منعه من الصرف،

فإنَّه لا علة فيه مع العلمية سوى العجمة التي ندَّعيها.

وهو من ذرية عمليق بن لاود بن إرم بن سام بن نوح.

(لغة) وألف ءال عن هاء أهل، والمعنى واحد،
 فيصغر على أهيل، وقيل عن همزة مبدلة عن هاء، والمعنى واحد أيضا،
 وقيل عن واوٍ من آل يؤول بمعنى رجع إليك في قرابة أو رأيٍ أو
 نحوهما، فيصغر على أوويل، ونقله الكسائي نصًّا عن العرب، وعن أبي
 عمرو غلام ثعلب: الأهل القرابة ولو بلا تابع، والآل بتابع.

﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾: يولونكم على الاستمرار ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ضرَّ
 العذاب ومرارته، أو العذاب السوء: الأشدَّ.

صنف يقطع الحجارة من الجبل وهم أقواهم، وصنف ينقلها والطينَ
 للبناء، وصنف يضرب اللبن ويطحخ الأجر، وصنف للنجارة بالنون،
 وصنف للحدادة، وصنف لضرب الجزية وهم الضعفاء، كلَّ يومٍ من
 غربت عليه الشمس ولم يؤدّها غلَّت يده لعنقه شهرا؛ وصنف لغزل
 الكتان ونسجه وهم النساء.

ومن سوء العذاب تذييح الأبناء، كما قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ
 أَبْنَاءَكُمْ﴾ وقد ذكر أنواع السوء إجمالا مع الذبح في قوله تعالى:
 ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ (سورة إبراهيم: ٦) بالواو، وأمَّا هنا فالمراد ذلك، والمراد بسوء
 العذاب خصوص التذييح ولا منافاة، لأنَّه لم يحصره في الذبح، بل ذكر في

موضع الامتحان ما هو أشدّ، مع أنّه لا مانع من إرادة العموم هنا أيضا بسوء العذاب، إلاّ أنّه مَيَّز بعضا فقط؛ كأنّه قيل: منه تذييح الأبناء. ذبح اثني عشر ألف ابن أو سبعين ألفا، غير ما يسبّب لإسقاط أمّه، فإنّ أسقطت ذكرا ذبحه. والتحقيق أنّ سوء العذاب أعمُّ، فذكر التذييح تخصيص بعد تعميم، أو المراد ما عدا التذييح، وجملة يذبحون حال، وعلى أنّ المراد بسوء العذاب التذييح تكون مفسّرة.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يُبْقُونَهُنَّ حَيَّاتٍ، أو يعالجون حياتهنّ إذا أسقطنهنّ، أو النساء البنات الصغار يقونهنّ بلا قتل، وإن كان السقط بنتا عاجلوا حياتها، أو المراد عموم ذلك كلّه.

﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ المذكور من سوء العذاب إجمالا ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ امتحان، أو في ذلكم الإنجاء إنعام، أو في ذلك الإنجاء وسوء العذاب والذبح ابتلاء، أتصرون وتشكرون أم تجزعون؟ والله عالم، قال الله تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٣٥)، ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ: رَبِّي أَكْرَمَنِي، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ: رَبِّي أَهَانَنِي﴾ (سورة الفجر: ١٥-١٨).

(قصص) رأى فرعون في النوم نارا أقبلت من بيت المقدس، وأحاطت بمصر، وأحرقت كلّ قبطنيّ بها، ولم تتعرّض لبني

إسرائيل، فشقّ ذلك عليه وسأل الكهنة؛ فقالوا له: يولد في بني إسرائيل من يكون سببا في ذهاب ملكك؛ فأمرَ بقتل كلِّ غلام يولد فيهم، وأسرع الموت في شيوخهم، فجاء رؤساء القبط وقالوا: أنت تذبح صغارهم ويموت كبارهم، ويوشك أن يقع العمل علينا، فأمر بالذبح سنة والترك أخرى، فولد هارون سنة ترك الذبح، وموسى سنة الذبح.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ﴾ لأجلكم يا بني إسرائيل، أو بسبيكم، أو شبه سلوكهم بالآلة في كونه واسطة في حصول الفرق، فكانت الباء، ففي ذلك استعارة تبعية، والفرق مقدّم على السلوك فيه، لقوله تعالى ﴿فانفلق فكان كلّ فرق كالطود العظيم﴾ (سورة الشعراء: ٦٣)، وما قيل من أنّه فرق شيئا فشيئا بسلوكهم لا يصحُّ.

﴿الْبَحْرُ﴾ لتسلكوه وتنجوا من عدوكم، بحر القلزم، فرقا مستديرا راجعا إلى جهة المدخل، وكان عرضه في ذلك المحلّ أربعة فراسخ، فيستبعد السلوك فيه على ذلك الطول بلا تقويس، فيحتاجون إلى رجوع في سفن مع كثرتهم، وقيل النيل فرقا على سمت، ويسهل رجوعهم في سفن أو على استدارة وتقويس إلى جهة المدخل وهو أولى، ويهلك عدوكم.

﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من عدوكم ومن الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾

المراد فرعون وآله.

(لغة) هذا الجنس الشامل لفرعون وآله، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (سورة الإسراء: ٧٠) أي جنس البشر الشامل لآدم وذريته، أو آل فرعون هو فرعون وأما قومه فأتباع له، وذكر بالغرق في أي آخر، وذلك كقوله ﷺ: «مزامير آل داود»^(١)، أي مزامير داود. وكان الحسن البصري يقول: «اللهم صلِّ على آل محمد» بدل اللهم صلِّ على محمد، وذلك أن ما للإنسان يكون لأهله تحقيقاً أو فخراً، وأيضاً إذا غرق أهله فهو أولى، لأنه رأسهم وبه ضلُّوا.

وناسب نجاة موسى من الغرق نجاته منه حين ألقى فيه طفلاً، وللأمة نصيبٌ مما لنيئها، وفرعون غرق بالماء إذ فاخر به في قوله: ﴿وهذه الانهار تجري من تحتي﴾ (سورة الزخرف: ٥١) ولقومه نصيبٌ مما له، وكما عجل الموت بإنهارِ الدم عجل موته بالغرق، والموت به شديد، ولذلك كان الغريق شهيداً.

^١ - وأول الحديث أن النبي ﷺ سمع قراءة أبي موسى فقال: «لقد أوتى أبو موسى مزاراً من مزامير آل داود».

رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، رقم ١٨٢٣، في المختصر.

ورواه النسائي، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، رقم ١٠١٨، من حديث عائشة.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: بعد خروج آخركم منه، أو انطباق البحر عليهم بعد دخول آخرهم وبعد خروج أولهم.

(قصص) وبنو إسرائيل يومئذ ستمائة وعشرون ألفاً، ليس فيهم ابن عشرين لصغره، ولا ابن ستين لكبره، وإنهم بقوا في مصر، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة، وبين يعقوب وموسى عليهما السلام ألف سنة، وقيل أربعمائة، بارك الله في ذلك النسل، وهم من عدا من مات ومن ذبح؛ وآل فرعون ألف ألف وسبعمائة ألف، وفيهم من دهم الخيل سبعون ألفاً.

وإسناد النظر إذا كان بمعنى النظر بالعين إنما هو للمجموع، لأنه إنما يرى الغرق، أو أحر بني إسرائيل الذين يقربون من البحر، وإن فسّرناه بالعلم فهو لكل واحد، وفي المشاهدة نعمة زائدة، وإن فسّرنا النظر بنظر بعض إلى بعض من الكوى حين استوحشوا، فأشار بالعصا فكانت الكوى، فالأمر ظاهر، لكن على هذا تتعلّق الجملة بأنجيناكم أو بفرقنا لا بأغرقنا.

﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى﴾: المفاعلة للمبالغة لأنّ من شأن المتفاعلين جدّ كل واحد ليغلب الآخر، وعلى بابها إذ وعده الله إنزال التوراة، ووعد الله الجيء إلى الطور للعبادة، أو يكفي فيها فعل من طرف وقبول من طرف آخر، كما جلت المريض، أو الطلب طرف وامتناع القبول طرف.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ تمام أربعين يوماً بلياليها: ذا القعدة وعشرة من ذي الحجة، أو ذي الحجة وعشرة من المحرم، يصوم الأيام في الطور بوصال، ويقوم الليالي ويتعبّد، جعلتُ له ذلك لأنزلَ عليه التوراة بعد تمامها فتعملوا بها، وأخبره الله بذلك، وعبرنا بالليالي لأنها أوّل اليوم، والشهور والأعوام فإنّها بالهلال، والهلال بالليل، ولأنّ الظلمة أقدم من الضوء: ﴿وَأَيُّة لِّهِمْ اللَّيْلُ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (سورة يس: ٣٧).

(قصص) استخلف هارون على بني إسرائيل، فذهب إلى الطور فتعبّد أربعين، وأنزل عليه بعد تمامها - أو في العشرة الأخيرة، وفي الأربعين كلّها أو في أوّلها، أقوال - التوراة سبعين سفراً، وقلمًا توجد كلّها عند إنسان واحد على عهد موسى أو ما يليه، وذلك بعدما ذهب منها بإلقائه الألواح الزبرجدية المكتوبة هي فيها، فيحتاج إنسان إلى مسألة، فيقال هي في سفر كذا وكذا، عند فلان في موضع كذا، فتلاشت ولم يبق منها إلّا قليل، ثمّ وقع التحريف أيضًا.

ومواعدة الأربعين إخبار بما في نفس الأمر عند الله، إذ كان في الغيب عند الله أن يتعبّد ثلاثين أمره بها، ثمّ يزيد عليه عشرة، والنصب على المفعولية، أي واعدنا موسى إعطاء أربعين يتعبّد فيها، أو على الظرفية، أي أمرا واقعا فيها أو بعدها، أو مفعول مطلق في مواعدة أربعين.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ﴾ اتَّخَذَ آبَاؤُكُمْ الْبَاقُونَ فِي مِصْرَ وَمَنْ مَعَهُمْ، إِلَّا اثْنِي

عشر ألف رجل مع هارون، وقيل اتَّخذه ثمانية آلاف ﴿العِجْل﴾ الذي صاغه موسى السامريُّ المنافقُ لها يعبدونه، فالمفعول الثاني إلهاء، أو لا ثاني له كقولك: اتَّخَذت سيفا صنعته.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات الأربعين.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾: باتَّخاذه لأنفسكم، ولدين الله، ولمن يقتدي بكم، وزمانكم، ومكانكم.

(فقه) وكلُّ من عصى الله فقد ظلم وقته ومكانه، والظلم الضرُّ، ونقصُ حقِّ الشيء، ووضع الشيء في غير موضعه، فاحفظ ذلك لغير هذا الموضع واعتبره، وقد وضعوا العبادة واسم الألوهية في غير موضعهما.

وذلك العجل لحم ودم بإذن الله على الصحيح، وقيل صورة، فنسبة الخوار إليه على التجوُّز، ونُسب للجمهور.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: الاتِّخاذه، قبلنا توبة عبدة العجل بعدما قتلوا منهم سبعين ألفا، ورفع الله عنهم السيف، وصحَّ إطلاق العفو مع عقابهم بالقتل لأنَّه عفو عن مزيد العقاب، بخلاف الغفران فلا يكون مع العقاب، كذا قيل، والصحيح أنَّه يُستعمل كالعفو بلا عقاب ومع عقاب.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تستعملون قلوبكم وألستكم وجوارحكم في

العبادة لمقابلة نعمة العفو، أي عاملناكم معاملة من يرجو الشكر على ما أنعم عليه به لتشكروا.

والشكر استشعار العجز عن الوفاء بحق النعم عند "الجُنَيْد"، والتواضع عند حضور النعمة في القلب عند "الشبلي"، والطاعة لمن فوقك لنعمه، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان.

﴿وَإِذْ - آتَيْنَا﴾ هي إذ الساكنة، فتحت بالنقل، ومُدَّتْ بألف آتينا بعد حذف همزة - [عند ورش].

﴿مُوسَى﴾: منع الصرف للعلمية والعُجْمَة، مركَّب من ماء وشجر، ف"مو" ماء، و"سى" شجر، أُبدلت الشين سينا وزاد الألف، لأنه وُجد بين ماء وشجر في بركة فرعون من النيل، وقيل عربيٌّ مُفْعَلٌ، وقيل فُعلَى، من ماسَ يَمِيسُ، أُبدلت الياء واوا، كطوبى من طاب يطيب، والألف للتأنيث وهو ضعيف، لأنَّ زيادة الميم أوَّلا أولى من زيادة الألف.

﴿الكِتَابِ﴾: الصحف، و﴿الْفُرْقَانَ﴾ التوراة الفارقة بين الحقِّ والباطل، والحلال والحرام؛ أو الكتاب التوراة، والفرقان المعجزات، كالعصا واليد أو كلاهما التوراة، وعُطِفَ تَنْزِيلاً لتغْيِير الصفات منزلةً تغْيِير الذات، أي آتينا موسى كلاماً جامعاً بين كونه مكتوباً من الله في الألواح وفي اللوح المحفوظ، وكونه مفرقاً بين ذلك.

(لغة) والفرقان أيضا مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، والفرقان النصر الفارق بين العدو والولي، كما قيل سُمِّي يوم بدر يوم الفرقان لذلك، وذلك كما تقول: جاء زيد العالم والشجاع والكريم، تريد جاء زيد المتَّصف بالعلم والشجاعة والكرم، ويدلّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٨).

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: من الضلال بهما، أو به إذا قلنا هما واحدٌ، أي لتهتدوا، أو عاملناكم معاملة الراجي، أو أرجو الاهتداء، وكذا حيث تكون لعلّ من الله ولو لم أذكر ذلك.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾: من عبد العجل من الرجال والنساء، فإنّ لفظ "قوم" يستعمل عاما للنساء مع الرجال تبعاً على المشهور، ولو كان لا يستعمل فيهنّ وحدهنّ، لأنّهم القائمون بهنّ: ﴿الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (سورة النساء: ٣٤)، وقيل يجوز إطلاق القوم عليهنّ حقيقة، أو مع الرجال كذلك.

﴿يَا قَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إليها ﴿فَتُوبُوا﴾ من عبادة العجل، وتسميته إلهاً، والدعاء إليه، والرضا بتصويره، مع أنّه لا يقدر على فعل شيءٍ فضلاً عن أن يكون خالقاً.

﴿إِلَىٰ بَارئِكُمْ﴾: خالقكم براءٍ من التفاوت، كيدي في غاية القصر

والرقة وأخرى طويلة غليظة، أو يدٍ سوداء ووجه أبيض، وهو أخصُّ من الخلق، أو مخرجكم من العدم، والخلقُ النقلُ من حالٍ لأخرى والتقديرُ [للشيء].

﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: ليس هذا من التوبة تفسيراً لها، بل هي في قوله ﴿تُوبُوا﴾، وهذا عقاب تصحُّ به توبتهم وتقبل.

(فقهه) كمن فعل ذنباً ممَّا بينه وبين الله، فاستقبحه وندم، عزم على عدم العود وأمر بكفارة، فالتحقيق أن الكفارة ليست من حدِّ التوبة، ولو كانت قد تؤخذ في تعريفها، بخلاف ردِّ المظلمة فمن حدِّها.

ومعنى ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: ليقتلُ بعضكم بعضاً أنفسكم، أو نزَّههم منزلة شيءٍ واحدٍ، وذلك أنهم لم يؤمر كلُّ واحدٍ أن يقتل نفسه، بلا أمر من لم يعبد العجل - وهم اثنا عشر ألفاً - أن يقتل من عبده، والقاتل والمقتول كنفس واحدة نسباً ودينياً، والخطاب لمن لم يعبد في اقتلوا، أو اقتلوا يا عابدي العجل بعضكم بعضاً، أو اسلموا أنفسكم للقتل، فالخطاب للعابدين.

قالوا: «نصير للقتل طاعة لله ليقبلَ توبتنا»، وعلى أن القاتلين من لم يعبد العجل.

(قصص) فالعابدون جلسوا مُحْتَبِينَ، وقال لهم موسى: «من حلَّ

حبوته، أو مدَّ طرفه إلى قاتله، أو اتَّقاها بيد أو رجل، فهو ملعون مردود التوبة»، فأخرجت الخناجر والسيوف، وأقبلوا عليهم للقتل، فكان الرجلُ يرى أباه وابنه، وأخاه وقرينه، وصديقه وجاره، فيرقُّ له ولا يمكنه أن يقتله؛ فقالوا: «يا موسى كيف نفعل؟»، فأرسل الله عليهم سحابة سوداء تغشى الأرض كالمدخان، لئلاً يعرف القاتلُ المقتولَ، فشرعوا يقتلون من الغداة إلى العشيِّ، حتى قتلوا سبعين ألفاً، واشتدَّ الكرب، فبكى موسى وهارون، وتضرَّعا إلى الله فانكشفت السحابة، وسقطت الشفار من أيديهم، ونزلت التوبة، فأوحى الله إلى موسى: «أما يرضيك أن أدخل القاتلَ والمقتولَ الجنة؟»، فكان من قتل منهم شهيداً، ومن بقي منهم مغفوراً له خطيئته من غير قتل، وذلك حكمة من الله عزَّ وجلَّ^(١)، وله أن يفعل ما يشاء، أبدل لهم عن الحياة الدنيا حياة سرمدية بهيجة، وقيل: القتلُ إذلال النفوس بالطاعة، وترك المعصية.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي القتل، ﴿خَيْرٌ﴾ منفعة، أو اسم تفضيل خارج عنه، وإن لم يخرج فباعتبار لذة المعصية في النفوس، أو من باب: العسل أحلى من الحلَّ ﴿لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ﴾ الخطاب للذين لم يعبدوا العجل

^١ - سبحانه الحكيم العليم، أورد هذه الأخبار ابن كثير نقلاً عن الطبري والسدي وسعيد بن جبير وغيرهم، وقال ابن كثير: «هذا قطعة من حديث الفتن» وقد ذكره كاملاً في تفسير سورة طه. ابن كثير: تفسير، ج ١، ص ٩٨.

والذين عبدوه.

أذعن العباد للقتل، وامثل غير العابدين قتل العابدين، مع أنهم نسبهم، وقرباتهم، وأصدقاؤهم، وأصهارهم، وجيرانهم. وكرر لفظ بارئ، ولم يقل خير لكم عنده، ليشعر بأن من هو بارئ حقيق بأن يُمتثل له أمره ونهيهِ. ﴿فَتَابَ﴾ لله، ومقتضى الظاهر: فُتِبْتُ، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم، مَنْ قَتَلَ وَمَنْ لَمْ يَقْتُلْ لِإِذْعَانِهِ لِلْقَتْلِ، ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ مقتضى الظاهر: إِنِّي أَنَا، ﴿التَّوَابُ﴾ على كلِّ من تاب من خلقه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ المنعم على من تاب، أو أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَهَدْتُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ ذَلِكَ تَوْبَتَهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَكُمْ.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَا لَكُمْ الصُّعِقَةَ ﴿٥٥﴾ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فكلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ يَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْحَسِبِينَ ﴿٥٩﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ الْقَوْمِ هَٰ فقلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾﴾

تَمَّةُ النِّعَمِ العِشْرَ عَلى بَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ نسب القول إليهم لأنه لآبائهم، وذلك القول ارتداد منهم، وقيل المراد: لم يكمل إيماننا بك حتى نرى الله عزَّ وجلَّ، كقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه» (١) أي لن يكمل إيمانه. ﴿يَأْمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ بنبوَّتكَ مطلقاً، أو لن ندعن لك، أو لن نؤمن لأجل قولك أو بك فيما تقول من أنَّ التوراة من الله، أو من أنَّ الله ألزمننا قتل عابدي العجل كفارة لهم، أو من أنَّ هذا الذي سمعنا كلام الله، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه الذين لم يعبدوا العجل لميقات وقت لهم من خيارهم، أمره الله أن يأتي بهم إلى طور سيناء ليعتذروا ويطلبوا العفو عن عباد العجل، فأتى بهم وأمرهم أن يتطهَّروا ويظهَّروا ثيابهم ويصوموا، وقالوا له: ادع الله أن يُسمعنا كلامه، فأسمعهم: «إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، أَخْرَجْتُكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِيَدٍ سَدِيدَةٍ، فَاعْبُدُونِي وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرِي» سمعوا كلام الله بأن خلق صوتاً في أبدانهم أو في الهواء أو حيث شاء، أو في أبدانهم أو أسماعهم.

١ - رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حبِّ الرسول من الإيمان، رقم ١٤.

ورواه مسلم، في كتاب الإيمان، باب العليل على أنَّ من خصال الإيمان أن تحبَّ...

رقم ٧١ (٤٥)، من حديث أنس بن مالك؛ وأحمد وغيرهم

وقيل: القائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات التوراة، قالوا بعد الرجوع وقتله عبدة العجل وتحريقه، وقيل: عشرة آلاف من قومه، وعلى كلِّ حال لم يقنعوا بذلك وسألوا الرؤية جهاراً كما قال: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، أي رؤيةً جهرَةً بحاسَّة العين لا مناماً وقلباً، أو ذوي جهره، أو مجاهرين أو مبالغه، أو قولاً ذا جهره، أو قول جهره، أو قولاً جاهراً أو مبالغه.

﴿فَأَخَذْتَكُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ النار مع صوت شديد من السماء لطلبكم ما لا يجوز، ويُلزم التشبيه، ولتوقفكم عن الإيمان حتى شرطتم له.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يرى بعضكم بعضاً كيف يموت، أو ترون أثر الموت في أنفسكم، إذ يُحيي كلَّ واحد منكم عضواً عضواً، أو يرى بعضكم يُحيي من موت.

وقيل: الموت هنا غشيان كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ (سورة إبراهيم: ١٧) كذا قيل، ولعلَّه تمثيل، وإلا فغشيان أهل النار إراحة لهم لو كان، لكن لا يكون.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بيومين من حيث موتكم، يرى بعضكم بعضاً كيف يحيى لدعاء موسى عليه السلام وتضرُّعه إلى ربِّه أن يحييهم، ويقول: ياربِّ خرجوا معي أحياء ويقول قومهم قتلتمهم أنا، ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٥).

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الإحياء بعد الموت، والله أن يميت الإنسان مرتين أو ما شاء.

(أصول الدين) والآية دليل على كفر مجيز الرؤية دنياً

أو أخرى، وذلك لأنَّ إجازتها - ولو في القلب - إجازة لتكيفه، وتكيفه ممتنع لأنَّ فيه تشبيهاً، وإدراكه بالقلب تكيف لا يتصورُّ بدونه فلا يصحُّ قولهم: بلا كيف، وتكيفه في القلب بلا تقدير أن يكيفه لغيره هو من نفس المحذور، فبطل قول طوائف من المبتدعة أنَّ الصاعقة ليست مجرد الطلب بل لعنادهم واشتراطهم؛ وإذا كان المنع للتشبيه لم يضرنا أنَّها نزلت لطالبيها في الدنيا.

﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلناه ظلَّة عليكم من حرِّ

الشمس، وهو السحاب الرقيق يسير بسيرهم في التيه.

أمرهم الله بقتال الجبارين فقالوا: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (سورة المائدة: ٢٤) فحبسهم الله في التيه، وكانوا يسرون ليلاً ونهاراً، وينزل عليهم عمود من نور يسرون في ضوئه، وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى، وذلك من الله لا كما قيل: لا تبلى لعدم الحرارة ولا تتسخ لعدم الدخان.

والتيه واد بين الشام ومصر، فيه طرق لا رمل فيها بين جبال من رمل يمشي فيها الركب المصريُّ والمغربِيُّ والشاميُّ، عرضه تسعة فراسخ في ثلاثين فرسخاً، وقيل: ستَّة فراسخ في اثني عشر فرسخاً؛

وقيل: خرجوا من التيه فوقعوا في صحراء، واشتكوا الحرَّ فظللهم الله عزَّ وجلَّ بالغمام؛ وقيل: من عبد الله منهم ثلاثين سنة ولم يعص فيها أظله الغمام، فكان ذلك لجماعة منهم.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ في التيه ﴿السَّمْنَ﴾ الترنجيبين بالمشناة فوقية والراء المهملة والجيم والموحدة والمشناة التحتية والنون: لفظ يوناني تستعمله الأطباء، ويقال: معرَّب «ترتكيبين» وهو شيء يشبه الصمغ حلو مع بعض حموضة كالزنجبيل، ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع، وينزل على الأشجار قليلاً إلى الآن في بوادي «تركستان»، وهو مشهور في بلدة «آمد» وحواليها، شهر فيهم بحلوة القدرة^(١)، وقد أمروا في التيه أن لا يأخذوا أكثر من صاع كلَّ يوم، ولا يدَّخروا الزيادة إلاَّ يوم الجمعة فيأخذون فيه صاعين ليَدَّخروا ليوم السبت، فإنَّه لا ينزل يوم السبت.

﴿وَالسَّلْوَى﴾ طائر يشبه السمانى، أو هو السمانى، وألفه ليست للتأنيث لورود سلواة قلبت هذه التاء للوحدة لا للتأنيث، وقيل: هو واحد والجمع سلاوة، وقيل: هو للواحد فصاعداً؛ تبعثه عليهم ريح الجنوب فيذبح الرجل ما يكفيه على حدِّ ما مرَّ في المنِّ، ويطير الباقي، وذلك بكرة وعشياً أو متى شاءوا، وأدَّخروا من المنِّ والسَّلْوَى

١ - لعلَّ المراد أنَّها حلوى من الله تعالى، فهو المأثُّ بها.

فأصاب التن ما ادَّخروا، وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عنه رضي الله عنه: «لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْتَزِ اللَّحْمُ...» (١) الحديث.

ويروى أنَّ السلوى تجيئهم مطبوخة أو مشوية، قيل: ويناسبه الحديث المذكور لأنَّ التغيير أنسب بالمطبوخ، وهو أعظم معجزة، قلت: كما يخنز المطبوخ يخنز غير المطبوخ، ولا تثبت المعجزة بلا دليل قوي. وقدّم المنّ مع أنّه حلوى على السلوى مع أنّها غذاء لأنّ نزوله من السماء خارق للعادة بخلاف الطير.

قائلين لكم:

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ المنّ والسلوى طيّبان: طيب لذة، وطيب حلال، وطيب مجيء بلا كسب، فكفروا النعمة وادَّخروا فقطعا عن حالهما، فصارا يدودان ويخنزان ولو بلا ادِّخار، وعاشوا بهما كذلك، ظلموا أنفسهم بذلك.

١ - البخاري في كتاب الأنبياء ٢، باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، رقم ٣١٥٢؛ ومسلم في الرضاع ١٩، باب لولا حواء لم تحن أنثى زوجها، رقم ٦٥ (١٤٦٨)؛ وأحمد في مسنده ج ٣، ص ١٦٩، رقم ٨٠٣٨ من حديث أبي هريرة.

(فقاء) وإذا وضع الطعام بين يديك فقبل لا تأكل حتى يقول حامله: إليك كُلْ، لمناسبة الآية، وقيل: لك الأكل بلا انتظار لقوله: كُلْ، وهو أولى إن اطمأنت النفس لذلك.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أشار به إلى أنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمخالفة، وصرح به في قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تكرر الظلم منهم واعتادوه، وكانوا ستمائة ألف في التيه، وفيه مات هرون وموسى، وماتوا كلهم فيه إلا من لم يبلغ العشرين.

ذهب موسى وهرون إلى غار فمات هرون فدفنه موسى، فقالوا: قتلته لِحُبِّنَا إِيَّاهُ، فتضرع إلى الله فأوحى إليه أن اسر بهم، فناداه: ياهرون، فخرج ينفذ رأسه، فقال: أنا قتلتك؟ قال: لا ولكن مت، قال: فعذ كما كنت في قبرك. وعاش موسى سنة، ومر في حاجة له بملائكة يحفرون قبراً لم ير أحسن منه بهجة وخضرة ونضرة، فقال: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد كريم على ربّه، فقال: إن هذا العبد من الله بمنزلة! فقالوا: يا صفي الله، أتحب أن يكون لك؟ قال: نعم، قالوا: فانزل فاضطجع فيه وتوجه إلى ربك، ففعل، وتنفس أسهل تنفس ومات، وسووا عليه التراب. وقيل: أتاه ملك بتفاحة من الجنة فشمها فمات، وليس كما قيل: إنّه مات في جبل أحد، لقوله ﷺ: «لو أنسي عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند

الكثيب الأحمر» لعدم صحّة هذا الحديث عنه ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لمن بقي من أهل التيه حيًّا بعد خروجهم ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ «أَرِيحًا» بفتح الهمزة وكسر الراء وإسكان المثناة التحتيّة بعدها حاء مهملة، قرية في الغور قريية من بيت المقدس، في مكان منخفض بين القدس وهوران مسيرة ثلاثة أيّام في عرض فرسخين، وهي قرية الجبّارين، فيها قوم من بقيّة عاد، يقال لهم العمالقة، ولم تصحّ قصص عوج ولا أنّه رأس هؤلاء الجبّارين، والقائل بإذن الله هو يوشع بن نون نبأه في آخر عمر موسى، وربّما قال له موسى: بِمَ أوحى الله إليك؟ فيقول: لم أكن أسألك عن ذلك.

ويروى أنّه لما احتضر في التيه أخبرهم بأنّ يوشع بعده نبيّ، وأنّ الله عزّ وجلّ أمر يوشع بقتل الجبّارين فقاتلهم وفتح أريحا. قيل: يروى عن رسول الله ﷺ أنّ الله تعالى أرسل ملك الموت إلى موسى فلطمه موسى وفقاً عينه، فقال: ياربّ أرسلتني إلى عبد كره الموت، ففقأ عيني، فردّ الله عليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي وقل له: إن شئت أحياك الله عدد ما تقع عليه يدك من شعر متن الثور سنين، فقال له موسى: ثمّ ماذا؟ قال: ثمّ تموت، قال: «الآن من قريب، ربّ أدنيني من الأرض المقدّسة رمية حجر» وقبره في التيه بجانب الطريق عند جبل رمل.

ولا يصحّ عنه ﷺ أنّ موسى عليه السلام فقأ عين ملك

الموت، ولا ضررٌ به لأنه ظلم لملك الموت، وسخط لقضاء الله، وردُّ له، اللهمَّ إلا إن جاءه في صورة لص أو قاطع، ولم يعلمه ملك الموت، وعينه جسم نورانيُّ.

وقيل: القرية بيت المقدس على يد يوشع، وقيل: على يد موسى، وأنه خرج من التيه بعد أربعين سنة مع قومه، وعلى مقدّمته يوشع، وفتحها وأقام ما شاء الله ثم مات. وسمّيت القرية قرية من قرى بالألف بمعنى جمع، وهي جامعة للناس.

﴿فَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ لا منع عليكم مني ولا من أحد ولا من قلة أو جذب، فهذا مستثنى من كون الأمم السابقة لا يأكلون الغنيمة، فإنَّ لداخلي القرية المذكورة أكل ما فيها من مال العمالقة وأخذه ونقله إلى حيث شاءوا.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب أريحا، أراد الحقيقة، فإنَّ لها سبعة أبواب أو ثمانية يدخلون من أيّها شاءوا ﴿سُجَّدًا﴾ منحنين تواضعًا، وقيل: على الأرض.

وقيل: القرية قرية بيت المقدس، والباب بابها المَقُول له باب حطة، والقائل ادخلوا موسى عليه السلام، قال لهم في التيه: «إذا مضت أربعون سنة وخرجتم من التيه فادخلوا بيت المقدس»، وقيل: خرج موسى من التيه حيًّا بعد الأربعين. بمن بقي منهم ففتح

أرجحاً ومات.

﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾ مسألتنا حِطَّةً، أو شأنك حِطَّةً، أي أن تحطَّ عنَّا ذنوبنا؛ وقيل: لفظ تعبُدٍ عبراني لا يُدرى ما هو، وقيل: تواضعٌ لله، أي أمرنا تواضعٌ لله.

﴿يُغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ ذنوبكم.

(صرف) والأصل: خطائي ياء بعد الألف زائدة هي ياء خطيئة أبدلت همزة فاجتمعت همزتان قلبت الثانية، وهي لام الكلمة ياء، ثم قلبت الياء ألفاً فكانت الهمزة بين ألفين فقلبت ياء، وإنَّما أبدلوا الياء ألفاً لفتح الهمزة قبلها مع تحرُّكها في النصب لفظاً، وفي الجرِّ والرفع حكماً، وقال الخليل: الهمزة على الياء التي بعد الألف، وفعل ما ذكر.

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً لإحسانهم بالطاعة، عطفت الجملة على ﴿قُولُوا حِطَّةً﴾ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالقول الذي قيل لهم منهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي جعلوا قولاً مكانه، كقولك: بدَّلَ بخوفه أمناً، أو صيَّروا القول الذي أمروا به قولاً آخر، وبدَّلوا فعلاً إذ لم يدخلوا سجداً بل يزحفون على أستاههم، وقالوا حبةً في شعرة، أو في شعيرة أو حنطة في شعيرة، أو حطاً سمقائاً، أي حنطة حمراء، ولعلَّ بعضاً قال كذا وبعضاً قال كذا وذلك استهزاء.

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بتبديل القول والفعل لسبب

التبديل، ومقتضى الظاهر فأنزلنا عليهم لكن أعاد ذكر ظلمهم للمبالغة في تقييح شأنهم، وللتصريح بموجب العقاب ﴿رَجْزًا﴾ طاعونًا، أو صاعقة، أو ظلمة، أو ثلجًا، وأول الطاعون في بني إسرائيل ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ولو كان الطاعون من الجن، لأنَّ قضاءه من الله، وبأسباب سماوية فقال لذلك: من السماء مع أنه أرضي ﴿بِمَا كَانُوا﴾ بكونهم ﴿يَفْسُقُونَ﴾ يظلمون الظلم المذكور وهو خروج عن السجود وقول حطّة، وسمّاه في "الأعراف" ظلمًا^(١)، أو أراد بالفسق مطلق معصيتهم، ومات بهذا الرجز في هذه القرية التي أمروا بدخولها في ساعة سبعون ألفًا أو أربعة وعشرون ألفًا.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ طلب لهم موسى من الله السقي حين عطشوا في التيه، طلبوا الطعام فأعطوا المن والسلوى والماء، فاستسقى لهم موسى فأعطوه، واشتكوا الحرّ فأظلمهم الله بالغمام. ذكر الله عزّ وجلّ كلّ واحد على حدة في معرض أمر مستقلّ موجب للتذكّر، استأنف لذلك ذكرًا بعد فصل عن قصّة التيه مبالغة في بيان أنّ السقي نعمة عظيمة ولو ذكرها عقب قصّة التيه، ولو مع "إذ" هذه لكان بما يتوهم متوهم أنّ الكلّ نعمة واحدة. وقال أبو مسلم: ليس هذا في التيه.

١ - قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (الآية: ١٦٢)

(قصص) ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ الذي فرَّ

بثوبك لتتبعه من مغسلك عارياً، ليرى بنو إسرائيل أنك ما بك أدرة، كانوا يغتسلون عراً، وموسى في خلوة فاتَّهموه بانتفاخ بيضته، وهو ذراع في ذراع له أربعة أوجه، وقيل: كراس الرجل من رخام، وقيل: خفيف، ومن قال مسلَّس اعتبر ما يلي الأرض وما يلي السماء، لأنه لا انفجار منهما. أوحى الله إليه مع جبريل أن يحمله إذا احتاجوا ماء ضربه فسال، وإذا اكفوا ضربه فأمسك، وهذا معجزة أخرى إذ كان فعل واحد وهو الضرب سبباً للماء وكفه، وكلما ضرب خلق الله الماء، وكلما ضرب آل أو جمع الله المياه الكثيرة في الحجر الصغير، وخلق فيها حفة. ﴿فَأَنْفَجَرْتُ﴾ فضربه بعصا فانفجرت.

وقال وهب: ما هو حجر معين بل يضرب بها أي حجر أراد فيسيل ماءً، فيضرب أقرب حجر إليه ولو صغيراً؛ وقيل: حجر كان عند آدم وصل مع العصا إلى شعيب فأعطاهما موسى، وقيل: حجر خفيف من قعر البحر يشبه رأس الآدمي يحمله في مخلاته، ويقال: حجر مربع يخرج من كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين^(١). وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى، لها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً حيثما كان، وأمّا هم في التيه فلهم عمود من

١ - أورد هذه الأوجه وغيرها ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، وذكر عن الزمخشري والحسن أن الله لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، وأل فيه للجنس، وهذا أنسب وأقوى في المعجزة.

نور ليلاً، حملها معه آدم من الجنة، وتوارثها الأنبياء إلى شعيب فأعطها موسى.

والانفجار السيلان بوسع بعد انشقاق، وهو الانبجاس في السورة الأخرى، أو هو الرشح بقليل والانفجار بعده بوسع.

﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقيل: خرج آدم بها وبالبحر من الجنة فتوارثهما الأنبياء كذلك إلى موسى، لكل سبط عين، وهم اثنا عشر سبطاً، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدًا، لكل ولد ذرية هي سبط.

﴿قَدْ عَلِمَ﴾ عرف ﴿كُلُّ أَنْسٍ﴾ أي قوم هم سبط ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم من الإثني عشرة، لا يشاركون غيرهم ولا يشاركونهم غيرهم من كل وجه من وجوه الحجر الأربعة، ثلاثة أعين كل واحدة تسيل في جدول، وسعتها اثنا عشر فرسخاً أو ميلاً وهو أولى، وعددهم كما مرّ ستمائة ألف.

(نحو) والجملة نعت اثني عشرة، والرباط محذوف أي

مشربهم منها أو مستأنفة، أو حال بتقدير الرباط العائد إلى صاحب الحال أي منها كما في النعت، والمسوِّغ ليجيء الحال من النكرة تخصيصاً بالتمييز، قلنا لهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ المن والسلوى وماء العيون، أضيف لله لأنه بلا عمل منهم، وقدم الأكل لأنه العدة، وبه قوام الجسد والاحتياج إلى الماء حاصل عنه، ولأنه مركب للطعام. والرزق

بمعنى المرزوق وهو الطعام تحمله الماء إلى العروق.

(أصول الدين) ولا دليل للمعتزلة في الآية على أن

الحرام غير رزق فإنه رزق يؤخذ عليه متعمده، وكذا جاهله إذا كان مما يدرك بالعلم، وليس في الآية سوى أنه أمرهم بالأكل والشرب من ذلك، واتفق أنه حلال والله عالم بأنه حلال، وإن أريد بالرزق العموم فالحلال قيد من خارج لا من لفظ الرزق.

﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ تفسدوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض التيه وغيرها مما قدروا أن يصلوا إليه، وما يخرجون إليه إذا أخرجهم الله منه ﴿مُفْسِدِينَ﴾ تأكيد في المعنى لتعتوا باعتبار النهي، أي نهيتهم نهياً شديداً عن الإفساد، وإن جعلنا العتي بمعنى الاعتداء المطلق، أو بالشرك والإفساد بالمعاصي فلا تأكيد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا ذَبْحًا مِمَّا تَشَاءُ﴾ تَنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِبِهَا وَقَوْمِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِيهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ إِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَصُرِبْتُمْ عَلَيْكُمْ الذَّلِيلُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بَغْيَ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥١﴾

مطامع اليهود وبعض جرائمهم وعقوباتهم

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ في التيه ﴿يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾
 المن والسلوى، سمّاهما واحداً باعتبار أنّهما طعام لكلّ يوم لا ينقص
 أحدهما ولا يزداد عليهما ولا يبدلان، هما أو واحدتهما، أو باعتبار
 أنّهما جمعهما الاستلذاذ الشديد ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا
 تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ ما نأكله فإننا سئمنا المنّ والسلوى، أي بعض ما
 تنبته الأرض، ويبيّنه بقوله: ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ إلى آخره، أي هي بقلها أو
 بعض بقلها، وهو ما تنبته الأرض ولا ساق له، والمراد ما يؤكل منه،
 يكون حاراً وبارداً، ورطباً ويابساً ﴿وَقَشَائِهَا﴾ ما يؤكل بطيخاً إذا
 أئنع، أو الخيار، كلاهما بارد رطب. ﴿وَفُومِهَا﴾ بُرّها، بل كلّ ما
 يجبز فوم، أو ثومها، وهو حارّ يابس، وعليه فهو لغة، أو أبدلت الثاء
 المثلثة فاء كجذف في جدث، وفمّ في ثمّ، وهو مسموع لا مقيس.
 ﴿وَعَدْسِهَا﴾ بارد يابس. ﴿وَبَصْلِهَا﴾ وهو حارّ رطب، وإن طُبِخ
 كان بارداً رطباً.

﴿قَالَ﴾ موسى، أو الله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ إنكار لأن يليق ذلك
 شرعاً أو عقلاً أو توييح ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أقرب وجوداً وتحصيلاً
 لقلّة قيمته، أو أدناً بالهمزة كما قرئ بها قلبت ألفاً من الدناءة وهو
 الخسّة، أو أدون أي دون كذا في الرتبة، أخّرت الواو وقلبت ألفاً.
 والأدنى على الأوجه البقل والقشّاء والفوم والعدس والبصل، وأُفردن

هنا بالذكر باعتبار أَنَّهُنَّ كواحد إذ هنَّ نوع خالف المنَّ والسلوى،
وبدل منهما ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أفضل، وهو المنُّ والسلوى أفردهما
لِما مرَّ، والذي يظهر لي أَنَّهُ تعالى ما عاب عليهم هذا الاستدلال، إلاَّ لأنَّه
خلق فيهم عدَمَ سَأَمَتِهِمَّ لِلْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وإلاَّ فقد خلق الله تعالى في الطباع
سَأَمَةَ الْإِنْسَانِ ما دام عليه من طعام مثلاً، ولاسيما أَنَّهُ لا يخلط به غيره،
ولا سيما مع طول المدَّة، فما ذكر عنهم من السَأَمَةِ غير ثابت عنهم، أو
ادَّعَوْها مع عدمها، واستمرُّوا على طلب البدل، فقال اللهُ جَلَّ جلاله على
لسان موسى عليه السلام بعد دعائه اللهُ فيما سأَلوا:

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ إن قدرتم على الخروج من التيه، وليسوا
بقادرين، والأمر للتعجيز، كقوله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً...﴾، أو
للإطلاق بعد الحصر على أن يكون ذلك عند قرب موت موسى عليه
السلام وقرب الخروج من التيه، أو على أن موسى لم يمت فيه بل خرج
معهم، ويعد أن يكون قائل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ اللهُ على لسان يوشع
حين نُبئ في التيه عند حضور الخروج.

(لغة) والمراد مصرٌ مَّا من الأمصار، أو القاهرة^(١) أو

١ - لعلَّه يعني موضع ومكان القاهرة، أو المراد عاصمة مصر آنذاك وهي الاسكندرية، وإلاَّ
فالقاهرة حديثة النشأة بالنسبة لعهد موسى عليه السلام.

أعمالها، وعلى الأخيرين، نُؤنّ مع أنّه علم على القاهرة أو أعمالها، لأنّه ثلاثي ساكن الوسط كهند، أو بتأويل البلد أو المحلّ، ويدلّ لهما قراءة عدم التنوين.

ومعنى هبوط مصر نزوله، والهبوط دناءة الرتبة فإنّ طعام التيه أفضل من طعام مصر، أو حسّي بأن تكون أرض المصر الذي يخرجون إليه أسفل من أرض التيه.

﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ في المصر ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ من البقل وما بعده، إلّا أنّه إذا فسّرنا القوم بالثوم كان الكلّ بقلًا وجنسه، وكلامهم إنّما هو على الطعام فالمناسب أنّه البرّ وما يجيز طعامًا لكنّ أفضله البرّ، وذكر أولاً ما يؤكل بلا علاج نار، وذكر بعده ما يعالج بها، مع تقديم الأشرف فالأشرف.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ جعلت على فروعهم لفعالهم مثل أفعال آبائهم ورضاهم عنهم، ولاسيما بعد ذهابهم إلى قتل عيسى عليه السلام، جعلا شبيهاً بنقش الدراهم في لزوم الأثر واستمراره، ففي ضرب استعارة تحقيقيّة تبعيّة.

﴿الذَّلَّةُ﴾ ضعف القلب أو الخوف ممّا لا يُخاف منه، ولاسيما ما يخاف منه، أو هي الجزية. أخير الله جلّ جلاله أنّها ستكون عليهم إذا بعث محمد ﷺ فهذه معجزة، وإن لم يقل هذا ممّا لم يوح به قبل

القرآن فواضح أيضاً، أي قضيت عليهم أنها ستكون.

﴿وَالْمَسْكِنَةُ﴾ أثر الفقر الظاهر على البدن ولو كانوا أغنياء، ولا يوجد يهوديٌ غنيُّ النفس.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ رجعوا، أو احتملوا، أو استحقوا، أو أقرُّوا أو لازموا حال كونهم ملازمين لغضب الله، وهو قضاؤه الأزليُّ عليهم بالشقوة وتوابعها، أو هو ذمُّه إياهم في الدنيا وعقابه في الآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الغضب وضرب الذلَّة والمسكنة، وصيغة البعد لبعث ما قبل البوء بغضب، أو لبعث ذلك عن منصب من أكرمه الله بنعم الدين والدنيا وأنزل عليه كتاباً، لِفِظَاعَتِهَا أو لبعدهم عنها.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي سبب ذلك أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يؤوِّل المصدر من كان أي بكونهم يكفرون، وكثير يأتون به من خبرها، مثل أن يقال هنا: بكفرهم، وكأنَّهم يقولون بأنَّه لا تدلُّ على الحدث، والتحقيق أنَّها تدلُّ عليه.

﴿بَنَاتِ اللَّهِ﴾ التي أنزلت في التوراة ممَّا يكرهونه، والتي في الإنجيل مطلقاً لكفرهم بعبسى عليه السلام، أو بما خالف منه التوراة، وبما أنزل من صفات رسول الله ﷺ وكتابه، وذلك قبل أهل عصره ﷺ، كراهة لأن تخرج النبوءة من ولد هرون عليه السلام، وقد

أنكروا الرجم أيضاً قبله ﷺ.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ مجموع ذلك لمن بعد موسى، وأمّا من في زمانه فلا إلاّ الذلّة.

روي أنّهم قتلوا بعده سبعين نبياً أوّل النهار، ولم يشغلهم ذلك حتى أنّه قام سوق البقل آخر النهار، وقتلوا زكرياء وأشعيا، وعملوا في قتل عيسى. وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة غافر: ٥١) فإنّما هو بالحجّة وبأخذ الثأر بعد، فذلك لا يتخلّف، كما روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ الله عزّ وجلّ قدر بأن يقتل بكلّ نبيّ سبعين ألفاً، كما كان بعد قتل يحيى، وبكلّ خليفة خمسة وثلاثين ألفاً»؛ والمراد بالنبئين ما شمل الرسل لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَّا لَا تُهَوِّىْٓ أَنفُسَكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ...﴾ (سورة البقرة: ٨٧).

﴿بَغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عندهم، فإنّهم يقتلونهم تشهياً وحباً للدنيا، ولا يعتقدون أنّ قتلهم حقّ، فليس المراد أنّه قد يكون قتل الأنبياء حقاً إذ لا يفعلون موجب قتل، ولا يبيح الله دمهم بلا موجب، ووجه آخر أنّ المراد بيان الواقع كالصفة الكاشفة تأكيداً لذمهم وفضيحة، أو يعتبر أنّه لو شاء الله لأباحه كما أباح لملك الموت، وكما أمر إبراهيم

بذبح إسماعيل، وقيل: قتلوا في بيت المقدس في يوم واحد ثلاثمائة نبي.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور البعيد من الغضب وضرب الذلّة والمسكنة، كرّر للتأكيد، أو ذلك المذكور من الكفر وقتل الأنبياء. ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا﴾ بعصيانهم وكونهم ﴿يَعْتَدُونَ﴾ ينهمكون في المعاصي.

ولا تنس أن المعصية توجب العقاب بالإيقاع في معصية أعظم منها وذلك بعصيان منهم في قتلهم لا باعتقاد حل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيْنَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

عاقبة المؤمنين بنحو عام

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قبل بعثة سيّدنا محمد ﷺ من لدن آدم أو بعدها بالأنبياء والوحي والكتب، كتّبع، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقسّ بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وقيل: المنافقون بإضمار الشرك، وقيل: مؤمنوا هذه الأمة، فمعنى ﴿مَنْ - آمَنَ﴾ على هذا القول والأوّل من آمن من اليهود والنصارى والصابيين، وأمّا على غيرهما فالمعنى من تاب من نفاقه، ويهوديته، ونصرانيته، وصابيته، وآمن بمحمد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾: دخلوا في اليهودية.

(لغة) واليهودية من هاد، بمعنى تاب من عبادة العجل، أو سكن، ومنه الهوادة؛ أو معرَّب يهوذا - بذال معجمة بعدها ألف - عُربَّ بإهمال الذال وإسقاط الألف، سُمُّوا باسم ولد يعقوب يهوذا وهو أكبر ولده، ولا يلزم أن يكون هذا الاسم قبل موسى، مع أنَّهم في زمانه وما بعده فقط، ولا أن يكونوا كلَّهم عبدوا العجل، لأنَّ التسمية تحدث ولو بعد زمان من سُمُّوا به، ولأنَّ وجه التسمية في بعض الأفراد كاف.

(لغة) ﴿وَالنَّصَارَى﴾: جمع نصران، كالندامي، والياء في نصراني للمبالغة، كقوله: «والدهر بالإنسان دَوَّارِيٌّ» أي دَوَّار، ورجل أحمرِيٌّ أي أحمر، وقيل: للوحدة، كزنجيٌّ من زنج، وروميٌّ من روم؛ وقيل: جمع نصري كمهريٍّ ومهاري حذفت إحدى ياعيه، وفتحت الراء، وقلبت الياء الباقية ألفاً.

سُمُّوا لأنَّهم نصرُوا المسيح، أو لأنَّهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران عند الجوهريِّ، أو نصرانة أو نصرانيا، أو نصرى أو ناصرة، كان عيسى ينزلها سُمُّوا باسمها، أو باسم مؤسسها كما سُمِّيت قسنطينة المغرب والعظمى باسم من بناها.

﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ طائفة من اليهود أو من النصارى، عبدوا الملائكة أو الكواكب، أو بين اليهود والمجوس؛ أو تعبد الكواكب في الباطن، وتنتسب إلى النصارى في الظاهر؛ أو لفَّقوا ديناً من التوراة والإنجيل،

ولمَّا جاء القرآن أخذوا منه بعضًا كالصلاة إلى الكعبة والوضوء؛ أقوال.

ويَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى دِين صَائِي بِن شَيْت بِن آدَم؛ وَقِيلَ: مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ الثَّوَابِتَ وَهُمْ صَابِئَةٌ هِنْدُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُونَ السَّيَّارَةَ وَهُمْ صَابِئَةُ الرُّومِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْزَعُ إِلَى الْجَمَادَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصَلِّي إِلَى الْجَنُوبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ. مِنْ صَبَا يَصْبُو بِلَا هَمْزٍ، أَوْ صَبَا يَصْبَأُ بِالْهَمْزِ قَلْبَ يَاءٍ وَحَذَفَتْ، كَمَا حَذَفَتْ فِي الْأَوَّلِ الْيَاءَ الَّتِي هِيَ عَنْ وَاوٍ.

﴿مَنْ - اَمَنَّ﴾ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّائِينَ، وَتَرَكَ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ. ﴿بِاللَّهِ﴾ وَرَسَلَهُ وَأَنْبِيَائِهِ وَكُتِبَ، وَلَمْ يَنْكُرْ نَبِيًّا أَوْ كِتَابًا. ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، وَلَمْ يَذْكَرِ الْمَجُوسَ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ تَبِعَ كِتَابًا لَنَجَا، إِذْ كُتِبَ لَهُمْ أَضَاعُوهُ سُرْعَةً. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وَلَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسَلِهِ قَبْلَ بَعْثِ نَبِيِّنَا ﷺ، أَوْ بَعْدَهَا فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَ الْقُرْآنَ.

(أصول الدين) ومن لم يؤمن به وبالقرآن لم ينتفع بعمله فهو مشرك في النار، وهو غير متبع للتوراة والإنجيل بل كافر بهما أيضًا، لأنَّ فيهما

الأمر باتِّباعه ﷺ؛ وكذا من كفر من اليهود والنصارى قبل سيّدنا محمد ﷺ لا يدخلون في الآية، كمن قال: عيسى إله، ومريم إله، أو عيسى ابن الله.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أجره عملهم للطاعات وتركهم للمعاصي والمكروهات. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ حفظه الله لهم لا يضيع، كما يحفظ الشيء بحضرة الملك في خزائنه. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العقاب لانتهائه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على تضييع العمر، وفوت الأجر والفضل، لعدم تضييعهم وعدم الفوت.

والمراد نفي الخوف والحزن في الآخرة قبل الجنة، وأمّا في الدنيا فَيَقَعَانِ لِلْجَهْلِ بِالْخَاتِمَةِ، ويكونان أيضاً في الآخرة لعظم الهول حتى ينسوا؛ أو المراد الخوف والحزن الدائمان، فإنّ الشقيّ في الآخرة لا يزول خوفه وحزنه حتى يدخل النار، بل يخاف فيها أيضاً، لأنّه يخاف في كلّ عقاب عقاباً بعده، ويحزن لذلك.

(سبب النزول) ويدخل في الآية أهل الفترة الذين آمنوا وأدركوا البعثة كأبي ذرّ وسلمان رضي الله عنهما، أو لم يدركها كقسّ بن ساعدة، قيل: وورقة بن نوفل وبحيرى الراهب. روي أنّ سلمان قال لرسول الله ﷺ: ما تقول في أهل دين كنت معهم؟ - وذكر صلاتهم وعبادتهم - فقال: «هم في النار»، فأظلمت عليّ الأرض، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية، فكأنّما كشف عني جبل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَّتْهَا نَكَالًا لِبَاطِنٍ يَدْبِرُهَا وَمَا خَلَمَهَا
وَمَوْعِظَةً لِّلنَّافِثِينَ ﴿٦٦﴾﴾

بعض جرائم اليهود وعقابهم

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وتوفاكم، كالميعاد بمعنى الوعد، وأفرد الميثاق لأن ما أخذ على كل واحد أخذ على غيره، فكان ميثاقاً واحداً، والمراد عهدهم بالإيمان بالتوراة كلها، والعمل بما فيها. أعطيتهم الميثاق على ذلك ثم أبيتكم، وقيل: أخذ الميثاق قبل نزولها على أن يعملوا بما ينزل عليهم من الكتاب، ولما نزلت التوراة نقضوا لما فيها من المشاق.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ﴾ حين نقضتم ﴿الطُّورَ﴾ الجبل، وكلُّ جبلٍ طورٌ، وقيل: إن كان فيه نبات. وهو عربيٌّ، أو سريانيٌّ معرَّب.

وقيل: المراد جبل المناجاة، حمل إليهم، اقتلعه جبريل من أصله وحمله في الهواء، بينهم وبينه قدر قامة أحدهم، وهو فرسخ في فرسخ

على قدر عسكرهم، قيل: والنار قدّامهم والبحر المالح خلفهم، فقيل لهم: إن لم تقبلوا رضختكم به، فسجدوا للقبول على أنصاف وجوههم، ناظرين بالعين اليمنى إليه خوفاً، فكان أفضل سجود اليهود بعد ذلك ما كان على الشقّ الأيسر والنظر باليمنى إلى جهة السماء، قائلين: ﴿خُذُوا﴾ اقبُلُوا ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ وهو التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ باجتهاد. وقيل: لا يقدر القول هنا، لأنّ الميثاق قول. ولا دليل في الآية لمن قال: الاستطاعة قبل الفعل، إذ لا يقال: خذ هذا بقوّة إلاّ والقوّة فيه، لأنّ الاستطاعة بهذا المعنى لا تنكر صحّة تقدّمها على الفعل.

﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ تعاهدوه بالمطالعة والدرس، والتفهّم لمعانيه والعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عقاب الله أو المعاصي. وتقدّمت أوجه لعلّ في كلام الله، وقسّ عليها في جميع القرآن.

(فقيه) وليس رفع الجبل فوقهم إجباراً على الدين، فلا يقال: كيف تقبل الطاعة، لأنّ الإجمار ما فيه سلب الاختيار، بل الآية كمحاربة العدو، إن أسلم رفع عنه السيف، وإن أخذوا زال الجبل؛ وأمّا الإكراه في الدين ففي مخلوق لآخر، أن يجبسه حتّى يؤمن، أو يمنع عنه الطعام حتّى يؤمن، أو نحو ذلك لا يجوز. ولو فسّر ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بالنهي عن القتال حتّى يؤمر به، وأمّا الله فله فعل ما شاء.

قيل: ولا يقال: الإيمان بالإجمار يجزي في الأمم السابقة أو بعضها

فتكون منه هذه القصة، لأنَّ هذا مِمَّا لا تختلف الشرائع فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ - أَمِنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا...﴾ (الآية (سورة يونس: ٩٨-١٠٩)، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ، إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ (الآية (سورة غافر: ٨٥)؛ قلت: الآيتان غير ما في هذه الآية، لأنَّ هذه الآية جاءت في القهر على الفعل، والآيتان فيمن أغلق عنه الله باب الفعل بتوجيه الموت إليه؛ ووجه آخر: لا يقبل ما عن إجبار إذا استمرت الكراهة، أمَّا إذا كان بعده الفعل بالاختيار فيقبل كلَّ ما باختيار، فأخذوه بقوة ثم تركوه كما قال.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم بعدم القبول، وأصله الإعراض بالجسد. ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ العهد الذي أعطيتم وعملتكم به مدَّة، أو من بعد ذلك العمل المعلوم من المقام، أو من بعد الأخذ بقوة، إذ لو لم يمتثلوا بل استمروا على العصيان، لم يقل: ثمَّ تولَّيتم؛ وقيل: بعد رفع الطور فوقكم وإتاء التوراة، فطوى عن ذكر امتثالهم.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ بتوفيقكم للتوبة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب باعتبار الآباء. ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالتوبة أو بقبولها؛ قيل: أو الخطاب للأبناء، فالفضل والرحمة بإرسال الرسول ﷺ.

(لغة) "لو" لنفي تاليها، وإذا زيدت لا النافية ثبت ما نفي، هذا قول الكوفيين بتركيب لولا من "لَوْ" و"لَا"، والبصريُّون على أنَّها بسيطة.

﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كمن ذهب رأس ماله أو بعضه. هذا عندي يعيِّن الخطاب للآباء، لأنَّ يهود عصر رسول الله ﷺ خاسرون، إلا ما شدَّ، بخلاف من تقدَّم ففهم الخاسر والرابح.

(أصول الدين) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ عرفتم، والمعرفة:

إدراك نفس الشيء حساً كان أو عرضاً، والعلم إدراكه على صفة كذا. ولا يقال: الله عارف أو عرف أو يعرف بالبناء للفاعل، فقيل: لأنَّ المعرفة تقتضي تقدُّم الجهل؛ وقيل: لعدم التوقيف، وقد يستعمل؛ وقيل بالجواز ولم يتقدَّم جهل تعالى الله. ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ جاوزوا الحدَّ، وقدَّر بعضهم مضافاً، أي ولقد علمتم اعتداء الذين اعتدوا ﴿مِنْكُمْ﴾ بصيد السمك ﴿فِي السَّبْتِ﴾ وقدَّر بعضهم مضافاً، أي في حكم السبت، وهو يوم أو مصدر، والخطاب في ﴿مِنْكُمْ﴾ و﴿عَلِمْتُمْ﴾ لمن في زمانه ﷺ من بني إسرائيل، وهم عارفون بقوم مُسِيحُوا في زمان داود، ولا يشترط العلم بالكنه في لفظ المعرفة.

وقوم داود سبعون ألفاً في أرض «أبْلَةَ» - بفتح الهمزة وإسكان الباء - قرية على الساحل بين المدينة والطور: صنفٌ أمسك ونهى، وصنفٌ أمسك ولم ينه، وصنفٌ اصطاد، وهم اثنا عشر ألفاً، شرعوا

حياضاً ينزل الحوت فيها ولا يقدر على الخروج، ويصطادون ما فيها يوم الأحد، فعلوا ذلك زماناً، فقالوا: قد حلَّ السبت فكانوا يصطادون فيه جهراً، ويبيعون في الأسواق، وقد نهى الله عن الاصطياد في اليوم الذي بعد يوم الجمعة، أمروا بالتجرُّد للعبادة في يوم، فاختار موسى يوم الجمعة؛ وقيل: أمروا بذلك وخالفوه للسبت، لأنَّه يوم تمَّ فيه الخلق، فألزمهم الله إيَّاه.

(لغة) والسبت في الأصل عن السيوت، وهو الراحة، أو من السبت وهو القطع، قطع الله فيه الخلق وتمَّ، وأيضاً أمر الله اليهود بقطع الأشغال فيه والتفرُّغ للعبادة. ولا يعد تسميته بالسبت في زمان موسى عليه السلام لذلك، ولو كان تبديل أسماء الأسبوع بما هي عليه الآن واقع من العرب بعد عيسى عليه السلام.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ: كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أذلاء خاضعين، ونجما الناهون والساكتون على الأصحَّ، لأنَّ الساكتين أنكروا بقلوبهم فقط لوجود من ادَّى فرض النهي، وأمَّا المسوخون خنازير فأصحاب المائدة؛ وقيل: مسخت شَبَانَهُمْ قردة، وشيوخهم خنازير، إلاَّ أنَّه لم يذكر هنا الخنازير، فهم يتعاوون كالقردة بأذنان كأذنانها، ويعرفون قرابتهم، ويحتكُّون إليهم، عاشوا ثلاثة أيَّام، وقيل: سبعة، وقيل: ثمانية؛ وماتوا ولم يأكلوا ولم يشربوا في الأيَّام الثلاثة، وقد كان قبلهم القردة

والخنازير. والمسوخ لا نسل له، كما روي عنه ﷺ. (١)

والأمر للتسخير، إذ لا طاقة لهم أن يتحولوا قردة، ولا يؤمر بما لا يطاق، ولكنه مجاز عن تكوينهم قردة، أو تمثيل بأمر من يطاع فوراً، فهو أمر إيجاد لا أمر إيجاب، كقوله تعالى: ﴿كُنْ، فَيَكُونُ﴾. وجمع السلامة لكونهم عقلاء قبل المسخ بل وبعده، فإنهم يعرفون قرابتهم ويحتكون إليهم، فيقولون: ألم ننهكم؟ فيحييون برؤوسهم: بلى، وتدمع عيونهم بكاءً، وإنما بدلت الصورة لا العقل، فلا حاجة إلى ما قيل: الجمع بذلك تشبيه بالعقلاء.

وهم بعد المسخ مكلفون عند مجاهد، وقيل: لا.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة المعلومة، أو العقوبة، أو القرية، أو كينوتهم قردة ﴿نِكَالًا﴾ ردعاً ومنعاً عن أن يصطاد مثلهم يوم السبت الحوت، وعن أن يخالف أمر الله مطلقاً، ولو بغير الصيد؛ أو ﴿نِكَالًا﴾ اسم للجام الحديد، شبه العقوبة به في المنع. ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ في زمانها من الناس، وذكرهم بـ«ما» إشارة للأشياء من الناس؛ أو «ما»

١ - لعله إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله عن القردة والخنازير أهى ممّا مسخ؟ فقال: «إن الله تعالى لم يهلك قوماً - أو يعذب قوماً - فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك» انتهى، وانظر الأولسي، روح المعاني، ج ١.

عبارة عن القرى الحاضرة لها، والمراد أهلها، وكذا في قوله: ﴿وَمَا خَلَفَهَا﴾ من الناس إلى يوم القيامة، والآية مقوية لتفسير خلفهم في الآيات غير هذه بما بعد، لأنَّ هذه لا يصلح فيها «من مضى» إذ لا تكون المسخة نكالا لمن مات قبلها.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ منهم أو من غيرهم، وقيل: من هذه الأمة عن أن يقصروا أو لغيرهم، وخصَّهم لأنَّهم المتفجعون، أو لأنَّ المراد بالموعظة حصول أثرها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ (سورة يس: ١١) أي يحصل أثر إنذارك.

قلت: قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا...﴾ إلخ ردُّ لقول مجاهد إنَّهم لم يمسخوا صورة ولكن قلوبًا، ومثلوا بقردة، إذ تحويل قلوبهم لا يظهر لكلِّ أحد حتى يكون رادعًا وموعظة، ولو ظهر لم يتبين قبحه لجمهور الناس، بخلاف مسخ صورهم فإنَّه يظهر قبحها للموحِّد والمشرك، والمطيع والعاصي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُرُوقًا قَالُوا أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ لِنَايِبِينَ لَنَا مَا مِثُّ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَسْكُرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون ﴿٧٨﴾ قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينُ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لُونُهَا

تَسْرُ النَّظِيرِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٦٨﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَامَةً لَهَا شِيبَةٌ فِيهَا قَالُوا لَئِن جِئْتِ بِالْحَقِّ فَدَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٩﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٠﴾ فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾ ﴿

قصة ذبح البقرة

﴿وَإِذِ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وقد قُتل لهم قتيل لا يدري قاتله، اسمه عاميل، وسألوا موسى أن يدعو الله أن يبيِّن له، والقتيل ذو مال قتله بنو عمه؛ وقيل: أبناء عمه اثنان؛ وقيل: إخوة؛ وقيل: ابن أخيه، وهم فقراء ليرثوه، وحملوه إلى باب قرية وألقوه فيه، فطلبوا ثأرهم، وادَّعوا القتل على رجال جاءوا بهم إلى موسى عليه السلام. وروي أنه قتله قريب له ليتزوج زوجته؛ وقيل: ليتزوج بنته وقد أبى. ذكر الله تعالى قصتهم ذمًا لهم بالتعاصي، أو برفع التشاجر بينهم، وبيانًا لمعجزة من معجزات موسى عليه السلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ، أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ أوَّل القصة هو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ولكن أخره ليتصل توبيخهم على عيوبهم

بالعيوب المتقدمة، إذ وبَّخهم على قولهم لنيء الله ﷻ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ وليس من شأنه أن يعبث معهم بذبح البقرة، وينسب الأمر لله بذبحها، مع أنه لم يأمرهم، وما قال عن الله إلا الحق، وبَّخهم على تعنتهم في البقرة: ما هي؟ ما لونها؟ وما هي بعد لونها؟ مع أنه لو ذبحوا بقرةً ما لكفى، إذ لم يؤمروا بمعينة، ولو كان الأمر الغائب المقضي عند الله يؤول إلى معينة لا محيد عنها، وكذا لو عمدوا إلى بقرة عوان ما بعد سؤالهم الثاني لكفى ذبحها، ولو عمدوا إلى عوان صفراء لاشية فيها بعد سؤالهم الثالث لكفى.

﴿قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا؟!﴾ أتتخذ أمرنا هزؤًا! أو تتخذنا ذوي هزؤ! أو موضع هزؤ، أو مهزوءًا بنا، أو لنفس الهزء مبالغة لبعد ما بين ذبح البقرة وأمر القتل، ولو عقلوا لامثلوا فتظهر لهم الحكمة أن يضرب ببعضها فيحي، مع أنهم لم يجربوا منه العبث قط، ونسبتهم الهزؤ إليه شرك، لأنهم لم ينسبوه إليه على وجه مزاح جائز، بل على وجه الكذب عن الله، لأنه نسب الأمر بالذبح إلى الله. وإن جعلوا محط الاستهزاء أن الله لا يقدر على إحياء الميت فأشد كفرًا، ويحتمل أن ذلك من غلظ الطبع والجفاء لا إشراك، أو الاستفهام استرشاد لا إنكار.

﴿قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ﴾ من أن أكون ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي

في سلك من اتَّصفوا بالجهل لبرهان على جهلهم، فذلك أبلغ من أن يقول: «أن أكون جاهلاً»، واختار الأبلغ لأنَّه أليق بما وصفوه به، فإنَّ من يكذب على الله، ويقول: أمرَ بكذا، ولم يأمر به من أهل الجهل البين كظلمة الليل.

والجهل عدم العلم، أو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به، أو فعل الشيء بخلاف ما حقَّه أن يفعل، وهذا الأخير هو المراد هنا. ولمَّا علموا أنَّ ذلك أمر من الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ...﴾ إلخ، قالوا ما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوا: ادْعُ لَنَا﴾ اللام للنفع أو للتعليل. ﴿رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما وصفها معها، فإنَّ «ما» سؤال عن الوصف هنا، فكأنَّه قيل: ما سنُّها فأجيب عليه وعن الجنس أو الحقيقة وليس مراداً هنا إذ لا يسألون عن جنس البقرة أو حقيقتها لعلمهم بها، ومن السؤال عن الوصف نحو ما عمرو؟ تريد أحياط أم حداد؟ أو أمسنُّ أم شابُّ؟ وما زيد؟ أفاضل أم كريم؟ والكثير في "ما" الجنس أو الحقيقة نحو: ما العنقاء؟ وما الحركة؟

﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿إِنَّهُ﴾ أي الله ﴿يَقُولُ: إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا﴾ هي ﴿فَارِضٌ وَلَا﴾ هي ﴿بَكْرٌ﴾ أو لا صلة بين النعت والمنعوت، أو منزلة مع ما بعدها منزلة اسم، فظهر الإعراب فيما بعدها كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَآِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء: ٢٢)؛ أي غير فارض

وغير بكر، وغير الله^(١)؛ ولم يقرنهما بالتاء لأنَّهما لا يطلقان على المذكَّر، فهما كحائض لا يطلق إلا على المؤنث.

ويقال في غير البقرة - جمل أو غيره - : بَكَر، والمؤنث بَكْرَة بالتاء. والفرض القطع، أي لم تقطع أسنانها لكبرها بالانكسار، أو باستفراغ سنيها المعتبرة في الأسنان، كالثنيّ والجذع والرباع؛ أو انقطاع ولادتها. والبكر الشابة الصغيرة بحيث لا تلد؛ وقيل: التي ولدت ولداً واحداً ﴿عَوَانٌ﴾ أي نَصَفٌ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين ما ذكر من الفارض والبكر؛ وقيل: ولدت مرّة أو مرّتين ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُومَرُونَ﴾ به من ذبحها على هذا الوصف بلا توقّف وطلب استفسار، فتكلّفوا سؤالاً هم في غنى عنه، وهذا من كلام الله، أو من كلام موسى عليه السلام.

﴿قَالُوا: اذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ كأنَّهم استعظموا ذبح بقرة في ميّت لا يعرف قاتله، فهوّل الأمر عليهم، ولم تكتفِ قلوبهم ببقرة ما فأكثرُوا السؤال. ﴿قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا﴾ أي البقرة العوان ﴿بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي لونها خالص الصفرة.

١ - يريد الشيخ - رحمه الله - لفظ الجلالة المأخوذ من الآية الكريمة: ﴿لو كان فيهما ءايلة إلا الله لفسدنا﴾.

(لغة) أصفر فاقع كما يقال: أبيض يقق، وأبيض ناصع، وأسود حالك، وأحمر قان، أي شديد اللون، ولا يخفى أن الأصل في الصفرة بقاؤها على ظاهرها من لون بين بياض وحمرة، ولا حاجة إلى تفسيرها بالسواد، ولو وردَ مثله لعدم القرينة هنا عليه، فلا مجاز، ولو كان مشتركاً لحملته على الأظهر، وناقلو اللغة عن العرب مشافهة كالجوهري وأبي عبيد وأبي عبيدة والأصمعي لم يثبتوا الفقوع إلا في الصفرة، لا يقال: أسود فاقع ولو أثبتته في القاموس، وهو مقبول إلا أن الجمهور على خلافه.

﴿تَسْرُّ النَّاطِرِينَ﴾ تلذُّ قلوب الناظرين إليها بحسنها، ومادة السرور لذلك، فمنه السرير لأولي النعمة، وسرير الميت تفاؤلاً. وعن علي من هذه الآية: «كلُّ أصفر يسرُّ كالنعل الأصفر، وأنَّ الأسود يحزن» فهو مفسر للصفرة بظاهرها. ﴿قَالُوا: اذْغُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما الوصف الآخر المبيِّن لهذه البقرة العوان الصفراء الفاقع؟ أو أرادوا مطلق البقرة التي أمروا بذبحها، إغناءً للبيان المتقدم، وإعراضاً عنه بسوء أدبهم؛ وعلى كلِّ حال أجابهم عن الله مع إثبات الأوصاف السابقة بأنها غير مدللة بالعمل، وأنها كلها على لون واحد. ﴿إِنَّ الْبَقْرَةَ﴾ الموصوف بتلك الصفات ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرتة.

﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها بوصفٍ تصفها به بعدُ. قال عليه السلام: «لو لم يستثنوا - أي لم يقولوا إن شاء الله - لما

بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرُ الْأَبْدِ». وليس قولهم: ما هي؟ تكريراً للأوّل، لأنّهم قالوا أوّلاً ما هي؟ فبيّن لهم بأنّها عوان، وزادوا سؤالاً: ما هي بعدما وصفتها لنا بأنّها صفراء عوان؟ وهذا يكفي، وهو الأصل، ولا تحتاج إلى ما قيل: إنّ المراد آخرًا بقولهم: ما هي؟ أسائمة أو عاملة، إذ لا دليل عليه إلاّ قوله: ﴿لَا ذَلُولَ﴾ و﴿لَا تَسْقِي﴾ فيبقى على هذا ﴿مُسَلَّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ فالأولى تفويضهم له في ازدياد بيان، فأجابهم بما أقتنعهم.

﴿قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا﴾ هي ﴿ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ وهذه الإشارة سبب الذلّ. ﴿وَلَا﴾ هي ﴿تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أو لا صلة بين النعت والمنعوت، أو منزلة مع مدخولها منزلة اسم كما مرّ.

(لغة) والذللول: التي ذلّت، وإثارة الأرض: قلبها وشقّها للزرع، والحراث: الأرض المشقوقة للزراعة، أو ما وضع فيها من البذر، والمراد أنّها ليست يحراث بها فتدلّ لما أنّها ليست تسقي الحراث فتدلّ فتثير، في حيزّ النفي، وقيل: هي تثير الأرض بأظلافها لقوتها وبطرها ومرحها، فالإثارة صفة أخرى لها في الإثبات. وقيل: هي وحشيّة إذ كانت لا تثير ولا تسقي؛ وقيل: هي من السماء والقولان ضعيفان.

﴿مُسَلَّمَةً﴾ من العيوب كالغور والعرج وانكسار القرن، ومن كلّ

عيب كهزالٍ لكثرة الحمل عليها. ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ لا شيء من اللون فيها يخالف لونها، حتى قيل: ظلّفها وقرنها وأهداب عينها صُفّر، وهذا تشديد على أنفسهم أورثهم تشديداً في ثمنها عليهم. وقال ﷺ: «لو ذبحوا أيّ بقرة كانت لأجزأتهم، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم»^(١).

والصحيح أنّ هذا موقوف على ابن عبّاس لا مرفوع. ومرادهم طلب البيان لاستبعادهم إحياء ميّت ببقرة ميّنة، ظنّوا أنّها ليست من سائر البقر وهي منها في قدرة الله، وتعيّنت هذه في قضائه تعالى.

(فقهه) وتأخير البيان ممنوع عن وقت التكليف لا عن وقت الخطاب.

﴿قَالُوا: الْآنَ﴾ لا قبله ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ اليّسن^(٢) التامّ، وهو الوصف الأخير، إذ قال: ﴿لَا ذُلُّوْا...﴾ إلخ، ومن قبلُ جئنت بحقّ لم

١ - هذا الأثر جزء ممّا تقدّم منسوباً إلى رسول الله عليه السلام: «لو لم يستثنوا لَمَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ آخِرَ الْأَبَدِ» أورده ابن كثير من حديث أبي رافع عن أبي هريرة عن الرسول.

وقال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة.

٢ - في النسخة الحجرية: البيان التام.

نفهمه بالتّضحاح. وعرفوا أنّه الحقُّ البينّ التامُّ، لأنّهم ما وجدوا على هذا الوصف إلاّ واحدة، فزال بها تشابه البقر عليهم.

وجدوها عند فتى بارٍّ بأمره، وقال له ملك: اذهب إلى أمك وقل لها: أمسكي هذه البقرة فإنّ موسى بن عمران يشتريها منك بماء مسكها^(١) ذهباً، ويروى أنّ ملكاً قال: شاور أمك ولا تبعها إلاّ بمشورة؛ فلم يشر بالبيع حتّى سيمت بملكه ذهباً، وكانت البقرة في ذلك الوقت بثلاثة دنانير. وهي من بقر الأرض لا كما قيل: نزلت من السماء لأنّه لا دليل له؛ قيل: ﴿الآن جئت بالحق﴾ يناسب أنّهم يبحثون عنها في بقر الأرض، وإلاّ قالوا: لا نقدر عليها؛ قلت: لا يلزم هذا. وفرّقوا ثمنها على بني إسرائيل، فأصاب كلّ فريق ديناران.

﴿فَذَبْحُوهَا، وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ذبحها، أي ذبحوها بعد ما اتّصفوا بالبعد عنه، تباعدوا عن ذبحها جدّاً ولم يقربوا منه، ومع ذلك اتّصلوا بها بعد ذلك وملكوها وذبحوها.

(لغة) ونفي كاد نفي، وإثباتها إثبات كسائر الأفعال، وأخطأ من قال غير ذلك، وذلك أنّه طال الوقت لكثرة مراجعتهم لموسى في

١ - المسك والمسك: جلود دابة بحرية، ويطلق على الجلد مطلقاً. ابن منظور: لسان العرب.

بيانها، وطول زمان التفتيش عنها، وتوقف أمّ الفتى في بيعها لأجل الزيادة الخارجة عن العادة في ثمنها، وخوف فضيحة القاتل. ويعد ما قيل إنهم طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة.

(نحو) ومن خطأ المحدثين أنّهم لا يكادون ينطقون بغير كاد غير مقرون بأن، مع أنّ قرنه قليل، وأنهم دائماً يقولون: مثني مثني، ولا يقتصرون على مرة، حاشاه عليه السلام عن ذلك.

﴿وَإِذِ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذا القتل أول الأمر، وأخّره ليبين لهم شأنه وقت الإحياء، ونسب القتل إليهم لأنّ القاتل من جملتهم، أو قتله جماعة منهم، ولأنّ الحرص على المال فاش فيهم كلّهم، والقاتل حريص؛ وكذا الحرص على ما يحبون كجمال المرأة. ﴿فَادَارَأْتُمْ فِيهَا﴾ تدافعتم في قتلها كلّ ينفيه عن نفسه ويحيله على خصمه. والأصل: تدارأتم، أبدلت التاء دالاً وأدغمت، فكانت همزة الوصل لسكون الأوّل، وحذفت الهمزة بعد الراء في المصحف.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ كان فيهم من يجب أن لا يظهر القاتل كالقاتلين ومن يليهم ممن عرفهم، وغير ذلك ممن لم يناسبه الظهور. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي القتل في بدنه قبل أن يدفن، وقيل: على قبره، ﴿ببَعْضِهَا﴾ أي بعض كان، فاتفق أنّهم ضربوه بلسانها أو بذنبها أو قلبها أو بفخذها اليمنى أو بالأذن، أو

بعجب الذنب أو ببضعة بين الكتفين، أو بعظم أو بالغضروف،
فِيْحِي، ولو ضربوه بغير ذلك منها لحيي كذلك. ولمَّا حَيَّ
وأوداجه تشخب دمًا قال: قتلني فلان وفلان لابني عمِّه، أو ابني أخيه،
أو فلان ابن أخي، ومات، وحرِّم الميراثَ وقُتِلَا. قال ﷺ: «ما ورثَ
قاتلٌ قتيلهُ من عهدِ أصحابِ البقرة»^(١).

وخصَّ البقر لأنَّهم كانوا يعبدونها، فيذبحون ما حَبَّب إليهم
فيذبحون النفوس الأمارة بالسوء، ولأنَّهم عبدوا العجل، وأشربوا في
قلوبهم العجل. وخصَّ الضرب بالميت لئلا يتوهَّم أنَّ الحياة انتقلت
إليه من الحيِّ.

﴿كَذَلِكَ﴾ كما أحيى الله هذا القتيل ﴿يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾
كلَّهم يوم القيامة بلا ضرب، وبنو إسرائيل لا ينكرون البعث، ولكن
وعظهم بالبعث ليستعدُّوا، ويذكِّر منكرو البعث من العرب، والكاف
لمن يصلح للخطاب، فيدخلون بالأولى، أو لكلِّ واحد، فوافق قوله:
﴿وَيُرِيكُمْ﴾ عطف على ﴿يُحْيِي﴾ ﴿ءَايَاتِهِ﴾ دلائل قدرته، أو ما
اشتمل عليه هذا الإحياء من الآيات، أو كلام الميت، أو كلُّ ما مرَّ من
المسخ، ورفع الجبل، وانبجاس الماء، والإحياء؛ والخطاب لبني إسرائيل

١ - لم نقف على نصِّ الحديث.

مع غيرهم كالعرب، أو لهم فقط، وكذا في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تستعملون فكم فتذكروا أنَّ الله قادر على إحياء غيره كما قدر على إحيائه، وكما أنشأهم.

ويجوز أن يكون الخطاب في ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ للعرب المنكرين للبعث، اعترض به في قصة بني إسرائيل، ويختصُّ ببني إسرائيل الخطابُ في قوله: [﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ...﴾].

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قسوة قلوب اليهود

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ انتفت عن الاتعاط بالمعجزات واللين لها، وأشبعت في ذلك الجسم الصلب الذي لا يتأثر بانغماز، ففيه استعارة تبعية، أو في الكلام استعارة تمثيلية. ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ في الحال وما قبلها قسوة بعيدة عن شأن من شاهد من المعجزات ما شاهدتم بعداً، تشبيهاً في الامتداد بتراخي الزمان، أو بعد مدة من الزمان زادت قسوة، ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾

الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿ (سورة الإسراء: ٨٢)، وقد زادوا سوءاً بعد نزول الآيات، وأكد البعد بقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ما ذكر من الآيات كإحياء القتيل. ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في عدم الانفعال كما لا يطاوعك الحجر في الانغماز والتشني، لا تتأثر قلوبهم في الوعظ بما شاهدوا من الآيات. ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ من الحجارة أي بل أشد قسوة، كقوله: ﴿إِنْ هُمْ، إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ، أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (سورة الفرقان: ٤٤) أو يشك الناظر أهي كالحجارة أم أشد، أو يخير بين أن تشبه بها وأن يقال: أشد على جواز التخيير بأو في غير الأمر والنهي؛ أو نوعهم إلى قلوب كالحجارة وقلوب أشد.

والحديد ولو كان أقوى من الحجر لكن قد يلين بالنار، وقد وقع لينه لداود عليه السلام خارجاً بلا نار، وأيضاً الحديد لا يخرج منه الماء فلا يناسب ذكر خروج الماء من الحجر وهبوطه من الخشية بعده، ولا سيما أن الحديد إنما قد يلين بانضمام النار. لا بمجرده، ولينه لداود معجزة لا ميسر لها هنا. ولم يقل: أو أقسى لأنه يدل على حصول الشدة لا على زيادتها؛ وأشد قسوة يدل على زيادتها فهو أبلغ. ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ﴾ ينبع نبعا واسعا ﴿مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ المياه، سمّاها أنهاراً تسمية للحال باسم المحل، والكلام تعليل جملي لأشد قسوة.

(لغة) وزعم بعض وتبعهم الشيخ عمرو التلاتي (١) أنَّ الواو تكون للتعليل ولا يصحُّ، ولو صحَّ حملنا عليه الآية، أي لأنَّ من الحجارة ما يتفجَّر منه الأنهار، وهو مطلق الحجارة، وزعم بعض أنَّه أراد حجر موسى الذي انفجرت منه اثنا عشرة عيناً، والأوَّل أصحُّ للإطلاق، ولأنَّ حجر موسى حجر خارق للعادة معجزة.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّ﴾ بعد أن لم يكن منشقاً، أصله يتشقُّ أبدلت التاء شيناً وأدغمت. ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قليلاً دون الانفجار، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ﴾ يسقط من الجبل على الاستقلال ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ لا بحيوان أو مطر أو صاعقة أو رعد أو نحو ذلك.

خلق الله فيه التمييز والعقل، فخشع فيسقط، ومن خلق العقل في الحجر قوله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا كَانَ يَسْلُمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ» (٢). وأنه ﷺ بعد مبعثه ما مرَّ بحجر أو مدر إلا سلَّم عليه،

١ - عمرو بن رمضان التلاتي (ت: ١١٨٧هـ/١٧٧٣م): عالم من علماء جربة، ولد في حومة "ثلاث" بجربة، أخذ عن أبي الربيع سليمان الحيلاتي، له العديد من الحواشي والمختصرات، منها "اللآلي الميمونية على المنظومة النونية"، وعمدة المرید لنكتة التوحيد" وغيرها. جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج ٤/ص ٥٥٦ (ط.م)

٢ - رواه أحمد في مسنده، ج ٧، ص ٤١٠، رقم ٢٠٨٦٧.

ورواه مسلم، في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي، رقم ٢، ٢٢٧٧. والترمذي، في المناقب، رقم ٣٦٢٤، من حديث جابر بن سمرة.

وَأَنَّ الْحَصَى سَبَّحَ فِي كَفِّهِ وَكَفَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ، وَأَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ يَشْهَدُ لِمَنِ اسْتَلَمَهُ؛ وَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا الْإِنْقِيَادَ لِمَا يَرِيدُ اللَّهُ فَإِنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُ كَذَلِكَ، حَتَّى قُلُوبَ الْكُفْرَةِ فَإِنَّهَا مَنْقَادَةٌ لِمَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنْهَا مِنْ هَزَالٍ وَسَمْنٍ وَصِحَّةٍ وَمَرَضٍ وَزَوَالٍ وَبَقَاءٍ وَفَرَحٍ وَحُزْنٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ... ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فَهُوَ عَالِمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ فَيَعَاقِبُكُمْ عَلَى مَسَائِدِكُمْ الْمَحْبُطَةِ لِحَاسِنِكُمْ فِي الْآخِرَةِ.

﴿أَفْطَمْعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحِيزُونَ قُلُوبَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٧٥ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتَمَدَّ ثَوْنُهُمْ بِمَا فَخَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٧ وَمَنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَلَا يَعْلَمُونَ الْكُتُبَ إِلَّا آمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾

استبعاد إيمان اليهود

﴿أَفْطَمْعُونَ﴾ إنكار للياقة الطمع، العطف على قست والهمزة من جملة المعطوف، أو على مقدّر بعد الهمزة، والخطاب للمؤمنين، قيل: وللنبيء أيضاً، أي أتحسبون أن قلوبهم صالحة للإيمان فتنطمعون؛ وقيل: للأنصار. وفي ذلك تشديد العتاب. ويقال: الخطاب للنبيء ﷺ

والمؤمنين لأنَّهم يطمعون فلا حاجة، ولا دليل على أنَّ الخطاب للنبي ﷺ بصيغة الجمع تعظيماً كما هو قول ابن عباس. ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أي في أن يؤمن اليهود، أي ينقادون ﴿لَكُمْ﴾ أو يؤمنوا لأجلكم؛ والواو لليهود في المدينة وما قرب منها. كيف تطمعون في إيمانهم مع ما فيهم من موانع الإيمان: تحريف الحق مع العلم به في طائفة من الأحرار، ونفاقهم إليكم بظاهر الإيمان، وإخلاص الكفر إذا خلا بعضهم ببعض في طائفة، وتحذير بعض بعضاً عن التحدث برسالة سيدنا محمد ﷺ المذكورة في التوراة في طائفة، واعتقاد الباطل توراةً في طائفة، وكتابة كلام يقولون إنَّه من التوراة وليس منها في طائفة؛ وأشار إلى ذلك كله بقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي طمعكم في إيمانهم بعيد والحال أنَّه قد كان ﴿فَرِيقٌ﴾ أحرار تفرَّقوا طوائف، ﴿مِّنْهُمْ﴾ ممَّن حضروا وأسلافهم، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ في التوراة ممَّن قرأ من كتاب الله، أو رآه بعينه وفهمه أو لم يفهمه، والمراد هنا الفهم فقد سمعه ولو لم يسمعه بأذنه من غيرهم، أو من لسان نفسه؛ وقيل: المراد القرآن. ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يردونه في طرف غير ما هو فيه، يمحوه أو إسقاط بعضه، أو زيادة ما يفسد به، أو تفسيره بخلاف ما هو عليه.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه حقٌّ وأنَّهم

مبطلون، وأنته من الله. ولا حاجة إلى جعلها تأكيداً في المعنى لقوله:
﴿عَقَلُوهُ﴾.

ومن ذلك تبديل ما في التوراة من الرجم بالتسخيم وتسويد الوجه، وما فيها من أنه ﷺ أبيض ربعة بأنه أسمر طويل، وأنهم طلبوا أن يسمعوا كلام الله تعالى كموسى فأمرهم أن يتطهروا ويلبسوا ثياباً نظيفة، فأسمعهم، فزادوا أنه قال لهم: إن شئتم فلا تفعلوا؛ وهم السبعون الذين اختارهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي اليهود، إذ القائل منهم لا كل فرد، أو إذا لقي منافقوهم، والمراد أشرار علمائهم، ومن معهم من العرب كعبد الله بن أبي ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بمحمد رسولا مبشراً به في التوراة، وأنكم على الحق في اتباعه، وهذا إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ داخل في توبيخ المؤمنين على الطمع في إيمانهم، أطمعون أن يؤمنوا مع أنهم. ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا...﴾ إلخ. وإنما وبخهم على ذلك الطمع لأن الطمع هو تعلق النفس بإدراك المطلوب تعلقاً قوياً، وهو أشد من الرجاء، فشدد عليهم فيه، لأنه ربما يؤدي إلى ملاينة لا تجوز.

﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُهُمْ، إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ أي رؤساؤهم الذين يصرحون بالكفر ولم ينافقوا، أي قالوا لمن نافق منهم.

قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «يا إخوان

القردة، ويا إخوان الخنازير، ويا عبدة الطاغوت»، فقالوا: ما أخبر بذلك محمدًا إلا أحد منكم، أتحدّثونهم... إلخ^(١)، كما قال: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ أتحدّثون المؤمنين؟ وهذا توبيخ على ماضٍ مستمرّ، فهو موجود في الحال إذا اعتقدوا أنّ منافقيهم لم يقطعوا نياتهم عن التحديث؛ والتوبيخ يقع على ماضٍ وحاضر، أو صوروا حالهم الماضية من التحديث بصورة الحاضر. ﴿بِمَا فَتَحَ﴾ به ﴿اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أنعم به عليكم من العلم برسالة محمد في التوراة وصفاته، والإيجاب على الأنبياء ان يؤمنوا به، أو قضى عليكم به، أو أنزله عليكم بوساطة موسى، أو بيّنه لكم، كما يقال: فتح على الإمام إذا ذكر له ما توقّف عنه، وذلك أنّ الأمر قبل بيانه كالشيء المغلق عليه، وبعد بيانه كالشيء المفتوح، وذلك إقرار منهم بأنّ الله قضى عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأنزل عليهم رسالته؛ وتفسيره بالإنزال معنويٌّ.

﴿لِيُحَاجُّوكُمْ﴾ حجًّا عظيمًا، والمفاعلة مبالغة لا على بابها - من أنّها تفيد المشاركة - ﴿بِهِ﴾ بما فتح الله عليكم فيغلبوكم، واللام لام العاقبة مجاز على التعليل، أي فيكون المآل أن يخاصموكم به ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ في الآخرة بأن يشهدوا عليكم بإقراركم بأنّ الله حكم علينا، أي قضى بأن نؤمن بمحمد وكتابه، فتقام عليكم الحجّة بترك

١ - أورده ابن كثير نقلا القاسم عن برزة عن مجاهد.

اتَّبَاعَهُ مَعَ إِقْرَارِكُمْ بِصِدْقِهِ، وَهُوَ مَتَعَلِّقٌ «لِيُحَاجُّوْا». ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾.

أَوْ يَقْدَرُ: أَلَا تَتَأَمَّلُونَ فَلَا تَعْقِلُونَ أَنْتُمْ بِحَاجُّونَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ، وَذَلِكَ مِنْ جَهْلِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَحْجُوجُونَ بِمَا فِي التَّوْرَةِ، حَدَّثُوا الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَمْ لَمْ يَحْدُثُوا؛ وَإِنْ رَجَعْنَا هَاءَ «بِهِ» لِلتَّحْدِيثِ، أَي لِيُحَاجُّوكُمْ بِتَحْدِيثِكُمْ بِأَنْ يَقُولَ الْمُؤْمِنُونَ: أَلَمْ تَقُولُوا لَنَا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ؟ كَأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَاجُّوكُمْ بِالتَّحْدِيثِ، وَلَوْ كَانُوا لَا يَنْجُونَ مِنْ قَطْعِ الْعِذْرِ، وَلَوْ لَمْ يَحْدُثُوهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ يَضْعَفُ رَدُّ الْهَاءِ لِلتَّحْدِيثِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَ، أَوْ يَقْدَرُ: أَيْلُومُونَكُمْ وَلَا يَعْلَمُونَ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مَطْلَقًا، وَمِنْهُ إِسْرَارُهُمُ الْكُفْرَ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مَطْلَقًا، وَمِنْهُ إِظْهَارُهُمُ الْإِيمَانَ، فَإِنَّهُ أَنْسَبُ بَرْدٌ «مَا» إِلَى «مَا فَتَحَ اللَّهُ»؛ وَأَيْضًا قَدْ يُمْكِنُهُمْ إِنْكَارُ التَّحْدِيثِ لَا مَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ؛ وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ يَخْفُونَ مَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِهِ لِفِرْطِ دَهْشَتِهِمْ، وَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) وَقَوْلِهِ: ﴿رَبُّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٧) وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ، فَيَنْكُرُونَ التَّحْدِيثَ، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِهِ.

ويجوز أن يكون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من كلام الله للمؤمنين، لا من كلام اليهود، كما أن ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من كلام الله، أي: أفلا تعقلون أن لا مطمع في إيمانهم، ومما أسروه من صفات رسول الله ﷺ.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿أُمِّيُونَ﴾ لا يكتبون ولا يقرأون الكتابة، كأنهم في حينهم ولدتهم أمهاتهم، وأنهم باقون على أصل خلقتهم، أو من العرب الذين لا يكتبون ولا يقرأون المكتوب، أو من أم القرى مكة وأهلها لا يقرأون الكتابة ولا يكتبون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة أو الكتابة، فهم عوامٌ رسخ التقليد في قلوبهم، فكيف تطمعون أن يؤمنوا؟ ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ أي لكن يعتقدون أمانى أي أكاذيب، فالاستثناء منقطع؛ أولاً يعلمون المكتوب إلا مكتوباً مكذوباً فيه، أو إلا مكتوباً يقرأونه بلا معرفة معنى، لأن الأمانى - بالشدة والتخفيف - بمعنى ما يقدر في النفس ولو كذباً، بمعنى ما يتمنى، وبمعنى ما يقرأ، فالاستثناء متصل، وذلك أنهم تلقوا من رؤسائهم المحرفين أكاذيب أو كتباً كتبوها لهم مكذوباً فيها، مثل أن النبي محمداً الموعود به أسود أحول قَطَط الشعر قصير أو طويل بدل ربعة، وغير ذلك مما هو ضد صفته ﷺ، وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، ونحن أبناء الله وأحباؤه.

﴿وَإِنْ هُمْ﴾ ما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ في جحود محمد ﷺ وصفاته

وكتابه.

والمراد بالظن خلاف العلم، فتناول الاعتقاد الجازم غير المطابق، لا الظن المشهور الذي هو الاعتقاد الراجح مع تجويز النقيض، طابق الواقع أو لم يطابق، لأن بعضهم جازمون بالاعتقاد الفاسد، وجاهلون جهلاً مركباً، وبعضهم جاهل أمّي مقلد للجاهل جهلاً مركباً، فالضمير لليهود مطلقاً، والقسم الثالث العارف بالحق داخل في ذلك، لأن لفظه لفظ الجازم بالإنكار، وهو ظان أي غير قائل بالعلم، ويجوز عوده للأميين.

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يُكْسِبُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُؤْيَا بِيٍّ نَحْنُ قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نَمْسَنَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَأَمْرٌ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

تحريف أحبار اليهود واقتراءاتهم

﴿فَوَيْلٌ﴾ هلاك أو واد في جهنم، لو وقع فيه جبل لذاب وسال، أو واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره - كما ذكرته في وفاء الضمانة (١) - . ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ذكر الأيدي مع أنَّ الكتابة لا تقع إلا باليد، تأكيدًا لقبح فعلهم، كما أكد في قوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ بأفواههم ﴿وأيضًا﴾ قد يقال: كتب فلان وهو لم يكتب بيده بل كتب له غيره، ووجه آخر أنَّ معناه نفي أن يكتبه كاتب قبلهم، فهو مخلق من عند أنفسهم. ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ: هَذَا﴾ أي هذا الكتاب ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَيْشْتَرُوا بِهِ﴾ يستبدلون به ﴿ثَمَنًا﴾ ما به الشراء، أو الشراء على ظاهره، والتمن المثلن، أي مثنًا ﴿قَلِيلًا﴾ بالنسبة إلى ما باعوا من دينهم ومن الجنة.

خاف رؤساء اليهود على زوال ملكهم حين قدم النبي ﷺ المدينة، فبدلوا صفة النبي ﷺ بصدِّها إثباتًا لرئاستهم، ولما يعطيهم سفلتهم وعامتهم. ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ﴾ أي كتبه ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أو من كتابة أيديهم. ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من سائر شركهم وبدعهم وكبائرهم وصغائرهم، ومن كبائرهم أخذ الرشي، وهم أربع

١ - كتاب للمؤلف - رحمه الله تعالى - في الحديث وعنوانه الكامل: وفاء الضمانة بأداء الأمانة. وهو مطبوع.

فرق: محرّفون، ومنافقون، ومانعون من إظهار الحق، وجاهلون مقلّدون.

﴿وَقَالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ كناية عن دخولها. ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي قليلة، وكان الحساب في العرب عزيزاً، فصاروا يعبرون عن القليل بالعداد، لا يألفون عدّ الكثير وقوانين الحساب، والقائلون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ يهود المدينة، وهم نشأوا على العربيّة، وكلامهم فيها حجّة فقالوا: «معدودة» مكان «قليلة» وهي مقدار عبادة آبائهم العجل أربعين، زعموا أنّ الأربعين مدّة جعلها الله عذاباً لآبائهم ولهم، وقال من قال: نعذب سبعة أيّام عدد الأسبوع، وأنّه سبعة آلاف سنة، رجع إلى سبعة أيّام، يوم مكان ألف سنة.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ﴾ بهمزة مفتوحة ثابتة وصلأ حتى أنّه نقل فتحها للام فيه، ووفقاً للاستفهام الإنكاريّ، أو التقريريّ على معنى التخطئة، فهو في معنى التوبيخ، أو نزله منزلة الاستفهام الحقيقيّ.

﴿عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ علماً يوثق به أنّكم تعذبون أيّاماً معدودة. ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ عطف على مدخول الهمزة كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ وذلك بمرتبة المضارع

المنصوب في جواب الاستفهام، إلا أنّ النصب هنا بلن، كأنه قيل: «أتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَيُوفَى لَكُمْ بِهِ»، بنصب يوفى، ولا حاجة إلى تقدير الشرط هكذا: «إِنِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَهْدَ فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ»، بمعنى: أيُّ هذين واقع؟ أتَّخَذْتُمْ الْعَهْدَ أَمْ قَوْلَكُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟ خرج ذلك مخرج المتردّد في تعيينه على سبيل التقرير، والنبي ﷺ عالم بوقوع أحدهما، وهو قولهم بما لا يعلمون على التعيين.

(نحو) ﴿أَمْ﴾ متصلة عطفت جملة لأنها، تعطف المفرد والجملة، أو حرف ابتداء منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار، وهكذا ما أشبهه، والمنقطعة حرف ابتداء وإضراب وتقدّر بـ«بل» والهمزة، أو بـ«بل»، أو بالهمزة، وإذا كان الاستفهام بعدها فبمعنى بل فقط، وإذا لم تصلح بل وحدها حمل الكلام على التهكم إن قدرت كقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي بل كنتم شهداء، فإنهم لم يكونوا شهداء، أو يقدر: بل تقولون، على مقتضى دعواكم أنكم كنتم شهداء.

﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بل أنتم فيه جاهلون من دعوى الخروج من النار، وتقليل المدة. ﴿بَلَى﴾ تمسكم النار مع الخلود فيها، واحتجّ عليهم بما قضى في الأزل، وكتب في اللوح المحفوظ من قوله: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ ذنباً كبيراً أو صغيراً أصرّ عليه، فالسيئة

تشمل الشرك وما دونه.

(فقه) ولا دليل على تخصيص الشرك، ويدلُّ على ما قلت في أهل الجنة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وقومنا مجتمعون معنا على أنَّ الإصرار محبط للأعمال الصالحات، ودعوى أنَّه يحبط ثواب الأعمال ويبقى ثواب التوحيد بدخول الجنة لا دليل عليها، والله يقول: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ومن أين لهم أن يقولوا: بلا عمل للصالحات؟! وحديث دخول الجنة بمجرد التوحيد محمول على ما قبل أن تفرض الفرائض، وقد قال بهذا بعض سلفهم كما بيَّنته في «وفاء الضمانة بأداء الأمانة»^(١).

ومن شأن السيئة غير المتوب منها أن تجرَّ سيئات، وهو قوله: ﴿وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ﴾ سيئاته، أو أشار إلى أنه لما لم يتب عن السيئة لم تغفر له صغائرته لإصراره، أحذقت به من كلِّ جانب إذ لم يتب منها كلها، ولو تاب من بعضها، وقيل: لا يعاقب على ما تاب منه، وهو قول لا بأس به، فيحيط به ما لم يتب منه ولو واحدة.

﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها، المشركون والفاسقون، والأصل في الخلود الدوام، وحمله على المكث

الطويل إنَّما يصحُّ لدليل، ولا خلاف في دوام المشرك في النار. ومعنى إحاطة الخطيئة به أنَّها أهلكته إذ لم يتخلَّص منها بالتوبة.

وليس المراد أنَّها به معنى أنَّها في قلبه وجوارحه، فلا دليل في الآية على أنَّ الخلود إنَّما هو لمن عمَّت قلبه بالشرك، لأنَّنا إذا صرنا إلى تعميم البدن بالمعصية وردَّ علينا أنَّ من جسد الكافر ما لم تصدر منه معصية مثل عنقه وأعلى صدره إذا لم تصدر منهما.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أتى هنا بالواو، وفيما مرَّ بالفاء، لأنَّ وعيد الكريم مظنة الخلف، حاشاه تعالى عن الخلف، بخلاف وعده، فأكد الوعيد بربط الفاء وتعقيها، أو لسبق الرحمة، ولأنَّ خلودهم في النار بسبب أعمالهم، وأمَّا الجنة فبفضل الله عزَّ وجلَّ، فإنَّهم يحاسبون يوم القيامة بنعم الله فتستغرق أعمالهم، فيقول الله عزَّ وجلَّ: «ادخلوا الجنة بفضلي».

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شامل للتقوى، إذ ترك المعاصي من الأعمال الصالحات، وهكذا حيث لم يذكر التقوى مع العمل الصالح، وذلك أولى من حمل المطلق على المقيد بالتقوى في الآي الأخر، أو يقدر: وعملوا الصالحات واتَّقوا، وكذا في سائر القرآن، فلا دليل في الآية على أنَّ العمل الصالح قد ينجو صاحبه مع عدم

التوبة من الذنوب.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون، وخلود أهل النار وأهل الجنة فيها دوام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۗ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾

مخالفة اليهود المواثيق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إمَّا مفعول لأخذنا لتضمنه معنى قلنا، واللفظ نفى والمعنى نهى، وحكمته الحثُّ على المسارعة للامتثال، حتَّى أَنَّهُ قد امتثل فأخبر عنه، وصوَّنَا للكلام عن الكذب إن كان بصيغة الإخبار فلم يمتثل، فلا حاجة إلى تقدير: قلنا، ووجه ذلك أَنَّ أمر الله عزَّ وجلَّ بشيء أو نهيه عنه أخذ للميثاق، ولو لم يقل المأمور والمنهي: نَعَمْ.

وإمَّا جواب القسم الذي هو الميثاق، ومقتضى الظاهر على هذا: «لا يعبدون» - بالتحتيَّة - وإمَّا تفسير لأخذ الميثاق، وهكذا فيما يأتي من القرآن تتصوَّر فيه هذه الأوجه.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي أحسنوا، أو تحسنوا بالوالدين إحساناً، أي أحسنوا، أو استوصوا بالوالدين، أي بالوالد والوالدة، فغلب المذكر. ويعد تفسير الميثاق هنا بميثاق يوم السبت بربكم، والآية مفصحة بعظم الإحسان إلى الوالدين إذ قرن بطاعة الله تعالى.

﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ القرابة، كالرجعي بمعنى الرجوع. ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين﴾ أحسنوا إلى هؤلاء بالمال والخدمة والنفع بالجاه والبدن والرفق، وتعليم العلم، والأمر بالعرف والنهي عن المنكر، وهو على ذلك الترتيب.

فالله أحقُّ لأنه الخالق المنعم، وحقه أعظم من كل حق، ثمَّ الوالدان لأنَّهما سبب وجود الولد، ومتلقيان المشاقَّ في الولد، ثمَّ ذو القربى لأنَّه بواسطتهما، و«الرضاع لحمة كلحمة النسب»^(١). ثمَّ اليتيم لأنَّه أضعف لصغره من المسكين، مأخوذ من اليتيم بمعنى الانفراد، كدرّة يتيمة؛ وهو من بني آدم من مات أبوه قبل بلوغه، و«لا يُتمَّ بعد البلوغ». ومن الدوابِّ من ماتت أمُّه، وفي الطير من ماتا عنه، وقد يطلق على من ماتت أمُّه من الآدميين. وأفرد القريب لأنَّ القريب مصدر يصلح للأكثر فتبعه المضاف وهو «ذي»؛ والإشارة

١ - قاعدة فقهية مأخوذة من حديث رسول الله الذي أورده القطب في جامع الشمل، من حديث أنس: «إنَّ الله حرَّم من الرضاع ما حرَّم من النسب»، ج ٢/ص ٢٩١،

إلى أَنَّهُمْ كوَاحِدٍ وَلَوْ كَثُرُوا، فَلَا تَقْصُرُوا فِي حَقِّهِمْ.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ بضم فإسكان، أي حسناً بفتحهما، أو ذا حسن، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، والصدق في شأن محمد ﷺ والقرآن والدعاء إلى التوحيد، والرفق بهم بما يحبونه مما لا معصية فيه ليدعنا، وحين يكون التغليظ هو النافع فالتغليظ حسن، وذلك قبل الأمر بالقتال وبعده، وليس مما ينسخ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة عليكم في التوراة، ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ على ما فرض عليكم فيها وهو ربع المال، تنزل النار فتحرقه أو تأخذه، أو شيء كالنار، وذلك علامة قبوله، ولا تحرق الحيوان.

وهذا خطاب لأوائلهم المأخوذ عليهم الميثاق ومن بعدهم، والكلام في ذلك، لا في المعاصرين لرسول الله ﷺ، لأنَّ معاصريه تجب عليهم الصلاة والزكاة على ما فرض عليه ﷺ.

أمرناكم بما ذكر من أفراد الله بالعبادة وما بعده من إيتاء الزكاة وقبليتم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الوفاء ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ وهو من اتبع التوراة والإنجيل قبل البعثة كعبد الله بن سلام. ﴿وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عن الوفاء.

(لغة) والآية ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلَّى

مستكبراً كأن لم يسمعها ﴿ (سورة لقمان: ٧) وقيل: التولي الانصراف
بحاجة مع ثبوت العقد، والإعراض الانصراف بالقلب؛ وقيل: التولي
الرجوع إلى ما كان أولاً، والإعراض أخذ طريق آخر.

والخطاب لمن قبل رسول الله ﷺ، وأجيز أن يكون الخطاب
بقوله: ﴿وأنتم معرضون﴾ لمعاصريه، أو المعنى: معرضون عن الفكر،
فلا تأكيد، أي وأنتم معرضون عن الوفاء بعهد التوراة والإنجيل قبل
البعثة، وقد وجب عليكم اتباعهما، وعن الوفاء بالقرآن بعد البعثة وقد
وجب عليكم اتباعه بعدها، ويضعف أن يقال: معرضون عن الغضب
على المتولين، أو عن القليل الذين لم يتولوا بأن لم توالوهم وتحببهم،
والأولى أن الخطاب للآباء لأن ما قبله وما بعده لهم، نعم ما بعده لهم
باعتبار آباؤهم وهو قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ
أَقْرَبْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فِرْيَاقًا
مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿٨٥﴾ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى فَتْلُدْهُمْ
وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَلَا تَفْقَهُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا
جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى
أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

بعض حالات مخالفة اليهود الميثاق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي أذكروا وقت أخذ العهد على آبائكم، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً، أو لا تقتلون أمثالكم، وجاءت العبارة بذلك لأنهم كنفس واحدة نسباً وديناً، فمن قتل غيره كأنه قتل نفسه، وأيضاً هو كمن قتل نفسه بالقصاص، لأنه تعرّض لأن يقتص منه، وكذا فيما أشبه هذا.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم أنفس بعض، ومن أخرج أخاه كمن أخرج نفسه، لأنهم إخوة ديناً ونسباً، أو لا تفعلون ما يوجب سفك دماءكم أو إخراجكم من دياركم، أو لا تهلكون أنفسكم بالمعاصي كمن قتل نفسه بحيث لا يلتذ كميته، إذا كان لا ينال لذات الجنة، ولا تصرفونها عن دياركم في الجنة.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ اعترفتم بأن ذلك الميثاق حق فقبلتموه، ومن لازم ما يُقرُّ به أنه حق أن يُقبل، وثم لترتيب الأخبار باتصال، أو في الرتبة بالتراخي، لأن رتبة الإقرار أقوى. ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم، تأكيداً لأقراكم في المعنى، أو أقراكم قبلتم وأنتم تشهدون على

القبول، أو أنتم معشر المعاصرين له ﷺ تشهدون على إقرار أسلافكم لتوسط الأنبياء والرواة إليكم بينكم وبينهم، وضعف بأنه يكون حينئذ استبعاد الإجلاء والقتل منهم، مع أن أخذ العهد والميثاق كان من أسلافهم.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ يا معاصري محمد ﷺ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أخص هؤلاء، أو يا هؤلاء، أو أنتم المشار إليهم المعهودون، وكأنه قيل: بماذا؟ فأجيب بما بعد. وأجاز الكوفيون أن هؤلاء بمعنى الذين، فتكون صلته هي قوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ﴾ وذلك الإخراج بالاستعانة عليهم كما قال: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ تتعاونون ﴿عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ﴾ فعل ما يستحق به الذم، أو نفس هذا الذي يستحق به الذم، أو ما ينفر عنه ﴿وَالْعُدْوَانَ﴾ الظلم الشديد.

﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمْ﴾ ذلك الفريق الذين تخرجونهم من ديارهم وقت الحرب. ﴿أَسَارَى تَفَادُوهُمْ﴾ بالمال أو بغيره كالرجال، العرب في المدينة وأعمالها الأوس والخزرج، واليهود قريظة والنضير وبني قينقاع.

(تاريخ) وكان بين الأوس والخزرج حروب، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، ولم يكن بين اليهود مخالفة ولا قتال، وإنما يقاتلون لحلفائهم، فإذا أسرت الأوس أو الخزرج يهودياً فداه النضير وقريظة جميعاً، وفي الحرب يقتل القرظيُّ

النضيري والنضيري القرظي، ويخرب بعضهم دار بعض، ويخرجه منها معاونة لحلفائهم، يقال لهم: ما هذا؟ فيقولون: القتل والإحراب لأجل حلفائنا لا نستدلهم، وهو مخالف لما عهد في التوراة، ولذلك نفاذهم لأننا أمرنا بالفداء، فأحلوا بعضاً وحرّموا بعضاً، فكأنتهم حرّموا جميعاً، وأمّا بنو قينقاع فلم يقتلوا ولم يخرجوا أحداً من داره، ولم يظاهروا، وضرب الجزية عليهم، لأنّهم لم يؤمنوا وبقوا في ديارهم.

﴿وَهُوَ﴾ أي الشأن ﴿مُحَرَّمٌ﴾ خير مقدّم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إخراجهم مبتدأ. أي الشأن أنّ إخراجهم من ديارهم محرّم عليكم، كما عاتبهم بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ﴾. حرّم الله عليهم إخراج إخوانهم وقتلهم في التوراة، وفيها بعد ذلك: «وأيسما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بكلّ ما وجدتم، واعتقوه».

﴿أَفْتَوْمِنُونَ﴾ أتعدّون الحدود فتؤمنون ﴿بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ التوراة، وبعضها هو فداء من وجدوه منهم أسيراً عند الأوس أو الخزرج، ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ﴾ بعض الكتاب، وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة، وهم لم يتركوا القتل إذ يقتلون بعضهم بعضاً في الحرب معاونة لحلفائهم، ولم يتركوا الإخراج ولا المظاهرة.

وفي الآية تنزيل ترك العمل بالكتاب منزلة الكفر أي الشرك، فإنّهم آمنوا بالتوراة كلّها لكن نافقوا، ومن لازم الإيمان بالشيء العمل

بمقتضاه بذلك، ويحتمل أن ذلك في دينهم شرك. وفيه أن الشرك لا تختلف الشرائع فيه، قيل: أو سمي ذلك شركاً مبالغة، أو المراد: بالكفر كفر الجارحة وهي الفسق. وقيل عن ابن عباس رضي الله عنهما: عادة قريظة القتل، وعادة النضير الإخراج، فأجلى رسول الله ﷺ النضير وقتل قريظة وأسر نساءهم وأطفالهم، جازى كلاً بما كان يفعل.

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ، إِلَّا خِزْيٌ﴾ ذلٌّ ﴿فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾ بقتل سبعمائة من قريظة في السنة الثالثة^(١) عقب الأحزاب، وأسر نساءهم وأطفالهم، وضرب الجزية على باقيهم، وضرب الجزية على بني النضير ثم أجلاهم إلى الشام، ولا جزية عليهم بعد الإجماع لأنَّ الشام فتح بعده ﷺ، ولو كان قد تصرف في بعضه بالتمليك.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ هو أشدُّ ممَّا لقوا في

الدنيا وفي القبر، فلا يرد أن المنكر لله وعبدة الأصنام أشدُّ منهم عذاباً إلا من كان منافقاً بإضمار نوع من الشرك، أو بإسرار إلى بعض فإنَّ عذابه في الدرك الأسفل، والمراد التصيير إلى عذاب أشدَّ لا إلى عذاب كانوا فيه؛ ولا شك أن عذاب النار أشدُّ من عذاب القبر وعذاب الدنيا، وزاد أيضاً بالدوام؛ ولا يتصور أن عذاب النافي لله دون عذاب

١ - كذا في النسخ المعتمدة، ولعل ذلك وهم من الشيخ إذ أن غزوة الأحزاب وحوادثها وقعت في السنة الخامسة لا الثالثة.

اليهود والنصارى والفاستق بل أعظم. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾
فهو لعلمه بما عملوا يجازيهم على صغيره وكبيره، وصغائر المشرك
كلها كبائر.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ لذتها ومتاعها
﴿بِالْآخِرَةِ﴾ فباعوا ما لهم فيها من الخير بالدنيا، بأن ضيعوا دينهم
لأجل تحصيل الدنيا ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة، أو
فيها وفي الدنيا؛ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون عنه البتة؛ أو لا
يُنصرون بترك الجزية.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
الْبُيُوتَ وَإِذْنَهُ يَرْجِعُ الْقُدْسَ أَفَكُلَّمَا جَاءَكَ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا أَأَلْوَبْنَا عُلْفَ بِلٍ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَالُوا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ
فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

موقف اليهود من الرسل والكتب المنزلة

﴿وَلَقَدْ - آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ المعهود: التوراة، أو الجنس

فيشمل الصحف المنزلة عليه قبلها ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ مِّنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ التشديد للمبالغة، والباء للتعدية، والمفعول محذوف، أي قَفَّوْنَا بتخفيف الفاء بالرسول، أي تَبَعْنَاهُ بالرسول، أي أَتْبَعْنَاهُ الرسول، وهذا أولى من جعل التشديد للتعدية إلى آخر، والباء صلة، أي قَفَّيْنَا الرسول، لأنَّ كثرة مجيئه في القرآن تُبعد هذا.

(تاريخ) والرسول: يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وأشعيا وارميا وعزير وحزقييل وإلياس واليسع ويونس وزكرياء ويحيى وغيرهم؛ ويقال: عدد الأنبياء بين موسى وعيسى عليهم السلام سبعون ألفاً، وقيل: أربعة آلاف، وكلُّهم على شريعة موسى عليه السلام، وبينهما ألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وعشرون سنة، ولا حجة لهذه الأعداد والعلم عند الله.

ومعنى إِتْبَاعِ الرُّسُلِ من بعده الإتيان من بعده برسول، وبآخر بعده، وبأثنين في زمان وبثلاثة في آخر، وما أشبه ذلك من انفراد رسول بزمان، ومن تعدُّده في زمان - كما مرَّ - أَنَّهُمْ قَتَلُوا سَبْعِينَ نَبِيًّا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وروي أَنَّهُ لم يطق موسى أن يحمل التوراة فأعانه الله على حملها بملائكة عدد حروفها فلم يقدرُوا فحَفَّفَهَا اللهُ بالنقص فحملها. ويبعد ما قيل: إِنَّ المراد بإيتاء التوراة إفهامه معانيها له.

(لغة) ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، لفظ

عيسى سريانيٌّ أو عبرانيٌّ، قولان، كما هو مراد القاموس بأو على عادته وليس ترديداً، وهو معرَّب من إيسوع، بهمزة بين بين، أو مكسورة، ومعناه المبارك أو السيِّد، وقيل: يشون بالشين المعجمة، أبدلت سيناً. ومريم بالسريانية الخادم، سُميت لأنَّها أريد بجنين هو هي أن يكون خادماً لبيت المقدس لو كان ذكراً، أو معنى مريم العابدة، والعبادة خادمة لله عزَّ وجلَّ.

وفي لغة العرب مريم المرأة التي تحبُّ التكلُّم مع الرجال ومخالطتهم، وعليه فمعنى مريم المرأة التي لا تحبُّ ذلك، كقولهم للأسود كافوراً؛ وقيل: تتحدَّث معهم ولا تفجر؛ وقيل: من شأن من تخدمها الرجال والنساء أن تتحدَّث معهم فسمَّيت بذلك.

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالغيوب، وليس المراد الإنجيل كما قيل، لأنَّ اليهود كفروا به، فإنَّما يَقمعون بتلك المعجزات، والآية في قمعهم وذكر عيوبهم، إذ لم يستقيموا مع المعجزات، لا بالإنجيل لأنَّه ليس معجزاً، وخصَّ عيسى مع أنَّه من الرسل بعد موسى لأنَّه جاء بالإنجيل ناسخاً لبعض التوراة، فلم يكن كمن قبله من أتباع موسى. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قوَّناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل يسير معه حيث سار مقارناً له من حين ولد

إلى أن رفعه الله إلى السماء ابن ثلاث وثلاثين سنة.

(لغة) وسمي جبريل روحًا تشبيهاً بروح الإنسان مثلاً في أن كلاً جسم لطيف نوراني، وأن كلاً مادة للحياة، فما يجيء به جبريل من الوحي لحياة القلوب كالروح لحياة الأبدان، وأضيف للطهر لطهارته عن مخالفة الله عز وجل؛ قيل: خصّ بذلك اللفظ لأنه من ولادته كحاله بعد الرسالة؛ ولا تقل: ذلك من إضافة المنعوت إلى النعت، وأن الأصل الروح المقدسة أو ذات القدس، بل من إضافة الشيء إلى حال من أحواله، ليخصّ به أو يعرف أو يمدح أو لنحو ذلك، أو روح القدس روح من ملك لله (١)، أو روح عيسى أضيفت للقدس، لعظم شأنه، أو لأنه منزّه عن مسّ الشيطان، فتزويه تنزيهه لروحه، أو أضيفت لكرامته على الله، أو لأنه لم يكن في رحم حوض، وقيل: حاضت حيضتين، وحملته ذات عشر سنين أو ثلاث عشرة، أو روح القدس الإنجيل، كما قال الله في شأن القرآن: ﴿و كذلك أو حيناً إليك روحاً من أمرنا﴾ (سورة الشورى: ٥٢)؛ أو اسم الله الأعظم كما أن القدوس اسمه، وقيل: القدس اسمه والاسم الأعظم غيره؛ وقيل: إنّه اسمه الأعظم الذي كان يجيء به الموتى؛ وقيل: لأنه قصده سبعون ألف يهودي لقتله فظهره الله عنهم.

١ - وفي نسخة ج: روح ملك الله.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ أفعلتم ما فعلتم، أو أكفرتم فكُلَّمَا جاءكم رسول ﴿بِمَا لَا تَهْوَى﴾ تحبُّ ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ من الحقِّ ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي أتكبرتم كلَّ وقت مجيء رسول بما لا يوافق هواكم عن اتباعه. ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى، وقدم التكذيب لأنه عامُّ منهم، لمن لم يقتلوه ولمن قتلوه، ولأنه سبب للقتل. ﴿وَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ تحقيقًا كيحيى وزكرياء، وفي قتل زكرياء خلاف، أو حكمًا كما قصدوا قتل عيسى فخابوا. والمراد قتلتم، ولكنَّ المضارع تنزيل لما مضى من القتل منزلة الحاضر المشاهد، أو الموجودين الآن منزلة من مضى وحضر، لأنَّ مشاهدة الشيء أقوى. وخطبوا بالقتل والتكذيب لرضاهم عن آبائهم الفاعلين لذلك، ولأنَّهم يحاولون قتل النبي ﷺ بالقاء الصخرة وبسم الشاة؛ قال ﷺ: «ما زالت أكلة خيبر تعاديني - أو تعاودني - فالآن قطعت أبهري»^(١) فمات بقتلهم وغير ذلك.

(بلاغة) والجملتان عطفتا على ﴿استكبرتم﴾ لا على ﴿أبَدْنَا﴾ كما أجازه بعض، وقدم فريقا في الموضوعين على طريق الاهتمام وللتشويق إلى ما بعد. وكذا تقول بالتشويق في سائر القرآن إذا صلح المقام

١ - رواه أبو نعيم في الحلية في كتاب الطب، من حديث أبي هريرة.

له؛ وقلت: على طريق، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ منزَّه عن الاهتمام، وبدأ بالتكذيب لأنَّه أوَّل ما يفعلونه، ولأنَّه المشترك بين المكذِّب والمقتول.

﴿وَقَالُوا﴾: للنبي ﷺ استهزاء به ﷺ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: جمع

أغلف، كحمر جمع أحمر، طبعت على أن لا يصل إليها ما يذكر من الوعظ والأمر والنهي، كشيء متغطُّ أغلف بغطاء حسِّي، فالآية تشبيه أو استعارة كما في زيد أسد. ولا يوجد في اللغة الغلفة بمعنى الرين حقيقة، بل مجاز كما أريد في الآية.

والرين واقع في قلوبهم تحقيقاً، وكذبوا في قولهم خلقت لا يصل إليها ذلك، لأنَّهم متمكِّنون من الفهم وأعرضوا — كلُّ مولود يولد على الفطرة — فذلك الإعراض كان به الرين، وبعضهم فهم الحقَّ ووجد ذلك الجحود رين، والرین غطاء لما بعد ذلك، أو فعلوا ما يورثهم الإعراض والجحود، وذلك الفعل رين مانع عن النظر والقبول وترك الجحود. أو جمع غلاف فأصله ضمُّ اللام، سُكِّن تخفيفاً ككتاب وكتب، أي أوعية للعلم؛ فلو كان قولك حقاً لَوَعَتَهُ، أو استغنيا بما فيها من العلم بالتوراة. أو بسلامة الفطرة عن غيره كما يمنع الغلاف الزيادة.

﴿بَل﴾: أي ليس كما قالوا من الخلقة على عدم الفهم، أو

امتلائها علماً، ومن عدم حقيَّة ما يقول محمد ﷺ. ﴿لَعَنَهُمْ

الله: ﴿أبعدهم بالخذلان عن القبول، ﴿بَكْفُرِهِمْ﴾: أي بكفرهم السابق الذي جرَّ إليهم قولهم ﴿قلوبنا غُلف﴾ ، ولم تأبه قلوبهم لعدم كونه حقاً فإنه حقٌّ، ولكن خذلهم الله عزَّ وجلَّ، أو أبعدهم عن رحمته بكفرهم هذا، الذي هو قولهم ﴿قلوبنا غُلف﴾.

﴿فَقَلِيلًا مَّا﴾ صلة لتأكيد القلَّة. ﴿يَوْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون إيماناً قليلاً جداً لقلَّة ما آمنوا به، أو لقلَّة من آمن، أو زماناً قليلاً، فإنَّ قلة ما آمنوا به قلَّة لزمان يوقع فيه الإيمان، ولو أكثر ما أو من به لكثير زمان الإيمان، إذ تنزل الآية فيؤمنون بها، وتنزل الأخرى في زمان فيؤمنون وهكذا... وقلَّة من آمن قلَّة لزمان إيقاع الإيمان، إذ لو أكثر من آمن لوقع إيمان هذا في زمان وهذا في زمان آخر، وهكذا... فتكثر أزمنة إيقاع الإيمان، وأمَّا قولهم: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا أَعْيُنَهُمْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية (سورة آل عمران: ٧٢)، فلا تفسَّر به أقلَّة هنا لأنَّها غير حقيقة، لأنَّها خدعة وكذب، وهنا حقيقة؛ أو أراد بالقلَّة النفي، كما جاء أنه ﷺ: «يقبَلُ اللُّغُو»، ولا مانع من ذلك؛ وقيل: المراد إيمانهم حال الاحتضار تحقيقا، لكن لا يقبل.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي اليهود المعاصرين للنبي ﷺ ﴿كِتَابٌ﴾ هو القرآن ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ هو التوراة وغيرها من

كتب الله والأخبار المكتوبة، ومعنى تصديقه إياها أنه نزل بحسب ما نعت فيها هو، أعني القرآن وما نعت فيها النبي ﷺ، وما يختصُّ ببعثه ﷺ، ونحو ذلك ممَّا لم ينسخه القرآن، وليس المراد أنه موافق للكلِّ، والقرآن لإعجازه لا يحتاج إلى ما يصدِّقه.

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قبل بعثته ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ الله أي يستنصرونه ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مشركي العرب، من الأوس والخزرج المجاورين لهم إذا نالوا منهم سوءاً وغضبوا لدينهم قالوا: «اللهم انصرنا عليهم بالنبيء المبعوث آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة» ويضعون أيديهم على اسمه فيها، فينصرون، وهو نبينا محمد ﷺ.

(سبب النزول) وقال لهم معاذ وبشر بن البراء: «اتَّقُوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك»، فقال: سلام بن مشكم: ما جاء بشيء نعرفه وما هو بالذي نذكره فنزلت الآية. أو يستفتحون يملون ويخبرون العرب أن نبياً يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عاد وإرم، كما يقال: «فتح المأموم على الإمام» إذا أخبره بما توقَّف فيه، وكانوا يقاتلون غطفان فتغلبهم غطفان في كلِّ وقعة، فكانوا يقولون: «اللهم إننا نسألك بالنبيء الأميِّ ﷺ الذي وعدتنا أن تبعثه آخر الزمان انصرنا عليهم» فينصرون، فلماً بعث كفروا به فنزلت:

﴿وكانوا من قبلُ يَسْتَفْتِحُونَ...﴾ الآية. أو يستخبرون: هل ولد؟.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ في التوراة وغيرها من النبي ﷺ وصفاته وعلاماته وكتابه ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حسداً وخوفاً على زوال رئاستهم وما يُعْطُونَ.

(نحو) وجواب «لَمَّا» الأولى يقدر كجواب الثانية تأكيداً، أي كفروا به، أو تأسيساً مدلولاً عليه بجواب الثانية، أي استهانوا أو ردّوه أو امتنعوا أو نحو ذلك، أو جوابها: «كفروا» فتكون الثانية أعيدت لبعده الأولى، كقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ، أَنْكُمْ، إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ٣٥) فأعاد «أَنْكُمْ»، وعلى هذا الوجه أقحمت الفاء للإشعار بأن ذلك عقب استفتاحهم. قيل: أو «لَمَّا» وما بعدها جواب للأولى كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣٨). ويردّه أنّ جواب لَمَّا لا يقرب بالفاء إلا نادراً جداً، ولا سيما أنّه فعل ماضٍ مجرد.

وكذا لا يقبل قول بعض إنّ الجواب هو قوله: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إذ قرن بالفاء، وإذ هو جملة اسمية، الذين سبقت لهم الشقاوة أنس يموتوا كافرين

وهكذا لا يدخل في لعن الكافرين في القرآن إلا من قضى الله أن يموت كافرا. والمراد في الآية الجنس أو الاستغراق، فتدخل اليهود برهان أن الكافر ملعون أو لا وبالذات، بمعنى أن الكلام سيق لهم، وهكذا وكذا كلما قلت أو لا وبالذات، أو المراد اليهود، وعليه فذكروا باسم الكفر لا بالضمير ذمًا وتصريحًا بموجب اللعن.

﴿بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ قَضِيهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَيَنْصِبُ عَلَى غَضَبٍ وَاللَّكْرِ بَيْنَ عَذَابٍ مُهِينٍ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

كفرهم بما أنزل الله وقتلهم الأنبياء

﴿بِسْمَا اشْتَرَوْا﴾ استبدلوا ﴿بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أو باعوها باختيار الكفر، أو اشتروا أنفسهم في زعمهم من العذاب بتصلبهم في دينهم جازمين، ولو عرفوا ما جاء ﷻ به، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾. ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ مخصوص بالذم، أي هو كفرهم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن، والكفر ماض غير مستقبل، لكن قال: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ لاستحضار الأمر الماضي بمنزلة

المستقبل المترقب الوقوع، ليشاهد ويعاين.

(نحو) وإنما قلت ذلك لأنّ المضارع المنصوب للاستقبال، وهذا أولى من أن يقال: المضارع هنا للحال، ليكون الأمر كالمشاهد، وأنّه لم تخلّصه "أن" للاستقبال.

﴿بَغِيًّا﴾ طلباً لما ليس لهم، أي حسداً أو ظلماً، تعليل لـ«يكفروا»، أي أن يكفروا لأجل البغي، أو تعليل لاشتروا، ولو فصل لِقَلَّةِ الفاصل، أو ذوي بغي أو باغين، ووجه تعليقه بـ«اشتروا» أنّ المعنى على ذمّ الكفر الذي أوتر على الإيمان بغياً، لا على ذمّ الكفر المعلّل بالبغي؛ وأيضاً إبدال أنفسهم بالكفر هو مجرد العناد الذي هو نتيجة البغي والحسد، كأنّه قيل: بس استبدال أنفسهم بالكفر لأجل محض الحسد ﴿أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ﴾ على أن ينزل الله الوحي، أو لأنّ ينزل، على أنّه تعليل لـ«بغياً». ﴿مَنْ فَضَّلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ حسدوا محمداً على رسالته ﷺ، إذ كان من العرب ومن ولد إسماعيل لا منهم ولا من ولد يعقوب، أو نبيء من أنبيائهم. ﴿فَبَاءُوا بَغْضَبٍ﴾ هو هذا الكفر ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ استلحقوه من قبل لتضييع التوراة، والكفر بعيسى والإنجيل، وقولهم: عزيز ابن الله، وقتلهم الأنبياء ونحو ذلك...

والمراد اجتماع غضبات عليهم، وتكررها عليهم هكذا عموماً. أو الأوّل لعبادة العجل، أو قولهم عزيز ابن الله، ويد الله مغلولة ونحو ذلك... والكفر بالإنجيل أو بعباسي، والثاني: الكفر بالقرآن أو به ﷺ. ﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾ مثل الكافرين في الآية قبل. ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مثل، جُوزُوا بما حاولوا من أن يذلّوا المسلمين بدعوى فضلهم عليهم، والمذلُّ الله، وأسند الإذلال إلى السبب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ، ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ القرآن، أو القرآن والتوراة وغيرها من كتب الله ووحيه، وهذا إشارة إلى أنّهم كفروا بالتوراة كلّها إذ كفروا ببعضها، وإلى أنّهم كفروا بكتب الله ووحيه كلّها إذ كفروا ببعض التوراة، فإنّه من كفر بكتاب أو بعضه أو بنبيء فقد كفر بجميع الكتب والأنبياء. ﴿قَالُوا: نُؤْمِنُ﴾ نستمرُّ على الإيمان ﴿بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي كلفنا به في كتبنا، مع أنّهم لم يؤمنوا بها إذ كفروا ببعضها.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي سوى ما أنزل إلينا وهو التوراة، كقوله: «ليس وراء الله منتهى»؛ أو بمعنى بعده، والمراد على الوجهين: القرآن لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾ أي ما وراءه ﴿الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فإنّ هذا في القرآن مستعمل للقرآن؛ ولا مانع من أن يراد بـ«ما وراءه» كتب الله، فإنّها كلّها حقٌّ مُصَدِّقٌ للتوراة، لأنّها كلّها

أمر بالتوحيد وطاعة الله واتباع كتبه ورسوله؛ ويقال: ما وراءه هو القرآن والإنجيل، كما أن التوراة مصدقة أيضاً لغيرها من كتب الله.

ثم إنه إما أن يخص ما أنزل الله بالتوراة والقرآن أو يعمم - وهو الحق - لجميع ما سوى التوراة، وعلى كل حال تناقض كلامهم، لأن كفرهم بما وراءه حال الإيمان بالتوراة يستلزم عدم الإيمان به، ووجه الحصر التقييد بالحال وهو «مصدقاً» فإن غير القرآن والإنجيل ولو صدق ما عندهم لكن لم يذكر فيه تصديق ما عندهم باسمه، ولكن فيه أن التصديق بالموافقة يكفي، ولعل الحصر هنا غير مراد، أو يراد حصر غير ما شهر، وهو معنى ﴿وهو الحق﴾ لا غير الحق.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، أو من يصلح للمناظرة ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ يقتل آباءكم، ورضيتم بقتلهم وصوبتكم، وتتعاطون مثل فعلهم لو وجدتم ﴿أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة، ولقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء وغيرهم، وعن سائر الظلم؛ أو «إن» نافية، أي ما كنتم مؤمنين بما خالفتموهم، ويجوز أن يكون قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ بمعنى: نؤمن به نحن وأسلافنا، أي نؤمن به كما آمن أسلافنا، فلما ادعوا إيمانهم وإيمان أسلافهم توجه الاعتراض عليهم بأنكم وآباءكم إن آمنتم بالتوراة فلم قتلوا الأنبياء؟ فيكون ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ تعليقاً.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا
قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ يَكْفُرُهُمْ قُلْ يَسْمَأُ يَا مَعْزُومِي
إِيمَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

تَكْذِيبُ ادِّعَائِهِمُ الْإِيمَانَ بِالتُّورَةِ

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: كفلق البحر، والمنّ والسلوى، وتظليل الغمام، وإحياء القتيل، ورفع الطور فوقهم، وانفجار الماء من الحجر، وهذا أولى من تفسير بعض العلماء الآيات بدلائل التوحيد، والعموم أولى.

وليس هذا وما بعده تكريرا لما تقدّم، لأنّه أمر أن يقوله لهم، فهو من جملة المحكي بقُل في قوله: ﴿قُلْ: فَلَمْ تَقْتُلُون...﴾ مشيرا إلى أنّ طريقتهم مع محمّد طريقتهم مع موسى عليهما السلام، وأيضا سيقّت لإبطال دعواهم في الإيمان بالتوراة، وللتلويح بأنّ كفرهم بمحمّد ليس بأعجب من كفرهم بموسى، وإن قلنا كرّر ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى﴾ لإبطال دعواهم الإيمان بالتوراة، أو لبيان أنّ طريقتهم معه ﷺ طريقتهم مع موسى ﷺ، جاز أن يقدر قائلين. أو قلنا خذوا... الخ على

أنَّ خذوه غير داخل في الحكاية بقل.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾: عجل السامريِّ إليها تعبدونه، أو اتخذتم العجل. بمعنى صورتموه، ونصَّ التوراة: «لا تعملوا صوراً»، فتصوير الرأس أو مع الجسد محرَّم، ولو لم يُعبد. والتوراة نزلت بعد اتِّخاذه بعمدَّة قريية. وثُمَّ للاستبعاد، أو لأنَّهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات، وذلك فعل لأبائهم خوطبوا به، فجرى الخطاب على مقتضى أنَّهم فعلوه، لرضاهم عن آبائهم عن ذلك، وبهذا الاعتبار يصحُّ أن يراد بالبيِّنات التوراة، فلا يعترض بأنَّ اتِّخاذ العجل قبل التوراة.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾: بعد ذهابه إلى الميقات، أو بعد مجيئه بالبيِّنات، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ موسىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وقيل الاتِّخاذ بعد رجوعه من الميقات وهو ضعيف. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أنفسكم باتِّخاذ العجل، وظالمون لمن يقتدي بكم، ولدين الله والزمان والمكان، ولنعم الله، إذ وضعتموها في غير محلِّها وهكذا تستحضر بعد، أو أنتم عادتكم الظلم قبل الاتِّخاذ فينتج منكم الاتِّخاذ وغيره.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ على التوراة درسا وتفهُماً وعملا، والحال أنَّنا رفعنا الطور كما قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ يسقط

عليكم أن امتنعتم من قبولها، مقولا لكم أو قائلين لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ جعلناه آتيا إياكم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ باجتهاد وترك الكسل والفتور، كما هو عادة المنافقين ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ سماع إجابة، ﴿قَالُوا: سَمِعْنَا﴾ قولك بأذنانا ﴿وَعَصَيْنَا﴾ بقلوبنا وجوارحننا، لا نعتقد أمرك ولا تعمل به جوارحننا، كلُّ ذلك باللسان، أو سمعنا بلسان القال وعصينا بلسان الحال، أو سمعنا قبلُ أحكاماً وعصينا.

﴿وَأَشْرَبُوا﴾ أشربهم الشيطان بالوسوسة، أو أشربهم الله بالخذلان، أو موسى إذ برّد بالمبرّد العجل وأسقاهم بُرادته، كما يأتي إن شاء الله، جعل مخالطاً كما يخالط الشرابُ أعماق البدن أو كما يدخل الصبغ الثوب، وهذا على أنه من الإشراب بمعنى دخول لونٍ على لون. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ حبّ العجل، ورسخ كما رسخ الماء في محلّه من العطشان، أو الصبغ في الثوب. قيل ولك أن لا تقدّر «حبّ» بأن رسخت صورته وشغفوا بها، وفيه بُعدٌ إذ لا بدّ من حكم يعرض على ذات، فيقدّر شغف أو حبّ، ووجهه المبالغة بأنّه كأنه نفسه مشروب، وبأنّه مثل قولك: فلان يأكل في جميع بطنه، إذا بالغ في الأكل.

وذكرُ القلوبِ مع أنّ الحبَّ لا يكون إلاّ فيها، ليجمع بين مزيد التقرير والتأكيد، وبيان أنّ المشرب الحبُّ إذ لم يُذكر،

ولفائدة البيان بعد الإجمال أو بعد الإبهام، فإنَّ محلَّ الشرب في المعتاد البطن، واختار الإشراب لأنَّ الماء أبلغ مساعاً في البدن ومطية الأغذية والأدوية. وقيل برده موسى بالميرد وألقاه في الماء وأمرهم بشربه، فمن أحبَّه خرجت بُرادته إلى شفتيه، وهو قولٌ باردٌ، ويردُّه ذكر القلوب أو يضعِّفه. وقيل ربط إلى قلوبهم كما يشرب البعير، بمعنى شدَّ في عنقه حبلٌ يمسك به.

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم السابق على اتِّخاذ العجل، كفر شرك، وهم مجسِّمة يجيزون ألوهية الأجسام، أو حلولية يجيزون حلول الله أو الألوهية منه في الأجسام - زادهم الله عذاباً في الدنيا والآخرة - ﴿قُلْ بِيَسْمًا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بالتوراة والمخصوص بالذمَّ عبادة العجل. تهكَّم عليهم بأنَّ إيمانهم بالتوراة أمرهم بعبادة العجل، فذلك نفي للإيمان بها، لأنَّ الإيمان يورث العلم والحكمة والفهم والإيمان بمحمد ﷺ، لا عبادة غير الله ولا سيما أبلد الحيوان وهو البقر ولا سيما صغيرة، أو المخصوص قتل الأنبياء ونحوه، أو قولكم ﴿عصينا﴾ أو كلُّ ذلك، وما ذكرته أولاً أولى. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بها، متَّصل بما قبله، أو إن كنتم مؤمنين فاعملوا بما فيها، أو فلا تقتلوا الأنبياء ولا تكذبوا الرسل ولا تكتموا الحقَّ، أو ما كنتم مؤمنين إذ خالفتموهم إنكاراً أو فسقا، فإنَّ نافية.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْتَضٍ حَيْثُ كَانَ الْعَذَابُ أَنَّ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

حرص اليهود على الحياة

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: الجنة نفسها أو نعيمها، وليست الدار الآخرة انقضاء الدنيا، بل انقضاؤها اليوم الآخر، والنار أيضا دار آخرة، والعهد والسياق ينفيان إرادتها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكمه، أو عندية ﴿خَالِصَةً﴾ لم يشبها النقص بثبوت بعضها لغيركم، بمعنى صافية حقيقة، أو خاصة بكم مجازا ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما قلتم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (سورة البقرة: ١١١)، و﴿لَنْ نُخَنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَآحِبَّاءَهُ﴾ (سورة المائدة: ١٨)، و﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (سورة البقرة: ٨٠) إلخ. ولم يخلق الله الجنة إلا لإسرائيل وبنيه.

ثم إما أن يريدوا بالناس سائرهم بعد الخاصة، فيستثنون إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونحوهم، ومن دعواهم الباطلة أن هؤلاء يهوديون؛

ويستثنون أيضا آدم ونوحا ونحوهما ومن مات قبل اليهودية، وإما أن يعملوا ولا يستثنوا هؤلاء ولا غيرهم، لأنَّ من شأنهم إنكار ما عرفوا من الحقِّ واعتقدوه، كما أنكروا رسولَ الله ﷺ وعيسى، والقرآنَ والإنجيل، وكثيرا من التوراة، مع معرفتهم بهم، وكما قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٩١)، وإمَّا أن يريدوا النبيَّ ﷺ والمسلمينَ من أُمَّته.

﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى اختصاص الجنة بكم، فإنَّ من أيقن بذلك يجبُ الإفضاءَ إليها من دار البؤس والأكدار.

والمسلمون ولو لم يتمنوا الموت لكنهم لا يختصون أنفسهم بها، بل يقولون: هي لكلِّ مؤمن من الأمم، والأمر بالتمني مسبب عن دعواهم وذلك نقيض التالي، هكذا لو اختصاصتم بها لتمنيتم الموت لكنكم لا تتمنونه فليس مختصة بكم، وتمني ما يختصُّ بك أعظم من تمني ما شوركت فيه، وقد تمنَّاه من صدق في دعواه كقول عمَّار: «غدا نلقى الأحبة محمَّدا وأصحابه»، وحذيفة إذ قال: «مرحبا بجيب جاء على فاقة»، وقوله ﷺ في قتلى بئر معونة: «يا ليتني غودرت معهم في لحف الجبل»^(١)، وعبد الله بن رواحة:

١ - أورده الألويسي في تفسيره ولم نقف على تخرجه.

«يا حَبَّذَا الْجَنَّةِ واقْتَرَابَهَا طَيِّبَةً وباردٌ شَرَابُهَا
والرُّومُ رومٌ قد دنا عذابُها»

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ﴾ من تحريف التوراة
وسائر معاصيهم، والكفرِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآنِ، لِعَلَمِهِمْ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ
فَتَحَوَّفُوا مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ عَلَى إنْكَارِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ مِنْهُمْ نُبُوَّةَ فَمَا
قَدَّمَتْ يَدَهُ عِنْدَهُ هُوَ غَيْرُ إنْكَارِهِ ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾
الْجَاهِلِينَ، وَالآيَةُ إِخْبَارٌ بِالْغَيْبِ إِذْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَتَمَنَّوْا، وَدَلَالَةٌ عَلَى
نُبُوَّةِ ﷺ، وَأَنْتَهُمْ لَوْ لَمْ يَوْقِنُوا لَتَمَنَّوْا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا قُلْنَا: التَّمَنِّيُّ هُنَا
التَّلْفُظُ، فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَتَلَفَّظُوا بِالتَّمَنِّيِّ، وَلَوْ مَعَ خَلْوِ قُلُوبِهِمْ مِنْهُ، وَلَوْ
وَقَعَ لُنْقِيلٌ، وَلَوْ تَمَنَّوْا لَمَاتُوا فِي مَوْضِعِهِمْ بِالرِّيقِ، كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا، وَرَوَى عَنْهُ مَرْفُوعًا، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَوْ أَنَّ
الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا»^(١)، وَعَنْهُ مَوْقُوفًا: «مَا بَقِيَ عَلَيَّ وَجْهَ
الْأَرْضِ يَهُودِيًّا إِلَّا مَاتَ».

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ الْخَطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ لِمَنْ يَصْلُحُ، وَكَذَا فِي
جَمِيعِ الْقُرْآنِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، وَالْهَاءُ لِلْيَهُودِ الْمَخَاطِبِينَ،
وَيَلْتَحِقُ بِهِمُ الْيَهُودُ الْبَاقُونَ؛ وَقِيلَ: لِلْجِنْسِ. ﴿أَخْرَصَ النَّاسَ عَلَى

١ - ذكره الألويسي في تفسيره، ونسبه إلى البخاري. انظر ج ١، ص ٣٢٨.

وأورده ابن كثير نقلا عن ابن جرير الطبري، ج ١، ص ٢٢٢.

حَيَاةٍ ﴿يُؤَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، والآية تدلُّ على أنَّ لغيرهم أيضاً حرصاً على الحياة الطويلة إلا أنَّهم أحرص، لأنَّ أحرص اسم تفضيل، فإنَّ الحرص على الحياة في طباع المؤمن وغيره، وفي الحديث القدسي: «إنَّ المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»، وإنَّه قد يحرص المؤمن على الحياة ليكثر العبادة، إلاَّ أنَّه ليس ذلك منه مذموماً، وقد يحمل الحديث عليه.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: المجوس وعبدة الأصنام من العرب، وكانت المجوس يقولون للعاطس: «عش ألف سنة»، عطف على المعنى، ويقال في غير القرآن عطف توهُم، لأنَّ معنى أحرص الناس من الناس، أي من سائرهم، أو يقدر أحرص من الذين أشركوا، أو يقدر ومن الذين أشركوا أناس يؤدُّ أحدهم، وعلى الوجهين الأولين يكون يؤدُّ... إلخ مستأنفاً، أو حالاً من «الذين»، أو "واو" أشركوا أو من الهاء، وذكرهم مع دخولهم في الناس زيادة في التوبيخ لهم بأنَّهم مع إقرارهم بالبعث والحساب أشدَّ حرصاً ممَّن يعبد الصنم وينكر البعث.

ويبين حرص اليهود بقوله: ﴿يُؤَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ أي أحد اليهود ليس المراد واحداً خاصاً، ولكن التمثيل بالواحد كأنَّه معيَّن مخصوص مشاهد ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يؤدُّ تعميره ألف سنة، والنصب على الظرفية، أو لو حرف تمنُّ محكيّاً مع ما بعده بـ«يؤدُّ» لتضمنين

معنى القول، أو لو شرطية جوابها لسره ذلك، والألف هي تمثيل للكثرة لا خصوص هذا العدد، وبين حرصهم بقوله: ﴿ومن الذين أشركوا...﴾ إلخ، على أن يراد بالذين أشركوا اليهود تصريحاً بشركهم، وجاء الظاهر في موضع الضمير لذلك على معنى: ومن المشركين ناس يود... إلخ، فيود... إلخ نعت لمبتدأ محذوف على هذا.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي أحدهم ﴿بِمَرْحَزِهِ﴾ مبعده خير ما، والباء صلة، أصله زَحَّحَ فيها، أبدلت الحاء المدغمة من جنس الفاء بوزن فَعَلَّ بشد العين، وقيل كررت الفاء فوزنه "فعفل". ﴿مِنْ﴾ أي: عن ﴿العذاب﴾ بالنار وغيرها، من حين يموت إلى ما لا ينتهي ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ تعميره ألف سنة فاعل مزحزح كقولك: ما زيد قائماً أبوه ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ عليهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ كله، يعذبهم على كل صغير وكبير.

(سبب النزول) قال عبد الله بن سوريا — حبر من اليهود — للنبي ﷺ: «أي ملك يأتيك من السماء؟» قال: «جبريل»، قال: «هو عدوُّنا، ينزل بالعذاب والشدة والخسف، عادانا مراراً، لو كان ميكائيل لأمنا بك». وقيل سأل عبد الله بن سوريا عمر: «من يأتي محمداً من السماء؟» فقال: «جبريل»، فقال: «هو عدوُّنا...» إلخ.

وقيل كان لعمر أرض بأعلى المدينة، ويمرُّ على اليهود في

مدارسهم، ويجلس إليهم، ويسألهم، ويسمع كلامهم، فقالوا: «ما في أصحاب محمد أحبُّ إلينا منك، وإننا نطمع فيك» فقال: «والله ما آتيتكم لحبيكم، ولا لأنني شاكٌّ في ديني، بل لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ وأرى أثره في كتابكم». فقالوا: «من يأتيه من السماء؟» قال: «جبريل» قالوا: «هو عدوُّنا، يُطلع محمداً على سرِّنا، وهو صاحب عذاب ونخسف وشدة؛ وإنَّ ميكائيل يأتي بالخصب والسلامة، ولو كان يأتيه هو لآمنَّا، وإنَّ محمداً رسول الله، وإنَّ بين جبريل وميكائيل عداوة» وقال عمر: «أشهد أنَّهما سلِّمٌ، ومع الله سلِّمٌ، ومن عادى جبريل فهو حربٌ لله، ولميكائيل، ولأنتم أكفر من الحمير» - أي أجهل - . وقيل: سأهم عمر عن جبريل فقالوا: «يأتي بالشرِّ، ولو كان يأتي محمداً ميكائيل لآمنَّا به».

وعن عبد الله بن سوريا: «عادانا مرارا أشدُّها أنَّ نبينا بعث من يقتل بخت نصر، وهو طفل، لأنَّه يخرب بيت المقدس، فردَّة، فقال: إن قضى الله تعالى خرابه لم تقتلوه، وإلا فمَ تقتلونه؟ فرجع فكبرُ بخت نصر فخر به».

وعلى كلِّ حالٍ نزل في ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبًا بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

موقف اليهود من جبريل والملائكة والرسول

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلخ. وجبريل علم عجمي، وزعم بعض أنه علم عربي مركب من جيروت الله، وفيه أنه لو كان كذلك لورد فيه وجهان آخران: البناء، وإضافة الجزء الأول للثاني، كفظائره، قال عليه السلام لعمر رضي الله عنه - وقد سبقه الوحي -: «لقد وافقك ربك يا عمر» قال عمر: «لقد كنت بعد ذلك أصلب من الحديد». والمعنى من كان عدوًّا لجبريل لمحبيته بالعذاب والقرآن الفاضح لهم، فهو عدوٌّ لله، لأنَّه هو الذي أرسله؛ أو فليمت غيظاً؛ أو فلا وجه لعداوته؛ أو فليعداوته وجه هو أنه نزل على قلبك، كقولك: «إن عاداك فقد آذيته أمس» وناب عن الجواب علتة، وهو قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي جبريل، أو الشآن، أو الله لأنَّه ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي القرآن المستتر في نزل لجبريل، أو لله عزَّ وجلَّ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ مقتضى الظاهر على قلبي لقوله: ﴿قُلْ﴾، لكن قال: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾، لأنَّ المعنى: قل ذلك لأنَّه نزل على قلبك، وقيل التقدير: قال الله من كان... إلخ، ولم يقل: علي، أو عليك تصريحاً بالقلب الذي هو محلُّ النزول، وبيت لוחي الله والفهم والحفظ.

(نحو) ولا يجوز أن يكون: ﴿فَإِنَّهُ...﴾ إلخ تعليل

لما قبله، ويقدرُ الجواب فليمت غيظًا، أو فالله عدوُّه، لأنَّ فاء التعليل عاطفة على جملة، ولا يصحُّ العطف على ﴿من كان عدوًّا لجبريل﴾، ولو صحَّ معنى قولك: «لأنَّه نزلَه...» إلخ.

﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾ بأمره في صورة القول وتيسيره في صورة الفعل، وأصل الإذن الإباحة، والعلاقة اللزوم ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من هاء نزلَه العائدة إلى القرآن، أو من ضمير نزل ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله التوراة وغيرها، والموجود هو بين اليمين، وأمَّا ما سيوجد فهو مفقود لا يصحُّ أنَّه موجود بين اليمين، ويصحُّ بمعنى أنَّه مستقبل ﴿وَهُدًى﴾ من الوقوف لعدم العلم، ومن العمل بغير علم، وهذا في غير هذا المحلَّ ﴿وَبُشْرَى﴾ بالجنة، ذا هدى وتبشيرا، وهاديا ومبشِّرًا، أو مبالغة. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ بأن قال: إنِّي عدوُّ له، أو بمخالفته ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ خصَّهما بالذكر، لأنَّ الكلام في عدواتهم جبريل ومصادقتهم لميكائيل، فصرَّح لهم بأنَّ ميكائيل قد عادوه أيضا، لمخالفتهم جبريل وما نزل به من الوحي، ولأنَّ جبريل يجيء بالوحي الذي هو حياة للقلوب، وميكائيل يجيء بالأرزاق التي هي حياة الأبدان، ولأنَّهم قالوا بين جبريل وميكائيل عداوة. ورواية أنَّ عمر رضي الله نطق بهذه الآية قبل نزولها ضعيفة. وجبريل أفضل

الملائكة لأنَّه رسول الله إلى الأنبياء بالكتب والدين، ولأنَّه ينصر رسول الله ﷺ وأُمَّتَه ويحبُّهم، ولقوله ﷺ: «جبريل أفضل الملائكة» (١). ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي لليهود، لكفرهم، ولهذا لم يقل عدوُّ لهم.

وهكذا أمثاله في سائر القرآن ولو لم أنبئه عليه من وضع الظاهر موضع المضمَر، لأنَّ تعليق الحكم بالمشقَّق يؤذن بكونه علَّة للحكم، والآية دلَّت أنَّه من عادى ملكا كجبريل فقد عادى الآخرين أيضا، كميكائيل.

وقد جمع الملائكة جميعا والرسُل ليفيد أنَّ من عادى واحدا من جمع الملائكة فقد عادى الآخر، ومن عادى واحدا من الأنبياء كمحمَّد ﷺ فقد عادى الأنبياء كلَّهم عليهم السلام؛ وأمَّا ما روي أنَّ عبد الله بن سلام قال: «أسألك عن ثلاثة لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ: أوَّلُ أشراف الساعة، وأوَّلُ طعام يأكله أهل الجنة، وما ينزع الولد لأبيه أو أمِّه» فقال: «أتاني بهنَّ جبريل آنفا» فقال: «هو عدوُّ اليهود» فقد أنزلت قبله، ولكن قرأها عليه (٢).

١ - ذكره الألويسي رواية عن الطبراني، بسند ضعيف، عن ابن عباس.

٢ - رواه البخاري في كتاب الأنبياء ٢، قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، رقم ٣١٥١.

ورواه أحمد في مسنده، ج ٤، ص ٢١٧، رقم ١٢٠٥٧، في حديث طويل عن أنس.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَا
عَلَهُدُّوْا وَعَهْدًا تَبَدُّوْهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ
اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

كفرهم بالقرآن ونقضهم العهد

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يا محمد، القرآن المعجز
والمعجزات الأخرى، وذلك ردُّ على قول ابن صوريا: «ما جئتنا
بشيء يصدقك في دعوى النبوة» فإنَّ معنى بَيِّنَاتٍ واضحات المعنى
والدلالة على نبوته التي يدَّعيها ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ إلاَّ
اليهود لفسقهم، أو جنس الفاسقين، فدخلت اليهود ببرهان الفسق.

وقال مالك بن الصيفي: «والله ما عهد إلينا في محمد عهد في
التوراة» فنزل ﴿أَوْ كَلَّمَا﴾ أكفروا؟ وكَلَّمَا ﴿عَاهَدُوا﴾ لله ﴿عَهْدًا﴾
على أن يؤمنوا بالنبى ﷺ إن بعث، أو عاهدوا النبي ﷺ أن لا يعينوا
عليه المشركين، وقد قيل: نزلت في قول اليهود: «لإن خرج لنؤمننَّ

جاءل في الأرض خليفة﴾، رقم ٣١٥١.

ورواه أحمد في مسنده، ج٤، ص٢١٧، رقم ١٢٠٥٧، في حديث طويل عن أنس.

به، ولنقاتلنَّ معه العرب المشركين» ولأُبْعَثَ كفروا به؛ وقيل في قريظة والنضير نقضوا عهودا له. ﴿نَبَذَهُ﴾ طرحه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بنقضه، وهذا الفريق هو الأكثر، والفريق الآخر لم ينقضوا، ولكن لم يؤمنوا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كلُّهم لا يؤمنون مَنْ نَقَضَ وَمَنْ لم ينقض، فاستعمل الأكثر. بمعنى الكلِّ لقلَّة من آمن، كاستعمال القلَّة بمعنى النفي، أو أراد بالأكثر ظاهره، وأنَّ الفريق الآخر القليل لم ينقضوا وهم آمنوا، وهم عبد الله بن سلام وأهله، والذي قال: «ما ننتظر، والله لقد علمتم أنَّ محمدًا هو رسول الله فأعينوه»، فقالوا: «لا ننقض السبب»، فخرج وقال: لا سبب لكم، قفائل يوم السبت. أو أراد أنَّ الأكثر نقضوا جهرا، والأقلَّ خفاه.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ عيسى عليه السلام ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة بالإنجيل ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ الإنجيل، وهذا لأسلافهم عوتبوا به لأنَّهم على ملَّتْهم إذ جاءهم محمدٌ بالقرآن مصدِّقا للتوراة فنبذوه فريق منهم، وهم الأكثر، أو الرسول سيِّدنا محمدٌ ﷺ وكتاب الله القرآن، أو كتاب الله الذي نبذوه هو التوراة، نبذوها بإنكار القرآن، أو الإنجيل نبذهما الذين على عهده ﷺ، وليس المراد الذين على عهد سليمان كما قال بعضٌ محتجًّا بقوله تعالى بعد ذلك ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا...﴾ إلخ، لأنَّ النبذ عند مجيء رسول الله ﷺ لا يتصوَّر منهم.

وقال السدي: «لَمَّا جَاءَهُمْ مُحَمَّدٌ عَارِضُهُ بِالتَّوْرَةِ، فَاتَّفَقَتْ التَّوْرَةُ وَالْقُرْآنُ، فَنَبَذُوا التَّوْرَةَ لِمُوَافَقَةِ الْقُرْآنِ لَهَا»، وَأَخَذُوا بِكِتَابِ "أَصْف" وَسَحَر "هَارُوتَ وَمَارُوتَ" فَلَمْ يُوَافِقِ الْقُرْآنُ، فَهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ...﴾ إِنْخِ ﴿وَرَأَى ظُهُورِهِمْ﴾ لَمْ يَعْتَنُوا بِهِ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْفَرَائِضِ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا نَهَوْا فِيهِ كَالشَّيْءِ الْحَقِيرِ الْمَلْقَى وَرَاءَ الظُّهْرِ لِجَامِعِ عَدَمِ الْمُبَالَغَةِ، فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ أَنْ أَدْرَجُوهُ فِي الْحَرِيرِ وَحَلُّوهُ بِالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ الْإَبْرِيْزِ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ كِتَابَ اللَّهِ تَعْظِيمًا لَهُ، وَتَهْوِيلًا لِمَا اجْتَرَأُوا عَلَيْهِ، مِنْ نَبْذِهِ وَرَاءَ الظُّهْرِ ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ التَّوْرَةَ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنَّ فِيهَا نَبِوءَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وهم خمس فرق:

فرقة آمنوا بها وقاموا بحققها، وعملوا بما لم ينسخه الإنجيل منها، كعبد الله بن سلام، وهم الأقلون المفهومون مفهوم مخالفة من قوله ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، كَأَنَّهُ صرَّحَ بِهِمْ إِذْ فَهَمُوا بِالْقَيْدِ.

وفرقة نبذوها جهرا، وهم المذكورون بقوله: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ﴾ وهم عالمون بأنها حق.

وفرقة نبذوها في خفاء جهلا بأنها حق، وهم الأكثرون في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفرقة علموا أنها حق، وتمسكوا بها ظاهرا، ونبذوها خفية عنادا أو تجاهلا، وهم في قوله ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفرقه علموا أنها حق ولا يتمسكون بها ظاهرا.
وهذه قسمة متعينة صحّت بالعناية المقصودة في التقسيم، فلا
يضرنا جواز دخول الخامسة فيما قبلها، والعدد من حكم المجموع
المتوزع في الآيات، مع أنّ الظمائر فيها لليهود مطلقا.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُرءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ أُشْرِبَهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُمْ سُورُوا فِي غُيُوبِهِمْ أَوْ يُسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِهِمْ لَوَدَّعُوا رَبَّهُمْ إِنَّا لَجُنَّحٌ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا كُنَّا بِمُعَلِّمِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

اشتغال اليهود بالسحر والشعوذة والطلاسم

﴿وَاتَّبَعُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ...﴾ إلخ عطف
قصة على أخرى ﴿مَا﴾ أي السحر وما تأخذ الكهنة عن الشياطين،
وما تضم إليه من الأكاذيب. ﴿تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ تتبع، أو تقرأ على
الناس، أي ما تلت، ولكن نزل الحال الماضية منزلة الحاضرة، كأنها
تشاهد، فليس ممّا يترتب على «نبد» الذي هو جواب لـ«ما»، إلاّ

على ما مرَّ من أنَّ القرآن وافق التوراة فبنذوها، وأخذوا بكتاب "آصف"، وسحر "هاروت وماروت"، فلم يوافق القرآن، فهذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ الآية.

﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ في عهد ملكه أي زمانه، أو «على» بظاهرها فيتضمَّن تلو معنى تتقول أي تكذب.

(سبب النزول) قالت اليهود: انظروا إلى محمد

يخلط الحقَّ بالباطل، يذكر سليمان في الأنبياء، إنَّما كان ساحراً يركب الريح، وكانوا لا يسألونه عن شيء إلا أنزل عليه، فقالوا: محمد أعلم بما أنزل إلينا منَّا، فسألوه عن السحر فنزل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا...﴾ الآية.

وقيل: ملك سليمان كرسيه. ﴿وَمَا كَفَرُوا﴾ أشرك ﴿سُلَيْمَانَ﴾ فإنَّ السحر الذي تتلوه الشياطين تضمن إشراكاً، كدعوى أنَّ الساحر خلَق كذا، أو حوَّل الشيخ شاباً، أو الإنسان حماراً، أو الطبيعة علبة تغني عن الله، وكدعوى أنَّ السحر حلال، وما لم يكن فيه شرك ففسق، فلا مانع من أنَّ الكفر شامل لذلك كله، وهذا كما عند هذه الأمة، ويحتمل أنه عند من قبلنا شرك مطلقاً، وما فعل سليمان ذلك وما علمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ إذ فعلوه وعلموه الناس، كما فسَّر الكفر بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ﴾ والمراد بالشياطين في الموضوعين متمردو الجن، أو المعنى الموجود في الحقيقة وهي متمردو

الجنّ وفي المجاز وهو هنا متمردو الإنس، وذلك المعنى هو مطلق التمرد، وذلك عموم المجاز؛ وقيل: شياطين الإنس.

(فقه) وتعلم السحر للعمل به أو لتعليمه أو للرياء به حرام، وللحذر منه أو لتعليمه من لا يعصى به فمباح، أو لغيره فمكروه، أو مباح أو حرام أقوال. وعن أحمد إنَّ السحر شرك ولو لم يعتقد حلّه، ولا تضمّن خصلة شرك.

(قصص) دَفَنَ سليمان عليه السلام كُتِبَ السحر وما يليه مسترقو السمع من الملائكة إلى الكهنة من صدق وكذب في صندوق تحت كرسيه، وقد شاع في الناس أنَّ الشياطين تعلم الغيب، وقال من قال ذلك قتله، ولَمَّا مات قال شيطان في صورة إنسان لنفر من بني إسرائيل: احفروا تحت الكرسيّ تستخرجوا منه ما لا يفنى، وأراهم المكان فقالوا: ادنّ، فقال: مِنْ هُنَا، وإن لم تجدوا فاقتلوني، وكان لا يدنو منه شيطان إلاّ احترق فأخرجوها^(١)، وقال لهم: إنَّ سليمان ضبط الثقلين والطير بها؛ وفشا في الناس أنَّه ساحر، ورفضوا كتب الله، إلاّ العلماء والصالحين علموا أنَّ ذلك ليس من علمه بل نبيء يعمل بتأييد الله، وما زال قول السوء عليه حتى بعث رسول الله ﷺ فأُنزل عليه براءته

١ - نقل القصة ابن كثير عن الحاكم في مستدرکه عن السدي.

من السحر.

وقيل: دفنها "صخر" تحت الكرسيّ، حين قبض الخاتم من زوجه الأمانة، وكان يضعه عندها بجنابته أو حاجة الإنسان، وقال: اعطني الخاتم، فأعطته ظنّته سليمان، فلبسه وقعد على الكرسيّ، وأذعن له الخلق، وجاء سليمان يطلبه منها فقالت: ما أنت هو، قد أخذه سليمان، وطارز بعد أربعين يوماً، وألقاه في البحر على طريقه، فبلعته سمكة فوقعت في يد سليمان فأخذه منها؛ ولمّا مات استخرجوها من تحت الكرسيّ على ما مرّ؛ ولا مانع من ذلك. وأمّا ما يقال أنّه كان صخر يدخل على زوج سليمان فيطأها فمفكر لا يصحُّ!! لأنّ أزواج الأنبياء محفوظة عن ذلك، ولو كنّ مشركات. وأمر الجنّ فأحضروه فحبسه في صخرة فسدّ عليه بالرصاص والحديد في قعر البحر^(١).

﴿وَمَا أَنْزَلَ﴾ عطف على ما تتلو، أو على السحر، كأنّه قيل: ويعلمونهم ما أنزل ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ من ملائكة الله، أو رجلين كالملائكين في الصلاح.

والإنزال على ظاهره، أو بمعنى الإلهام؛ وما أنزل عليهما نوع من السحر قويّ، بل نوع غير السحر كما يدلُّ عليه العطف، وعلى أنّه

١ - ذكر القصة ابن كثير عن الطبري عن الأعمش عن النهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

من السحر فالعطف لتنزيهه بالقوة منزلة تغاير الذات. ﴿بَبَابِلَ﴾ في بابل، بلد في سواد الكوفة؛ وعن ابن مسعود: هو أرض الكوفة؛ وقيل: من نصيبين إلى رأس العين، سُميت لتبلبل ألسنة الناس عند وقوع صرح نمرودًا، ولأنَّ الله حشر الناس بالريح لهذه الأرض، فلم يدر أحدٌ ما يقول الآخر، ثمَّ فرَّقتهم الريح في البلاد كلَّ بلغته، فالبلبلة تفرَّقهم عن بابل، أو تغاير الألسنة فيها، والتغاير تفرُّق، ونزل نوح بلدة «بنوها» قرية بثمانين إنسانًا سُميت بهم، فأصبحوا يومًا وقد تبدَّلت ألسنتهم على ثمانين لغة، فقيل: سُميت بهذه الثمانين لغة. ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ لفظان أعجميان، وقيل: عربيَّان من الهرت والمرت. بمعنى الكسر، ويردُّه منع الصرف، واسمهما عزا وعزايا فلَمَّا أذنبا سُميا باسم الكسر.

أباح الله لهما ملكين أو بشرين تعليم السحر ابتلاء من الله عزَّ وجلَّ للناس هل يتعلَّمونه وهل يعملون به؟ كما أنَّ الله خلق المعصية ونهى عنها، وخلق المحرَّمات كالخنزير ونهى عن تناولها، وكما ابتلي قوم طالوت بالشرب من النهر، أو لتمييز السحر من المعجزة، إذ كثر في ذلك الزمان مع ادِّعاء النبوءة به.

(قصص) وأمَّا ما روي أنَّهما ملكان من أعبد

الملائكة، تعجَّبت الملائكة من كثرة ذنوب الناس وعظمتها، فقال الله: لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم من الشهاوي لعصيتم مثلهم، فقالوا:

سبحانك ما كان ينبغي لنا ذلك، فقال: اختاروا من هو أعبدكم، فاختاروهما، فركبها فيهما، وأمرهما بالقضاء بين الناس، ويصعدان مساءً، فاختصمت إليهما امرأة من لحم أو فارسيّة ملكة مع زوجها، فراوداها فشرطت أن يقضيا لها عليه، فقضيا لها، ثم أن يقتلاه فقتلاه، وأن يشرباً خمراً ويسجداً للصنم ففعلا، وأن تعلّمني الاسم الذي تصعدان به، فعلمّاها، فصعدت فمسخت زهرة، فلم يقدر على الطلوع، فالتجأ إلى إدريس في عصرهما، فشفع لهما أن يختارا عذاب الدنيا أو الآخرة، فاختاراه لأنّه ينقطع، وعلّقاً بشعورهما أو منكوسين، يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة، فبعيدٌ، ولو أنّه ممكن.

(فقه) ولا يحكم بالكفر على قائله، لأنّه لم يثبت لهما تلك المعاصي مطلقاً، بل قال: ركب الله فيهما ما ركب في البشر من الشهوة، وذلك من حين أنزلا، وليس متأخراً إلى وقت القضاء بين المرأة وزوجها، فلا يعارض بعصمة الملائكة، لأنّ الله أخرجهما من شأنهما إلى شأن البشر.

وقول الملائكة سبحانك ما كان ينبغي لنا تعظيم الله، لا ردّ لقوله: لو ركبت فيكم الشهوة لعصيتم، وهما ملكان ولو ركب فيهما ذلك فلا ينافي تسميتهما ملكين في الآية، وإن سلّم ذلك فهما ملكان قبل، فهو مجاز بلا ضعف، والشاهد الأحاديث، والكلام في العصمة مع البقاء على شأنها بلا إخراج، وأمّا مع الإخراج عن شأنها فله أن

يخرج من يشاء من أهلها إلى غيره فلا يكون معصوماً. وأمّا الزهرة فالظاهر أنّها قبل ذلك لكن بلا نصّ على قبليتها، فجاءت هذه الرواية بحدوثها بنسخ المرأة إليها.

وقد روي أنّ امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها تطلب التوبة من تعلّم السحر منهما، وأنّ رجلاً من هذه الأمة أتاهما ليتعلّم فوجدهما معلّقين بأرجلهما، مزرقة أعينهما، مسودّة جلودهما، بين ألسنتهما وبين الماء أربعة أصابع يعذبان بالعطش.

وقد أثبت قصّتهما الشيخ يوسف بن إبراهيم الوارجلاني^(١)، ورواها مرفوعة عن أحمد وابن حبان والبيهقي، وموقوفة عن عليّ وابن مسعود وابن عباس، وصحّح السيوطي الرواية.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ له مرّة، وهو الثابت، وقيل: ثلاثاً، وقيل: سبعاً، وقيل: تسعاً ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء من الله

١ - أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني (ت: ٤٧٠هـ): ولد بمدينة وارجلان جنوب شرق الجزائر، وإليها ينسب، تفقه بها على منهج الإباضية، ثمّ ارتحل إلى الأندلس، فأقام في قرطبة زمن الموحّدين، ثمّ استقرّ في بلده للتعليم والتأليف؛ وله عدّة مؤلفات منها: الدليل والبرهان (ط. حجرية)، العدل والإنصاف... وقد حقّق العدل والإنصاف في دراسة أكاديمية بتونس، وأعدّ الباحث باجو مصطفى رسالة ماجستير في أصول الفقه عند الوارجلاني مقارنة بالغزالي، نوقشت في جامعة قسنطينة، وطبعت في سلطنة عمان طباعة أنيقة.

للناس، فمن تعلّمه كفر، ومن تعلّمه وعمل به كفر، وكذا من اعتقد أنّه حقّ جائز، ومن لم يتعلّمه أو تعلّمه ليتّقي ضرّه، أو يدفع به دعوى النبوءة عمّن ادّعاها به، وكان مؤمناً فهو باق على إيمانه. ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلّمه أو بالعمل به أو دعوى النبوءة به، فإن لم يرتدع بهذه النصيحة علّمناه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي الناس المعبر عنهم بأحد في سياق السلب عطف على ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾، كأنّه قيل: يعلمان الناس، بعد قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ...﴾ إلخ، فيتعلّمون، أو على «يعلمون». ﴿مِنْهُمَا﴾ من الملكين أنفسهما، وقيل: بتوسّط شيطانين يأخذان عنهما مرّة في السنة ويعلمان الناس. أو من السحر وما أنزل على الملكين، أو من الفتنة والكفر، أي يتعلّمون بعضاً من كلّ منهما؛ وعلى الثاني: العطف على «اتبّعوا»، والوجه الأوّل أحقّ. ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ الإنسان ﴿وَزَوْجِهِ﴾ أي قرينه حليّة وحليلها، أو صاحب وصاحبه مطلقاً، بأن يُغض كلاً إلى الآخر؛ ولا مؤثّر إلاّ الله، والله يؤثّر السحر ويطبع الطبائع ويؤثّر أثرها، ومن قال باستقلال شيء أشرك.

﴿وَمَا هُمْ﴾ أي السحرة وهذا أولى من ردّ الضمير إلى اليهود أو الشياطين. ﴿بِضَارِّينَ بِهِ﴾ أي بالسحر، أو ما يفرّقون به. ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ متعلّق بـ«ضارّين» أي إلاّ بتقديره، ومن قال بتخلّيته

بينه وبين المسحور لم يرد أنّ السحر مستغن عن الله ومستقلّ فإنّه لا تأثير لشيء إلاّ بالله، وكلّ شيء مستأنف من الله عزّ وجلّ.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الآخرة أو مع الدنيا وهو السحر. ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ زاده لأنّه قد يضرّ الشيء ومعه نفع، فالسحر ضرر محض.

(فقهه) وأما تعلّمه لدفع الشبهة عن دعوى النبوءة وليتّفقيه ففي تعلّمه خير على ما مرّ. والذي عندي أنّه لا يجوز تعلّمه إلاّ لمن استوثق من نفسه أنّه لا يستعمله ولا يعلمه لمن يعلم أنّه يستعمله أو لا يعلم حاله، لأنّ للعلم بالشيء قوّة داعية للعمل به، ولا سيما مثل هذا، والنفس داعية.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي اليهود المذكورون بالسوء في عهده ﷺ، أو عهد سليمان والشياطين، والكلام متعلّق بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فصل بقصّة السحر. ﴿لَمَنْ اشْتَرَاهُ﴾ استبدله أو اشتراه بدينه. اللام للابتداء، والجملة مفعول العلم، والمجموع جواب القسم. ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ نصيب في الجنّة لبيعه بالسحر أو تعلّمه. ﴿وَلَيْسَ﴾ اللام لام جواب القسم، والجملة معطوفة على الجواب السابق وهو: «لقد علموا» ﴿مَا شَرَوْا﴾ باعوا ﴿بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ وهو الكفر مطلقاً، أو السحر، أو تعلّمه، إذ نبدوا كلام الله — المنجّي من الهلاك — إلى ذلك الهلاك ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي حقيقة ما يصيرون

إليه من العذاب للكفر، أو السحر، أو تعلّمه ما فعلوه، وإلا فقد أثبت لهم العلم في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ فالعلم المثبت الظنّ، أو هو العلم بأنّ اشتراء النفس بالسحر مثلاً مذموم بدون علم أنّ منه ما يفعلونه، فإنّ حبّ الشيء يعمي ويصمّ، والعلم المنفي بلوّ: العلم بحقيقة ما يصيرون إليه، والعلم بأنّ منه ما يفعلونه، أو التفكّر في ذلك، أو يعلمون بمعنى يعملون، لأنّ العلم سبب للعمل وملزوم له في الجملة، ويجوز كون لوّ للتمني، فلا جواب لها.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بالنبى ﷺ والقرآن، أو أراد اليهود مطلقاً لو آمنوا بالكتب والأنبياء مطلقاً ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عقاب الله على الكفر والسحر والمعاصي لأثيبيوا من عند الله، دلّ عليه ذكر المثوبة، أو للتمني فلا يقدر لها جواب، والتمني في الموضعين مصروف للناس.

(نحو) والمصدر من خبر أنّ بعد لوّ الشرطية أو التمنية فاعل محذوف، أي لو ثبت إيمانهم واتقأؤهم، أو مبتدأ خبره محذوف وجوبا، ونُسب "السيبويه"، أو مبتدأ لا خبر له، ووجهه اشتمال الكلام على المسند والمسند إليه لفظاً قبل التأويل، وهو وجه سيبويه إذ قدرّ المبتدأ مع اختصاص لوّ بالفعل، حيث استغنى بوجوده قبل التأويل، والصحيح الأوّل، وهكذا في القرآن، ولا أعيده.

﴿لَمْ تُثَبِّتْ﴾ مستأنفة، وليس من جواب لوّ، لأنّ جوابها لا يكون

جملة اسمية.

(صرف) واللام للإبتداء، والمعنى ثواب، نُقلت
ضمّة الواو إلى الثاء الساكنة كمعونة، أو وصف بمعنى المصدر
كمفعول ومصون، والأصل مثنوية، نُقلت ضمّة الواو للثاء، فحذفت
إحدى الواووين لالتقاء الساكنين، كمفتون ومعقول وصفين في الأصل
وكانا بمعنى الفتنة والعقل، وهو وجه في قوله تعالى: ﴿فَسْتَبْصِرُ
وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ (سورة القلم: ٥) أو اسم مصدر أي إثابة.

﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ من كلّ شيء، أو ممّا استبدلوا به دينهم،
وهذا مراعاة لما في استبدالهم من نفع أدعوه، ولا يلزم التنقيص الذي في
قولك: هذا السيف خير من العصا، أو السلطان خير من الحجّام؛ لأنّ
الكلام باعتبار القصد، والقصد في المثالين النقص.

وفي الآية ذمّهم بأنّهم مع جهلهم تظهر لهم الخيرية، وأيضاً ما
استبدلوا به الدين في اعتقادهم عظيم، أو أنّه فاق في الخير أكثر ممّا
فاق في استبدالهم في شرّه، كقولك: الخلّ أحضض من العسل، أي زاد
في حموضته على زيادة العسل في حلاوته، ولك أن تقول خير خارج
عن التفضيل، أو هو بمعنى المنفعة قابل به أنّ ما استبدلوا به غير حسن،
أو أنّه مضرّة.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنّها خير لم يستبدلوا الحقّ بالباطل، أو لو

للتمني مصروف للناس، وقس على هذا في مثله، إلا أن الأصل الشرط لتبادره وأكثريته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

أدب الخطاب مع النبي ﷺ ومصدر الاختصاص بالرسالة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا﴾ للنبي ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾ اعتبرنا وانظر أحوالنا وتدبرها، وتدارك مصالحنا، وتأن بنا حتى نفهم ما تقول، وهذا مرادهم رحمهم الله.

ومن ذلك رعي الغنم ونحوها، والمفاعلة للمبالغة هنا، وهي بلغة اليهود سباً، لما سمعوا المؤمنين يقولونها قالوها له ﷺ سباً في لغتهم: عبرية أو سريانية، يتسابئون بها بينهم، فكانوا يسبون بها النبي ﷺ، وليست من الرعونة بمعنى الحمق، وإن كانت منها فمما توافق فيه لغة العرب والعجم، وقد يكون بين لفظ العرب ولفظهم مغايرة فيزيلونها ليوافقوا كلام العرب خداعاً للسب.

(سبب النزول) وقد قيل معناها: اسمع لا سمعت، وقالوا: كنا نسبُ محمدًا سرًّا فأعلنوا به الآن، فيقولون: يا محمد، راعنا ويضحكون فيما بينهم. ويقال: كان مالك بن صيف ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي ﷺ قالوا - وهما يكلمانه - : راعنا سمعك، واسمع غير مسمع، فظنَّ المسلمون أنَّ هذا شيءٌ يعظمون به الأنبياء، فنزلت الآية، ويقال كان ذلك لغة للأنصار في الجاهلية، وكان سعد بن معاذ، أو سعد بن عبادة يعرف لغتهم، فسمعهم يقولونها للنبي ﷺ، فقال: «يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربنَّ عنقه» قالوا: «أو لستم تقولونها؟» فنزلت الآية قطعاً لألسنة اليهود عن التدليس.

ويحتمل أن يراد أنت راعن، أو يا راعن أي أحق، فزادوا الألف وفتحوا، أو أنت راعينا لا نبيء، فحذفوا الياء واختلسوها.

﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ اعتبرنا حتى نفهم وأمهلنا، فإنه يقال نظره بمعنى أمهله، فلا حاجة إلى تقدير انظر إلينا ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ من رسول الله ﷺ سماع قبول وعمل، وانتهاء بجد، بحيث لا تحتاجون إلى الإعادة وطلب المراعاة، لا كقول اليهود: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ السابقين براعنا، ولا تكونوا أيها المسلمون مثلهم في طلبكم الإعادة.

﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾ اليهود السابقين براعنا، أو جملة الكافرين فدخل

اليهود، وذلك السبُّ كفرٌ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

زعم طائفة من اليهود أنَّهم يودُّون الخير للمؤمنين، فكذبهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿مَا يَوَدُّ﴾ يحبُّ أو يتمنى حسداً ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي وهم أهل الكتاب، وكلُّهم كفره، إذ لم يؤمنوا برسول الله ﷺ إلا من آمن كعبد الله بن سلام، وإن جعلناها للتبعيض فالمراد البعض الأكثر وهو خلاف الظاهر.

﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ من العرب، والكلام جاء فيهم عطف على أهل الكتاب، وذكرهم أتباعاً لليهود، وهم لم يدعوا ودَّ الخير للمؤمنين ولذلك أحرَّهم ﴿أَنْ يُنْزَلَ﴾ أي أن ينزل الله ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ نائب فاعل ينزل، فمن صلة للتأكيد والاستغراق، وصحَّ ذلك مع أنَّ قوله ﴿ينزل﴾ مثبت لانسحاب نفي الودِّ إليه.

والمراد بالخير الوحي والعلم والنصر، وغير ذلك من أنواع الخير، وكرهتهم تعمُّ كلَّ خير. روي أنَّ المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود: آمِنوا برسول الله ﷺ. فقالوا: وددنا لو كان خيراً ممَّا نحن فيه فنتبعه، فنزلت الآية تكذيباً لهم؛ ومعنى تكذيبهم أنه ﷺ على خير ممَّا هم فيه ولم يؤمنوا. وقيل: نزلت تكذيباً لجماعة من اليهود، يظهرون أنَّهم يحبُّون المؤمنين، وإنَّما قال: ﴿عليكم﴾ مع أنَّ الوحي على سيِّدنا محمد

ﷺ، لأننا متعبدون بما أنزل إليه، فهو خطاب متوجّه إلينا، وواقع علينا بواسطة رسول الله ﷺ، وهذا أبلغ من تقدير مضاف، أي ينزل على نبيكم.

ولا تنزيل إلا من الله ومع ذلك قال: ﴿مَنْ رَبَّكُمْ﴾ إغاظه للكفار، وتحبباً لنفسه إلينا، وتذكيراً لنعمة التربية منه والعبودية منّا له ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي السعادة والجنة، أو النبوة، أو الخير المذكور؛ ذكره بالاسم الظاهر تصريحاً بأنه رحمة من الله وفضل، لا واجب عليه، ولا يوجبه عمل عامل، أو أراد بالرحمة مطلقها في الأمة وسائر الأمم. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هو النبي ﷺ وأُمَّته، دون اليهود والمنافقين والمشرّكين، أو هو العموم. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كلُّ خير ديني، أو دنيوي أو أخروي منّة من الله عزّ وجلّ.

﴿مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخُ نَاتٍ بِخَيْرٍ مِمَّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

إثبات نسخ الأحكام الشرعية

ولمَّا قال اليهود والمشركون من العرب: محمدٌ يقول من عنده لا من الله، لأنَّه يأمر بأمر ثمَّ ينهى عنه، نزل:

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ نرفع حكمها ولفظها، أو نرفع حكمها ونبق لفظها، أو نرفع لفظها ونبق حكمها ﴿أَوْ نُنسِئَهَا﴾ نرفعها من قلبك ونمحوها منه ومن قلوب أصحابك، فلا يدركون لفظها ولا معناها، ولا العمل بها، وهذا قسم آخر لأنَّه قد يكون في الأخبار وقد يكون في غيرها، فأمَّا أن يكون معناها في آية أخرى أو لا يكون، فيكون قد رفع التكليف بها، وهو شامل للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (سورة الأعلى: ٦).

وأما الامتناع في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ شَعْنَا لِنُذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (سورة الإسراء: ٨٦) فباعتبار ما لا يجوز نسخه، أو باعتبار الكل. وبين النسخ والإنساء عموم وخصوص يجتمعان في الرفع عن القلوب، ويختص النسخ بمنسوخ الحكم مع بقاء التلاوة وبالعكس، ويختص الإنساء بالأخبار التي أذهبت عن القلوب.

﴿نَاتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ ثواباً أو سهولة في الامتثال ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ في ذلك، كما قال: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا

إنَّما أنت مفترٌ ﴿١﴾.

(أمثلة لما نسخ) روي أنَّ جماعة من الصحابة قاموا ليلة ليقرأوا سورة، فلم يبق لهم منها إلاَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فأخبروه ﷺ غدوة الليلة، فقال: «رَفِعَتْ تلاوتُها وحكمها»^(١).

ومَّا نُسخ لفظه وحكمه: «عشر رضعات معلومات يحرمُن»، وكثير من سورة الأحزاب، وكانت كالبقرة إلاَّ أنَّه يحتمل بقاء بعض حكمها في سورة أخرى.

قال بعض الصحابة: «كُنَّا نقرأ سورة تشبه في الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها غير أنِّي حفظت منها: «لو كان لابن آدم واديان من المال لابتغى إليهما واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاَّ التراب»^(٢). وكُنَّا نقرأ سورة نشبَّهها بإحدى المسبِّحات فأنسيتها، غير أنِّي حفظت منها: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادتها في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة».

١ - أوردها الطبراني عن الزهري عن سالم عن أبيه. راجع ابن كثير، فقد بسط القول عن

النسخ واختلاف الأصوليين والمحدثين في الموضوع، وكذلك التحرير والتنوير.

٢ - الحديث متواتر قال المخرج لـ"جامع الشمل"، فقد أورده السيوطي عن خمسة عشر نفسا، وأوردته غالب كتب السنة، أورده البخاري في كتاب الرقاق، ومسلم في

كتاب الزكاة، والقطب في "جامع الشمل"، ج ١/رقم ٤٩٧.

وَمَا نَسَخَ لَفْظُهُ فَقَطْ آيَةُ الرَّجْمِ: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما...» الآية، قال عمر: «قرأناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا، إذا كانت البيئة أو الحمل أو الاعتراف». وكانت في سورة الأحزاب، وقيل في النور.

وقوله تعالى: «خروجكم عن آبائكم كفرٌ بكم» يعني انتسابهم إلى غيرهم.

وَمَا نَسَخَ حُكْمَهُ فَقَطْ آيَةُ عِدَّةِ الْوَفَاةِ بِالسَّنَةِ، نَسَخَتْ بِآيَةِ الْعِدَّةِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ، وَآيَةِ وَجُوبِ ثُبُوتِ وَاحِدٍ لِعَشْرَةِ آيَةِ ثُبُوتِ وَاحِدٍ لاثْنَيْنِ. وَيَكُونُ النِّسْخُ بِالْإِبْدَالِ إِلَى أَحْفَ كَأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ، وَالْمَصَابِرَةِ لِأَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةٍ، وَإِلَى أَثْقَلِ كَوَجُوبِ الصَّوْمِ بَعْدَ التَّخْيِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِطْعَامِ، وَكَتْرِكَ الْقِتَالِ حَتْمًا إِلَى وَجُوبِهِ فِيمَا قِيلَ. وَنَسَخَ الْإِبَاحَةَ إِلَى التَّحْرِيمِ كَتَحْرِيمِ الْخَمْرِ بَعْدَ إِبَاحَتِهَا، وَإِلَى مَسَاوِ كَتَسْخِ الضَّلَاةِ إِلَى الْقُدْسِ بِالصَّلَاةِ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ وَبَلَا إِبْدَالِ وَحَمَلِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَعَلَا: ﴿أَوْ نَنْسَاهَا﴾، فَالْمَعْنَى نَأَتْ بِغَيْرِهَا فِي غَيْرِ شَأْنِهَا، وَأَمَّا نَسْخُ وَجُوبِ صَوْمِ عَاشُورَاءَ إِلَى النَّدْبِ بِصَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، أَوْ لِرَمَضَانَ وَصَوْمِ الثَّلَاثَةِ بِرَمَضَانَ فَمَوْجُودٌ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَوْجُدُ الْمَنْسُوخُ فِي الْقُرْآنِ صِرَاحًا بَلْ بِتَأْوِيلِ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ زيادة تثبت للنبيء

ﷺ، وأُمَّتُهُ تَبِعَ لَهُ، وَالخَطَابَ لِكُلِّ مَنْ يَصْلِحُ لَهُ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ فَقَدْ نَسَخَهُمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي صُورَةِ الْبَشَرِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بَدَاوَةً لَهُ بَلْ قَضَى اللَّهُ فِي الْأَزْلِ أَنَّ إِبْقَاءَهُمْ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ إِلَى وَقْتٍ مُخْصُوصٍ، فَكَذَلِكَ قَضَى اللَّهُ فِيهِ أَنَّ الْآيَةَ تَبْقَى إِلَى كَذَا.

ثُمَّ إِنَّهُ إِنْ كَانَ النِّسْخُ إِلَى أَحْفَ فَالْخَيْرِيَّةُ فِي النِّفْعِ، أَوْ إِلَى أَثْقَلٍ فَالْخَيْرِيَّةُ فِي الثَّوَابِ، وَإِنْ كَانَ النِّسْخُ فِي اللَّفْظِ إِلَى أَحْصَرَ فَالْخَيْرِيَّةُ فِي النِّفْعِ، أَوْ إِلَى أَطْوَلَ فَفِي الثَّوَابِ، وَإِنْ كَانَ فِي اللَّفْظِ وَالْحُكْمِ إِلَى أَحْفَ حَكْمًا، وَأَحْصَرَ لَفْظًا فَالْخَيْرِيَّةُ فِي النِّفْعِ، أَوْ إِلَى أَثْقَلٍ حَكْمًا وَأَطْوَلَ لَفْظًا فَالْخَيْرِيَّةُ فِي الثَّوَابِ، أَوْ إِلَى أَحْفَ حَكْمًا وَأَطْوَلَ لَفْظًا فَالْخَيْرِيَّةُ فِي النِّفْعِ وَالثَّوَابِ، أَوْ إِلَى أَثْقَلٍ حَكْمًا وَأَحْصَرَ لَفْظًا فَالْخَيْرِيَّةُ فِي الثَّوَابِ بِالنِّسْبَةِ لِلْحُكْمِ، وَفِي النِّفْعِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّفْظِ. وَمَنْعَ بَعْضَهُمُ النِّسْخَ إِلَى أَثْقَلٍ.

(أصول الدين) والنسخ دليل على أن

القرآن حادث مخلوق، ولا تثبت الكلام النفسي، فضلا عن أن يقال التغيير من عوارض ما يتعلّق به الكلام النفسي، وهي الأفعال في الأمر والنهي، والنسب الخبرية في الخير، وفي إثبات الكلام النفسي إثبات كون الله ظرفاً ومتحيّزاً وإن رجع ذلك إلى العلم لزم أن كل ما علمه

قديم، والقرآن هو هذه الألفاظ لا غيرها.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما بالزيد والنقص والتغيير، ومن له ذلك فكيف وله أضعافهما العرش والكرسي وغيرهما، فله التصرف بالنسخ، وكل ذلك على ما سبق به قضاؤه الأزلي، ولم تعطف هذه الجملة لأنها إيضاح لما قبلها وتأكيد في المعنى، وللإشعار بأنها مستقلة في الاحتجاج.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ الخطاب لكفار العرب وغيرهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ﴾ يحفظكم عن توجه العذاب إليكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنكم إذا أتاكم. وقد يضعف الولي عن النصر، وقد يكون النصير أجنبيًا، فيبينها عموم وخصوص من وجه، فعموم الولي في النصر وعدمه، وخصوصه في القرابة، وعموم النصر في القرابة وعدمها، وخصوصه في إيقاع النصر جزمًا، ومن وليه الله لا يجد إلا خيرًا في أمر النسخ وغيره، ولا يرتاب، والمراد بالولي الولي من حيث الدفع، وإلا فلكل أحد ولي.

(نحو) و«ما» حجازية لم تعمل لتقدم الخبر، ويجوز أن يكون اسمها اسم فاعل ناب عنه «لكم»، و«ولي» فاعل له أغنى عن خبرها، أي ما ثابت لكم ولي ولا نصير، كما تقول: ما قائم الزيدان.

﴿أَمْ﴾ بل تريدون، وهو إضراب انتقال عن قصة لا إبطال

﴿تُرِيدُونَ﴾ يامعشر العرب وغيرهم كاليهود ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾
أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ لِلْعَرَبِ وَالْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ.

أما العرب فسألوه أن يوسّع أرض مكة بإذهاب الجبال عنها
للحراث والنزهة، وأن يجعل الصفا ذهباً، وأن يبعث قصباً يخبرهم أنه
نبيء. قال السدي: وأن يروا الله جهرة قال: نعم، على أنه لكم كالمائدة
لبنى إسرائيل، فقال ابن أبي العالبة: أن تكون كفاراتنا ككفارات بني
إسرائيل، فقال: كفاراتكم خير: الاستغفار والصلوات والجمعة
وكفاراتهم خزي، فإن لم يكفروها ففي الآخرة، ومن ذلك قول رافع بن
خزيمة: إن كنت رسولا فيكلمنا الله حتى نسمع كلامه.

وأما اليهود فسألوه أن يأتي بالكتاب من الله جملة كاللتوراة، وأن
يأتي بالله والملائكة قبيلاً، ونحو ذلك. ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾
سأله اليهود أن يريهم الله جهرة، وأن يجعل لهم إلهاً كما جعل قوم
لأنفسهم آلهة، ونحو ذلك. ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ يأخذ
الشرك والكبائر بدل التوحيد، والإيمان بترك التفكير في ما أنزل الله،
وطلب آيات آخر تعنتاً. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءً﴾ أي عن سواء، أو أخطأ
سواء ﴿السَّبِيلِ﴾ أي السبيل السواء، أي المعتدل وهو الحق.

قيل: قوله ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ...﴾ إلخ يدل على أن
الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾
للمؤمنين، لأن هذا لا يصح إلا في المؤمنين، لأنهم آمنوا فنهوا أن

يبدّلوه بالكفر، قلت: لا يتعيّن هذا لجواز أن يكون معنى التبدّل إعراض الكفرة عن التوحيد والإيمان، واستدلّ على أنّ الخطاب في ذلك كلّهُ للمؤمنين بأنّ قوله ﴿أَمْ تَرِيدُونَ﴾ عطف على ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قلت لا يتعيّن لجواز أن تكون «أم» حرف ابتداء للإضراب كما مرّ، ولا داعي إلى تقدير: أتفعلون ما أمرتم من السمع، وقول انظرنا، أتريدون. واستدلّ على أنّ الخطاب للمؤمنين بأنّهم كانوا يسألونه ﷺ عمّا لا خير فيه، كما سأل اليهود موسى عليه السلام، كما روي أنّهم قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما أنّ للمشركين ذات أنواط، شجرة يعبدونها ويعلّقون عليها سلاحهم ومأكلهم ومشروبهم، إلا أنّهم لم يريدوا أن يعبدوها فقال: «الله أكبر! هذا كما قال لأخي موسى قومه: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، والذي نفسي بيده لَتَرَكِبُنَّ سَنَنَ مِنْ قَبْلِكُمْ حَذَوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، وَالْقِدَّةَ بِالْقِدَّةِ، إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَتَى أُمَّه يَكُنْ فِيكُمْ، فَلَا أُدْرِي أَتَعْبُدُونَ الْعَجَلَ» (١)، واختار بعض أنّ الخطاب لليهود لأنّ الكلام فيهم من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا...﴾.

١ - رواه أحمد في مسنده، ج ٨، ص ٢٠٨، رقم ٢١٩٥٦ و ٢١٩٥٩ إلى قوله عليه

السلام: «سنن من قبلكم».

ورواه الترمذي في كتاب الفتن (١٨) باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، رقم

٢١٨٠ من حديث أبي واقد الليثي.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كِفَارًا أَحْسَدًا مِّنْ عِنْدِ
 أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ
 يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

موقف أهل الكتاب من المؤمنين وكيفية الرد عليهم

﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ منهم حيبي بن أخطب وأبو ياسر، وكانا أشدَّ الناس
 حسداً للعرب على الإسلام وكون النبيء منهم. ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
 يَرُّدُّونَكُمْ﴾ أحبَّ وتمنَّى كثير من اليهود ردَّكم أي تصيركم ﴿مِّنْ
 بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كِفَارًا﴾ مشركين، وقوله: ﴿حَسَدًا﴾ تعليل لودَّ لا ليردَّ،
 لأنَّ المعنى عليه ودَّ، وأن يكون الردُّ للحسد وليس مراداً، ووصفَ
 الحسدَ بقوله: ﴿مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ لخبثها الشديد بلا موجب لذلك
 الودَّ من التدين، بل تشهياً أو من عند ذواتهم، كأنَّهم جبلوا عليه
 فيصعب زواله.

﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ في التوراة بموافقة نعوته فيها وبالمعجزات.

﴿الْحَقُّ﴾ أي تبين الحقُّ لهم أنَّ محمداً رسول الله بالقرآن ﷺ.

(سبب النزول) قال نفر من أحبار اليهود كفنحاص بن عازوراء، وزيد بن قيس، لحذيفة وعمّار بعد أحد: «لو كنتم على الحقّ لما غلبتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم»، فقال عمّار: «كيف نقض العهد فيكم؟» قالوا: «أمر شديد»، قال: «عاهدت الله تعالى أن لا أكفر بمحمّد ﷺ ما عشت»، فقالت اليهود: «أمّا هذا فقد صبأ»، وقال حذيفة: «وأمّا أنا فقد رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالْمؤمنين إخواناً»، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «أفْلَحْتُمَا» فنزل ﴿وَدَّ كَثِيرٌ...﴾.

﴿فَاعْفُوا﴾ عن اليهود والعرب، كما لم يذكر لفظ عنهم، والفاء تدلُّ على اليهود أولاً وبالذات، ودخلت العرب ثانية وبالاتباع، لا تعاقبهم؛ ﴿وَاصْفَحُوا﴾ عنهم لا تعاتبوهم العتاب الشديد، وضعف ما قيل: لا تخالطوهم.

(لغة) وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وأصل العفو محو الجريمة، من عفا إذا درس، وترك العقوبة لازمه، وبينهما عموم وخصوص من وجه يجتمعان إذا عاقب وعاتب، ويختصُّ الصّفح بما لم يعاقب وعاتب، والعفو بما عاتب ولم يعاقب.

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ واحد الأمور وهي القيامة والجزاء فيها، وقوّة الرسالة وكثرة الأمة، أو ضدّ النهي بأن يأذن في قتالهم لوقته،

فجاء الإذن في قتال العرب قبل بدر إذ قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (سورة الحج: ٣٩). وجاء الإذن في أخذ الجزية عن أهل الكتاب، وبقتل قريظة وإجلاء النضير بعد أحد، بل بعد الأحزاب، وهي بعد أحد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه الانتقام منهم.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بطهارة وخشوع وإخلاص، مع تأديتها بأجزائها، وهكذا في سائر القرآن. ﴿وَوَاعظُوا بِالزَّكَاةِ﴾ صيروها آتية أهلها بأن توصلوها إلى مستحقها.

(فقه) وعلى أصحاب الزكاة مؤونة حملها والمجيء بها، حتى تصل العامل الذي جاء إليها، أو الفقير إذا لم يكن الإمام، أو أمرهم بتفريقها، وذلك هو الأصل، وإن جاءها الفقير أو وكيله وقبضها أجزت. والمراد بالزكاة الجزء المعلوم من المال. ويجوز أن يراد: اجعلوا التزكية آتية منكم إلى أهلها، وكذا في سائر القرآن. وذلك أمر بالعبادة البدنية والمالية لأنها تدفع المكروه. وزعم الطبري أنها كفارة لميلهم إلى قول اليهود: راعنا، وهو مردود.

﴿وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ﴾ طاعة كأمر ونهي، وتعليم وصلة رحم، وأداء فرض أو سنة أو نفل، ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعلموا أن الله عالم به، وأولى من هذا تجدوه بوجود ثوابه. سمي الثواب باسم

سببه وملزومه، أو يقدر: تجدوا ثوابه، اللقمة والتمررة كأحد، أو تجلوه نفسه مجسماً.

وأنا أقول: لا بأس بتجسيم الأعراض، لأن الله قادر على إنشاء كل شيء من أول، فهو قادر على تصيير العرض جسماً، كما جاءت الأحاديث والآثار بأنه تجيئه صلاته بصورة رجل حسن، وتجيئه صدقته ظلاً، وهكذا في الشر، إلا أنني لا أقول بوزن ما تجسم من الأعراض. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عنه شيء، فهو يجازي على مناقيل الذر من خير وشر.

﴿وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِنْ لَمْ نَكُنْ مِنْ يَهُودٍ أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٩﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ رَعِيدٌ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ رَيْبٍ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٠﴾ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١١﴾﴾

مراي كل من اليهود والنصارى في الآخر

﴿وَقَالُوا﴾ متعلق بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾، والواو لأهل الكتاب لا

لكثير في قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أو لليهود والنصارى ولو

لم يتقدّم ذكر النصارى لدلالة ما بعده عليهم، أو على الاستخدام لأنّ الكثير المذكور أريد به أحبار اليهود خاصّة، إلاّ أنّه لا مانع من أن يراد به النصارى. ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي قالت اليهود لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، وقالت النصارى: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصَارَى، وروعي فيمن كان هودًا أو نصارى معنى مَنْ، إذ هما جمع هائد، أي تائب من عبادة العجل، أو منتسب لليهود، وقد قيل: هودا مخفف من يهود بحذف الياء؛ ونصرانيّ أو نصرانّ أو نصريّ.

(سبب النزول) قدم نصارى نجران إليه ﷺ، وناظرهم أحبار اليهود، وارتفعت أصواتهم، قالت اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء، وكفروا بعبسى والإنجيل، والجنّة لنا دونكم، وقالت النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وكفروا بموسى والتوراة، والجنّة لنا دونكم، فنزلت الآية.

جمعهم بالواو في «قالوا» لأنّ السامع يميّز ما قال كلٌّ بما بعده، لأنّ اليهود لا تقول: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان نصارى، والنصارى لا تقول: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا، ولا يقول اليهود ولا النصارى: لن يدخل الجنّة إلاّ اليهود والنصارى، لأنّه ينافيه سبب النزول وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ: لَيْسَتِ النَّصَارَى...﴾ الآية؛ وأو

بمعنى الواو، أو للتفصيل كما قال: ﴿وَقَالُوا: كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾. ﴿تِلْكَ﴾ القولة التي هي قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ...﴾ الآية ﴿أَمَانِيُهُمْ﴾ شهواتهم الباطلة التي يتمنونها، أي يقدرونها ويقطعون بها.

(صرف) أمانِيُّ جمع أمنيَّة، وأصل هذا المفرد: أُمْنِيَّة، بوزن أضحوكة، قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء، وقلبت ضمة النون كسرة، وهذا الوزن للمبالغة وهو بمعنى الأكاذيب حقيقة، وبمعنى ما يُتَمَنَّى مجاز.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم عليها.

(لغة) والأصل: هاتوا، ثقلت الضمة على الياء فنقلت للتاء، وحذفت الياء للساكن، والماضي هاتى، والمضارع يهاتي، لكن لا يتصرف، ولكن الأصل ذلك؛ وقيل: يتصرف. وقيل: الهاء عن الهمزة، وقيل: للتنبيه والهمزة حذفت؛ أو اسم فعل، وزعم بعض أنه اسم صوت، ويردّه اتّصال الضمير به. والبرهان من البره وهو القطع، والحجة تقطع الخصم، والنون زائد، أو من البرهنة بمعنى البيان، فالنون أصل، كذا قيل، ويحتاج إلى ثباته في كلام العرب، وإلا فلعلّ لفظ البرهنة تصرف من غير العرب.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيها.

وإنما قال: ﴿أَمَانِيَهُمْ﴾ بالجمع مع أن القولة أمنية واحدة لأنها قالتها اليهود وقالتها النصارى، فاستعملوا الجمع في اثنتين، أو لأنها تعدد قولها في اليهود، وغالبهم يقولها، وأيضاً يرددها في نفسه، وتعدّد قولها في النصارى وغالبهم يقولها وأيضاً يرددها في نفسه، ولأنّ لليهود أمنية أن يدخلوها، وأمنية أن لا يدخلها غيرهم؛ وللنصارى أمنية أن يدخلوها وأمنية أن لا يدخلها غيرهم، فهؤلاء أربعة أمانى. أو عدّد الأمنية الواحدة أمانى لشدّتها، أو الإشارة إلى تلك القولة وإلى تمنّيهم أن لا ينزل على المؤمنين خيراً، وتمنّيهم أن يردّوهم كفّاراً، وقولهم لن تمسنا النار إلاّ أياماً.

﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ولو كانوا أيضاً لا يدخلونها، فالمعنى لا يدخلونها وغيرهم يدخلها، وقد تقع في غير النفي والاستفهام. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أخضعه ﴿لِلَّهِ﴾ وخصّ الوجه لأنه أعظم، إذ فيه أكثر الحواس بل كلّها، وشاركه غيره في الحسّ، ولأنّه موضع السجود الذي العبد فيه أقرب ما يكون من ربّه، فغيره أولى بأن يكون قد أسلم لله، أو الوجه بمعنى الذات كلّها، إذ هو جزءها الأعظم؛ أو بمعنى قصده. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ موحد عامل متقّ، ولو

لم يبلغ إلى قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» (١). ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ ثوابه على عمله وتقواه وتوحيده وهو الجنة. ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ عندية علم وعهد وتشريف. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة، لا خوف إلا خوف يحدث لعظم الهول ويزول، ويعقبه الأمن الدائم. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيها على فوت التوحيد والعمل والتقوى، لأن ذلك لم يفهم، وإنما يحزن من فاته أو بعضه. وأما في الدنيا فالمؤمن أشد حزنًا في أمر دينه.

وفصل قوله: ﴿وَقَالُوا: لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ...﴾ إلخ بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ أحبارهم في المدينة، أو نافع بن حرملة ونسب للجميع، لأنه منهم راضون بقوله؛ أو مطلقًا ذكر الله اعتقاد من اعتقد ذلك ولفظ من لفظ وهم القليل. ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ معتد به من الدين، كفروا بالإنجيل وعيسى، وأثبتوا الحق لأنفسهم. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ كلهم إلا قليلًا أو واحدًا منهم كما مر، أو من وفد من نصارى نجران على رسول الله ﷺ، ذكر الله

١ - رواه مسلم في الإيمان (١)، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ١ (٨)،

ورقم ٥ (٩)

والترمذي في الإيمان (٤)، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي، رقم ٢٦١٠، من

حديث أبي هريرة رضي الله

اعتقاد من اعتقد ذلك ولفظ من لفظ، وهم القليل. ﴿لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ معتد به من الدين، كفروا بموسى والتوراة وأثبتوا الحق لأنفسهم، ونفي الشيء في الموضوعين كناية عن عدم الاعتناء به، وهي أبلغ من التصريح.

﴿وَهُمْ﴾ أي الفريقان ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب، تلو اليهود التوراة وتجد فيه تصديق عيسى والإنجيل، وتلو النصارى الإنجيل وتجد فيه تصديق موسى والتوراة، أو تلو اليهود التوراة والإنجيل، يجدون فيهما تصديق الكل، وكذا النصارى؛ وقيل: المراد التوراة. ﴿كَذَلِكَ﴾ كقول اليهود للنصارى، والنصارى لليهود. ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب وغيرهم، كأمم قبل اليهود والنصارى. ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قالوا لكل ذي دين ليسوا على شيء يعتد به، وفي ذلك تشبيهان، تشبيه المقول بالمقول في المؤدى، وتشبيه القول بالقول في الصدور عن مجرد الهوى، ولو زاد اليهود بالتعصب، فليس في الآية تكرير بل فيها مزيد التوبيخ.

بل شبه من في يده علم التوراة والإنجيل بمن لا علم له من عبدة الأصنام كقريش ومن ينكر الله، والمراد بالتشبيه التنظير، وهو من التشبيه المقلوب، إذ شبهوا بالجاهلين، و«كذلك» مفعول لـ«قال»، أي مثل قول اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون.

(نحو) و«مِثْلَ» مفعول به لـ«يعلمون»، بمعنى يعتقدون، أو مفعول به لـ«قال» أو مفعول مطلق له، وكذا مفعول به له، أو مثل توكيد لكذلك لا بدل، لاتّحاد مفهومهما، بخلاف جاء زيد أخوك، فإنّ الأخوة ليست مفهومة لزيد.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين أو بينهما وبين الذين لا يعلمون، والمراد الفريقان بالذات، لأنّ الكلام فيهما، والذين لا يعلمون بالتبع.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيدخل الجنة من عمل بالناسخ وترك ما نسخ فقط من الكتاب الآخر، ويدخل النار من عمل بالمنسوخ وكفر بالناسخ، وذلك إشراك، ومن أشرك بعبادة الصنم أو بإنكار الله، وأيضاً المشركون أسفل النار، واليهود في لظى، والنصارى في الحطمة، وذلك من الحكم المذكور، فالحكم بينهم أن يقسم لكل فريق ما يليق به من العذاب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَبَّحَ فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجهه الله

إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

ظلم مانع الصلاة في المساجد، وصحة الصلاة في أي مكان
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أي مسجد كانت من
مساجد الإسلام، ﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بتلاوة كتب الله والصلاة
وسائر الأذكار. والاستفهام للنفي، أي لا أحد أظلم، وقد ثبت الظلم
لغير مانع المساجد، ولكن مانعها أعظم ظلماً من المعصية بمنع غيرها،
وبغير منع بشيء، لكن جاء أيضاً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ
وَكَذَبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ (سورة الزمر: ٣٢) ونحو هذا، فنقول ذلك
كله أمر واحد مفضل على غيره، كأنه قيل: المفترى على الله ومانع
المساجد ونحوهما أظلم من غيرهم، والتفضيل بينهم يوكل إلى الفهم،
مثل أن تقول: من قال ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً﴾ أظلم من المفترى عليه،
والمفترى عليه أظلم ممن منع مساجد الله.

والممنوع الناس لا المساجد ولكن وقع على المساجد لأنها محلّ
إيقاعهم العبادة، وللإشارة إلى أنها مظلومة كما ظلم الناس، ولأنه
يوقع لها تمييز لمن يتعبّد فيها فظلمت بمنع من تحبّث عنها، ومنعهم
كإغلاقها، وبعد ذلك قال الممنوع ذكر الله، أو المراد لأجل ذكره أو
من أن يُذكَر، والمراد بالمساجد كل مسجد خرب أو سيخرب، ومنع
أو سُمِنِع، كما منعت قريش رسول الله ﷺ والمؤمنين قبل الهجرة

وفي عام الحديبية أن يدخلوا المسجد الحرام للعمرة.

﴿وَسَعَى﴾ اجتهد، ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ في تحصيل خرابها، أو اسم مصدر أي في تخريبها بالتعطيل أو الهدم.

كما هدم "بخت نصر" بيت المقدس وألقى فيها الجيف، وذبح فيها الخنازير، وأحرق التوراة، وقتل بني إسرائيل، وسبى الذراري، وكما فعل "ططيوس الرومي" وقومه من روم ونصارى ذلك بعد أن بُني على عهد "عزيز"، وبقي خراباً^(١) إلى أن عمّره المسلمون على عهد عمر رضي الله عنه.

ويجوز أن يراد بالمساجد المسجد الحرام وتخريبه تعطيل قريش النبي ﷺ والمؤمنين عنه، جمع تعظيماً ولأن مساجد الإسلام كلها تنبني عليه وتبني إليه، وأن معطل مسجد حق^(٢) كمانع المساجد كلها، كما أن مكذب نبيء أو كتاب كمكذب الأنبياء كلهم، والكتب كلها، ولا سيما أعظم المساجد وأعظم الأنبياء وأعظم الكتب.

﴿أُولَئِكَ﴾ المانعون الساعون في خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمْ، أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ وقد تحققت ذلك وقوعاً في مدة عظيمة لا يدخل مشرك نصراني ولا رومي ولا غيره مسجداً من مساجد المسلمين

١ - كذا في النسخ، لعله يريد جزءاً منه بقي خراباً.

٢ - كذا في النسخ، ولعل الصواب: وأن معطل حق المسجد.

إلاً خائفاً، وهذا إلى الآن إلاً مساجد بلاد أخذوها^(١)، أو لا يدخل مشرك المسجد الحرام إلى الآن إلاً خائفاً متنكراً، ومضى زمان مديد من عهد عمر وما بعده لا يدخل بيت المقدس مشرك، ولا يوجد فيها إلا أوجع ضرباً، وليس في الآية أنه لا يدخلها أبداً بل فيها أنه يتحقق هذا المقدار من عدم الدخول إلاً مع خوف، فلا يرُد ما ذكرت من دخولهم مساجد بلاد أخذوها، ودخلوهم المسجد الحرام، وأخذهم الحجر الأسود، ثم إنه رُدَّ، وكَوْن المقدس في يد الإفرنج أكثر من مائة سنة بحيث لا يدخله مسلم إلاً خائفاً حتى نزعه منهم الناصر صلاح الدين يوسف^(٢)، وذلك إمّا على أن معنى الآية أن الله قضى أن لا يدخلوها إلاً خائفين، وعداً بالنصر للمؤمنين، وإمّا على معنى أنه لا يجوز لكم أن تتركوهم ودخولها، أو ما كان الحق أن يدخلوها إلاً خائفين أن تبطشوا بهم فضلاً عن أن يجترعوا على تخريبها، أو يمنعوا المؤمنين عنها.

١ - يعني الشيخ أنهم استعمروها، وكأنه يتألم مما يفعله الاستعمار في زمانه.

٢ - هو سلطان المماليك صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، أمره نور الدين، ولما توفي نور الدين قام بعده صلاح الدين، ودانت له العساكر، وقهر الفاطميين، ومحا دولتهم، وكان خليفاً بالإمارة، مهيباً شجاعاً حازماً، عالي الهمة، وكانت دولته نيفا وعشرين سنة. فتح طبرية، ونازل عسقلان، وكانت وقعة حطين، وفيها حطّم الصليبيين، ومحاسن صلاح الدين جمّة. توفي رحمه الله بقلعة دمشق سنة ٥٨٩هـ.

تهذيب سير أعلام النبلاء: رقم ٥٣٤٦، ص ١٣٣ (بتصرف).

(فقهه) ولا يجوز عندنا أن يترك مشرك أن يدخل مسجداً إلا إن لم تقدر، وذلك قول مالك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (سورة التوبة: ٢٨)، والمساجد مثله في التطهير عن الأنجاس فهي مثله أيضاً في الحرمه، وأجازه الشافعي في غير المسجد الحرام بشرط الحاجة فيه وإذن المسلمين له لذكره في الآية، وإدخال رسول الله ﷺ وقد ثقيف وغيرهم المسجد منسوخ بهذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ...﴾ الخ لاستلحاقه سائر المساجد لجامع علّة النجس والحرمه، ولقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا...﴾ الخ سواء أفسرناه بالأمر بإبعاد المشركين عنها، أو بقضاء الله، لأنّه أمر يرغب فيه فلا إشكال، وأجازه أبو حنيفة مطلقاً.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، بالقتل والسبي في بعض الجزية في البعض الآخر، وأصل الخزي ذلٌ يستحي منه، ولذلك يستعمل في كل منهما، والقتل والسبي ذل عظيم يستحي منه في السبي دون القتل، إلا أن يقال يستحي منه المقتول قبل أن يقتل وأصحابه وقرابته. قَبِلْتُ النضير الجزية، وقَتِلَ بعض قريظة وسيُ بعض.

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار لمنعهم مساجد الله،

وسعيهم في خرابها.

(سبب النزول) وكان ﷺ يصلي النافلة على الدابة أينما توجهت من مكة إلى المدينة وفي غير ذلك حتى الوتر قبل أن يفرض عليه، وحوّلت القبلة إلى الكعبة، وطعنت اليهود في ذلك، وقالوا لا قبله لهم معلومة، وصلى كل على اجتهاده إلى جهة ليلا في غزوة ومعهم النبي ﷺ، وقيل لم يكن معهم لظلمة فلما أصبحوا تبين أن بعضا صلى إلى الشمال وبعضاً إلى الجنوب، فنزل قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ استلحِقاً (١) جوانبهما، فذلك الأرض كلها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ هو المكان الذي أنتم فيه أو الذي استقبلتم إليه.

﴿تَوَلَّوْا﴾ وجوهكم في الصلاة بأمره لكم بالتولية ﴿فَثَمَّ وَجْهٌ﴾ ذات ﴿اللَّهُ﴾ أو فثمَّ الله بالعلم والحفظ وسعة الرحمة وغير ذلك، أو فثمَّ جهة الله أي الجهة التي أمركم بها.

وليس توليكم باختياركم حتى يعيبوكم بصلاة بعض إلى الجنوب وبعض إلى الشمال في السفر للجهل بالجهة في غزوة، وقد قيل: نزلت الآية فيهم، وقيل: في الصلاة على الراحلة للضرورة، وصلاة النفل عليها مطلقاً.

١ - كذا في النسخ، ولعلَّ الأنسب أن يكون الفعل مجرداً من الضمير: استلحق، أي الله تعالى، تأمل.

وفي ذلك اختصاص لنا بأن نصلي حيث أدركتنا الصلاة، لا كمن قبلنا لا يصلون إلا في كنائسهم، وكان عيسى عليه السلام يصلي حيث أدركته الصلاة، فصلوا إلى الكعبة والنفل على الراحلة، وصلوا في الأرض كلها فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، ولا يضركم أن منعوكم عن المسجد الحرام أو الأقصى.

وقبل فتح المقدس منع المسلمون من الصلاة فيه، وقيل منعهم الإفرنج حين استولوا عليه حتى رده صلاح الدين، وعليه فالآية إخبار بالغيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يسع فضله وعلمه كل شيء، ومن سعة فضله أن لكم الأرض مسجداً، فليل: ولو سبخة حال الاختيار. ولا بد من الطهارة، ومن قبلنا لا يصلون إلا في مساجدهم، فإذا غابوا عنها تركوها وقضوها.

﴿وَقَالُوا ابْتِغَاءَ لِقَاءِ اللَّهِ وَاللَّهُ مُجِيبُ الدُّعَاءِ وَابْتِغَاءَ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ رَاقِبُونَ ﴿١١٦﴾﴾
 ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ وَقَالَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلًا أَيْ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ
 قَوْلِهِمْ تَشَبِهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

افتراءات أهل الكتاب والمشركين بنسبة الولد لله والمطالبة

بتكليمه الناس

﴿وَقَالُوا﴾ عطف على منع، أي ومن أظلم ممن منع وسعى وقالوا،
أي ومن ممن قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قالت العرب وبعض النصارى
الملائكة والجن بنات الله وقالت النصارى المسيح بن الله، وقالت
اليهود عزيز بن الله.

(أصول الدين) ومن قال بالأبوة والبنوة
بمعنى الرحمة لم يجر له ذلك، لأنَّ لفظ الكفر كفر، ولو لم يعتقد ظاهره
وإن صحَّ أنَّ عيسى قال بذلك على معنى الرحمة فقد قيل به على
ظاهره بعده، فيكون لفظ الشرك شركاً بحكم الشرع قطعاً لمادة
الشرك.

وقد كان بعض بربر الغرب يقولون: «للرحمن باب»، فقال بعض
علماء الغرب:

يقولون للرحمن بابٌ بجهلهم ومن قال للرحمن باب فقد كفر^(١)

وأجاب بعض بأنَّه لا كفر إذ لم يقصدوا الإشراك، ومن قاله ولم

١ - تقدّم قبل في صفحة ٧٨.

يرد الإشراف فليس مشركاً، لكن يُنهى عن قوله.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ نزهوه أيها المؤمنون عن الولد تنزيهاً، لأنَّ الوالد له جهات وحدوث وفناء، فيخلفه ولده، والله بخلاف ذلك. ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من غير العقلاء والعقلاء.

ولفظ «ما» هنا للأنواع، والأنواع غير عاقلة، وإنَّما العاقل بعض الأفراد، والمملوك والمخلوق لا يكونان ولدًا للخالق والمالك.

﴿كُلٌّ﴾ ممَّا في السماوات والأرض عليهما وما فيهما من أجزاء. ﴿لَهُ فَاِنْتُونَ﴾ عابدون عبادة يعلمها الله، أو منقادون لما أراد الله، ومن زعموه ولدًا فقد أذعن للعبودية لله، وهم ممن في السماوات والأرض فليسوا بأولاد.

والآية تناسب حديث: «من ملك ذا رحمٍ عتق عليه»^(١). وجمع السلامة للمذكر تغليب وتلويح بأنَّ الجمادات وغيرها كالعقلاء في الانقياد، أو لأنَّ الله خلق تمييزاً للجمادات يتعبدون به، أو جمعُ السلامة للمذكر تغليب للعقلاء الذكور.

﴿بَدِيعٌ﴾ هو بدیع ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي غريب شكلهما إذ

أوجدتهما بلا مثال سابق، وفائقهما فيما نشاهد، والعرش ولو كان أعظم منهما لا نشاهده.

(نحو) غريب صفة مشبهة أضيفت لفاعلها لأن «بدع» لازم لا مفعول له كقولك: زيد كثير المال، وقد يقال: بمعنى مبدع أضيف لمفعوله.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أراد إيجاد، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ﴾ أي أُحْضِلْ، ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكون أي يحصل بلا توقّف. وليس هناك قول بل تمثيل لوجود ما يريد وجوده بسرعة.

﴿وَقَالَ...﴾ إلخ عطف على ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ أو على ما عطف عليه، وذلك قدح في التوحيد وهذا قدح في النبوءة. ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مشركو العرب من مكّة ومن غيرها، أو مع اليهود والنصارى وغيرهم.

وقيل: المراد اليهود على عهد رسول الله ﷺ لما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رافع بن خزيمة اليهودي قال لرسول الله ﷺ: إنّ كنت رسول الله تعالى فقل له يكلمنا حتى نسمع كلامه، فنزلت هذه الآية وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ...﴾ إلخ، وقيل: النصارى، وأنّهم المرادون في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ المذكورون

في الآية وهو ضعيف.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ جهرة أو بانزال الوحي إلينا. ﴿أَوْ تَاتِينَا آيَةً﴾ على صدقك كتصوير الصفا ذهباً، وإفساح الجبال عن مكة، وبعث قصي وأن يأتي بالله والملائكة قبلاً، ونحو ذلك مما مرّ مثل: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ (سورة الفرقان: ٢١). ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية لأنبيائهم تعنتاً. ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كما قالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (سورة النساء: ١٥٣). ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلخ (سورة المائدة: ١١٢).

وليس من طلب الآيات ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ...﴾ إلخ (سورة البقرة: ٦١) و﴿اجْعَلْ لَنَا إِهْمًا﴾ (سورة الأعراف: ١٣٨) بل مجرد عناد وفساد. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء وأولئك في الكفر والعناد، فلا يشتدّ حزنك يا محمد إذ قيل لك ما قيل لمن قبلك.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾ بأنها آيات توجب الإيمان أي نزلناها بيّنة من أوّل الأمر، لا غير مبينة ثم بيّناها، وهذا كقولك: «وسّع فم البئر» و«أدرّ جيب القميص» و«سبحان من صغر البعوض».

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ اتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَادِي وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَتَّىٰ تُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمُنُونَ بِهِ وَمَنِ يَكْفُرْ بِهِ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴿١٢١﴾

التحذير من اتباع اليهود والنصارى

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ مع الحق وهو دين الإسلام أو لأجل إقامته، ﴿ بَشِيرًا ﴾ لمن أتبعه بالجنة، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن خالفه بالنار، ولم نرسلك لتجبر عليه إن أنت إلا بشير ونذير، ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾. ﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ النار الملتهية، وأصحابها اليهود والنصارى ومشركوا العرب، وسائر المشركين؛ لا تسأل عنهم فإن عقابهم لا يسعه إخبارك به، ولا يحتمله فهمك فلا فائدة في السؤال عنه، والله قادر على الإخبار به ولكن لا يمكنك الإطلاع عليه في الدنيا، فتسل بشناعته عن ضرهم لك، ولا تسأل عنهم سؤال تحسر لم لم يؤمنوا؟ مع وضوح الدلائل.

(سبب النزول) وعن ابن عباس أنه ﷺ سأل

الله عن أبيه فنزلت نهياً عن السؤال عن الكفرة عموماً، وإنما سأل عن خفة عذابهما وشدته، أو عن حال أهل الفترة فأخبره

بأنَّهم غير معذورين، وذلك قبل أنْ يَحْيِيَهُمَا اللهُ ويؤمننا به على ما روي ضعيفاً. وروي أنَّه سأل جبريل عن قبريهما فدلَّهُ عليهما فذهب إليهما فدعا لهما وتمنَّى أنْ يعرف حالهما، وقال ليت شعري ما حالهما في الآخرة؟ فنزلت الآية والصحيح أنْ الآية في أهل الكتاب، أو فيهم وفي سائر المشركين لا فيهما. ولا بأس على من وقف فيهما لشبهة ما ذكروا من الأحاديث في إيمانها إذ كانت ضعيفة لا للحميَّة والضعف في الولاية والبراءة.

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾
أفرد الملة مع تعدُّدها لأنَّ مللهم كلها كفر، والكفر ملة؛ وسميت ملة لأنَّ الشيطان أملاها عليهم أو أهواؤهم وأنفسهم، كما أنَّ دين الله عزَّ وجلَّ أملاه جبريل للنبي ﷺ.

قالوا له ﷺ لن نرضى عنك حتى تتَّبِعَ ديننا وقبلتنا فإنه الهدى، فأنزله الله عليه وهو في اللوح المحفوظ سابق، وأعلمه أنَّ الأمر كما قالوا لا يرضون عنك إقناطاً له عنهم إذ اتَّباعه ملَّتْهم في غاية البعد التي لا غاية بعدها.

وكان يلاطفهم طمعاً في إيمانهم حتى نزلت، وعلمه أنْ يردَّ عليهم في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام، ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾،

تحقيقاً إلى الحقِّ لاملتكم ولا غيرها من كل ما خالفه، فأيسوا بعد ما كانوا يرجونه.

﴿وَلَنْ اتَّبَعْتَ﴾ والله لئن اتبعت، ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ملتهم التي ادعوا ديناً، ومقتضى الظاهر: ولن اتبعتها — أي الملة — وعبر عنها بالأهواء ليصرح بأنها مجرد اتِّباع النفس. ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ هو العلم، والمراد الحقيقة أو بعض العلم.

﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ﴾ يلي أمرك بحفظك من العذاب من أول، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنك إن جاءك لا ولي ولا ناصر إلا الله، فإذا لم يجئك ولي من عنده ولا نصير هلكت، أو ما لك ولي ولا نصير من عند الله.

﴿الَّذِينَ﴾ خبره ﴿أولئك يؤمنون به﴾، ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الإنجيل والتوراة، وقيل: المراد المؤمنون والقرآن، ﴿يَسْتَلُونَهُ﴾ أي القرآن، والجملة حال، أي مقدراً — بفتح الدال — لهم أن يتلوه ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ لا يغيرون لفظه ولا معناه، ولا يزيدون ولا ينقصون، ويعملون به ويتفكرون في معانيه، ويكلون متشابهه إلى الله، وذلك هو قراءته حقَّ قراءته، وأمَّا قراءته بإخلال ذلك أو بعضه فكلاً قراءة، أو يتلونه: يلونه

بتلك الحقوق، وهم عبد الله بن سلام ونحوه من أهل المدينة وغيرها من علماء أهل الكتاب العاملين به، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية رهابين من أهل الشام، منهم بحيرى الراهب دخلوا الحبشة ورجعوا مع الإثني والثلاثين منها مع جعفر رضي الله عنه وأصحابه في سفينة إلى رسول الله ﷺ.

وإنما جعلت يتلونه حالا مقدرة لأنهم حال إيتاء الكتاب ليسوا يتلون القرآن حق تلاوته، بل بعد.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالكتاب، أو بالله لا إله إلا الله، أو «الذين»: الأنبياء، و«الكتاب»: الجنس؛ وإنما قلت: والتوراة لأن من آمن بالإنجيل تحقيقاً حتى آمن بالقرآن لا يكفر بها. ولا يجوز أن يراد علماء أهل الكتاب مطلقاً كقوله: ﴿والذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه...﴾ الآية، لأنه ليس كل من عرفه يتلوه حق تلاوته. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالكتاب: التوراة والإنجيل، بل يحرفه بزيادة أو نقص أو كتم أو تفسير بما ليس حقاً. وقيل: القرآن كما مر. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ بدلوا الهدى بالضلالة، والجنة بالنار، وهذا لعمومه أولى من التفسير بأخذ الرشى على الدين.

﴿يٰٓبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِي نَفْسٍ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

تذكير بالنعمة وتخويف من الآخرة

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم ومن قبلهم ومن بعدهم، إلا هذه الأمة فإنها أفضل الأمم على الإطلاق، لقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (سورة آل عمران: ١١٠)، ولا تكون خير أمة إلا لمن هو خير الرسل، صدر قصتهم بهذا وختمها به تأكيداً لتذكر النعم، وللتحذير من إضاعتها.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ عقاب يوم، ﴿لَا تَجْرِي﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنة أو مطلقاً، ﴿عَنْ نَفْسٍ﴾ كافرة أو مطلقاً، ﴿شَيْئًا﴾ أي جزاء، ولا تدفع شيئاً، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فداء، لأنه يعادل المفدى، ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي لا شفاعاة لهم فضلاً عن أن تقبل، أو هو على ظاهره إلا لمن أذن له، فقد روي أنه ﷺ يقول: «أَصِيْحَابِي»

فيقال: «لا تدري ما أحدث هذا بعدك»^(١). ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾
بدفع العذاب عنهم.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ
وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنَا وَإِخْتِذَا وَمِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ
طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّجَرِ مَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّوهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٨﴾﴾

اختبار إبراهيم عليه السلام وخصائص البيت الحرام وفضائل مكة

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل، أو أذكر يا محمد إذ
ابتلى، أو متعلق بـ«قال» بعد، أو بـ«كان كذا وكذا» فحذف، أي
كلف حقيقة أو اختبار مجازاً لعلاقة اللزوم، فإنَّ التكليف - وهو الأمر

١ - رواه مسلم في كتاب الصلاة (١٤)، باب حجة من قال بالبسملة آية من كل سورة،
رقم ٥٣ (٤٠٠).

والنسائي في كتاب الافتتاح (٢١)، باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، رقم ٩٠٣،
من حديث ابن عباس.

والنهي وإلزام ما فيه المشقة — يستلزم الإخبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب تعالى الله. ومعنى تكليفه أنه قدر له ذلك وقضى أن يجري له، فلا يشكل بما كان من الكلمات قبل بلوغه. ﴿إبراهيم﴾ «أب راهيم» أي رحيم، وذلك لغتهم العبرانية تشبه العريية.

(قصص) قال السهيلي: كثيراً ما يقع الاتفاق أو التقارب بين العبراني والعربي، ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب أرخم، لرحمته بالأطفال، ولذلك جعل هو وزوجه كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغاراً إلى يوم القيامة. إبراهيم بن تارخ بن آزر، أو إبراهيم بن آزر، وهو الصحيح، بل تارخ هو آزر بن ناخور بن شارخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن فينان بن ارفخشد بن سام بن نوح، ويقال فينان ساحر فأسقطوه.

(فقه) ﴿رَبِّئُهُ بِكَلِمَاتٍ﴾: أي معان، تسمية للمدلول باسم الدال: المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وفرق شعر الرأس إلى الجانبين إذا طال أربعة أصابع عرضاً، وقلم الأظفار، وبتف الابطين، وحلق العانة والختان — قيل ختن نفسه وهو ابن مائة وعشرين سنة — والاستجمار والاستنجاء بالماء، وأماً بالحجارة قبله فلهذه الأمة خاصة، والتوبة والعبادة والحمد والسياسة، والركوع والسجود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله والصلاة والخشوع، وترك اللغو، والزكاة، وحفظ الفروج،

وحفظ الأمانة، وحفظ العهد، والمحافظة على الصَّلاة، والإيمان، والقنوت، والصدقة، والصوم، وكثرة ذكر الله، ومداومة الصلاة، وإعطاء السائل والمحروم، والتصديق بيوم الدين، والإشفاق من العذاب، والقيام بالشهادة، وقربان الأزواج، وقربان المملوكات، وإعفاء اللّحية، والإحرام، والوقوف بعرفات، والمبيت بالمزدلفة، والرَّمي، والدَّبْح، والحلق، والطواف، والسَّعي، والنَّظر في الكوكب والقمر والشمس — فيحصل الحجَّة — وذبح الولد، والتسليم للوقوع في نار نمرود، وسائر الأوامر، والنَّوَاهِي، والهجرة بدينه من العراق لكفر فيه إلى حرَّان، ثم إلى الشَّام ليجد الوصول إلى دينه، صبر على ذلك كله كما قال الله جلَّ وعلا.

﴿فَاتَمَّهْنُ﴾ أتى بهنَّ تامَّات كما قال: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ (سورة النجم: ٣٧). ﴿قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قدوة في الدين إلى يوم القيامة، ولا نبيء بعده إلا من ذرَّيته مأموراً باتِّباعه في الجملة، وهو إمام لكلِّ نبيء بعده وكل نبيء إمام لمن بعده من العامَّة والأنبياء، وذلك في الأصول ومكارم الأخلاق، وهو محبوب في جميع الملل.

وعن مجاهد الكلمات هي: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ...﴾ إلى آخر القصَّة، والإمام كلُّ ما يؤتمُّ به كما قيل لخيطة البناء إماماً لأنَّه يقتدى به في البناء.

﴿قَالَ: ﴿إِبْرَاهِيمَ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾﴾ أَي وَاجْعَلْ أئمةً أنبياء،
وقيل أو غير أنبياء من ذرِّيَّتِي ، أو وأئمة من ذرِّيَّتِي عطفاً على محلِّ
النَّصْبِ للكاف، وكأنَّه قيل: وجاعل من ذرِّيَّتِي أئمةً.

وللكاف محل جرٌّ بالإضافة، ومحلُّ نصب على المفعولية، لأنَّ
«جاعل» اسم فاعل للإستقبال، وهو من زيادة السَّمْعِ إلى كلام
المخاطب، كقول الصَّحابة: والمقصِّرين، بعد قوله ﷺ: «اللهم ارحم
المخلِّقين»، ويقول القائل: جاء زيد، فتقول: راكباً، وكما قال العباس:
«إلاَّ الإدخر» بعد تحريم النبي ﷺ شجر مَكَّة وكلاهما.

(صرف) والذرية تشمل الأئمة، كما أن عيسى

هو ابن مريم، ومريم من ذرِّيَّته؛ والياء المشدَّدة زائدة، فوزنه فُعْلِيَّة —
بضمُّ فاسكان — وياءه في الأصل للنسب، والأصل فتح أوله وضمُّ،
كما قيل: دهريُّ بضمِّ الدَّال في النسب إلى دهر بفتحها، أو الياء الثانية
عَنْ راء، قلبت ياء لئلاً تجتمع ثلاث راءات، وأدغمت فيها الياء،
والأصل «ذُرِّيَّة» بضمِّ الدَّال وشدُّ الرَّاء الأولى مكسورة، أو «ذُرْوَرَة»
بالواو، وكلُّ ذلك من الذرِّ بمعنى التَّفريق؛ وإمَّا من الذرء بمعنى
الخلق، فالراء الثانية زائدة، والأصل ذرِيَّة أو ذروية قلبت الهمزة ياء،
وأدغمت الياء في الياء في الأوَّل، وقلبوا الواو ياء في الثاني وأدغمت
الياء في الياء.

﴿قَالَ: لَا يَنَالُ﴾ لا يصيب ﴿عَهْدِي﴾ معهودي إليك، أو أمانتي، وهو الأمانة؛ تسمى الأمانة عهداً لأنها تعاهد بالحفظ. ﴿الظَّالِمِينَ﴾ من ذريّتك، وهذا إجابة لدعائه أن يجعل من ذريته أئمة، ولكنه استثنى الظالمين بفسق أو بشرك.

(فقه) فأیّما فاسق أو مشرك تصدّر فليس بإمام، أو خليفة أو حاكم بل غاصب، ولا يصلح للإمامة - وهي أمانة الله - من يخون ولا ينفذ حكم الفاسق، وناصبه ظالم «ومن استرعى الذئب ظلم». وعن الحسن أن الله تعالى لم يجعل للظالم عهداً فلا يوفى له بشأن إمامته إذا أحدث ظلماً، فالعدل كما شرط في البدء شرط في البقاء، وإن نصب بعد توبته جاز كما كان أبو بكر وعمر خليفتين بعد إسلامهما من شرك.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الكعبة، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً يثوب إليه من كان عنده أو يجيئه من لم يكن عنده، ويلتجئ إليه الخائف.

(لغة) وإطلاق الرجوع لمن لم يكن عنده مجاز، فذلك جمع بين الحقيقة والمجاز وقد أجزى، وهو من عموم المجاز يناسب الإطلاق، إن الآتي والراجع كواحد، لاتّفاق الدّين، أو «مثابة» بمعنى موضع ذهاب إليه أو مزار، استعمالاً للمقيّد في معنى المطلق، أو هو موضع ثواب فلا مجاز، وتأوّه لتأنيث البقعة، وقيل هي للمبالغة كما في

الوصف كعلامة لكنَّه يؤنَّث، وهو اسم مكان ميميٌّ، أو مصدر ميمي أي ذا ثواب، والأوَّل أولى والأصل مثوبة باسكان الثاء فتحت بفتحة الواو نقلاً فقلبت ألفاً.

﴿وَأَمْنًا﴾ موضع أمن، أي ذا أمن، وقد يناسب هذا أن تجعل مثابة مصدرًا أي ذا مثابة وامن للناس في حرمه، أو أمن لحرمه لا يقع فيه ما يقع في غيره من الظلم والغارة، يلقي فيه الرجل قاتل أبيه فلا يخيفه ولا يُهيِّجُه، ويتبع الكلب الصيد فيدخل في الحرم فلا يتبعه بعد حرمة الحرم، وقد قال الله: ﴿حَرَمًا - آمِنًا﴾.

(بلاغة) فقد نقول «أمنًا». بمعنى آمِن، إلا أن فيه مجاز التعلق والاشتقاق، إذ جعلنا المصدر بمعنى اسم الفاعل، ومجاز الإسناد لأنَّ الذي يأمن هو الناس لا الحرم، وما تقدَّم فيه مجاز واحد كلاً مجازاً، إذ هو مجاز حذف.

(فقه) ومن جنى في الحرم حدًّا فيه، أو خارجاً فالتجأ إليه أخرج أو ضيق عليه حتى يخرج فيحدُّ، وذلك من جملة الأمان فيه، وذكر بعض أنه أمن للحاجِّ من النار، وكفارة لذنوبه التي بينه وبين الله يوم القيامة، ولا يدري في الدنيا أقبل منه أو ردَّ.

﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أي الناس، ﴿مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ بفتح الخاء [على قراءة ورش] إخبار بمعنى الأمر كأنهم امتثلوا الإتحاذ فهو يخبر

بوقوعه. والعطف عطف قصّة على أخرى، أي وإذا اتخذوا، أو على جعلنا، لأنّ الغرض بيان أحوال البيت، ومنها الجعل والاتّخاذ، أو يقدّر: فتأبوا واتخذوا، ولا بأس به، ولو كان الأصل عدم الحذف لاتّحاد المسندين في المسند إليه.

(لغة) و«من» بمعنى إلى، لأنّ المصلي يتوجّه إلى الحجر الذي هو المقام، وينوي القبلة الكعبة، أو للابتداء كقولك: رأيت من ذلك المكان، أي انتهى شأنه منه إليك، أو «من» للتبعيض أو الظرفيّة، على أنّ المقام الحرم، أو ما دار بالمطاف لا الحجر خصوصاً، والمراد على كلّ وجه بالمصلي هذا الموضع المختار لركعتي الطواف.

ويستحبُّ النفل والفرض فيه إذا لم يعطل ركعتي الطواف، وذلك أنّه اتخذ للصلاة مطلقاً، وهو أربعون ذراعاً شمالاً، ويميناً، وخلفاً.

(قصص) والمقام موضع القيام، وهو ذلك الحجر قام عليه عند بناء الكعبة، يدور به إلى جهاتها ويعلو به، وعند ندائه: «أيّها الناس حجّوا بيت ربّكم»، تطاول حتى ساوى أبا قيس، وعند غسل زوج إسماعيل رأسه أعني رأس إبراهيم إذ زاره ولم يجده، أو زار الكعبة.

والمحوّل له إلى موضعه اليوم هو رسول الله ﷺ كما هو مروى بسند ولو كان فيه ضعف، لا عمر، كما روي بسند ولو كان

قويًا. ولو احتمل أنه صَلَّى رسول الله ﷺ ملصقا بالبيت، فعلم عمر أن المراد جعله بين المصلي والكعبة أينما هو فأخبره إلى حيث هو اليوم. وروي أنه ﷺ أخذ بيد عمر فقال له: «هذا الحجر مقام إبراهيم»، فقال: عمر: «ألا تتخذ مصلي؟» فقال: «لم أؤمر بذلك»^(١)، فلم تغب الشمس حتى نزلت الآية.

ويقال كان داخل الكعبة ثم أخرج، وقيل موضعه اليوم هو بيت إبراهيم يحوله إليه من البناء كل يوم.

وقيل المقام الحرم، وقيل مواضع الحج والصلاة والدعاء: عرفات والمزدلفة ومنى ومواضع الرمي. والصلاة في ذلك دعاء، وقيل الكعبة أي موضع صلاة إليه إذ يصلى إليها.

(فقه) ولا مقام إلا مقام إبراهيم عليه السلام، وهو مقام للمؤمنين كلهم على حد سواء، ولا وجه لنسبته "للشافعي"، ولا وجه للبناء فيه لأنه نقص منه، ومن المسجد، ولا وجه لجعل مقام آخر "لمالك" وآخر "لأبي حنيفة" وآخر "لأحمد"، فإن ذلك زيادات في الدين، وتشرع فيه، وبدعة ونقص من الحرم والمقام بالبناء، ومناقضة

١ - ذكره ابن كثير في تفسيره، ج ١، ص ٢٩٦، من حديث جابر، بلفظ: «لما طاف النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال له عمر: هذا مقام أينما؟ قال: نعم، قال: أفلا تتخذ مصلي؟ فأنزل الله الآية».

لمقام إبراهيم حتى أنه استوت الثلاثة عند العامّة بمقام إبراهيم، ويفضّلها عامة أهلها على مقام إبراهيم^(١).

وقد قال أمير مكة للسلطان حمود^(٢) وهو سلطان زنجبار أعوام إقامته بمكة: أئني مقاماً لك وللإباضية لأهل مذهبك؟، فقال: «لا تفعل، لأنه خلاف الشريعة، ولأنهم لا يقبلون ذلك عني ولا عنك، ولا يقف فيه أحد منهم»، فلذلك ونحوه قلت فيه القصيدة:

حمودنا بن محمد وشيعته ظلُّ البرية، والحقُّ شريعته

﴿وَعَهْدِنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أصله «اسمع ايل» أي يا الله، ولقد علمت أن العبرية قريبة من العربية، والمعنى أن إبراهيم قال: «اسمع يا الله دعائي بأن ترزقني ولداً» فرزقه فسماه إسماعيل وهو قويٌّ،

١ - هكذا كان في عهد المؤلف، أمّا الآن فقد أزيلت، ولم يبق إلاّ مقام إبراهيم عليه السلام.

٢ - هو السلطان حمود بن حمد العماني الزنجباري (١٢٧٠-١٣٢٠هـ)، سافر من مسقط إلى زنجبار في أيام سلطنة ماجد بن سعيد، وتزوج هناك، وقد اشتهر بالرحلة والدعوة في سبيل الله، وقد جاور في مكة المكرمة مدّة ثلاث سنين، وكان غاية في الورع والزهد. تولى الحكم في زنجبار يوم ١٧ ربيع الثاني ١٣١٤هـ، لمدّة ست سنوات وستة أشهر. وقد توفي رحمه الله بزنجبار.

جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار: سعيد بن علي المغيري، تحقيق محمد علي الصليبي، نشر وزارة التراث، عمان، ط٢، ١٩٨٦م.

ولو ضَعَفَهُ بعض، وأختار أنه بمعنى: مطيع الله، والعهد إلى إبراهيم بالذات وإلى إسماعيل بالواسطة أمرناهما، وأمرهما علمٌ عهد إليهما. وفسر العهد إذ فيه معنى القول بقوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا﴾ أو يقدر بـ«أن طَهَّرَا» ﴿بَيْتِي﴾ من الأوثان والأنجاس وما لا يليق، والحائض والنفساء وأهل الشرك، أي: إبنياه على رسم أن لا يكون فيه ذلك، كقولك: «أدرُ جيب القميص، وأطل القلم» أي جئ بهذه الصفة من أول، أو أخلصاه.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ حوله لا يعطّلون عن الطّواف، ولا يكون عنده من ليس أهلاً للطواف كالمشرك وذلك على عمومه، وقال ابن جبير: ا لغرباء الوافدون حجاجاً وزوّاراً. ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين عنده بالتوحيد والطاعة، قال عطاء: الجالسون عنده بلا طواف، وقيل: المجاورون له من الغرباء، وقيل: المعتكفون فيه.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع ساجد، والمراد بالركع السجود المصلّون وذكر الركوع والسجود، لأنّهما أقرب أحوال المصلّي إلى الله تعالى.

وقد أتمَّ الله تطهيره عن الأوثان وكلِّ ما لا يليق بنبيِّنا ﷺ وأتمَّ عمارته بالطّواف والعبادات والصلاة المشتملة على الركوع مقدّماً والسجود بعده على ترتيب لفظ الآية، لا كصلاة اليهود بلا ركوع، ولا كصلاة لا سجود فيها، ولا كصلاة يتقدّم سجودها على ركوعها

كما قيل عن اليهود أيضاً، ولا كصلاة مشركي العرب يقولون:
السُّجُودُ مَسْبُوءَةٌ، فيركعون ولا يسجدون.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي هذا البلد. دعا بعد أن
كان عمارة، أو هذا المكان وهو أرض مكة قبل أن يكون فيها ماء
وعمارة، وهذا الدعاء قبل ذلك. ﴿بَلَدًا - آمِنًا﴾ ذا أمنٍ، كـ«لَابِنٌ»
بمعنى ذي لبن، أو مجاز عقلي من الإسناد إلى المكان، إذ الآمنُ مَنْ فِيهِ،
أو آمناً أهله، طلب في المرة الأولى كون الوادي بلداً آمناً، أي معموراً
آمناً، فاستجيب له في كونه بلداً معموراً، وتأخرت الاستجابة في
الأمن، ثم كرر الطلب للأمن فاستجيب له، إذ قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
الْبَلَدَ آمِنًا﴾ فجعله الله بلداً آمناً.

(فقه) لا ينفر صيده، ولا يسفك فيه دم، ولو
قصاصاً أو حداً، إلا إن جنى فيه، وعن الشافعي يُقتصُّ منه ويُحدُّ فيه،
ولو جنى خارجه إذا دخله؛ ولا يختلى خلاه، وتضاعف فيه السيئات:
الواحدة بمائة كالحسنات: الواحدة بألف ومائة ألف؛ ولا يظلم فيه،
ولا يخسف، ولا يمسخ فيه، إلا ما قيل أنه مسخ رجل وامرأة زنيا في
الكعبة، ولا يقحط، ولا يخاف من عدو.

وليس طلب الأمن تكريراً لقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَآمِنًا﴾، لأنَّ ذلك إخبار من الله وما هنا طلب من إبراهيم؛ أخبرنا الله بما

استجاب له فيه قبل، فلا حاجة إلى أن يُقال: أراد هنا الأمن من القحط.

كما قال: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي من أنواعها، وقد استجيب له حتى أنه يجتمع فيها في اليوم الواحد ثمرات الفصول من الطائف.

قال: ابن عباس نقل الله بقعة فلسطين بالشام، وقيل من الأردن، وجعلها في الطائف، وسميت بالطائف لأن جبريل طاف بها سبعا ووضعها في ذلك الموضع، توسعة لرزق الحرم إجابة لدعائه عليه السلام.

﴿مَنْ - آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لا جميع أهله، ولا كفاره، متابعة لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فأخبره الله أن الرزق يعم الظالم لا كالإمامة لقوله: ﴿قَالَ﴾ الله جلَّ وعزَّ ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ عطف من الله على قول إبراهيم من آمن، كما في قوله: ﴿وَمَنْ ذَرَيْتِي﴾، كما يقول الرجل: «أكرم زيدا» فتقول: «وابنه»، أو يقدر: وأرزق من كفر - بفتح الهمزة وضم القاف -، وعطف على هذا المقدر بقوله: ﴿فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا﴾ أو قل يا إبراهيم: ومن كفر، أو أرزق من آمن ومن كفر - بالفتح والضم -، أو من كفر فأنا أمته، أو فقد أمته، فحذف «أنا» أو «قد»، وإن جعلنا «من» موصولة مبتدأ فالفاء صلة في خبرها بلا تقدير، والمراد تمتعا قليلا أو زمانا قليلا، وكلما كثر أو طال من الدنيا فقليل قاصر. ﴿ثُمَّ اضْطَرُّهُ﴾ أُلجئته بعد موته ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ لكفره، فلا يجد امتناعا عنها، وذلك بلا

تحرك منه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دُعَاءً﴾ (سورة الطور: ١٣) وقوله: ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (سورة غافر: ٧١) وقوله: ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (سورة الرحمن: ٤١) وبتحرك كقوله عز وجل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (سورة الزمر: ٧١). ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار أو عذابها، أو الصيرورة، فإنه يصار إلى المعاني كما يصار إلى الأجسام.

والمستبب عن الكفر شيان: الأول تقليل التمتع إذ قصر على التمتع الدنيوي، ولم يوصل بالأخروي، والثاني اضطرابه إلى عذاب النار.

﴿وَإِذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَنُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

بناء البيت الحرام، ودعاء إبراهيم وإسماعيل

﴿وَإِذِ يَرْفَعُ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية، كأنَّ المخاطب حَضَرَ حين رفع ﴿إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ﴾ الأساس أي ينشئها، والجدر

لأنَّ كل جزء منها قاعدة لما فوقه، أو رفعها تعظيمها بالحجِّ إليها، من القعود وهو الثبوت. ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ وليس المراد أنَّها كانت قصيرة وأطالها، أوقع الإطالة على القاعدة للجوار أو الحلول، لأنَّ الجدار المجاور لها أو الحال فيها غير مرفوع أيضاً، بل يحدث بأحداث سافة ثم سافة؛ ولا مانع من أن يراد برفع الجدر جعل آخرها عالياً بإكثار السافات. ﴿وإِسْمَاعِيلَ﴾ أخره لأنَّه غلام تابع له معين له بمناولة الحجر والطين، ومع ذلك سَمَّاهُ رافعاً، لأنَّ الرفع بواسطة المناولة وذلك من عموم المجاز، وهو هنا مطلق ما به حصول الرفع، أو جمع بين الحقيقة والمجاز، أو يقدر: وإسماعيل يناوله كقوله:

وزججن الحواجب والعيونا(١)

ويضعف أن يقال: تارة يني إبراهيم وتارة إسماعيل، أو يني أحدهما موضعاً منه والآخر موضعاً، ولو في وقت واحد.

قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ﴾ التفعُّل للمبالغة بمعنى: إقبل قبولاً عظيماً، بأن يزيد له ثواباً على القبول؛ ﴿مِنَّا﴾ بناءنا وسعيننا فيه؛ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا أي العليم به، واختار لفظ السَّمع لأنه في الجملة للأصوات. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتنا.

١ - نسبة في لسان العرب للراعي، وصدرة: وهزة نسوة من حي صدق ابن

منظور: لسان العرب، ج٣، ص١١، مادة "زجج".

﴿رَبَّنَا﴾ تأكيد للأوّل أو استجب دعاءنا يا ربّنا؛ ﴿وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ منقادين إليك، ومخلصين لك أعمالنا؛ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً﴾ واجعل من ذرّيتنا أمةً ﴿مُسْلِمَةً لَّكَ﴾ طلب البعض لعلمه من قوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ أنّ من ذرّيته من لا يكون مسلماً لله، واختار الذرّية لأنّها أحقّ بالشفقة ﴿وأنذر عشيرتَكِ الْأَقْرَبِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢١٤)، ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (سورة التحريم: ٦)، ولم يبلغ غيرهم لأنّ صلاح بعض الذرّية صلاح لغيرهم من الأتباع.

وقد أوقع الله ذلك فأخبر به نبيّه ﷺ إذ قال: ﴿ومن ذرّيتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبينٌ﴾ (سورة الصفات: ١١٣) ومن ذلك البعض أمة رسول الله ﷺ الحبيبة المخلصة العربيّة التي من نسل إبراهيم، وأمّا غيرهم فتبع لهم. ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ علمناها وهي شرائع ديننا أو مناسك الحجّ، ومنها الذّبح؛ أو بصّرنا مواضعها، ومنها مواضع الذّبح. وأصل النسك: العبادة الشاقّة، ثم حصّ بالحجّ لمشقّته، وربّما حصّ بعده بالذّبح.

(قصص) وموضع الكعبة قبل الأرض بألفي عام زبدة بيضاء، وبسطت الأرض من تحتها واستوحش آدم وشكا إلى الله عزّ وجلّ فأنزل عليه البيت المعمور ياقوتة من الجنة لها بابان من زمرد أخضر: باب غربي وباب شرقي في موضع الكعبة، وقال طف وصلّ

عنده كعرشي، وأنزل عليه الحجر الأسود فحج آدم من الهند ماشياً معه ملك يده، واستقبلته الملائكة أربعين فرسخاً وقال له الملائكة: «برُّ حجك يا آدم»، وقالوا دفعا لما قد تستعظم النفس من عبادتها: لقد حججناه قبلك بألفي عام، وزاد بعد ذلك تسعة وثلاثين حجّة من الهند ماشياً، ورفع في عهد آدم ألى السماء الرابعة وبنى الكعبة في موضعه، وقيل رُفِعَ في الطوفان، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه، وأمر الله عزَّ وجلَّ جبريل عليه السلام أن يخبئ الحجر في أبي قبيس صيانة من الغرق، وبقي البيت خرباً إلى أن أمر الله إبراهيم ببنائه وبناه وردَّ إليه الحجر (١).

(تاريخ) وقد أمر الله جلَّ جلاله الملائكة أن ينوا في كلِّ سماء، وأرض بيتاً على سمت الكعبة. روي أنَّ الأرض انشقت إلى منتهاها وقذفت فيها الملائكة حجارة كالإبل أو كأسنمتها خضراً، وبنوا عليها البيت ثم بناه آدم لطول عهده من حين بنوه، فتلك التي بنى عليها إبراهيم اظهرها الله، فذلك بناآن.

ثمَّ شيت ثم إبراهيم ثم العمالقة ثم الحرث بن مضاض الجرهمي، ثم قصي جدُّ النبي ﷺ، ثم قريش لضعفه بالسَّيل، وحضره ﷺ ابن خمس وثلاثين، ثم عبد الله بن الزبير ليدخل فيه الخطيم على

١ - انظر: ابن حجر في فتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء، ج ٦، ص ٣١٦.

أصله، مع ضعفه بمحجارة المنحنيق إذ حاصره الحجّاج. حفر إلى حجارة الملائكة وبنى منها، وإذا ضرب المعول فيها تحرّكت كلّها وسائر الأرض القريبة، وجعل لها باباً تحت الموجود الآن، وباباً مقابلاً له من جهة الركن اليميني ملتصقين بالأرض، ابتداء في جمادى الأخيرة وختم في رجب سنة خمس وستين، وذبح مائة بدنة للفقراء وكساهم، وهدمه الحجّاج كلّهُ وبناه وأخرج الحطيم، وقيل: هدم الجدار الذي يلي الحطيم فقط، وبناه وسدّ باب جهة ركن اليمين. وهدم جهة الحجر القرامطة وأخذوا الحجر، وقتلوا من وجدوا من المسلمين، ثم رد بعد مدّة طويلة، وبُني ما هدموه^(١)، وبنى فيه بعض الملوك سنة ألف

١ - ذكر صاحب كتاب تاريخ الكعبة حسين عبد الله سلامة: «ذكر أهل التاريخ أنّ عدوّ الله أبا طاهر القرمطي وافى مكّة في سابع ذي الحجّة سنة ٣١٧هـ، وفعل فيها هو وأصحابه أموراً منكراً، وقلع الحجر، وذهب به معه إلى بلاده "هجر" وبقي موضع الحجر خاليا يضع الناس فيه أيديهم للتبرك، إلى حين ردّه إلى موضعه من الكعبة يوم النحر سنة ٣٣٩هـ، وذلك من أحداث ومذكرات ثورة القرامطة المعروفة في التاريخ.

والقرامطة أصحاب دعوة شيعية متطرّفة، تفرّعت عن الإسماعيلية، وانتشرت سنة ٣١٠هـ بزعامة حمدان القرمطي الإسماعيلي اليميني، وأقام دولة في اليمن وانقرضت بالحروب الصليبية سنة ٩١٥هـ، وبقيت مبادئهم عند الباطنية في صنعاء»

الموسوعة العربيّة الميسّرة، ص ١٣٧٣.

وتسع وثلاثين^(١)، وهو من حجارة خمسة أجبل: طور سيناء وطور زيناء ولبنان بالشَّام والجدودي بالجزيرة وقواعده من حراء بمكَّة.

﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا﴾ فيما فرط منا من ترك ما هو أفضل إلى ما دونه، وذلك ما ليس بمعصية في حق غير الأنبياء كنوم أكثر الليل، وكما يكون من طبع البشر كعُجب ضروري ينفيانه، وكالاتقام الجائز ونحو ذلك ممَّا ليس ذنباً في حقِّ الناس، وفعلاه عمداً أو سهواً أو نسياناً.

أو ذلك هضم [للنفس] أو تعليم للتوبة، أو استتابة لذنوب ذريتها وإضافة لأنفسهما مبالغة، أو يقدر: «وَتُوبَ عَلَيَّ ذَرِينَا»، أو إجراءً للولد مجرى النفس لعلاقة البعضية ليكون أقرب للإجابة، والمعنى: إقبل توبتنا.

(فقه) وتوبة العامة الندم عن المعصية وإصلاح ما فسد، والعزم على إصلاحه إن لم يمكن في الحال، وتوبة الخواصّ الندم عن المكروه والتقصير والكسل في العبادة، وتوبة خواصّ الخواصّ

١ - هو السلطان مرادخان العثماني سنة ١٠٤٠هـ، وهو البناء الثاني عشر للبيت المعظم، قال صاحب كتاب تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، حسين عبد الله سلامة: «استغرقت عمارتها من طرف السلطان مراد ستة أشهر ونصف، وهذه العمارة هي الأخيرة، ولا تزال على حكمها إلى العصر الحاضر» وطبع الكتاب سنة ١٣٥٤هـ بمجدة.

الترقي في الدرجات، وهما عليهما السلام من الثالث، أو يخافان أن يكونا من الثاني، ويجوز أن يقدر: تب على عُصاتنا، أو أراد المجموع فيرجع الكلام إلى العصاة.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب، ﴿الرَّحِيمُ﴾ به، كالحجّة لقولهما: «تب علينا»، وقد مر أن توبة الله التوفيق إلى التوبة أو قبوله التوبة.

﴿رَبَّنَا﴾ استجب دعاءنا، أو كرّره تأكيداً وتلذذاً، وهكذا يقدر محذوف، أو يجعل تأكيداً إذ كرّر النداء. ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة لك من ذريتي أو في ذريتي؛ ﴿رَسُولاً﴾ عظيماً ترسله بشرع جديد وكتاب مجيد. ﴿مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم.

وقد استجاب الله دعاءهما بسيدنا محمد ﷺ لأنهما لم يجتمعا إلا فيه، فإن أكثر الأنبياء من ذرية نبيء الله يعقوب ولد نبيء الله إسحاق ولد إبراهيم نبيء الله، وقليل من ولد روم بن إبراهيم وهو أيوب وذو القرنين في قول، قال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم (١) - يعني هذه الآية، وهو أيضاً دعوة إسماعيل ولم

١ - رواه أحمد في مسنده، ج ٦، ص ٨٤، رقم ١٧١٥٠. والطبراني في الكبير، ج ١٨، ص ٢٥٣، رقم ٦٣١، ولفظه عندهما: «إني عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينه، وسأبئكم بأول ذلك - تفسيره - دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى...» من حديث العرياض بن سارية.

يذكره اجتزاء بالأب الأكبر ولتقدمه - وبشرى عيسى - يعنى قوله: ﴿ومبشراً برسول...﴾ إلخ - ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني أنه أضاءت بي قصور الشام» وهو ﷺ دعوة أبيه إسماعيل أيضاً لهذه الآية، ولم يذكره النبي ﷺ لأنه تبع لأبيه إبراهيم، ولأن أباه إبراهيم هو الأصل في هذا الدعاء الذي في الآية.

﴿يَتْلُو﴾ يقرأ ﴿عَلَيْهِمْ، ءَايَاتِكَ﴾ أي القرآن والمراد معانيه، لكن بألفاظه، وهو دلائل النبوة والتوحيد والشرع. ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن أيضاً، والمراد لفظه، أو الآيات ألفاظه والكتاب معانيه عكس ذلك، أي ويعلمهم معانيه. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام بينها لهم، أو الحكمة العمل به، أو وضع الأشياء في مواضعها، أو ما يزيل حب الدنيا، أو الآداب أو السنة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشرك والمعاصي.

ومعلوم أن التخلية قبل التحلية ولكن آخرها هنا لشرف التحلية هذه، ولتقدم التحلية هذه في الذهن والقصد فجيء بترتيب الذهن ولو تقدمت التحلية في الخارج، ولأن المقصود التحلية والتخلية وسيلة. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب لمن أراد مخالفته، فالغلبة فعل، أو المنتفي عنه الذل فهي صفة. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه لا يقول عبثاً ولا يفعله، ولا سفهاً، ولا يضع الشيء إلا موضعه.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِ مَا لَبِئْتَ
الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَوْجِبْ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنْ أَلَّ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمُ
الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

سفه من يرغب عن ملة إبراهيم

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾ تويخ، ونفي لأن يصح عقلاً أو شرعاً تصويب
أن يرغب راغبٌ. ﴿عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ويتركها، ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ
نَفْسَهُ﴾ حملها على الخسة والحقارة، وهو متعد كقوله ﷺ: «الكبر
أن تسفه الحق...» (١) إلخ بفتح الفاء في رواية التخفيف، واللازم سفه
بضمها، أو تعدى في الآية لتضمن معنى جهل أو أهلكها، أو أذلها
بالإعراض عن النظر، وأن أصله اللزوم أي جهلها لخفة عقله، أو جهل
أنها مخلوقة لله، أو يقدر سفه في نفسه.

١ - رواه أحمد في مسنده، ج ٢، ص ٥٨، رقم ٣٧٨٩.

والطبراني في الكبير، ج ٢، ص ٦٩، رقم ١٣١٨، من حديث قيس بن شماس، وأول
الحديث: «كنت عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ كُلَّ مَحْتَالٍ
فَجُورٍ﴾ فذكر الكبير فعظمه، فبكى ثابت، فقال له الرسول ما يبكيك؟...» إلخ

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ اخترناه للرّسالة، والخلّة، والإمامة، والحكمة، أو بذلك^(١). ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ وشهر بذلك في الأزمنة بعده عند مسلميها وكافريها. ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ﴾ حال من اسم إن على قول سيبويه يجوز الحال من المبتدأ، أو متعلق بنسبة الكلام أي وأنه محكوم عليه في الآخرة بأنه من الصالحين، وإن علقناه بقوله: ﴿لَمَنْ الصَّالِحِينَ﴾ أو بمتعلقه المحذوف أي لمعدود أو ثابت من الصالحين في الآخرة ففيه خروج للام في خبر إن على الصدر كما هو ظاهر، ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، وأنه لِحَبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (سورة العاديات: ٨٧)، ولا يتعلّق بصالحين لأنه ليس المراد أنه يصلح في الآخرة بل المراد أنه يتبيّن في الآخرة، ويشاهد أنه من جملة الصّالحين الذين لهم الدرجات العلى.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ﴾ اذكر إذ قال، أو متعلّق بـ«اصطفيناه»، والتعليل مستفاد من المقام فإنه إذا قيل اصطفيناه وقت ﴿قَالَ لَهُ...﴾ إلخ، علم أنّ الاصطفاء لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ...﴾ إلخ بعد قول الله جلّ وعلا: ﴿أَسْلِمُ﴾، أو حرف تعليل كما تكون على وعن حرفا واسماً، بل كما قال سيبويه في إذا أن إذ حرف وفي غير الشرط اسم، أي نال الاصطفاء بالمبادرة إلى الإذعان والإخلاص، ومعنى أسلم أذعن، أو

١ - في نسخة (ج) سقط: "أو بذلك".

أخلص وجهك، وجاء على المعنيين قوله: ﴿قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ أو أسلم لفظه أمر ومعناه إخطار دلائل التوحيد بباله،
كالقمر والشمس والنجم^(١)، فيكون قوله أسلمت مجازاً عن النظر
والمعرفة على حدّ «كن فيكون».

والمراد بالآية على كلّ حال ما بعد النبوءة أو قبلها حين كبير،
فالمراد ازدياد ذلك، أو ما في حال الصّغر إذ كان في الغار، فيكون
المراد إنشاء ذلك، ﴿وَلَقَدْ - اتيناً إبراهيمَ رُشدهَ من قبل﴾ (سورة
الأنبياء: ٥١) وتقدّم على هذا أيضاً أنّ كلّ مولود يولد على الفطرة. قال
ابن عيينة دعا عبد الله بن سلام ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام،
وقال قد علّمنا أنّ الله قال في التوراة أنني باعث من ولد إسماعيل نبياً
اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو
ملعون، فنزل: ﴿ومن يرغب...﴾ الآية. قال السيوطي لم نجد هذا في
كتب الحديث.

﴿وَأَوْصَى بِهَا﴾ بالملّة أي باتّباعها لصراحة ذكرها وإظهار
إبراهيم، وأصل الإيضاء التقدّم إلى أحد بخير والوصل، يقال: وصّاه إذا

١ - إشارة منه - رحمه الله - إلى ما ورد في سورة الأنعام عن إبراهيم عليه السلام،

وصله وقصّاه إذا قطعه، وإظهار إبراهيم وعطف يعقوب عليه مع أنّ عطف وصّى على ما قال له ربّه يقتضي الضمير، أو بكلمة ﴿أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ﴾، لقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ (سورة الزخرف: ٢٨)، فإنّه أنسب، ولا سيما إنّ رجّعنا الضمير إلى قوله: ﴿إِنَّا بُرِّءُكُمْ مِنْكُمْ﴾ (سورة الممتحنة: ٤) بتأويل الكلمة ولقربه، ولو كان فيه تأويل؛ وفيه أنّه لو رجّع الضمير لكلمة «أسلمت» لقال: «أسلمت لربّ العالمين، وأوصى به بنيه ويعقوب».

﴿إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ﴾ ثمانية أو أربعة عشر، إسماعيل وهو أولهم وأمه هاجر بفتح الجيم القبطية، واسحاق وأمه سارة، وأم الباقيين قنطوراء بنت يقطن الكنعانية، تزوّجها بعد وفاة سارة، مدين، ومدائن، وزمران، ولنشان ولبشق وشوخ، زاد بعض: روم.

﴿وَيَعْقُوبُ﴾: بنيه كما أوصيا غير بنيهما، أو خصّهم للشفقة، ولأنّ صلاحهم صلاح لغيرهم قال كل منهما لبيه.

﴿يَا بَنِيَّ﴾ إلخ وقال إبراهيم لأنّه أشد عمدة ولذكر بنيه، أو يحكى بأوصى لأنّه بمعنى قال، أو المقدّر ويعقوب قال:

يا بني ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ الكامل المعهود دين الإسلام الذي جاء به إبراهيم. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ راسخون فيه، أي دوموا عليه حتى إذا جاءكم الموت وافاكم عليه متّصفين به،

وأما الموت نفسه فليس بأيديهم.

وأولاد يعقوب: رويين بضم الراء وكسر الباء الموحدة بعدها مثناة فنون، ويروى باللام بدل النون، وشمعون بكسر الشين، وبشوخور، ولاوي، ويروى ليوى، ويهوذا، أو زبولون بفتح الزاي وزواني بفتح الزأي والنون، ويروى تفتالي بفتح التاء واللام ويروى نفتلي بفتح النون والتاء وكسر اللام، ويروى بتيون بدله، وإسآخر بكسر الهمزة وشد السين وفتح الحاء، ويروى بالياء المثناة بدل الهمزة بذلك الضبط، وكاد ويروى كوذى، ويروى بإهمال الدال، وآشر كناصر، ويروى أوشير، وبنيامين بكسر الباء، ويوسف، وأكبرهم سنًا رُوبين، وأصغرهم سنًا يوسف، وأكبرهم رايا شمعون، وقيل يهوذا أو النبوة في أولاد لاوي، والملك في أولاد يهوذا.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٣﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٤﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى

وَمَا أَوْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِن رَّبِّهِمْ إِلَّا فَتْرَ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ فَذُكِّرُوا بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَخِزْيُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ فَإِن
 آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكُمْ
 اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

إبطال دعوى اليهود أنهم على دين إبراهيم ويعقوب

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ جمع شاهد كعالم وعلماء، أو شهيد ككريم
 وكرماء. ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾.

(أسباب النزول) قالت اليهود لعنهم الله

للنبي ﷺ: ألم تعلم أن يعقوب يوم مات وصى بنيه باليهودية، وما
 مات نبي إلا عليها؟ فنزل: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ وعنوا باليهودية ملّة
 موسى، وعنوا أن لا تخالف فيما خالفها القرآن والإنجيل فيه، أو عنوا
 اليهودية المحدثّة الباطلة، فكذبهم الله بأن يعقوب أوصاهم بدين الحقّ
 ولم تحضروا ولو حضرتم في زمانه لسمعتموه في ذلك، وإنّما اليهودية
 بعد موسى. ﴿إِذْ﴾ بدل من «إذ» [الأولى] ﴿قَالَ لِبَنِيهِ: مَا
 تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي؟﴾ من بعد موتي، أراد بـ«ما» العموم، من يعلم
 ومن لا يعلم، ويبعد أن يكون المراد ما لا يعلم فقط، وأنّه كمختبر
 لهم، وكانت المعبودات في زمانه أصناماً ونجوماً وغير ذلك ممّا لا يعلم،
 فيقول لهم أيّها تعبدون؟ فأجابوا: أن لا نعبدها بل نعبد الله كما قال:

﴿ قَالُوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ﴾ أي الله الذي هو معبودك ومعبود آباك. ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ عدّه أباً ليعقوب تغليباً للأكثر، ولأنّه عمّه، والعمّ أبٌ كما في الحديث: «وَأَنَّ الْعَمَّ صَنُو الْأَبِ، وَأَنَّ الْعَبَّاسَ بَقِيَّةُ آبَائِي»^(١) وقال: «رَدُّوا عَلَيَّ أَبِي» وهو العباس حين بعثه لمكة ليدعوهم لئلا يقتلوه «واحفظوني في العباس فإنّه بقية آبائي»، وقدمه على إسحاق الأب الحقيقيّ تغليباً ولكبر سنّه إذ زاد على أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة، وأنّه جد نبينا ﷺ وعليهم.

ولو جعلنا إبراهيم بدلا من إله على حذف مضاف أي إله إبراهيم، لم نحتج لتاويل في ذكر إسماعيل، إلا أنّ فيه سوء أدب. ﴿وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بدل من «إلهك»، أو نعني: إلهها واحدا، تصریح بالتوحيد نفيا للتعدّد المتوهّم من قوله ﴿إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾، فإنّ أغلبيّة كون المعرفة المكرّرة عين الأولى لا تكون نصّاً، ولأنّها في غير العطف، أما فيه كما هنا فقد عارضها أغلبيّة أخرى هي أنّ الأصل في العطف التغاير.

ولو أراد أنّ لا يكرّر لقال: نعبد إلهكم أنتم وإبراهيم وإسماعيل واسحاق، وقد تستفاد الوحدة من «إلهها» فيكون قوله: «واحدًا» نفياً

١ - رواه الترمذي في كتاب المناقب (٢٩)، باب مناقب العباس بن عبد المطلب رضي

للتركيب والمشاركة في الصفات. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون التوحيد أو منقادون لأمره ونهيه، ﴿تِلْكَ﴾ أي هؤلاء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنوهم، وقال تلك لمعنى الجماعة أو للخير وهو قوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة.

(لغة) سُمِّيت أُمَّةً لَأَنَّهَا تُؤَمُّ أَي تُقْصَدُ، وَيَوْمَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَجْمَعُهُمْ أَمْرٌ وَاحِدٌ: دِينٌ أَوْ زَمَانٌ أَوْ مَكَانٌ هَذَا أَصْلُ الْأُمَّةِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْمَلَّةِ أَوْ عَلَى الزَّمَانِ أَوْ عَلَى الْمَنْفَرْدِ بِشَيْءٍ فِي زَمَانِهِ؛ وَحَمَلَ بَعْضُهُمُ الْآيَةَ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُمَّةٌ فِي زَمَانِهِ، فَالْإِشَارَةُ إِلَى الْأَرْبَعَةِ عَلَى هَذَا، لَعَلَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا يَعْمَلُ الْأَرْبَعَةُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِذْ لَا يَعْمَلُونَ شَرًّا، اللَّهُمَّ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ لِلْبِرْهَانِ.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت؛ ﴿لَهَا﴾ لا غيرها ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أجز عملها، ﴿وَلَكُمْ﴾ لا لغيركم، ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ ولهم أولكم ما كسب لهم أولكم، وحذف ذلك.

(فقه) [وذلك] مثل أن يتصدق واحد أو يصلي النفل أو يصومه وينوي بثوابه غيره من الأحياء أو الأموات، وأما العلم المنتفع به والصدقة الجارية فمن كسب الإنسان ومنفذ ذلك كوكيله، وولد الرجل من كسبه، وقيل يختص ذلك بهذه الأمة، والخطاب لليهود.

والمراد الجزاء بخير أو شر كما في قوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، ولا يسئلون عما كنتم تعملون.

والسؤال عبارة عن لازمه وهو المؤاخذة ولو كان حقيقاً فكيف وهو توبيخ، قال ابن أبي حاتم مرسلأ إن رسول الله ﷺ قال: «يامعشر قريش إن أولى الناس بالنيء المتقون فكونوا بسبيل من ذلك، فانظروا أن لا يلقاني الناس يحملون الأعمال الصالحة وتلقوني بالدنيا تجمعونها فأصد عنكم بوجهي»^(١) وفي معناه ما روي: «يابني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»^(٢). أو لا تسئلون عما يعمل هؤلاء الأنبياء قبلكم من الشرائع، بل عما يعمل نبيكم محمد ﷺ.

﴿وَقَالُوا: كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ «أو» للتفصيل، قالت يهود المدينة: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهودا، وأبو يسار بن أحطب، وعبد الله بن سوريا الأعور، وهم

١ - رواه الربيع في مسنده، باب ما ذكر من حديث الشفاعة، وهو من مراسيل جابر بن زيد رضي الله عنه. رواه الطبراني في الكبير، ج ١٨، ص ١٦١، رقم ٣٥٤.

٢ - ذكره الدكتور وهبة الزحيلي في التفسير المنير، ج ١، ص ٣٢٣، دون إسناد، وأورده الطبراني في كثر العمال ج ١٦، ص ١٩، رقم ٤٣٧٥١ من حديث عمران بن حصين. فقرة من الحديث السابق.

رؤساء يهود المدينة، للمسلمين: كونوا هوداً تهتدوا، لا دين إلا دين اليهود، وأنكروا الإنجيل وعيسى والقرآن ومحمداً صلى الله وسلم عليهما، وقالت نصارى بجران لهم: كونوا نصارى تهتدوا، وأنكروا التوراة وموسى والقرآن ومحمداً صلى الله وسلم عليهما.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ كما جاء اتبعوا، أو نلزمها كما كنا لا نفارقها، أو اتبعوا أئتم كما اتبعناها، وذلك مضمون الرد على قولهم: ﴿كونوا...﴾ إلخ. أو بل نكون ملّة إبراهيم أي أهل ملّة إبراهيم، كما هو لفظ ﴿كونوا هوداً﴾، أو يقدر: بل كونوا أهل ملّة إبراهيم كما كنّا على ملّته.

﴿حَيْفًا﴾ عن الأديان كلّها إلا دين الإسلام. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما كان الشرك في يهوديتكم ونصرانيتكم، إذ قلتم: عزيز بن الله والمسيح ابن الله، أو اله ونحو ذلك، وكما أشركتم بإنكار القرآن وبعض الرُّسل، واليهود بإنكار الإنجيل، والنصارى بإنكار التوراة.

والآية تعريض بشرك العرب المشركين إذ يعبدون الأصنام كما أنّها تعريض بشرك اليهود والنصارى.

﴿قُولُوا﴾ أيها المومنون، أي النبيء والمومنون، وكلُّ نبيء أوّل من يؤمن بما أنزل عليه. ﴿ءَامِنًا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي أخبروهم

بأنَّ على الهدى مؤمنون بما يجب الإيمان به ممَّا أنزل علينا وهو القرآن، أو هذا القول من جملة ما حكى بـ"قل"، والخطاب لليهود والنصارى، كأنَّه قيل: قلُّ لهم: قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا من التوراة والإنجيل والقرآن، فإنَّه نزل عليهم كغيرهم.

﴿وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا مَا كُنَّا نُنزِلُ﴾ من الصحف العشر. ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ إلخ. أنزلت على إبراهيم خاصة، لكن خوطبوا بالعمل بها فهي منزلة إليهم، فهم كمن أرسل إليهم السلطان في شأن بواسطة كبيرهم. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ اجتمع هو وعيص في بطن أمهما، فقال عيص تأخر أنزل قبلك، وإلا خرقت بطن أمي، فتأخر فخرج عيص قبله، فخرج عقبه يعقوب أو متصلاً بعقبه فسُمِّي يعقوب، وهذا ممَّا يقال. ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ أولاد يعقوب سمَّاهم لأنَّهم أولاد الولد لإسحاق وإبراهيم.

(لغة) والسبط ولد الولد أو يراد أولاد أولاد يعقوب، والأسباط في بني إسرائيل كالقبايل في العرب من بني إسماعيل، من السبوة وهي الاسترسال، أو من السبط وهو شجر كثير الأغصان لكثرتهم، أو من البسط فقلب لكثرتهم.

وليسوا كلُّهم أنبياء بل بعضهم على الصحيح لصدور كبائر (١) منهم، والصحيح أنَّها لا تصدر من نبيء ولو قبل البلوغ.

﴿وَمَا أَوْتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من ربِّهم فحذف لدلالة ما بعده، جمع التوراة والإنجيل بلفظ «ما» لشهرة التوراة لموسى والإنجيل لعيسى، واتِّصال ذكرهما إلى وقت الخطاب، ولأنَّ الإنجيل مقرَّر للتوراة وما نسخ منها إلا قليلا.

وموسى وعيسى داخلان في الأسباط وخصَّهما بالذكر لعظمتهما ولتخصيصهما بكتابيهما، وكانت العبارة كذلك تحرُّزاً عمَّا زاد اليهود والنصارى ونقصوا من الكتابين، وكذا في قوله: ﴿وَمَا أَوْتِيَ﴾ من الكتب والمعجزات والدلائل، ﴿النَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَانْفِرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ واحد فحذف العطف، أو أحد بمعنى الجماعة بعد السلب، أي لا نفرق بينهما على أنَّه موضوع للواحد والاثنتين فصاعداً بعد كل، أو النفي كما قال الفارسي.

﴿مَنْهُمْ﴾ بل نومن بهم كلُّهم لا كاليهود والنصارى، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وأما التفريق بتفضيل بعض على بعض تفضيلا لا يؤدِّي لنقص فحائز ﴿تلك الرُّسل فضَّلنا بعضهم على بعض﴾.

١ - إشارة إلى ما فعلوا بأخيهم يوسف.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ - آمَنُوا﴾ أي اليهود والنصارى. وهذا يناسب أن قوله: قولوا خطاب لليهود والنصارى، ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ متعلق بقوله: عزَّ وجلَّ ﴿قولوا ءامنا﴾ أو بقوله: سبحانه ﴿بل ملَّة إبراهيم﴾ أي إن حصلوا الإيمان بمثل ما حصلتم الإيمان به، وهو الاعتقاد والنطق والتعميم في كتب الله وأنبيائه، أو إن حصلوا ديناً مثل دينكم وهو لا يوجد، فيكون تعجيزاً عن أن يوجد دين صحيح غير دين الإسلام، مثل ﴿فاتوا بسورة﴾ (سورة البقرة: ٢٣) ولو ادَّعوا أن ما هم عليه الحق، لأنهم بين عالم أن دين الإسلام هو الحق وكنتم، وعاقل لو فكَّر لأدرك ذلك، وهاء «به» لـ «ما»، أو «مثل» زائدا والباء زائد، وعليه فـ «ما» مصدرية، أي مثل إيمانكم بالله وهاء «به» لله.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان بالحق المذكور، أو عن قوله عليه السلام لهم: ﴿قولوا ءامنا بالله...﴾ إلخ. ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ عظيم مخالفة لكم لأجل دينكم، أو مخالفة للقول، والفعال (١) على بابه فإن المسلمين أيضاً مخالفون لهم، فإنه في معنى جازوكم على مخالفتكم لهم وأنتم الحقون، وأصله الشق وهو الجانب أو المشقة، أو من شقَّ العصا إذ أظهروا العداوة. ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ﴾ مضرَّة شقاقهم ﴿الله﴾ يا محمد بقتل قريظة

١ - أي صيغة المفاعلة التي تفيد المشاركة، باعتبار أن كلمة: ﴿قولوا ءامنا بالله﴾ من كلام يعقوب عليه السلام.

وبني قينقاع وسيبهم، وإجلاء بني النضير، وضرب الجزية قبل إجلائهم وضرب الجزية على اليهود والنصارى. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم، أي العليم بها، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم فيعاقبهم عليها، وهو متعلق بـ«شقاق»، أو السميع لأقوالكم الحقّة أيها المؤمنون، العليم بأحوالكم الصالحة فيجازيكم عليها، فيتعلق بالكفاية الممتنّ بها الموعود بها.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ وَعِيدُونَ﴾ قُلْ أُنْحَاكُمْ إِنِّي أَخَذْتُ الذِّكْرَ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ خَلَعَ عُقُوبًا وَمَنْ سَبَّحَ بِحَمْدِ اللَّهِ نهارًا وَلَيْلًا وَسَمِعَ إِسْمَهُ فَحَدَّثَهُ كَذِبًا عَمَلًا مَكْرًا لِيُقْذَرَهُ بِهِ أُمُومًا فَتُلَقَّاهَا وَمِنْ أَكْثَرِ عِمَالِكُمْ كُفْرًا وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْدَهُمْ مِنِّي وَأَغْرَيْنَا كَيْدَ الْفِرْعَوْنَ وَتَمَرُّهُ وَأَقْبَسَتْ عَيْنُ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتُّهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ نَفْسًا مُّذَمِّمًا لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ - أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ ﴿١٣٩﴾ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

صبغة الإيمان وأثره في النفوس والعبودية لله تعالى

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قيل: بدل من ملّة، أو ألزموها صبغة الله، أو صبغنا الله صبغة، وحذف صَبَغْنَا، وأضيف للفظ الجلالة، أو متعلق بقوله: ﴿ءَامِنًا﴾ على حدّ: "قعدتُ جلوساً"، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي الإسلام أو التوفيق، أو الحجة، أو تطهير القلب من الكفر والمعصية.

(بلاغته) شَبَّهَ بالصبغة في كونه ظاهراً ظهور
 الصبغة وحلية، ومداخلاً في أعماق المصبوغ لأنه راسخٌ، وفي كونه
 يمتاز به الإنسان عن سائر الحيوان وعن الكفار امتياز الثوب المصبوغ،
 وهو استعارة تصريحية أصلية تحقيقية، أو سُمِّيَ ذلك صبغة للمشكلة
 لوقوعه في جوار محذوف، هو صبغة النصارى أولادهم في ماء
 المعمودية لتحقق نصرانيتهم.

وهو ماء أصفر، ويدعون أصله ماء غسل به عيسى عليه
 السلام في اليوم الثالث من ولادته، وكلما انتقص زادوا فيه ماء،
 ويقولون: هو تطهير بهم، ويقال هو معرب معمودينا باعجام الذال،
 أو معناه الطهارة، ماء يقُدس بما يتلى من الإنجيل ثم تغتسل به
 الحاملات^(١)، أمر الله المؤمنين أن يقولوا للنصارى قولوا آمنا بالله،
 وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغة المعمودية، والإبدال ضعيف
 لكثرة الفصل بالأجنبي.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا أحسن من صبغة الله ولا
 مساوي لها، لأنها الإسلام المنجي من خزي الدنيا والآخرة المورث
 لخيرهما. ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لا لغيره، كما تشركون معشر اليهود

١ - في نسخة (ج): الاستغناء عن هذه القصة، فلم يذكرها.

والنصارى غيره في العبادة. ﴿عَابِدُونَ﴾ قيل: أو داخل فيما أمروا أن يقولوه أي قولوا معشر اليهود والنصارى نحن له عابدون.

(سبب النزول) قالت اليهود: نحن أهل الكتاب الأول وقبلتنا أقدم، ولم تكن الأنبياء من العرب، ولو كان محمد نبياً لكان منا، فنزل قوله: تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد أو يامن يصلح للقول، ﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾ تجادلوننا جدالاً يقطعنا والحجُّ القطع، لا قدرة لكم على ذلك لأنكم مبطلون. ﴿فِي اللَّهِ﴾ شأنه وقضائه إذ قضى وقدر أن يكون نبيء من العرب، ولا سيما أنه مذكور في التوراة والإنجيل، متداول ذكره من أوائلكم إلى الآن.

وقد أتى "قيدار" ولد إسماعيل بالتابوت من الشام إلى مكة وردّه منه إما إسحاق أو يعقوب عليهما السلام، وقال: إنَّ لكم نوراً واحداً آخر الأنوار.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فله أن يختار للنبوءة من شاء منا أو منكم. ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فإن توهّمتم أنّ النبوءة بالعمل فلنا من الأعمال ما نستحقُّ به النبوءة، كما تدعّون أنّ لكم أعمالاً إلاّ أنّها باطلة بخلاف أعمالنا فصحيحة بالإخلاص كما قال:

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ الدّين والعمل، وأنتم جعلتم له

شركاء فنحن أولى بالنبوءة، لكن النبوءة لا تُعطى صاحبها لعمل غيره، ولا لعمله بل اضطرارية، لا كسبئية بالأعمال أو بوصول نوع من الأعمال.

وعنه عليه السلام أنه قال بعد أن سُئِلَ عن الإخلاص: «سألتُ جبريلَ عنه فقال: سألتُ ربِّي عنه فقال: سرٌّ من أسراري أوُدَّعَتْهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ مِنْ عِبَادِي»^(١). وقال سعيد بن جبیر: «أن لا تشرك في دينه، ولا ترائي أحدًا في عمله»؛ وقال الفضيل: «ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»؛ وقيل: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن؛ وقيل: كتم الحسنات كما تكتُم السيئات، وقيل: احتقارك عملك. ومعنى كونه سرًّا من أسرار الله أنه لا طاقة لأحد عليه باختياره، ومعنى كون الترك رياء أنه رآى الناس أنه غير مرء، ومعنى أن العمل لهم شرك أنه رياء أيضاً، زاد باسم الشُّرك لأنه عمل لغير الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا

١ - أورده الشيخ إسماعيل الجيظالي في قناطر الخيرات مقطوع السند، في كتاب

الإخلاص، ج ٣، ص ٤٥٩، ط. حجرية.

أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ (سورة آل عمران: ٦٥) و«أم» متصلة متعلقة بقوله: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا؟﴾ أو منقطعة للانتقال من التوبيخ على الحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء، ووجه الاتصال ذمهم بجمعهم بين الحاجة في الله، والقول بأن إبراهيم ومن معه كانوا هوداً أو نصارى مع كون واحد منهما كافياً في القبح.

(نحو) وأبو حيان لمَّا رأى أَنَّ الغالب في [أم] المتصلة استدعاء وقوع إحدى الجملتين، والسؤال عن إحداهما وما هنا ليس كذلك اقتصر على المنقطعة، وهكذا عادته يرى غير الغالب كأنه غير موجود فيقتصر على الغالب.

﴿قُلْ - أَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بحال إبراهيم في الدين. ﴿أَمْ اللَّهُ﴾ عطف على أنتم، وأمر الله أعلم، والتفضيل استهزاء بهم، وأعلم بمعنى عالم أنتم الجهلاء والله هو العالم، قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط تبع له. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ﴾ أخفى عن الناس. ﴿شَهَادَةَ عِنْدَهُ﴾ جاءت ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ في التوراة والإنجيل لإبراهيم بالحنيفية لا باليهودية أو النصرانية، ولحمَّد بالرسالة.

والكاتبون هم اليهود والنصارى لا أحد أظلم منهم، أو لا أحد أظلم منا لو كتمناها كما كتمتموها، وقدم ثبوتها عنده على كونها

من الله مع أنه متأخر في الوجود مراعاة لطريق الترتيب. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم على مثاقيل الذر، ككتمان شهادته تعالى، والافتراء على الأنبياء.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كرر تأكيداً في الزجر عمّا رسخ في الطباع من الافتخار بالآباء والقراية والاتكال على أعمالهم؛ وقيل الأولى لليهود، والثانية لنا، لئلا نقتدي بهم في الاتكال إلا أنّ الكلام مسوق لأهل الكتاب أو الأمة، في الأولى الأنبياء، وفي الثانية أسلاف اليهود والنصارى، إلا أنّ أسلاف اليهود لم يجر لهم ذكر وما سبق ذكر الأنبياء.

وقد يقال: إنّ القوم لما قالوا في إبراهيم وبنيه إنهم كانوا هوداً صاروا كأنهم قالوا: إنهم كانوا على مثل طريقة سلفنا من اليهود، فصار سلفهم في حكم المذكورين فجاز أن يقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ويعنيهم، وفيه تعسف، وقد يقال: إنّه لما اختلفت الأوقات في الأحوال والمواطن لم يكن التكرار ضعيفاً، كأنّه قيل: ما هذا إلاّ بشر، وصف هؤلاء الأنبياء وما أنتم عليه من الدين لا يسوغ بالتقليد في الجنس، فاتركوا الكلام في تلك الأمة فلها ما كسبت، وانظروا فيما دعاكم إليه محمد فإنه أنفع لكم، ولا تسئلون إلا عن عملكم.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلِيَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا
قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِيهِ مَن يَشَاءُ إِلَىٰ اصْرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

التمهيد لتحويل القبلة

﴿سَيَقُولُ﴾ إلتخ نزلت قبل قوله: ﴿مَا وَلَاَهُمْ...﴾ وبعده ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ...﴾ الآية، فتكون معجزة بالإخبار بالغيب، وتوطينا لنفوس المؤمنين على الصبر، وليستعدوا للجواب، ومفاجأة المكروه أشد على النفس وأدعى لاضطراب الجواب أو خطئه، فقدّم الله الأخبار لهم ولقنهم الجواب.

وعلى صحة نزولها بعد قولهم: ﴿مَا وَلَاَهُمْ﴾ فالسين للتأكيد دون الاستقبال، وفائدة التأكيد ذمهم بأنهم قد تحقق منهم كلام سوء وطعن، فيكون الفعل للحال المحكية تنزيلاً للماضي منزلة الحاضر، أو للاستمرار، أو هي للاستقبال بمعنى أنهم سيعيدون القول ويكررونه بجاهرة وجدالاً بعد إخفاء ويكررونه. ﴿السُّفَهَاءُ﴾ من يضعون الشيء في غير موضعه لحنفة عقولهم، ويعملون بغير دليل، ويرون غير الدليل دليلاً. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي من جملة الناس، لتلاّ يتوهم أنّ السفهاء هم خصوص المذكورين أوائل السورة، والسفيه ولو كان قد يكون في الحيوانات لكن لا قول لها إلا شاذاً أو تأويلاً فلا يحترز عنها.

والسفهاء: اليهود المجاهرون، والمنافقون باضممار الشرك من العرب، والمنافقون من اليهود ومشركو العرب، أمّا اليهود فإنّهم لا يرون النسخ، وكانوا يأنسون باستقبال النبي ﷺ بيت المقدس، ويرجون أن يرجع إلى دينهم، ولمّا استقبل القبلة اغتمّوا وقالوا: اشتاق إلى دين آبائه، ولو ثبت على قبلتنا لعلمنا أنّه المبشّر به في التوراة، فبعض علموا أنّه النبيء وأنّه سيرجع إلى الكعبة وكنتم، ولو لم يرجع إليها لعلموا أنّه غير النبيء، وقال: ذلك سفهاً، وبعض ما علم وقال ذلك، وأمّا المنافقون فقالوا تحوّل للكعبة لعب بالدين وعمل بالرأي لا بدين، وأمّا مشركو العرب فقالوا قد رجع إلى وفاقنا ولو بقي عليه من أوّل الأمر لكان أولى له، وكذبوا، لم يكن قط إلا على الإسلام، إلا إن أرادوا موافقة الكعبة.

ويروى أنّه كان يصلّي إلى بيت المقدس فتأذوا بذلك، وقيل يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، ولمّا حوّلت القبلة قالوا: لو كان من أوّل ذلك كان أليق به، وقالوا رغب عن قبلة آبائه، ثم رجع إليها وسيرجع إلى دينهم.

قال البراء لمّا قدم رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستّة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يجب أن يتوجّه إلى الكعبة فأنزل الله تعالى ﴿قد نرى تقلّب وجهك...﴾ الآية، فكان يصلّي

إليها، وفي رواية صَلَّى إلى بيت المقدس تسعة أشهرٍ أو عشرة أشهرٍ؛ وعن معاذ: ثلاثة عشر شهراً، وقيل: سبعة أشهر. ﴿مَا وَلَاَهُمْ﴾ صرفهم إلى الكعبة. ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمْ﴾ صخرة بيت المقدس. وأصل القبلة نوع من الاستقبال في ذات المستقبل وأحواله في مكانه، ثم صار حقيقة عرفية عامة للجهة المستقبل إليها. ﴿الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ في صلاتهم ودعائهم وأمورهم، وذلك ظاهر في اليهود والمنافقين من العرب المعتقدين لحقبة قبلة اليهود تقليداً لليهود.

ومما ورد في صخرة بيت المقدس أن المياه تقسم عليها لأهل الأرض، وأمماً مشركو العرب فقولهم: «ما ولاهم...» إلخ، مجرد طعن بأن الانصراف بلا داع والتوجه أولاً بلا داع، وأمماً استقبال الكعبة فحَقَّ عندهم.

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وسائر الأرض داخل فيهما تعميماً للجاناب، أو كناية عن جميع الأرض، وذلك أبلغ من أن يقول: لله الأرض كلها، وأيضاً في ذكرهما تلويح بذكر قبلة النصارى وهي المشرق وقبلة اليهود وهي المغرب، وأخره لأنَّ الطلوع قبل الغروب، ومطابقة لمزيد ظهورهما لكونهما مطالع النور والظلمة، وكثرة توجه الناس إليهما للأوقات والمقاصد، ولا بدَّ أنهما سُمِّيَا لشروق الشمس وغروبها، لكن إمَّا أن يُعتبر على طول الأرض وعرضها، وإمَّا أن

يعتبرا بمشارك الشمس ومغاريبها.

فأينما تولوا وجوهكم إليه أو فيه فتمَّ وجه الله، ذات الله بالخلق والعلم والقدرة والحفظ. ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته، ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هداية توفيق إلى قبول دين الله، سواء عمل به أو آمن وقبل وعمل الكبائر فهو للنار إن أصرَّ.

فهؤلاء أمة الإجابة، ومقابلهم من لم يهده إلى التوحيد وقبول الدين وهم اليهود والنصارى وكلُّ مشرك، وهم أمة كفر، من جملة أمة النبي ﷺ، كقوم نوح وقوم هود، أو هداية توفيق للسعادة، ويدلُّ للأول العموم في قوله:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٧﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٨﴾ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِحُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ

إَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٧﴾
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٤٧﴾

تحويل القبلة

﴿وَكَذَلِكَ...﴾ إلخ، أي كما هديناكم إلى الصراط المستقيم،
وجعلنا قبلكم الكعبة لا تُنسخ هي ولا دينكم، وهما أفضل دين
وقبلة، ولو لم تصرح الآية بالأفضلية وعدم النسخ، لكن ناسبه التفضيل
في قوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ، أُمَّةً﴾ إلخ.

ولاشك أن الكعبة أشرف، لأنها قبلة إبراهيم وقبلة آدم ومن بعده
إذا صير إلى السبق فهي أسبق، لأنها قبل آدم بألفي عام لحجّه الملائكة،
ووضع الله بيت المقدس أيضاً لكن بعد الكعبة بأربعين عاماً.

﴿جَعَلْنَاكُمْ،﴾ يا أمة محمد، ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أفضل من غيركم بالعلم
والعمل من الوساطة التي هي المختار من الجواهر، أو من الوساطة بمعنى
الاعتدال في الشأن، لأن وسط الشيء مصون والأطراف يتسارع إليها
الخلل، ولأنها وسط معنوي بين إفراط وتفريط. والوسط في الأصل اسم لما
يستوي نسبة الجوانب إليه كالمركز، ثم استعير للخصال المحمودة لكونها
أوساطاً للخصال المذمومة المكتنفة بها من طرفي الإفراط والتفريط، كالوجود

بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين الجبن والتهور.

﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أَنَّ أَنْبِيَاءَهُمْ بَلَّغُوهُمْ، والمراد بالكاف و«واو» - تكونوا - المجموع لا الجميع، لأنَّ الأشقياء من هذه الأمة لا يكونون شهداء على الناس الذين قبل هذه الأمة.

﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾ لَكُمْ، ﴿شَهِيدًا﴾ بِأَنَّكُمْ عَدُولٌ تَقْبَلُ شَهَادَتَكُمْ عَلَى الْأُمَّمِ، وَأَنَّهُ بَلَّغَكُمْ وَقَبَلْتُمْ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿أُمَّةٌ وَسَطًا﴾ وَأَنَّكُمْ شُهَدَاءُ، فَلهِ مَدْخَلٌ فِي التَّعْلِيلِ بِخِلَافِ مَا لَوْ فَسَّرْنَا بِمَجْرَدِ شَهَادَتِهِ ﷺ أَنَّهُ بَلَّغَكُمْ فَيُحْصَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِشَهَادَتِهِ لِنَفْسِهِ بِالتَّبْلِيغِ، فَتَكُونُ «عَلَى» بظَاهِرِهَا، فَتَكُونُ اللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ فِي هَذَا. وَلَوْ صَحَّ التَّعْلِيلُ فِي تَكُونُوا فَيُجْمَعُ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، أَوْ تَجْعَلُ لِعُمُومِ الْمَجَازِ أَوْ تَجْعَلُ فِي الْأَوَّلِ لِلتَّعْلِيلِ وَتَقَدَّرَ فِي الثَّانِي لِلْعَاقِبَةِ، أَيَّ وَلِيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.

تَكَرَّرَ كَفَّارُ الْأُمَّمِ تَبْلِيغِ الرِّسْلِ فَيَقُولُ الرِّسْلُ: تَشْهَدُ لَنَا أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ فَيَشْهَدُونَ لَهُمْ بِالتَّبْلِيغِ، فَيَقُولُ الْكُفَّارُ: كَيْفَ يَشْهَدُونَ عَلَيْنَا وَهُمْ بَعْدُنَا؟ فَيَقُولُونَ: يَارَبَّنَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا وَأَنْزَلْتَ عَلَيْهِ كِتَابًا فِيهِ تَبْلِيغُهُمْ، وَأَنْتَ صَادِقٌ، فَيَسْأَلُ ﷺ عَنْ أُمَّتِهِ فَيُرِيهِمْ، يَشْهَدُ كُلُّ نَبِيٍّ عَلَى أُمَّتِهِ بِالْكَفْرِ بِمَا بَلَّغَهَا، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ (سورة النساء: ٤١) فَتَكْذِبُهُ فَتَشْهَدُ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ، وَشَهَادَتُهُ ﷺ بَعْدَالَةِ أُمَّتِهِ الشَّاهِدِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ شَهَادَةَ عَلَى كَفَّارِ الْأُمَّمِ.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ﴾: أي كفار الأمم شهيداً. وعن أبي سعيد عنه رضي الله عنه: «يجيء النبيء يوم القيامة ومعه الرجل والنبيء ومعه الرجلان وأكثر، فيُدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟، فيقول محمد وأُمَّته، فيُدعى محمد وأُمَّته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما أعلمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ، فأخبرنا أنَّ الرُّسُل قد بلغوا، فذلك قوله: تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية». وفي رواية: «فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أُمَّته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولَ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»^(١).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾ وهي الكعبة في نفس الأمر. ﴿الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ قبل، كانت قبلته حين كان بمكة الكعبة، ولو كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس، واستقبل المقدس في المدينة ستة أو سبعة عشر شهراً بأمر الله تأليفاً لليهود، ثم حوَّله للكعبة، فـ«التي» مفعول ثانٍ لا نعت على المختار، أو ما جعلنا القبلة في المدينة قبل التحويل للكعبة هي بيت المقدس الذي كنت عليه قبل التحويل، أو ما جعلنا القبلة التي كنت عليها قبل الهجرة قبلةً، أو ما جعلنا القبلة التي كنت

عليها بعد الهجرة قبله، فالمفعول الثاني محذوف و«التي» نعت.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ علم ظهور أو

ليظهر علمنا، أو نعاملهم معاملة المختبر.

وعِلْمُ اللَّهِ أزلي لكن لا يخفى عنه وقوع الشيء، ووقته وتفصيله،
لأنَّه الخالق له؛ أو ليعلم رسولنا أو عبادنا الصالحون، فحذف المضاف
أو أسند لنفسه لأنَّهم خواصُّه، وفي ذلك تعظيم لهم، أو لنميز من يتَّبِعُ
الرسول للناس، والعلم سبب للتمييز وملزوم له، فإنَّ العلم صفة توجب
تمييزاً لا يحتمل النقيض، أو لنجازي الطائع والعاصي؛ وإنما يكون
الجزاء ممَّن علم طاعة الطائع وعصيان العاصي، والمراد بالاتباع البقاء
على اتِّباعه فيما مضى، وفيما يحدث من القبلة وغيرها.

﴿مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾ يكفر بعد الإيمان بسبب تبدُّل

القبلة ككفرأ شبيهاً برجوع الماشي إلى ورائه، يظنُّ أنه ﷺ في حيرة من
أمره وقد ارتدَّ لذلك الظنَّ جماعة. ﴿وَإِنْ﴾ إنه، إنَّ الشَّانَ؛ ﴿كَانَتْ﴾
أي التولية المعلومة من قوله: ما ولأهم، أو القبلة والتحويلة أو الردَّة إلى
الكعبة، أو الجعلة أو المتابعة.

﴿لِكَبِيرَةٍ﴾ شاقَّة على قلوب الناس.

وقاعدة الكوفيين في جميع القرآن وغيره

(نحو)

أن يجعلوا «إن» المخففة نافية لا مخففة، واللام بعدها بمعنى إلا، ويردّه أنه لم يجئ في كلام العرب ما جاء ليزيد أي إلا زيد، وجاء القوم لزيداً أي إلا زيذاً.

﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ منهم، أجاز بعضهم التفرغ في الإثبات والمانع يعتبر ما في «كبيرة» من معنى النفي أي لا تخف إلا على الذين هدى الله.

(سبب النزول) كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ، فقال رجال من المسلمين: ودنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف صلواتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي طاعتكم أي ثوابها، وكل عبادة إيمان، وفي الحديث: «الإيمان بضع وستون جزءاً»^(١) وهي في الآية الصلاة.

قال حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود إن كانت صلاتكم إلى

١ - أورده مسلم في كتاب الإيمان ١٢، باب بيان عدد شعب الإيمان؛ والقطب في جامع الشمل، ج ١، رقم ٣١، مع زيادة في آخره؛ والهندي في كنز العمال ج ١، ص ٥٣ من حديث علي رضي الله عنه.

بيت المقدس هدى فقد تحوّلتم عنه، أو ضلالة فقد دنتم بها مدة، ومن مات قبل التحول مات عليها، كأسعد بن زرارة، وأبي أمامة من بني النجار، والبراء بن معرور، من بني سلمة، وكانا من النقباء وآخرين، فقال عشائريهم: يارسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فما حال من مات مناً قبل الصّرف؟ فنزل ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم أو طاعتكم مطلقاً لا يضيّع صلاتكم ولا غيرها، أو إيمانكم باستقبال بيت المقدس، سواء قلنا استقبلها يوحى على ما رجّحوا، أم اجتهدا منه، إذ وجد أهل التوراة يستقبلونها، كما صام عاشوراء متابعة لهم، فوطن أن يستقبلها حتى يوحى إليه في الاستقبال، ومن قال: الإيمان التصديق فقط وفسّره بالصلاة، فقد تجوّز لأنه سبها وملزومها.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾ متعلّق بما بعد اللام بحسب الظاهر، فيحمل عليه، فيقال: لا صدر للام في خبر «إِنَّ» إذا كان المتعلّق ظرفاً أو مجروراً، لأنّ تاويل الكثير لا يحسن إلا لما لا بدّ منه ولا محيد عنه.

﴿لَرَوْفٌ﴾ شديد الرّحمة، ﴿رَحِيمٌ﴾ الرّحمة أعمّ من الرّافة ومع ذلك آخرها للفاصلة، وهي مبنية على الميم نظير الميم في مستقيم.

(بلاغة) وأولى من ذلك أن نقول: لا محذور في

تقديم خاص لا يشمل كلّ ما في العامّ فلذكر العامّ بعده دلالة على ما لم يدلّ عليه الخاصّ، فذكر الرّحمة ليدلّ على رحمة أخرى دون

الشديدة، بخلاف فلان متكلم فصيح، فإنه لو أحرر متكلم لم تكن له فائدة، فإن فلاناً لا يكون فصيحاً إلا وهو متكلم، لذلك قدّمت بلا فاصلة في قوله: تعالى ﴿رَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ﴾.

وقيل الرحمة تعم دفع المكروه وإزالة الضرر وسائر الأفضال، والرأفة دفع المكروه والضرر، ودفعهما أهم من جلب الرزق مثلاً، فقدّمت لذلك على الرحمة، فهي تخلية متقدّمة على التحلية، أو الرأفة دفع المضار والرحمة جلب المسار.

﴿قَدْ نَرَى﴾ تحقّق أنّنا لنعلم، وقال سيوييه: كثر تقلّب وجهك. ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ حال الدعاء، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾... إلخ تعليل جملي ثان لقوله: تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا...﴾ إلخ، والأوّل ﴿لنُعلم من يتّبع...﴾ إلخ.

(سيرة) روي أنّه أمره الله بعد الهجرة باستقبال المقدس تأليفاً لليهود فرضي وأحب، وكان بطبعه يحب استقبال الكعبة لأنّها أشرف وأقدم للملائكة قبل آدم، ولأنّها قبله آدم إلى إبراهيم وإسماعيل ومن بعدهما حتّى نزلت التوراة، ولأنّ الأنبياء تحجّه، ولأنّه أدعى للعرب إلى الإسلام وهم أفضل، ولهم قرابة وأنفع في الإسلام وأقوى، ولو كان استقبال القدس أدعى لليهود، ولأنّه أعيظ لهم وأشدّ مغايرة، ولأنّه لو لم يتحوّل لوجدوا مقالاً إذ علموا أنّه يؤمر بالتحوّل، ولأنّهم قالوا: يخالفنا ويتّبع قبلتنا، وقال

لجبريل: «وددت لو حولني الله إلى الكعبة»، فقال جبريل: إنما أنا عبد مثلك، ثمَّ عرج جبريل وجعل النبي ﷺ يديم النظر في جهة السماء رجاء نزوله باستقبال الكعبة، فنزلت ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾^(١).

﴿فَلَنُؤَلِّينَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فوالله لنصيرنك تالياً قبلةً محبوبة لك بالطبع، وما معه من دواعي الدين كما رأيت، وأما بيت المقدس فهو أيضاً يجب استقباله امتثالاً لأمر الله عزَّ وجلَّ؛ أو لنوجِّهنك إلى قبلة ترضاها.

قيل: لا تدعو الأنبياء بشيء حتى يأذن الله لهم فيه خوف أن يكون فتنة لقومهم، وقد روي أنه ﷺ استأذن جبريل أن يدعو الله في شأن فأخبره أن الله عزَّ وجلَّ قد أذن له أن يدعو فيه، والواضح أنه لا يلزمهم أن يستأذنوا، وقد جاءت أخبار بأنهم دعوا بدون استئذان، وليس ذلك خروجاً عن الأدب، وما ورد فيه معاقبة له ﷺ فإنما هو لأسرار خفية.

﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ﴾ جهة، ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ جهته لا لذاته بل للكعبة فيه وهي التي تقصد، ولكن ذكر شطر المسجد وهو الحرم لأنه يتعدَّر الجزم بإصابة عينها مع عدم معاينتها والبعد عنها.

١ - أورده الألوسي في تفسيره أثراً، لا حديثاً. ج ٢، ص ٨.

(سيرة) نزلت في رجب بعد الزوال قبل بدر بشهرين، وقد صَلَّى بأصحابه في مسجد بني سلّمة - بكسر اللام - في زيارة أمّ بشر بن البراء بن معرور، وقد صنعت لهم طعاماً ركعتين من الظهر، وقيل: كان في ركوع الركعة الثانية فتحوّل واستقبل الميزاب، وتبادل الرّجال والنساء صفوفاً، وزاد الرّكعتين الباقيتين.

(فقه) ولا يضرُّ ذلك صلاتهم ولو كثرت الخطأ والأعمال، ورفع الأقدام والقيام من الرّكوع بمشي، لأنهم في إصلاح الصلاة بذلك، وفي امتثال أمر الله.

وقيل قدم المدينة في ربيع الأوّل وصَلَّى إلى بيت المقدس تمام السنة، وصَلَّى من سنة اثنتين سبعة أشهرٍ أو ستة أشهرٍ ثمَّ حوِّلت الكعبة في جمادى؛ وقيل: يوم الثلاثاء نصف شعبان، وقيل: نصف رجب يوم الإثنين، وقيل: في صلاة العصر؛ وقيل: في صلاة الفجر وذلك قبل بدر بشهرين؛ وقيل: مرَّ رجلٌ ببني سلّمة فناداهم وهم ركوعٌ في صلاة الفجر نحو بيت المقدس: «ألا إنّ القبلة قد حوِّلت للكعبة»، فمالوا كلّهم ركوعاً إليها، وروي ذلك في قباء في صلاة الفجر، وأنّه قال المارُّ: ألا إنّ القبلة قد حوِّلت الليلة.

وقال السيوطي حديث بني سلّمة تحريف فإنّه ﷺ لم يكن إماماً في تلك الصّلاة ولا هو الذي تحوّل في الصّلاة، فإنّ أبا سعيد بن المعلّى

روى أنه ﷺ قرأ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ...﴾ الآية، فنزل
فصلى الظهر أربعاً؛ قلت: لعله نزل في صلاة الفجر وتحول، وأعاد قراءتها
عند الظهر فإنَّ أبا سعيد لم يقل: نزلت في الظهر بل قال: قرأ على المنبر، قال:
فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ فنكون أول
من صلى إليها، فصليناها فنزل ﷺ فصلى الظهر إليها.

(فقه) ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهو الحرم، ومن كان فيه فشطره المسجد، ومن
عائنة كلِّ الجزم بمقابلته، ويكلف بمقابلة الكعبة جزءاً من عاينها.

وعن مالك: الكعبة قبله لأهل المسجد، وهو لأهل مكة، وهي
لأهل الحرم، وهو لأهل الدنيا، قلت: ذلك مقاربة.

وعمم الأمكنة لتعم بيت المقدس وغير المدينة وما حضر فيه اليهود
وما لم يحضروا فيه، فلا يتوهم خصوص المدينة إذ نزلت فيها، ولا غير
محضر اليهود إذ كان يصلي لبيت المقدس حين هاجر استجلاباً لهم،
أمره الله سبحانه بالتولية خصوصاً تعظيماً له، ولأنَّه الداعي لله بالتحويل،
فخطبه بأنا قد استجبنا لك، وذكر دعاءه في قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ...﴾
الآية، فكانه قيل: دعوتنا للتحويل فاستجبنا لك، ثم عمم أمته بالخطاب
تأكيداً وحضاً على المتابعة، وإلا فخطابه كافٍ إلا إذا تبينت الخصوصية.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى والصَّابِينَ،
 ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي ما ذكر من التولية، أو أنَّ التولي المطاوع
 للتولية، أو أنَّ التوجيه أو التحويل، أو أنَّ التحول أو التوجه؛ ﴿الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وقد صحَّ لهم في التوراة والإنجيل أَنَّهُ ﷺ يَصَلِّي إلى
 القبلتين بيت المقدس والكعبة. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وعيد
 لليهود والنصارى والصَّابِينَ على التكذيب وسائر المعاصي، ووعد
 للمؤمنين على التصديق وسائر الطاعات.

﴿وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ، ﴿بِكُلِّ
 آيَةٍ﴾ دليل منقول عن الله، أو حجة عقلية تبني على دين الله، أو
 مجرد حجة عقلية على صدقك في أنَّ الله هو الذي أمرك بالتحول إلى
 استقبال القبلة؛ ﴿مَا تَبِعُوا﴾ كلُّهم، ولو يتبع بعضهم، ﴿قِبَلَتِكَ﴾
 الكعبة، لأنَّ عنادهم لك في أمر القبلة وغيره ليس لشبهة فيتركوه لآية
 تزيلها بل عناد وحسد.

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ﴾ إخبار منه تعالى بأنَّه لا يصدر منه
 متابعة قبلتهم، وهو مدح وتبشير؛ وقيل: إخبار بمعنى النهي، أي لا
 تتبع قبلتهم، أي دُم على عدم اتباعها صحرة بيت المقدس لليهود
 ومطلع الشمس للنصارى، لأنَّ الله هو الذي أمرك بالتحول عن قبلة
 بيت المقدس؛ وأمَّا مطلع الشمس فلا وجه لاستقباله إذ ليس في

التوراة، وإنما الواجب على النصارى قبل التحويل إلى الكعبة استقبال بيت المقدس لوجوب اتباع التوراة عليهم إلا ما نسخ الإنجيل منها، وإنما أخذوه من اتخاذ مريم مكاناً شرقياً، أو من «بوليس»^(١) اليهودي إذ غرهم وقال: إنَّ الشمس كلَّ يوم تبلغ سلام عيسى إلى الله، وقد أمر عيسى بأن تستقبلوه في الصلَاة.

وقد صحَّ أنَّ عيسى يستقبل بيت المقدس ولذلك أفرد قبلتهم، لأنَّ القبلة بيت المقدس لا المشرق، وبه خوطبوا كاليهود وهذا أنسب بما في نفس الأمر.

وزعم أشياخ النَّصارى أنَّ المسيح فوَّض إليهم الدين فما أوجبوه أو حرَّموه أو أباحوه فهو كذلك، فجعلوا الصلاة للمشرق لأنَّ فيه أسراراً ليست في غيره عندهم، ولذا كان مولده شرقاً، أو أفرداها مع أنها اثنتان: بيت المقدس ومطلع الشمس، لاتحادهما في البطلان بعد التحويل للكعبة، فكأنهما إذ بطلتا قبلة واحدة، فقبلة حق وهي الكعبة، وقبلة باطل وهي ما عداها، وهو أنسب لقوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ

١ - بولس: قديس اشتهر بلقب رسول الأمم، وكان من أعنف مضطهدي المسيحية، اندفع متفانياً في التبشير بين مدن آسيا الصغرى واليونان، وكان اسمه شاول قبل اهتدائه.

مات في روما سنة ٦٧م، وله أربع عشرة رسالة موجهة إلى الكنائس المختلفة أو إلى بعض تلاميذه.

﴿قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ وهذا إن قلنا: أفردتها لمشاكلة الإفراد في قوله: ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾، أو معنى ما أنت بتابع قبلتهم أن قبلك لا تنسخ إلى قبلتهم، كما لا تنسخ إلى غيرها، وفيه قطع طمعهم عن أن يستقبل قبلتهم، كما أنه قطع طمعه في أن يؤمنوا ويستقبلوا الكعبة بقوله: ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾، وهذا أولى من أن يقال: المراد النهي أي لا تتبع قبلتهم، لأن استعمال الجملة الاسمية في الطلب ضعيف، وما تقدم أولى من أن يقال: المعنى ما ينبغي لك اتباع قبلتهم وما يحق.

وقيل: إن الله لم يأمر اليهود باستقبال بيت المقدس في التوراة بل كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه من خلفه، ولما رفع صلوا إلى موضعه وأبقاهم الله على ذلك؛ وصحح بعضهم أنها في التوراة التي غيرها، ونسخت على كل حال.

والصَّابُونَ يصلون إلى الكعبة، ولعلهم اختاروها بعد نزول القرآن بها؛ وقبلة السامرية طورهم في الشام، يعظمونه ويحجّون إليه، وهي في بلدة «نابلس» قبلة باطلة مبتدعة. والبعض الأوّل لليهود أو للنصارى، والثاني للآخرين، وفي ذلك بعض تسلية إذ لم يختص عنادهم به بل هو شأنهم حتى [فيما] كان بينهم.

﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ما يحبونه مما خالف الحق

كالرجوع إلى قبلتهم، وهذا زيادة في قطع طمعهم في أن يتبعهم،
 وإلا فقد تحقق أنه ﷺ وتحقق من الله أن الرسل لا تفعل ذلك، أو
 الخطاب للمؤمنين على البدلية لا له ﷺ، ولا سيما مع قوله تعالى:
 ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعِ قِبَلَتِهِمْ﴾ إلا على معنى لا ينبغي لك اتباعها أو لا
 تتبعها؛ أو الخطاب له ﷺ على سبيل الفرض تعريضاً بغيره إذ كان
 يعاقب لو اتبع فكيف غيره، وتهيجاً على الثبات. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الوحي أن القبلة الكعبة أبداً، أو العلم المعلوم.
 ﴿إِنَّكَ إِذَنْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم ولدين الله ولغيرهم بالبدعة.

(بلاغة) أكد الله عز وجل باللام والقسم المقدّر

قبلها، وأنّ الفرضية وأنّ واللام في خبرها، والجملة الاسمية، وتعريف
 «الظالمين»، و«إذا» الجزائية فإنها لكونها جواباً وجزاءً تفيد المبالغة
 وإثارة [قوله] «من الظالمين» على أنك ظالم أو الظالم، لإفاضة أنك
 معدود فيهم. و«زيد من العلماء» أبلغ من «زيد عالم»، وتسمية
 الإتيان هواء بمعنى أنه لا يعضده دليل، والإجمال والتفصيل في قوله:
 ﴿ما جاءك من العلم﴾، إذ لو قال: ما جاءك العلم، لكفى، وجعل
 الجائي نفس العلم، ووضع الظاهر موضع المضمّر إذ لم يقل:
 «لهم»، أي اليهود والنصارى إن أريد العهد.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى آتيناهم التوراة

والإنجيل، مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي محمداً ﷺ لدلالة الكلام عليه وعدم اللبس، وأما ذكر الرسول قبل مرتين فبعيد مع الفصل بأجنبي، أو التفات عن الخطاب في «اتبعت»، والكافين إلى الغيبة والأصل: يعرفونك، أي يعرفون القرآن أو التحويل، لاستحضار القلب لهما في المقام للنباهة لهما؛ أو يعرفون العلم المذكور، أي المعلوم الحق، ومنه كون الكعبة قبله. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ هذا أنسب بكون الهاء في «يعرفونه» لمحمد ﷺ، والمراد يعرفونه بصفاته في التوراة وغيرها، ومن صفاته فيها أنه يصلي للقبليتين، واستمراره على الكعبة بعد نسخ الصلاة إلى صخرة بيت المقدس معرفة كما لا يلتبس عليهم أبناؤهم.

قال عمر لعبد الله بن سلام قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ما هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر، لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابني، ومعرفتي به أشد من معرفتي بابني، فقال عمر: كيف ذلك؟ قال أشهد أنه رسول الله حقاً وقد نعته الله في كتابنا، ولا أدري ما تصنع النساء، وفي رواية: ولعل والدته ابني خانت؛ وفي رواية: لعل اليهودية خانت، وقبّل عمر رأسه، وقال: وقلك الله يا عبد الله بن سلام فقد صدقت.

ولا يلزم من قول الله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أنهم لا يعرفونه أشد من معرفتهم بأبنائهم، لأن المراد في الآية مجرد التنظير، ولم

يقول: «كما يعرفون أنفسهم» مع أنَّ معرفة الإنسان نفسه أشدُّ من معرفته لولده، لأنَّ الإنسان لا يعرف نفسه إلاَّ بعد انقضاء برهة من دهره، ويعرف ولده من حين وجوده، وخصَّ البنين بالذكر لأنَّ ﷺ ابن، والابن ألصق بالقلب من البنت، وأشهر والزم لصحبة الأب. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب. ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نعته ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنك المنعوت وأنك على الهدى فيما تقول وما تفعل، وأنَّ كتمان الحق معصية، وأنَّ عليه العقاب؛ وفريق آخر معترفون بالحقِّ كعبد الله بن سلام ومن معه، وذكر فريق الكتمان تنصيماً على فجع الكتمان مع الكفران. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الحقُّ المعهود الذي أنت عليه، أو الذي كتموه، أو الحقُّ كله، أو حقيقة الحقِّ، بحيث لا يشدُّ عنه شيء من ربِّك؛ وأمَّا ما جاء من غير الله فليس بحقِّ كالذي يفتره اليهود والنصارى في أمر القبلة وغيرها كما زعمت النصارى أنَّ عيسى فوضهم في القبلة والتحليل والتحریم.

و«من ربِّك» خير أو يقدر: هو الحقُّ، أي ما أنت عليه، أو ما كتموه الحقُّ، و«من ربِّك» حال أو خير ثان، أو نعت عند مجيزه بالظروف في المعارف، أي هو الحقُّ الثابت من ربِّك، وعلى كلِّ وجه الجملة مستأنفة.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشَّاكِّينَ فِي أَنَّ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْقِبْلَةِ وَسَائِرِ الدِّينِ حَقٌّ مِنْ رَبِّكَ، أَوْ فِي أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ عَرَفُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَكُتْمُوهُ، وَالنَّهْيَ إِهَابَ عَلَى الْإِيقَانِ، وَتَلْوِيحَ بِأَنَّهُ بَحِيثٌ لَا يَشْكُ فِيهِ نَاطِرٌ، أَوْ لَهُ وَاللَّامَةُ جَمِيعاً عَلَى الْبَدَلِيَّةِ لَا الْعُمُومِ الشُّمُولِيَّ، وَإِلَّا ضُمَّتِ النُّونُ الْأُولَى، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ لِلَّامَةِ وَحْدَهَا فِيهِ تَلْوِينُ الْخَطَابِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ كَافَ «رَبِّكَ» لَهَا أَيْضاً؛ وَذُكِّرَتْ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى الْعُمُومِ أَوْ الْجَمْعِ وَفِيهِ بَعْدٌ، ثُمَّ إِنَّ الشُّكَّ لَيْسَ كَسِبِيّاً فَكَيْفَ يَنْهَى عَنْهُ؟ وَإِنَّمَا سَاغَ النَّهْيُ عَنْهُ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ تَحْقِيقَ أَنَّ مَا كَانَ مِنَ اللَّهِ لَا يُشْكُ فِيهِ، أَوْ اكِتْسَابَ النَّبِيِّ - أَوْ هُوَ وَاللَّامَةُ - الْمَعَارِفَ.

وليس المراد ظاهر النهي، وقد يكون الشك كسبياً باعتبار مبادئه، أي لا تباشر شيئاً يؤدي إلى الشك، فيجوز حمل الآية على هذا كما أن الإيمان مأمور به باعتبار مبادئه، وأيضاً الشك مقدور للإزالة، فمن كان فيه أو فرض فيه نهى عن البقاء عليه.

والمراد بـ«الممتزين» الجنس، فيشمل من شك من جهلاء أهل الكتاب والعرب، لا من عرف، فإنه لا يشك لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ وقد مرَّ أنَّ النهي عن الكون من أهل كذا أبلغ عن أن يكون كذا، أو لا تفعل، فذلك أبلغ من «لا تكون ممتزياً»، ومن «لا تمتز»، وهكذا في سائر القرآن ولو لم أكرره.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَيقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا آيَاتِ يَوْمِ اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ يُغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَلِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِمْ يَغْفِرَ عَلَيْكُمْ وَاغْفِرَ لَكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

الاختلاف في القبلة وأسباب تحويلها

﴿وَلِكُلِّ﴾ من الأمم، ﴿وِجْهَةً﴾ جهة، أو لكل أهل ملة، أو لكل جماعة من المسلمين واليهود والنصارى، أو لكل قوم من المسلمين جهة من الكعبة، جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية يتوجه إليها بالاستقبال في الصلاة ونحوها؛ أو لكل من الأمم توجه. مصدر شاذ إذ هو «فِعْلَةٌ» بكسر الفاء، ثبتت فاءه واوًا، أو وجهة: ملة تقصد. ﴿هُوَ﴾ أي الكل أو الله. ﴿مَوْلِيهَا﴾ وجهه، فالمفعول الثاني محذوف، أي يجعل وجهه تاليا لها، أو يوليها ملتها.

والمعنى أَنَّهُمْ لا يتركون قبلتهم ولا ملَّتَهُمْ فذلك كالفذلكة لقوله: ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعِ قِبْلَتِهِمْ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ وليس المراد أَنَّ اللهَ أَبَاحَ لَهُمْ ذلك، بل الله يعاقب كلَّ أُمَّةٍ خالفت نبيَّها، فيعاقب الله اليهود والنصارى وغيرهم الذين أدركتهم بعثة رسول الله ﷺ وخالفوه في القبلة وغيرها، إلاَّ من لم يبلغه الخبر فيعذر إن كان على دين غير منسوخ، أو لم يبلغه نسخه.

﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أيُّها المؤمنون، أو أيُّها المكلفون، وهو من الافتعال بمعنى التفاعل، أي ليعالج كلُّ منكم أن يسبق الآخر لرضى الله وثوابه، كالصلاة أوّل الوقت، واستقبال عين القبلة لا عناداً للآخر، أو حسداً أو كبراً. وهو متعدُّ أو لازم فتقدَّر «إلى». ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الأمور الحسنة اعتقاداً وقولاً وفعلاً، من أمر القبلة وغيرها؛ أو الخيرات: الكعبة، جمعها لجمعها كل خير؛ أو للتعظيم؛ أو الجهات الفاضلة لكونها على سمت الكعبة، فيكون الخطاب للمؤمنين أو للمكلفين من أهل الآفاق لتعذر مقابلة الكعبة جزماً.

والخيرات جمع خيرٍ أو خيرة بشدّ الياء أو بالتخفيف، تقول: أمر خيرٍ وخصلة خيرة، أو جمع خير، اسم تفضيل خارجاً عن بابهِ، أو باقياً، لأنَّ الأفقي يجيز في استقبال القبلة وجهين، أو أكثر فيختار أقواها

عنده، ولأنَّ المخطئ يدَّعي أنَّ ما هو عليه حسن، وعلى دعواه هذا:
«الذي عليه محمد أحسن».

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ في موضعٍ خفيٍّ أو ظاهرٍ، في برٍّ أو بحرٍ. ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللهُ﴾ يصيركم الله آتين؛ ﴿جَمِيعًا﴾ يوم القيامة للجزاء بأعمالكم، وذلك حثٌّ على الاستباق كقوله تعالى: ﴿يَابُنِي إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾ (سورة لقمان: ١٦) أو يمتكم، كقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ (سورة النساء: ٧٨)، أو يأت بكم إمامة وحشرًا؛ أو يجمع صلواتكم في الآفاق من جهات الكعبة كصلاة واحدة إلى جهة واحدة في القبول، كأنَّها إلى عين القبلة، أو في المسجد الحرام فيأت بكم مجاز عن جعل الصلاة متحدة الجهة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإمامة والإحياء والحشر وغير ذلك ﴿قَدِيرٌ. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ متعلِّق بـ«ول» بعده، و«من» للابتداء، أو بمعنى «في»، كأنَّه قيل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ من حيث خرجت للسفر إلى أن ترجع، وفي موضع خروجك للسفر، فيفهم منه أنَّ حكم ما بعد الموضع من مواضع السفر كذلك، أو خرجت بمعنى سافرت، أي ولِّ وجهك في مواضع سفرك، ولا يعترض على ذلك بأنَّه يلزم اتِّصال الواو بالفاء إذا علَّقناه بـ«ول»،

لأنَّ الفاء صلة للتأكيد، أساغها شبه «حيث» بالشرطيَّة المتَّصلة بما في العموم، كما أجاز "الفرَّاء" كونها شرطيَّة ولو بدون «ما»، ولأنَّه لا يكون الثقل في التقدير مثل الثقل اللفظي كما في أنواع كثيرة، بل يسوغ في التَّقدير؛ وكرَّره لبيان أنك تستقبل القبلة في السفر كالحضر.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي التولي المطاوع للتولية المذكورة، أو شطر المسجد الحرام أي استقباله، أو إنَّ التولية؛ فذكر لتذكير الخبر أو إنَّ الصَّرف أو الاستقبال، ﴿لَلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

(لغة) الشطر في الأصل ما انفصل عن الشيء، إمَّا حسًّا كدارٍ شَطُور، أي منفصلة عن الدُّور، ومعنى كقولنا، الإقرار شطر التوحيد، واستعماله في الجزء شائع، واستعمل بجانب الشيء ولو لم ينفصل بمعنى الجهة كما في الآية.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ والعطفان على «لكلِّ وجهة»، أو على ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

ذكر ذلك ثلاث مرات، كلُّ لعلَّة غير علَّة الأخرى، ذكره المرَّة الأولى ليريه أنه قد أجاب له فيما يشاق إليه، ورحم تضرُّعه، وأنه أهل لأن يجاب لعظم شأنه عند الله عزَّ وجلَّ، كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾. وذكره المرَّة الثانية ليبين أنه جعل لكلِّ

أمة قبله يمتاز بها، إذ قال ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾ أي لكل أمة. وذكره المرّة الثالثة ليدفع حجّة اليهود إذ يحتجّون بأنّه لو كان النبيّ الموعود به لتحوّل إلى الكعبة كما في التوراة، وأنّه لو كانه لم يتبع قبلتنا مع أنّه يُنكر ديننا، ولدفع حجّة مشركي العرب إذ يحتجّون بأنّه لو كان نبياً لم يخالف قبله ابراهيم مع أنّه يدعيها، كما قال بعد قوله:

﴿لَسَاءَ يَكُونُ لِلنَّاسِ﴾ اليهود ومشركي العرب. ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ﴿وَلَأْتَمَّ نَعْمَتِي﴾ إن عطف على «لئلاً...» إلخ، وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي الكعبة التي كنت عليها، فإن أنّ جعل معلل بالعلم لا بقيد كونه تعظيماً للرّسول ﷺ ولا بغيره، وناسب التكرار أنّ الكعبة لها شأن. والنسخ من مظانّ الطعن، والمخالفة في النسخ بدعوى إلزام البداء، وهو غير جائز، وهي مخالفة باطلّة، لأنّ النسخ إزالة حكم قضى في الأزل أنّه يزال، لا ظهوراً لِمَا خفي، تعالى الله.

وقيل: الأولى على أنّ الإنسان في المسجد الحرام، والثانية على أنّ يخرج من المسجد الحرام، ويكون في البلد، والثالثة على أنّ يخرج عن البلد إلى أقطار الأرض. وفيه أنّ الخطاب أولاً لرّسول الله ﷺ وهو في المدينة، فكيف تكون الأولى لمن في المسجد الحرام!

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالعناد؛ ﴿مِنْهُمْ﴾ من الناس المعهودين، أي
 إلا المعاندين من اليهود، إذ قالوا تحوّل للكعبة ميلاً لدين قومه وحباً
 لبلده، ومشركي العرب، إذ قالوا رجع لقبله ءابائه ويوشك أن يرجع
 إلى دينهم، وأنه في حيرة من أمر القبلة. ومن لم يعاند قال: يدعي ملّة
 إبراهيم ويوافق قبلته.

والحجّة ما يستدلُّ به صحيحاً في نفسه أو في زعم المستدلِّ، ولا
 حجّة صحيحة لمن خالف كلام الله لكن تسمّى حجّة كأنّها صحيحة
 لشبهها بها في إحضارها لإثبات المقصود، أو المراد التّحاجُّ أي الخصامُ،
 أو الإستثناء منقطع أي: لكن الذين ظلموا، من تأكيد الشيء بضدّه،
 أي إن كانت لهم حجّة فهي الظلمُ، والظلمُ لا يكون حجّة فحجّتهم
 غير ممكنة كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتاب
 فأخذ منه بعض قوله:

ولا عيب فيهم غير أنّ نزيلهم يُلام بنسيانِ الأحيّةِ والوطنِ
 فالمعنى المبالغة بأنّه إن كانت الحجّة في نفي الحقّ فهي كلام
 المعاندين، وكلامهم غير حجّة فلا حجّة في نفي الحقّ، وهو هنا
 استقبال الكعبة. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي الظالمين، وقيل: الناس عموماً،
 والأوّل أولى، لا تخافوهم في الجدال في التّوّلي إلى الكعبة فإنّه

يضمحلُّ، وضرره عائد عليهم، وسمِّي خوفهم خشية مع أنه إن خوفهم المؤمنون لا إجلال، فيها مشاكلة لقوله تعالى: ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ أي خافوني مع إجلال.

﴿وَلَا تِمَّ﴾ لئلا يكون، ولأتمَّ ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ وفي ذلك عدم المناسبة إلا بتكلف، وأيضاً إرادة الإهداء علة تصلح للأمر بالتولية لا الفعل المأمور به، والأولى أن يقدر «وأمرتكم بالتولية للكعبة لأتمَّ نعمتي»، لأنها نعمة عظيمة تورث فوزاً عظيماً، ونعيماً مقيماً، أو اخشون لأحفظكم من شرهم في الدنيا، ولأتمَّ نعمتي عليكم في الدنيا والآخرة بكونكم على الحق، وبإدخال الجنة.

وروى البخاري والترمذي «أنَّ تمام النعمة دخول الجنة»^(١) وعن علي: «الموت على الإسلام»؛ قلت: أو الهدى إلى معالم الدين والإقامة عليها إلى الموت، والنعمة في كلِّ وقت وتمامها بما يليق به، فلا يعارض بما جاء بعد من قوله تعالى: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي﴾. ﴿وَأَعْلَمُكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قد مرَّ، ومن معانيه ولتتهتدوا.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ معشر العرب شرفاً لكم إذ لم يكن من غيركم، ولا تقدر أن تأخذوا الأحكام والوحي عن

١ - رواه البخاري في كتابه: الأدب المفرد (٧٠١)، باب من سأل الله العافية، رقم ٧٢٥، ص ٢١٧

الملك؛ يعني محمداً ﷺ، ولأتم نعمتي عليكم إتماماً شبيهاً بإرساله في الإتمام به للنعمة، ويجوز أن يعود إلى قوله: ﴿فاذكروني﴾ أي اذكروني ذكراً مثل ذكري لكم بالإرسال، أو اذكروني بدل إرسالنا فيكم رسولاً، فالكاف للمقابلة، وذكر الإرسال وإرادة الإتمام من إقامة السبب مقام المسبب.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ أي القرآن الذي هو معجزة دائماً لا يملئ. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يطهرهم من الشرك والمعاصي، أو يعلمكم ما تكونون به أذكىء. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ذكره أولاً بلفظ الآيات باعتبار معانيه التي هي مدلولها، وثانياً بالكتاب باعتبار ألفاظه. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام تخصيص، بعد تعميم، أو السنة.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من أخبار الأمم وأنبيائهم والحوادث، ولم يقل: «ويعلمكم الكتاب والحكمة وما لم تكونوا تعلمون» بل أعاد ذكر يعلمكم ليدل على أن هذا التعليم نوع آخر، ولو قلنا: ما لم تكونوا تعلمون هو الكتاب والحكمة وعطف، لأن تغاير الصفة كتغاير الذات، فإن مفهوم ما لم تكونوا تعلمون غير مفهوم الكتاب والحكمة، ولو أتحدت ماصداً.

وقدم التركيبة لأنها تخلية عن التعليم لأنه تخلية ولأنها غاية التعليم، متقدمة في القصد، كما قالوا في الغاية المقصودة من الفعل:

«هي أوّل الفكر وآخر العمل»، كالماء غاية يقصد بالحفر ويحصل بعده، وقد قصد قبل الحفر.

وقدّم التعليم في دعاء إبراهيم ﴿رَبَّنَا وابعثْ فيهِم...﴾ إلخ باعتبار أنّ التزكية تحصل بعد العلم وهو بعد التعليم، وقيل: التزكية عبارة عن تكميل النفس بالقوّة العمليّة وتهذيبها، المتفرّع عن تكميلها بالقوّة النظريّة، الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة، ووسّطت بين التلاوة والتعليم إيداناً بأنّ كلاً من الأمور المرتبة نعمة على حدة، توجب الشكر، ولو روعي ترتيب الوجود كما في دعوة إبراهيم لتوهّم أنّ كلاً نعمة واحدة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالطاعة باللسان، وبالتفكر في الدلائل والوحدانية، وبالجوارح في أنواع العبادات؛ ولكون الصلّاة جامعة لذلك سمّاها ذكراً في قوله عزّ وجلّ: ﴿فاسعوا إلى ذكرِ الله وذروا البيع﴾ (سورة الجمعة: ٩). وحقيقة ذكر الله أنّ يُنسي كل شيء سواه. ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب أو بالثناء عند ملائ خير من ملائ ذكروني عنده، وهم الملائكة كما في الحديث^(١)، عطف إنشاء على إخبار؛ أو مهما يك من شيء فاذكروني

١ - لعلّ الشيخ رحمه الله يشير إلى الحديث الذي أورده البخاري عن قتادة عن أنس، والإمام أحمد كذلك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملائ ذكرتك في ملائ خير منه، وإن

أذكركم؛ أو إن لم تذكروني بالطاعة لنعمتي عموماً فاذكروني لنعمة الإرسال، أحوج ما أنتم إليه في وقت الفترة، وهذا أنسب لفظاً والذي قبله أبلغ، وأسأغهما حضور النعم في الحسّ خارجاً وفي لفظ الآي، ويجوز أن يُراد: فاذكروني أثيبكم؛ وسمي الإثابة ذكراً للجوار. ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ نعمتي بعبادة قلوبكم ومع ألسنتكم وجوارحكم، وذكر النعم جلباً للعبادة ونفع خلق الله بها؛ وقدم الذكر لأنه اشتغال بالذات، والشكر اشتغال بالنعمة. ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولا تستروا شأني بترك الشكر كأني لم أنعم عليكم، وبالمعصية، والاشتغال بحفظ النفس وما لا يعني.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَتَبْلُوَنكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

الصبر على البلاء

دنوت مني شيراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن

أيتني تمشي أيتك هرولة» قال قتادة: «الله أقرب بالرحمة»

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ على الشُّكر والذِّكر وسائر العبادات، وترك المبالاة بعناد المعاندين، أو على نيل درجات الآخرة، والنقص من هول الموت وما بعده من القبر والحشر، وهول الدنيا. ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على البلاء ومشقة العبادة، وعن المعاصي وحفظ النفس. ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ خصَّها من سائر الطَّاعات لعظم شأنها، لأنَّها أفضل العبادات بعد التوحيد وأمَّها، ومعراج المؤمنين، ومناجاة الرَّبِّ، ولتكرُّرها، وهي الأصل الموجب لكمال التقرب. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالعون والنَّصر، وذلك تعليل جملي متعلِّق بالاستعانة بالصَّبْرِ لأنَّه المحتاج للتعليل.

وأما الصَّلَاة فحيث كانت أجلَّ المطالب، لم يفتقر الأمر بالاستعانة بها إلى التعليل، كذا قيل، مستأنساً له بقوله ﷺ: «جعلت قرّة عيني في الصَّلَاة»^(١). ويجوز أن يكون تعليلاً للاستعانة بهما على الحذف، أي إنَّ الله مع الصَّابرين والمصلين، قيل: أو للإستعانة بالصَّلَاة فهماً، وبالصَّبْرِ تصريحاً، فإنَّه إذا كان مع الصَّابرين فأولى أن يكون مع المصلين لاشتمالها على الصَّبْرِ، وفيه أنَّ الصبر أشدُّ وشاملٌ للصَّبْرِ على الصَّلَاة وغيرها.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ﴾ أي في شأن من يقتل، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الجهاد؛ ﴿ءَامَوَاتٌ﴾ أي هم أموات البتَّة كالجماذ؛ ﴿بَلَّ

١ - تقدّم تحريجه، انظر تفسير الآية رقم ٤٤ من هذه السورة.

أَحْيَاءٌ ﴿﴾ وهذا قطع عن القول وردُّ له، ولكن لا مانع من الوصل به، إلاَّ أنَّ المراد بالذات الردُّ له وتقديره: بل قولوا: «هم أحياء وأرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت»، وأما السعداء غير الشهداء فيجاء لأرواحهم بنعيم الجنة إلى باب الجنة، وقيل ينعم غير الشهيد في قبره بروائح وغيرها، ممَّا ليس طعاماً، ولا شراباً، كما أنَّ الشقي يصلُّ روحه في قبره أو في النار عذاباً، وتارة يرجع الروح للجسد فيجيء الجسد مسلماً أو كافراً، وذلك كما تعرض النار على أرواح آل فرعون قال عليه السلام: «أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، تردُّ أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل - أي صور قناديل - معلقة تحت العرش»^(١)، وعن ابن مسعود: «أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشياً إلى يوم القيامة».

فنقول: الأرواح أجسام لطيفة، وأجساد تلك الطير على صور الموتى، لو رآهم أحد لقال رأيت فلاناً؛ وقيل: أجساد أخر على صور الطير، ويدلُّ له رواية عنه عليه السلام: «في صور طير خضر» ولا ينافي ذلك رواية: «في أجواف طير»، ورواية: «في حواصل طير».

﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ما هم فيه من أنه تنعم أرواحهم في أجواف طير خضر على حدِّ ما مرَّ، تكون الطير لها كالموادج، وأرواح أهل النار تعذب في

١ - أورده الألويسي في تفسيره، ج ٢، ص ٢٠. وقال: أخرجه عبد الرزاق في مسنده من حديث عبد الله بن كعب بن مالك.

أجواف طير سود، تكون لها كالتأبوت في النار، وقد تحيي أجسام هؤلاء وهؤلاء.

(سبب النزول) ونزلت الآية لَمَّا قِيلَ فِي شَهْدَاءِ بَدْرٍ، وَهُمْ سِتَّةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ سَبْعَةٌ عَشْرٌ أَوْ سِتَّةٌ عَشْرٌ - بَيَّنَّتْ أَسْمَاعُهُمْ فِي شَرْحِ نَوَيْئَةِ الْمَدِيحِ (١) -: أَنَّهُمْ مَاتُوا وَذَهَبَتْ عَنْهُمْ النَّعْمُ وَاللَّدَاتُ، وَلِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ: قَتَلُوا فِي مَرَضَةِ مُحَمَّدٍ بِلَا فَائِدَةٍ.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ عطف على «استعينوا» أو على ما عطف على «استعينوا»، والمعنى لنصيبنكم إصابة كإصابة من تختبر حاله لتعلم أيبصر ويثبت على الطاعة أو لا؟ والله لا يخفي عليه شيء، فذلك استعارة تمثيلية، والخطاب للمؤمنين عموماً؛ وقيل: للصَّحابة؛ وقيل: لأهل مكة. ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل كما يفيد التَّكْرير، مع «مِنْ» التَّبَعِيضِيَّة، مع العرف في لفظ شيء، فإنَّ كُلَّ مَا أَصَابَهُمْ قَلِيلٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمَصَائِبِ الْعِظَامِ، وَهُمْ عَالِمُونَ بِأَنَّ مَا لَمْ يَصِبْهُمْ أَعْظَمُ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ لَمْ تَفَارِقْهُمْ، إِذْ هُمْ مُعَافُونَ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي فَوْقَ ذَلِكَ، وَأَيْضاً يَفْرَجُ اللَّهُ عَنْهُمْ وَيَعْوِضُهُمْ، وَبِالنَّسْبَةِ إِلَى مَا يَصِيبُ الْكُفَّارَ فِي الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ دَاعٍ لِلشُّكْرِ.

ومن نعمته أَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ بِمَا يَصِيبُهُمْ قَبْلَ وَقْعِهِ لِيُوطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ أَنَّ لَهُمْ عَلَيْهِ أَجْرٌ، فَيُخَفُّ بِمَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَوْ أَصِيبُوا بِمِثْلِهِ قَبْلَ الْإِحْبَارِ. ﴿مِنَ الْخَوْفِ﴾ خوف العدو، وقيل: خوف الله، وفيه أَنَّ

١ - يعني رحمه الله كتابه الهام في شرح نونية ابن الونان المغربي الفاسي المعروف بأبي الشمقمق في مديح رسول الله عليه السلام، وذكر سيرته.

خوف الله لا يسميه الله بلاء واختباراً، وهو أمر محمود لا يسمّى باسم ينفر ويثقل، وأمّا أن يعترض أنّه للحال فلا، لأنّ المضارع مع لام القسم للاستقبال، وإن صحّ الحال فالمراد ما يستقبلُ من ذلك. ﴿وَالْجُوعُ﴾ للقحط والغلاء والفقر، وفسّره بعض بنفس القحط إقامة للمسبّب مقام السبب؛ وقيل: للصّوم، وفيه ما مرّ من خوف الله بل دونه، لأنّه يقال: يتليكم الله بما يشقّ عليكم فتفعلونه، لكنّ التفسير بغير الظاهر بلا داع بدعة ولا تجوز. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بالهلاك للحيوان والنبات والشجر، أو بالسّرقة والكساد، وقيل: بالإنفاق نفلاً أو زكاةً، وفيه ما مرّ في خوف الله، وأيضاً في تسميتها نقصاً من الأموال تنفيراً، ولو صحّ أنّ ما يُعطى من المال نقص من عدده، وقد قال ﷺ: «ما نقص مال من صدقة» (١) أي لها، أي يخلفه الله عدداً أو كمالاً بالبركة، فيقوم الباقي مقام نفسه ومقام ما خرج وأكثر، مع ثواب الآخرة. ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ أنفس الأحبة، ومن يعزُّ على الرّجل هلاكه، وذلك بالقتل والموت والأمراض، وذهاب منافع البدن بذهاب قواه كالصّمم، والعمى والعرج، فذلك نقص من صحّة الأنفس. ﴿وَالشَّمْرَاتِ﴾ من الشّجر والنبات والحرت بالجوائح، من ريح وحر وبردٍ ونقص ماءٍ ونحو ذلك، وخصّصت مع أنّها من الأموال لأنّها قد

١ - رواه مسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب (١٩)، باب العفو والتواضع، رقم ٦٩. وأحمد في مسنده، ج ٣، ص ٣٣٤، رقم ٩٠١٨، مع زيادة في آخره، من حديث أبي هريرة.

لا تملك، كثمار الأرض التي لا يملكها أحد.

وقيل: الأولاد، لأنها ثمرة آبائهم وأُمَّهَاتِهِمْ، بأن يموتوا أو يصابوا في أبدانهم، ومن الثَّمَرَاتِ بمعنى الأولاد الحديث: «إذا مات ولد العبدِ قال الله للملائكة: أَقْبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أَقْبَضْتُمْ ثَمْرَةَ فؤادِهِ؟ فيقولون: نعم، فيقولُ اللهُ تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول اللهُ تعالى: ابنو لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيتَ الحمد»^(١) أي لأنَّ سببهُ الحمد، لكن ليس كلُّ ما جاء في الحديث يفسر القرآن به.

﴿وَبَشِّرِ﴾ بالصَّلوات من الله والرَّحمة، والخلف والثواب العظيم، ولا حاجة إلى تقدير بعضهم: «أنذرِ الجازعين»، لأنَّه معلوم بلا تقدير، ولا داعي إلى تقديره. ﴿الصَّابِرِينَ﴾ من المؤمنين لأنَّ صبر الكافرين لا ينفعُهُم في الآخرة، والخطاب للنبي ﷺ أو لكلِّ من يصلح للتبشير، وهكذا في مثل الآية بحسب الإمكان، ولو لم أذكره. ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ مآ، في بدنٍ أو عرضٍ أو مالٍ أو أهلٍ أو من يعزُّ عليه، ولو شوكة أو بعوضة أو ذبابة. طفئ مصباح رسول الله

١ - رواه الترمذي في الجنائز (٣٦)، باب فضل المصيبة... رقم ١٠٢١، من حديث أبي

ﷺ، فقال: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»، فقيل أمصيبة هي؟ قال: «نعم، كلُّ شيءٍ يُؤْذِي الْمُؤْمِنَ فَهُوَ لَهُ مُصِيبَةٌ»^(١).

﴿قَالُوا﴾ إذعانا واستسلاماً ورضى وتفويضاً بالقلب واللسان، أو بالقلب لا باللسان وحده. ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ خلقاً وعبوديةً ومُلْكاً، يفعل بنا ما يشاء إذ لا نملك شيئاً من أنفسنا مع الله، كيف نملك ذلك وقد أوجدنا من العدم؟! ولا نملك في العدم شيئاً. ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة فيثبنا، ولا نملك وجوداً ولا عدماً، وما أخذ فعارية مردودة للملكها، وما أبقى أكثر قال ﷺ: «مَنْ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ آجِرَهُ اللَّهُ فِيهَا وَأَخْلَفَ عَلَيْهِ خَيْرًا»^(٢).

وقد يسترجع الإنسان بلسانه فقط، إلا أنه غير ساحط، فوالله إن شاء الله لا يخلو من خير، ألا تراه رجع إلى ذكر الله؟ لا إلى قول سوء، بل لا يكون ذلك إلا وفي قلبه حضور ما، ولو لم يعلم به، وفي الحديث: «ما أعطي الاسترجاع لأحدٍ قبل أمّتي»، ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسَفَ﴾ ويُسنُّ أن يقال بعد الاسترجاع: «اللهم أجرني في مصيبي، واخلفني خيراً منها»^(٣)، قال ﷺ: «لا

١ - ذكره الألويسي في تفسيره، ج ٢، ص ٢٣، بدون ذكر السند.

٢ - هو جزء من الحديث الذي سيأتي تحريجه، عند قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

٣ - أورده ابن كثير في تفسيره عن أحمد، وفي صحيح مسلم ج ١، ص ١٩٨...

يقول أحد ذلك إلا أجره فيها وأخلفه خيراً منها»^(١)، قالته أم سلمة: لَمَّا مات أبو سلمة زوجها، فاحلفها الله رسول الله ﷺ. ﴿أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ مغفرة أو تزكية أو ثناء أو تعظيم، والجمع مناف لأن يراد بالصلوات الثناء أو التعظيم، إلا أن يقال: بمعنى ثناء بعد ثناء، وتعظيم بعد تعظيم، ولم يقل: صلاة لكثرة المغفرة والتزكية والثناء وأنواعهنَّ.

(نحو) أو أراد صلاة بعد صلاة لكن المعروف بالتكرير المفردات نحو زيد يأكل مرةً مرةً والتثنية كقوله كرّتين، وقولنا لئبك.

﴿مَنْ رَبَّهُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ نعمة عظيمة أفراداً وأنواعاً، روي «نعم العبدان للصّابرين: الصّلوات والرّحمة»^(٢). ﴿وَأَوْلَيْكَ هُمْ، الْمُهْتَدُونَ﴾ إلى الصّواب والحقّ إذ استرجعوا رضّى بقضاء الله عزّ وجلّ، قال ﷺ: «مَنْ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمِصْيَةِ جَبَرَ اللَّهُ مُصِيبَتَهُ، وَأَحْسَنَ عِقْبَاهُ وَجَعَلَ لَهُ خَلْفًا صَالِحًا يَرْضَاهُ»^(٣) وذلك أولى من تقدير: المهتدون إلى الفوز بالمطالب.

١ - رواه مسلم في الجنائز (٢)، باب ما يقال عند المصيبة، رقم ٤.

ورواه الطبراني في الكبير، ج ٢٣، ص ٢٦٢، رقم ٥٥٠، من حديث أم سلمة.

٢ - أورده الشيخ إسماعيل الجيطالي في القناطر أثراً عن عمر رضي الله عنه، ج ٣، ص ٢٧٦.

وأورده الألبوسي كذلك في تفسيره، ج ٢، ص ٢٣.

٣ - رواه الطبراني في الكبير، ج ١٢، ص ١٩٨، رقم ١٣٠٢٧، من حديث ابن عباس.

﴿إِنَّ الصَّفَاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أُوِّعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيْتِ وَالْهُدْيِ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْنَا قَوْلَ لِيْلِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

حكم السعي بين الصفا والمروة وجزءا كتمان آيات الله

﴿إِنَّ الصَّفَاَ وَالْمَرْوَةَ﴾ عِلْمَانِ بِالْغَلْبَةِ عَلَى جَبَلَيْنِ بِمَكَّةَ.

(لغة) فَإِنَّ الصَّفَاَ جَمْعُ صَفَاةٍ فِي الْأَصْلِ وَهِيَ

الصَّخْرَةُ الصَّلْبَةُ الْمَلْسَاءُ، أَوْ الْحَجَرُ الَّذِي لَا يَخَالِطُهُ طِينٌ، أَوْ تَرَابٌ مَتَحَجَّرًا، وَضَعْفٌ، مَا خُودٌ مِنَ الصَّفْوَةِ وَهِيَ الْخُلُوصُ، وَالْمَرْوَةُ فِي الْأَصْلِ الْحَجَرُ اللَّيِّنُ أَوْ الْأَبْيَضُ الْبَرَّاقُ، أَوْ الْأَسْوَدُ الْبَرَّاقُ، أَوْ الْمَحْدَدَةُ الْأَطْرَافِ، أَوْ الصَّلْبَةُ.

(قصص) قِيلَ سُمِّيَ الصَّفَاَ لِقَوْفِ صَفِيَّ اللَّهِ عَادِمٍ

عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ، وَذُكِّرَ لِذَلِكَ، وَسُمِّيَتِ الْمَرْوَةُ لِقَوْفِ الْمَرْأَةِ عَلَيْهِ وَهِيَ حَوَاءٌ، وَأُنْثُ لِذَلِكَ، وَلَا يُقَالُ فِيهِ: إِنَّ مَادَّةَ الْمَرْوَةِ غَيْرُ مَادَّةِ الْمَرْأَةِ، لِأَنَّ

المراد بتأنيثه أنه قرن بالتاء، كما أن المراد بتذكير الصفا أنه لم يقرن بها.

﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي علاماته أي علامات دينه، أو المواضع التي يقام فيها دينه، وهي مواضع الحج، كالمطاف وعرفة والمزدلفة ومنى أو من علاماته التي تعبد خلقه بها، فهما يسعى بينهما. ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ قصده ليقف بعرفة، ويبيت بالمزدلفة، ويرمي ويحلق ويطوف ويسعى. ﴿أَوْ اعْتَمَرَ﴾ زار البيت ليطوف ويسعى.

وأصل الحج القصد مطلقاً أو إلى معظم، والعمرة الزيارة أخذاً من العمارة والزائر يعمر المكان بزيارته. ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لا إثم وأصله الميل مطلقاً، سمي به الذنب لأنه ميل عن الحق. ﴿عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ﴾ في أن يتطوف. ﴿بِهِمَا﴾ بينهما، كما زعم المسلمون قبل نزول الآية أنه لا يجوز السعي بينهما لأنه كان فوق كل منهما صنم، يمسحون بأيديهم ويمسحون بهما وجوههم ويعظمونهما، فكرهوا أن يشبه سعيهم - ولو كانوا لا يمسحونهما ولا يعظمونهما - سعي المشركين المعظمين لهما المسحون.

أحدهما «إِسَافٌ» بكسر الهمزة والآخر «نَائِلَةٌ»، صنمين من أول، ورجح هذا، وقيل: كانا رجلاً وامراًة زنيا في الكعبة فمسحهما الله، وجعلهما الناس على الجبلين ليعتبر بهما، فطالت المدّة فعبدا من دون الله، ونسب هذا القول لأهل الكتاب؛ وقيل: واضعهما على الجبلين

عمرو بن لُحَي، وهو أوَّل من سنَّ عبادة الأصنام من عربِ مكَّة، والباء للإلصاق المجازي.

(فقهه) والطواف بهما واجب لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ فَاِسْعُوا»^(١)، وأمَّا قول عائشة رضي الله عنها: «لعمري ما أتمَّ الله تعالى حجَّ من لم يسع» فمعناه حجٌّ ناقصٌ لا باطل، فالطَّواف بهما واجب لا يبطل الحجُّ أو العمرة بتركه، كما روي أنَّ عروة بن مضرس أتى رسول الله ﷺ بالمزدلفة فقال: يا رسول الله، جئت من جبل طيِّئ ما تركت جبلاً إلاَّ وقفت عليه، فهل لي من حجٍّ؟ فقال: «مَنْ صَلَّى معنا هذه الصَّلَاة ووقفَ معنا هذا الموقفَ، وقد أدركَ عرفَةَ قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تمَّ حجُّه وقضى ثَقَّتَه»^(٢) فأخبره ﷺ بإدراك الحجِّ بلا ذكر للسَّعي بينهما، ولو كان واجباً يبطل الحجُّ بتركه لبيَّنه له، لأنَّه سائل جاهل، ولا حجَّة فيه لمن قال بأنَّه غير واجب لأحاديث الوجوب، وهذا مذهبنا ومذهب أبي حنيفة.

(فقهه) وإن لم يسع لزمته شاة، وقيل: بدنة،

١ - رواه الطبراني في الكبير، ج ١١، ص ١٤٧، رقم ١١٤٣٧، من حديث ابن عباس.
٢ - رواه البيهقي في الحج (٢٤٩)، باب إدراك الحج بإدراك عرفة...، رقم ٩٨١٤، من حديث الشعبي.

وقال مالك والشافعي: يبطل الحجُّ بتركه للحديث، وقال أحمد: سنة غير واجبة، ويردُّه الحديث؛ وأجيب بأنه يجوز كون «كُتِبَ» بمعنى استحَبَّ، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٨٠)، قلت: الوصية للوالدين كانت واجبة ثمَّ نسخت بالميراث، وكذا القرابة الوارثون، فلا يصحُّ تأويل «كُتِبَ» بـ«استحب»، ولا حجَّة أيضاً له في قراءة ابن مسعود: «أَنْ لَا يَطْوَفَ» لأنَّها شاذة مخالفة للجمهور لفظاً وعملاً، بل لم نر من عمل بها فيقرب تأويلها بزيادة «لا»، ولنا الحديث دليل للوجوب، ولا دليل للشافعي ومالك على أنَّه ركن يبطل الحجُّ بتركه، ولا يقال: تمَّ الكلام في جناح، واستأنف أن عليه التطوف، لأنَّه لا يتوهم أحد أنَّ في الحجِّ والعمرة جناحاً، إلا أن يقال: إنَّهم توهموا الجناح في الحجِّ والعمرة، لأنَّ فيهما الطواف بين محلي الصنمين.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ عالج الطاعة بفعل فرض أو سنة أو نفل من حجٍّ أو عمرة أو طواف أو صلاة أو صوم أو غير ذلك، وذلك أصل التطوُّع في اللغة، وأمَّا تخصيصه بالنفل فهو في عرف الإصطلاح، قيل: والشرع، وكأنَّه قيل: ومن فعل خيراً أو زاد خيراً أو تطوَّع بخير، وليس المراد: من تطوَّع بالطواف بينهما كما قيل، لأحاديث وجوبه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي يثيبه ثواباً عظيماً، أو مُثْنٍ عليه عند الملائكة، لأنَّ الله شاكر، أو هذه علَّة وبرهان عظيم، أو من تطوَّع خيراً فإنَّ الله شاكره أي مثيبه، أو مُثْنٍ عليه في مألٍ خير من ملئته، وفي التعبير بشكره تعالى له من الإثابة أو الإثناء مبالغة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بتطوُّعه وبكلِّ شيء، أو بكلِّ شيء، فيكون برهاناً للعلم بتطوُّعه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من اليهود والنصارى بالمحو، أو بتبديل غيره به، أو بتفسيره بغير معناه، أو إخفاء لفظه أو محله عن الناس؛ والكتم ترك إظهار الشيء قصداً مع مسيس الحاجة إليه، وذلك بمجرد إخفائه أو بإزالته ووضع شيء آخر موضعه، واليهود لعنهم الله مرتكبون للأمرين. ﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآيات الدالات على الرجم، ونعوت رسول الله ﷺ، سَمَاهُنَّ آيَاتٌ لَأَنَّهُنَّ دَلَالٌ وَسَمَاهُنَّ هُدًى لَأَنَّهُ يُوَصِّلُ بِهِنَّ إِلَى الْمَقْصُودِ.

وقيل الهدى الدلائل العقلية كقوله تعالى: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ولا ياباه الإنزال والكتم، لأنَّ العطف حينئذٍ على «ما»، لا على «البيِّنات»، ولا مانع من أن تظهر الحجَّة العقلية لإنسان ويكتمها، إلاَّ أنه خلاف المتبادر. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ الكاتمين وغيرهم، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل، وقيل: التوراة وغيرها ملحق بها وهو أولى، لأنَّ سبب النزول اليهود، وقيل: القرءان، وعليه فالناس أمة محمد

﴿بَيْنَاهُمْ﴾: أوضحناه فيه، بحيث يكون متبییناً لكل من رآه أو سمعه، والمشهورون بالكتمان اليهود وهم سبب النزول.

(سبب النزول) سأل معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد نفرا من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة فكتموا، فنزلت، وقيل: نزلت في الكائمين من اليهود والنصارى، إلا أن خصوص السبب لا يدفع عموم الحكم.

(فقهه) فالآية تعم من كتم من أهل التوحيد ما لا يجوز له كتمه من أمر الدين، قال أبو هريرة: «لولا هذه الآية ما حدثتُ أحداً بشيء» وعنه رضي الله عنه: «من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة مُلجماً بلجام من نار»^(١)، وذلك شامل للنساء، لا يحلُّ لهنَّ الكتم ولا يعذر المستول بل يكفر، إلا إن علم أنه إن لم يجب سئل غيره، وأجاب.

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يعدهم عن رحمته ويذيقهم العذاب. مقتضى الظاهر أولئك نلعنهم ويلعنهم اللاعنون — بالنون — إلا أنه بالياء - ولفظ الجلالة تفخيماً للحكم، يعدهم الله عن رحمته أو يذمهم للملائكة وفي اللوح المحفوظ.

١ - رواه أحمد في مسنده، ج ٣، ص ١٥٣، رقم ٧٩٤٨، من حديث أبي هريرة.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي يتلفظون بلعنهم، كلُّ وكلامه حتى الجمادات، وقد علم الله تسييحها، أو يدعون بإبعادهم عن الرحمة، وتلعنهم أجسامهم وأجسام غيرهم من الكفرة والمسلمين؛ وقيل: الملائكة والثقلان؛ وقال ابن عباس: غير الثقلين؛ وقال عطاء: الثقلان؛ وقال مجاهد: البهائم حتى العقارب والخنافس، إذا أقحطت بذنوب بني آدم، فجمع السلامة للمذكر تنزيل لها منزلة العاقل إذا دعت، أو تعدُّ من العقلاء إذ ذلك.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، وكتب ما محوا وإزالة ما زادوا أو بدلوا، وإرشاد من أضلوا، وضمان ما أفسدوا من الأموال بذلك أو أكلوه بلا حل؛ ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما لعنوا بكتمانه، وهكذا التوبة إصلاح ما فسد بالمعصية ومضادتها، وبيَّنوا توبتهم لمن علم بكتمانهم ليقندي بهم في الإعلام والتوبة ويُعلموا بتوبتهم، وهكذا كلُّ من عصا الله أعلم بتوبته من علم بمعصيته إقامة لشعار الإسلام وحوطة عن جانبه. ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ مرَّ ذلك (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالكتم أو غيره، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ المؤمنين، أو النَّاسِ مطلقاً، فَإِنَّ أجساد الكفرة تلعنهم وتلعن أصحابها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة فهم خالدون في مقتضاها وهو النار، أو خالدون في النار المدلول عليها باللعنة، ذكر اللعنة أولاً للكاتبين وثانياً لمطلق الكافرين، أو ذكرها أولاً بمعنى حصولها بالفعل لهم، وثانياً بمعنى أنهم مستحقون لها، أو بمعنى أنهم يلعن بعضهم بعضاً في الآخرة، أو بمعنى دوامه من حيث أنه بالجملة الاسميَّة، وثبوت اللعن في الآخرة فرع على ثبوته في الدُّنيا، أو لعنهم أولاً على الكتم واستثنى من تاب، ولعن ثانياً من لم يتب تصريحاً بما يفهمه الاستثناء، وما ذكرته أولاً أولى وفيه إشارة إلى أَنَّ الكتم كفرٌ. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ طرفة عين بالإنقطاع ولا بالنقص منه مع الاستمرار. والجملة خبر ثانٍ أو حال من ضمير «خالدِينَ»، أو هاء «عليهم»، أو مستأنفة. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون عن العذاب كما أمهلوا في الدُّنيا، من الإنظار، أو لا يؤخِّرون ليعتذروا من النظر بمعنى الانتظار، أو لا يرحمون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (سورة آل عمران: ٧٧). بمعنى الرُّؤية الرحميَّة، ففي الأساس أنه بمعنى الرِّحمة يتعدى بإلى وبنفسه

﴿وَالِهٰكُمُ الْاِلٰهَ وَاحِدٌ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ ﴿١٦٣﴾ اِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ
وَالْاَرْضِ وَاخْتِلَافِ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بَيِّنٰتٍ لِّلنَّاسِ وَمَا
اَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ مَّآءٍ فَاَنْجَبَ بِهٖ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيِّنَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالْاَرْضِ لآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ ﴿١٦٤﴾﴾

وحدانية الإله ورحمته ومظاهر قدرته

﴿وَالِهٰكُمُ﴾ معشر الخلق، الأجسام والأعراض، العقلاء وغيرهم، الحيوان والجماد، بتغليب العقلاء، ويختصُّ بهم ما يناسبهم بعد، ويتحدّد لهم معرفته (١) أنه لغيرهم أيضاً، وقيل الخطاب للعقلاء، وقيل لقريش القائلين: صِفْ لَنَا رَبِّكَ يَا مُحَمَّد، ويلتحق بهم غيرهم، وزعم بعض أنه للكافرين. ﴿اِلٰهَ وَاحِدٌ﴾ أي إِنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ مِنْكُمْ اِلٰهَ وَاحِدٌ فِيْ ذَاتِهِ لَا يَتَجَزَّأُ، وَفِي صِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَفِي الْوَهِيَّتِهِ، وَقِيلَ: الْوَحْدَةُ هُنَا عَدَمُ التَّجْزِئِ. وَالْأَوَّلَى أَنْ الْمَعْنَى: لَا نَظِيرَ لَهُ، فَيَدْخُلُ مَا ذَكَرَ وَعَدَمُ التَّجْزِئِ.

(سبب النزول) قيل: سألت اليهود وقريش رسول

الله ﷺ أن يصف لهم ربهم فنزلت سورة الإخلاص وقوله تعالى: ﴿وَالِهٰكُمُ اِلٰهَ وَاحِدٌ﴾.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الجملة خبر ثان أو نعت ثان لإله، والمنفي الآلهة الحقّة، أي لم يوجد إله بحق إلا الله، أو الآلهة الباطلة، أي ليست موجودة من حيث الألوهية، ولو ادّعاها عابدها، و«الرحمن الرحيم» خبر إنَّ لإلهمكم، وقيل: الرحمن بدل هو، والرحيم نعت الرحمن، وقيل: بدلان من هو، وقيل: خبر محذوف.

(سبب النزول) وروي أنّ حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، ولمّا نزل ﴿وَاللَّهُكُمْ، إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قالوا متعجبين: إيتِ بآية على ذلك، فنزل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ...﴾ إلخ، وهم غير القائلين: «لا شريك لك، إلا إلهاً تملكه وما ملك». هو الخالق وما سواه منعم عليه، ونعمة مشكورة أو مكفورة بالعصيان أو الشرك، وطلبوا آية على ذلك، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ﴾ إيجاد ﴿السَّمَوَاتِ﴾ السَّبْع من حيث ارتفاعها بلا عمد ولا علاقة، ونيراتها؛ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي جنسها، فصدق بسبع في قوله تعالى: ﴿ومن الأرضِ مثلهنَّ﴾ وفي قوله: ﴿من اقتطع قيد

شبر من أرض جاره طَوْقَه من سبع أرضين» (١) وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ» (٢) من حيث مَدَّهَا وكونها على الماء، ومن حيث شجرها وجبالها وبحارها ومعادننا وجواهرها، وعيونها وثمارها وحيواناتها وأفرادها، لأنها متَّفِقة بالحقيقة وهي التُّراب، بخلاف السَّمَوَاتِ فالأولى من زبد الماء متجمِّداً، والثانية من رُخامٍ أبيض، والثالثة من حديد، والرابعة من نُحاسٍ، والخامسة من فضَّةٍ، والسادسة من ذهبٍ، والسابعة من ياقوتٍ أحمر؛ وقيل الأولى زبد جامد، والثانية من نُحاسٍ، والثالثة من فضَّةٍ، والرابعة من ذهبٍ، والخامسة من ياقوتٍ، والسادسة من زمرد، والسابعة من نور العرش، بين كلِّ سماءٍ وأخرى، وأرضٍ وأخرى، والأرض والسماء، [مسيرة] خمسمائة عامٍ كغَلظ كلِّ - كذا قيل -.

١ - رواه البيهقي في كتاب الغصب (٦)، باب التشديد في غصب الأراضي وتضمينها بالغصب، رقم ١١٥٣٢، من حديث سعيد بن زيد.

ورواه أحمد في مسنده، ج ٣، ص ٤٢٦، رقم ٩٥٨٨، من حديث أبي هريرة دون ذكر لفظة "جاره".

٢ - رواه الطبراني في الكبير، ج ٨، ص ٣٤، رقم ٧٢٩٩، من حديث عطاء بن أبي مروان عن أبيه.

ورواه البيهقي في الحج (٣٥٣)، باب ما يقول إذا رأى قرية يريد دخولها، رقم ١٠٣٢٠، مع زيادة

﴿وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من الإفتعال بمعنى التفاعل يتخالفان طولاً وقصراً إلا وقت الاعتدال، وزيادة ونقصاً، وذهاباً ومجيئاً، وظلمة ونوراً، وسكوناً للجوارح والأبصار، وراحة وانتشاراً لها، واختلافاً للأوقات، فكلُّ ساعة مغرب في موضع، وعِشاء في آخر، وثلاث ليلٍ في آخر، ونصفه في آخر، وسدس في آخر، وسحر في آخر، وتوسُّط في آخر، وزوال في آخر، ووسط الوقتين في آخر، وعصرٌ في آخر، واصفرارٌ في آخر، وغروبٌ في آخر، وما بين ذلك كله أيضاً متخالف، ولا تزول ولو لحظة تغرب عن موضع وتطلع في آخر من خلفها وقدامها.

وأينما كانت الشمس عند غروبها في موضع وطلوعها في آخر يكون وراءها مثل الفجر الكاذب شفقاً أبيض، وقدَّامها مثله، وكلُّ بلدٍ يكون عرضه للشَّمال أكثر من طوله يكون أيَّام صيفه أقصر من أيَّام شتائه.

والظلمة سابقة على الضوء، فقدم الليل لذلك، فالنَّهار لليلة قبله وهو الصَّحيح، وقيل بالعكس، واستثنى بعضهم يوم عرفة على الأوَّل وجعله لليلة بعده ولا يصحُّ ذلك، وإنَّما نتَّبِع الحكم الشرعي وليس رجوعاً لتقدُّم اليوم على الليلة^(١). ﴿وَالْفُلُوكِ﴾ جماعة بدليل قوله:

١ - في النسخة (ج): لتقدّم اليوم والليلة. فتأمَّل.

﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ فدلَّ على الجماعة، بضمَّ الفاء وإسكان اللام مع الحروف بخلاف الفلك المفرد فإنه لا دلالة لضمِّه وسكونه على معنى، أو سُكِّنت اللام عن ضمِّ الجمع تخفيفاً.

والمعنى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ إلخ، وفي الفلكِ فالعطف على «خَلَقِ»، أو ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ...﴾ إلخ، وفي خلقِ الفلكِ فالعطف على «السَّمَوَاتِ»، وقد يجوز عطفه على اللَّيْلِ أي: واختلافِ الفلكِ ذهاباً ورُجوعاً.

وعلى كلِّ حال إنَّ في ذاتها وإيجادها من حيث أنَّها لا تنزل إلى أسفل الماء مجردة، أو محمولاً فيها ما خفَّ، أو ما ثقل، وجريانها على وجه الماء بالريِّح مقبلة ومدبرة مع قوَّة الماء وهيجانته؛ ﴿بِمَا﴾ أي بالذي، ﴿يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من التَّجَارَةِ وسائر ما يُحْمَلُ فيها، قيل برد الضمير لـ«ما» على أنَّها موصولة اسمية، أو بنفعه النَّاسَ على أنَّ «ما» مصدرية برد الضمير للجري، أو للبحر، والرَّدُّ للجري أولى، لأنَّ النَّفْعَ بالجري بالذَّات بخلاف البحر فبواسطة الجري ولو كان الجري بواسطة البحر. وقيل يجوز تذكير الفلك وتأنيشه مفرداً أو جماعة، فيجوز رُدُّ الضمير للفلك، وقد قيل: إنَّه مفرد أنثى بتأويل السَّفينة أولاً، وذكر ثانياً على أصله.

وفي البحر أيضاً عجائب حيتان ولؤلؤ ومرجان وياقوت، والسَّفينة آلة الخوض فيها والإطِّلاع على ذلك، ولكن لا تحمل الآية على

الإشارة لذلك لما فيه من التكلف، ولو كانت الفلك سبباً. ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ أي وفي خلق ما أنزله من السحاب، أو في ما أنزله من السحاب سماءً أو من السماء إحدى السبع يصل بسرعة، أو أريد بالسماء جهة العلوّ فيشمل الوجهين والماء تارة من السماء، أو من الجنة ينزل في أقرب مدّة كسرعة الملك في النزول، وتارة من البحر والعيون بخاراً، أو هو الأكثر، وتارة بتقلّب أجزاء الهواء الصغار الهبائية ماء بسبب، وأخره مع أنّه أفضل قيل لفضله الزائد، أو لجمعه العلوّ والسفل إذ منه ما من السماء وما من البحر، كما أنّ اختلاف الليل والنهار فيه ذلك، لأنّ الضوء والظلمة في الأرض والجوّ والفلك بالماء والريّح.

﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات أظهر بهجتها وزيادة منها، إظهاراً شبيهاً بإحياء ما مات، ويادخال الرّوح فيما ليس حيّاً قط، بجامع الحسن والزيادة، وهي قبل النبات جماد وكميت بعد حياة كما قال: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي عدم النبات فيها أو زواله عنها، وذلك أنّ الماء سبب للحياة في الحيوانات وسبب للنبات والثمار، وينزل عند الحاجة وبالذّعاء والإستسقاء، وفي مكان دون مكان، وهو لكلّ سنة مقدار مخصوص، ويكون في بعض بلاد دون بعض.

﴿وَبَثَّ﴾ به أي فرّق، أي بما أنزل من السماء من ماء.

وفيه حذف رابط الصلّة المجرور بدون

(نحو)

جرُّ الموصول. مثله، ودون تعلُّقه. بما تعلَّق به جار الموصول لو جرُّ، فأقول: يجوز حذف الرِّابط بلا شرط إذا علم، وذلك أن «بثَّ» معطوف على الصَّلَة أو على ما عطف عليها ولا يضرُّ فصله لأنَّه سببيٌّ وكأنَّه صلة، وهذا أولى من أن يُقال: بثَّ أي بثَّ به.

﴿فِيهَا﴾ دوابٌّ، ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي من كلِّ نوعٍ من الدَّوابِّ توجد بالماء خلقاً، وينمو الموجود منها بالتوالد، مع اختلافها خرساً ونطقاً وصوتاً ولوناً ووحشاً وأنساً ونفعاً وضرراً وطبعاً، وغير ذلك كطول حياة وقصرها، وطول ذات وقصرها، ورقَّة وغلظة؛ وفي السماء دوابٌّ أيضاً. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ تقليبها جنوباً وشمالاً، وقبولاً ودبوراً، حارة وباردة، وليِّنة وعاصفة، وعقيماً ولاقحاً للمطر والشَّجر.

وكان ﴿وَإِذَا هَبَّتْ الرِّيحُ﴾ إذا هبَّت الرِّيحُ قال: «اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً لا ريحاً» (١) لأنَّ مفردھا في القرآن سوء كقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (سورة الذاريات: ٤١) وجمعها في خير كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ (سورة الروم: ٤٦) ويقال: سميت ريحاً لأنَّها تريح النفوس ويأؤه عن او، ويقال: ما هبَّت إلا لشفاء سقيم أو سقم صحيح، ويقال: البشارة في الصِّبَا والشَّمَال والجنوب، وأمَّا الدُّبُورُ فعقيمة لا بشارة فيها.

١ - ذكره الألويسي في تفسيره، ج ٢، ص ٣٢، بدون إسناد.

(لغة) وسميت الصِّبَا قبولاً لاستقبالها وجه الكعبة، وهي حارة يابسة، ويسمِّيها أهل مصر «الشَّرْقِيَّة» لأنها تهبُّ من الشَّرْق؛ ويقال: المِبْشَّرَات والنَّاشِرَات والذَّارِيَات والمرسلات والرُّخَاء للرَّحْمَةِ، والعَقِيم والصَّرْصِر والعاصف والقاصف في البحر للعذاب؛ والصبا من مطلع الشمس في الاعتدال، والذُّبُور تقابلها، والشَّمَال من جانب القطب، والجنوب تقابلها، وطبع الذُّبُور البرد والرُّطُوبَةُ، يسمِّيها أهل مصر الغرْبِيَّة، لأنَّ مهبَّها الغرب وتأتي من دُبُر الكعبة، وطبع الشَّمَال البرد واليبس، وتسمَّى البحريَّة لأنَّه يسار بها في البحر على كلِّ حال، وقلَّما تهبُّ ليلاً، وطبع الجنوب الحرارة وتُسمَّى القبليَّة لأنَّ مهبَّها من مقابلة القطب، وهي عن يمين مستقبل المشرق، ويقال: إذا هبَّت على أهل مصر سبع ليال استعدُّوا للأكفان، ولو أمسكت الرِّيح طرفة عينٍ لمات كلُّ ذي روح وانتن ما على الأرض.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المذللُ، ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بلا عمد ولا علاقة مع ما فيه من المياه الثقيلة العظيمة التي تملأ منها الأودية والأراضي، سُمِّي لانسحابه وانجراره ويسير بواسطة الرِّيح، وبين متعلِّق بـ«مسخر» أو حال من المستتر فيه. ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل على وجود الله وقدرته، وكونه لا كالأشياء. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم فيدركون بها الحقَّ ولا يهملونها.

(أصول الدين) روى ابن أبي الدنيا

وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(١)، وتلك الأمور من الجائر، قابلة لعكس ما هي عليه كله من حركة أو سكون وبسط وكورية وغير ذلك، ومثلها لا يفعلها ولا تفعل نفسها، فالفاعل هو غيرها وغير مثلها، والفعل لا يكون من فاعلين، والمصطلحان عاجزان، وإن كان لأحدهما فغير الفاعل ليس إلهاً.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

حال المشركين مع آلهتهم

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ أمثالا لله مقاومة له في زعمهم، وهي الأصنام، أو أصناماً أمثالا بعضها يماثل بعضاً، أو رؤساء من الناس يتبعونهم، وهو ضعيف، لأنَّ المقام

١ - وأورده الألويسي كذلك في تفسيره، ج ٢، ص ٣٣، بنفس الإسناد.

للاستدلال على انتفاء ألوهية الأصنام الدائرة بالكعبة وغير الدائرة بها، ولأنه لم يعهد تعظيم رؤسائهم حباً وطاعةً؛ وأما ضمير العقلاء في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ وهو هم، فلتنزيلهم الأصنام منزلة العقلاء في السَّمْع والفهم والنَّفْع والضَّرِّ، ولأنَّ رؤسائهم يتخذون الأنداد، فهم ممَّن خوطب باتخاذ الأنداد، أو ما يعمُّ الأصنام والرؤساء وغيرهم من كلِّ ما يشغل عن الله عزَّ وجلَّ. ﴿كَحَبِّ اللَّهِ﴾ كحُبِّهم الله، أو كحَبِّ النَّاسِ مطلقاً الله خضوعاً وتعظيماً، ولو تفاوت الحَبَّان، لأنَّهم عقلاء يعلمون أنَّ الخالق للسمَّوات والأرض وغيرهن الله، وقد قال: ﴿وظنُّوا أَنَّهُمْ، أَحِيطَ بِهِمْ دَعْوَاً اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (سورة يونس: ٢٢)، وأنَّ الأصنام وسائل ولا تُعبَد، تسويتهم لفرط حمقهم. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (سورة العنكبوت: ٦١)، ﴿فَإِذَا رَكِيباً فِي الْفُلْكِ دَعْوَاً اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٥).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من المشركين لأندادهم، فإنَّهم لا يعدلون بالله شيئاً في الرِّخاء والشَّدَّة، والمشركون يَعدِّلون عن الأنداد إلى الله في الشَّدَّة كما مرَّ آنفاً، ويرفضون صنماً إلى غيره ويأكلونه، كما أكلت باهلة وهي قبيلة من قيس غيلان إلهها من حيس - تمر يخلط بِسَمْنٍ وإِقط - وكما عبَدَ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قبل إسلامه عجينة فأكلها.

وللمشركين حبٌّ شديدٌ للأنداد، لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا أخبرنا أنَّ شدةَّ حبِّ المؤمنين اللهَ سبحانه فوق شدةَّ حبِّ المشركين الأنداد، لأنَّ محبةَ المؤمنين اللهَ تزداد بازدياد إدراكهم الكمال، وهي ميلهم إليه توقيراً بامتثال وازدجار، لنعمه وخوف عقابه، فالحبُّ متعلِّقٌ بطاعته وتعظيمه، وزعم بعضُ أنَّهُ يجوز تعلُّقه بذاته تعالى من حيث أنَّه الكامل المطلق؛ وحبُّهم اللهَ أرسخ لا يميلون عنه، والمشرك المبالغ في عبادة صنم يميل عنه لشدة تناله ولو اشتدَّ في نفس العبادة أكثر من المؤمن. والحبُّ بالضمِّ من الحبة بالفتح كالثمرة والعنبة استعير لحبة القلب وهي دمه الأسود، يتعلَّق به الرُّوح الحيواني بعد تعلُّقه بالبخار اللطيف الذي يحدث ويتصاعد من ثمِّ بواسطتها يسري إلى سائر البدن، فسويداء القلب في كونها منشأ للحياة والآثار كالحبِّ في كونه مبدأ للنماء والإثمار، واللهُ عزَّ وجلَّ يحبُّ عبده المؤمن بمعنى أنَّه أراد له الخير وأنَّه يوفِّقه.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ رأيت بعينيك يا محمد، أو من يصلح للرؤية. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ الأنداد، أو مطلق الظالمين بالكفر. ﴿إِذْ﴾ أي إذا بدليل المضارع بعدها لأنَّه للاستقبال أو للحال المستقبلية، وهو متعلِّق بـ«تَرَى». ﴿يَرَوْنَ﴾ يشاهدون، ﴿الْعَذَابِ﴾ على ظلمهم لرأيت أمراً فظيماً خارجاً عن الوصف لك.

ويجوز إبقاء ترى على الاستقبال تحقيماً، و«إذ» للماضي تأويلاً بتحقيق الوقوع، أي ولو ترى يوم القيامة عذابهم لترى أمراً فظيماً، لكن لا تراهم لأنهم في النار وأنت في الجنة، أو: لو ترى الآن لترى... إلخ، لكن لا ترى العذاب في قبورهم في برزخ موتهم، وعلل قوله: لرأيت أو لترى بقوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بفتح الهمزة، أي لأنَّ القوَّة، أو يقدر: «لعلمت أنَّ القوَّة...» إلخ، أي لازداد عملك، أو المصدر من خير أنَّ بدل اشتغال من العذاب، لأنَّ ثبوت القوَّة كلها لله عزَّ وجلَّ تشمل قوته في العذاب، فيقدر على هذا «لرأيت»، أو «لترى» بعد قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لرأيت أو لترى، أي علمت أو تعلم ثبوت القوَّة كلها وشدة العذاب لله، والمراد ازدياد العلم أو علم المشاهدة.

﴿إِذْ﴾ بدل من «إذ» باعتبار مدخولها، أو متعلق بـ«شديد» أو مفعول لـ«أذكر». ﴿تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ إدعى الرؤساء المتبوعون براءة ذمتهم. ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ من ذنوب التابعين لهم، بأن قالوا: ما أضللناكم، أو ما قهرناكم على الضلال، بل اخترتموه، ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (سورة القصص: ٦٣)، ﴿وَرَأَوْا﴾ عطف على تبرأ أو حال، أي والحال أنهم قد رأوا، ﴿الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ﴾ زالت زوالاً شديداً. ﴿بِهِمْ﴾ عنهم، أو بسبب كفرهم، أو الباء للتعدية أي قطعهم كما يقال: تمزقت بهم الطرق، أي فرقتمهم. ﴿الْأَسْبَابُ﴾

الأمور التي يتوصلون بها إلى مرادهم، من دين الباطل وسائر الأغراض، كما يتوصل بالحبال، من القرابة والمودّة والجوار والأموال فليسوا ينجون بها يوم القيامة ولو نفعتهم في الدنيا.

(لغة) والسبب الحبل مطلقاً، أو الذي يُتوصل به إلى الماء، أو الذي تعلق بالسقف، أو الذي ترتقي به النخلة فهو استعارة أصلية تحقيقية تصرّحية والقرينة حالية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ قال التابعون، هؤلاء الرؤساء. ﴿لَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لَنَا﴾ معشر التابعين والمتبوعين ﴿كِرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا، ﴿فَنَتَبَّراً مِنْهُمْ﴾ من هؤلاء الرؤساء في الدنيا إذا رجعنا إليها نحن وهم، فلا نتابعهم على الكفر إذا دعونا إليه، فعدم المتابعة بعد الرجوع هو تبرؤهم منهم؛ أو نتبرأ من دينهم إذا رجعنا إلى الآخرة مسلمين بعد الرجوع إلى الدنيا، ورجعوا إليها كافرين؛ أو لو أنّ لنا رجعة إلى الدنيا فنسلم ونرجع إلى الآخرة، وهم باقون فيها لم يرجعوا فنتبرأ من دينهم. و«لو» للتمني، ونُصب «نتبرأ» في جوابه. ولا يلزم من التشبيه أن يكون تبرؤ التابعين من جنس تبرؤ المتبوعين فقد تخالفاً، إذ تبرؤ المتبوعين بقولهم: لم نقهركم على الضلال، وتبرؤ التابعين بقولهم: لسنا على دينكم، لو رجعوا إلى الدنيا وأصلحوا. ويجوز أن يكون المتبوعون الأصنام، إذ عظّموهم وجعلوهم كالعقلاء، فتقول في الآخرة: ﴿مَا كُنْتُمْ، إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾، ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا

يَعْبُدُونَ ﴿سورة القصص: ٦٣﴾. ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ كما تبرأ هؤلاء الرؤساء المتبوعون منّا معشر التابعين، بأن قالوا: إننا بريئون من ذنوبكم، ما أضللناكم، أو ما قهرناكم على الضلال بل احترمتوه، وذلك مجازاة لهم إذ غاظهم تبرؤ الرؤساء المتبوعين، فأرادوا أن يغيظوهم بالتبرؤ بأن يرجعوا إلى الدنيا ويسلموا فيقولوا: لسنا على دينكم، ويبقى الرؤساء المتبوعون على الكفر، وذلك إغاظة في الدنيا أو يوم القيامة، إذا رجعوا إلى الآخرة من الدنيا التي رجعوا إليها.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ما ذكر من رؤية العذاب، ومن تبرؤ المتبوعين من التابعين، وذلك أنه يجوز أن يقال: قمت كما قعدت، أي فعلت القيام كما فعلت القعود، فلا يضر أن التبرؤ لم تسلط عليه الرؤية، بل لا مانع من أن يقال: المراد مثل إراءة العذاب وشدته وتبرؤهم لأن ذلك كله يروونه ولو لم يذكر رؤية كل ذلك في الآية، فيكون التذكير بتأويل ما ذكر، أو يشار إلى الإراء - بهمزتين بينهما ألف بوزن "إكرام" بلا تاء - أو إلى إراء ما ذكر بالإضافة تنزيلاً للهمزة قبل الألف - وهي عين الكلمة - منزلة حرف العلة، فيكون من باب إقامة لكن بلا تاء لأننا قدرناه مضافاً، فهو مذكر كقوله: تعالى، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والمعنى على كل حال كما أراهم ذلك. ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ﴾ يعلمهم، أو يجعلهم رائيين بأبصارهم باعتبار الأثر. ﴿أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ موجبات ندمات في حزنٍ وتلهفٍ،

فالحسرة أخصُّ من الندم، وقيل مترادفان. ﴿عَلَيْهِمْ﴾، متعلق بحسرات أو نعته، لأنَّ المعنى: مضرَّات عليهم أو المراد حسرات على خبثهم إفراطاً وتفريطاً. ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ولو وجدوا لخرجوا بأنفسهم ولو بلا إخراج، بخلاف أهل الجنة فإنهم لا يخرجون منها إلاَّ بإخراج مخرج لو كان، لكن لا خروج ولا إخراج.

والجملة الاسميَّة والباء للمبالغة في الخلود وليس في ذلك حصر، وإذا قيل به في مثل ذلك فمن دليل خارج، فليس المعنى هم فقط لا يخرجون وأمَّا الفساق فيخرجون فلا دليل فيه على عدم خلوده، وليس في ذلك صيغة حصر، وأيضاً ليس المقام مقام حصر الخلود في المشرك حصر قلب أو تعيين أو إفراط؛ والمراد: نفي أصل الخروج، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ (سورة المائدة: ٣٧).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مَقَامًا فِي الْأَرْضِ حَلَّالًا طَيِّبًا وَلَا يَسْتَعْوِجُ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكَرِيمٌ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَيَقُولُنَّ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّبْءِ يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِذْ دَعَا وَنِدَاءٌ صُمُّكُمْ عَمَىٰ فَهَمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧١﴾﴾

تحليل الطيبات، ومنشأ تحريم المحرمات

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا﴾ غير محرّم، كمغصوب ومسروق، وربّاً وخمر وميتة وما أخذ في قمار أو زنى أو كهانة أو في معصية ونحو ذلك من المحرمات. ﴿طَيْبًا﴾ نعت مؤكّد لأنّ الحلال هو الطيب، وأفاد أنّ الشّرّع استطاب الحلال فأمروا بأكل الطيب، وهو الحلال مستلذاً أو غير مستلذ، فالآية نزلت ردّاً على من حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي من المشركين، وعلى قوم من ثقيف ومن بني عامر بن صعصعة، وخزاعة وبني مدلج إذ حرّموا على أنفسهم التمر والإقط.

ويضعف لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا...﴾ إلخ، أنّ يكون ذلك ردّاً على من عزم من المسلمين على أن لا يأكل لذيقاً، ولا يلبس لباساً رقيقاً، وعلى عبد الله بن سلام وأضرابه حين أراد تحريم لحم البعير كما في دين اليهود قبل أن يسلم، وإن كان بعد الإسلام، - فنزلت - تاب منها كما استأذن رسول الله ﷺ أن يصلي ليلاً النفل بالتوراة فزجره فازدجر، ونزل أيضاً في تحريم اللذائذ في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (سورة المائدة: ٨٧) ، وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (سورة الأعراف: ٣٢).

وسُمِّي الحلال حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه، والأمر للإباحة أي أبحاثُ لكم السَّائبة ونحوها واللَّذائذ ولم أحرّمها عليكم قطُّ، ولن أحرّمها أبداً، وللوجوب على معنى اعتقدوا حلّ أكل ما لم يُحرّمه الله.

(فقه) ويجب الأكل لقوام الجسد ويستحبُّ ولو فوق الشَّبَع إذا كان مؤانسة للضَّيف أو لعقاً للقصعة أو للأصابع أو أكلاً لما يسقط من الطَّعام، وكذا الشُّرب من زمزم فوق الرِّي مستحبُّ، وقد استدللَّ بعض بالآية على تحريم الأكل فوق الشَّبَع لأنّه ليس طيباً في الشَّهوة المستقيمة.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرّقه من تحريم السَّائبة واللَّذيد ونحوهما، لمّا كان يأمر بها جعلت كأنّها طرق يمشي فيها، ولما كانت الطُّرق محلاً للخطو سُمّيت باسم الخطوات، أو لما كان الأمر بتلك المحرّمات أمراً بالكون عليها الشبيه بالخطو أطلق على الذي يأمر به وهو الشيطان أنّه يمشي فيها. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لأهل البصائر، وأما الغواية فهو وليُّهم يتبعونه ولو ظهرت لهم منه مضرة، كقوله تعالى: ﴿أُولِيَاءُ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾؛ وقيل أولياؤهم أعداء كما يقال: «تحتيتهم ضربٌ وجيع»، وتحتيتهم السَّيف، والجملة تعليل، فلا يليق جعله من أبان بمعنى أظهر، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾

الذَّنْبُ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ، ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ الذَّنْبُ الْكَبِيرَ الْمُتَجَاوِزَ
الْحَدَّ فِي الْقَبْحِ.

(لغة) الفحشاء أخصُّ من السُّوء، ويجوز أن
يكونا بمعنى واحد إلاَّ أنَّه من حيث إنَّه يسوء فاعله وغيره سوء، ومن
حيث إنَّه قبيح فحشاء، أو السُّوء ما لا حدَّ فيه، والفحشاء ما فيه
الحدُّ، وقيل هما بمعنى واحد؛ وهو ما أنكره العقل وحكم بأنَّه ليس
فيه مصلحة وعاقبة حميدة واستقبحة الشرع. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا
حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣) دليل
على أنَّ كلَّ معصية ولو صغيرة تسمَّى فاحشة، والأمر المذكور عن
الشَّيْطَانِ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ يَقُولُ: افعلوا كذا، على طريق الإلتماس على
أنَّهم يسوئهم بنفسه، أو لأنَّه يدَّعي العلوَّ عليهم ولو لم يكن عنده أو
اعتقد أنَّه أعلى، ولا حاجة إلى أن نقول شبَّه الوسوسة في المعاصي
بالأمر بها، ولا إلى أن نقول شبَّه تزيين المعاصي بالأمر بها على أنَّ
ذلك استعارة، ولا يلزم من الأمر ولو كان من عال تسلَّط وقهر، فلا
منافاة بين الآية وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ﴾ (سورة الحجر: ٤٢).

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي وبأن تقولوا كاذبين
على الله، أو ضمَّن تقولوا معنى الكذب، أو عن الله ما لا علم لكم به
من تحريم السَّائِبَةِ ونحوها، وتحليل المينة ونحوها، واتخاذ الأنداد.

(فقه) وليس قول المجتهد قولاً بما لا يعلم لأنه يقول استدلالاً بما يستنبط من القرآن والسنة والإجماع قصداً للحق لا اتباعاً للهوى، وقد أباح الله له ذلك وإن اختلف المجتهدون فالحق عند الله مع واحدٍ فقط، وغيره مأجورٌ يجوز العمل بما قال، وقد يكون الحق عند الله غير ما قالوا مع أن ما قالوا لا يعدُّ ضلالاً عليهم، وقالت المعتزلة: الحقُّ متعدّدٌ بحسب أقوال المجتهدين وهو ضعيف، وأمّا أن يقال كل واحد مأجورٌ يجوز العمل بما قال، وأنَّ كلَّ واحد العمل به حقٌّ في حقِّ المقلد فلا بأس.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ للناس وهم كفار، ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ في القرآن وفي العقول من الحجج العقلية من التوحيد، وتحليل السائبة ونحوها، ﴿قَالُوا﴾ لا نتبع ما ترغمون أنه من الله، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءآبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام وتحريم السوائب.

ويبعد أن يكون الضمير لليهود الذين دعاهم ﷺ إلى الإسلام، وأنَّ ما أنزل الله هو التوراة والإنجيل والقرآن، لأنَّ الثلاثة تدعو إلى الإسلام، ولو روي أنها نزلت في طائفة منهم دعاهم فقالوا: نتبع ما عليه آباءنا لأنهم أعلم منا، وإنما قلت: يبعد ذلك لأنَّ الآيات والضمائر قبل ذلك في غيرهم، وعلى هذه الرواية لو صحَّت يكون المراد بـ﴿مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءآبَاءَنَا﴾ (سورة البقرة: ١٧٠) ما وجدوا عليه أسلافهم من اليهود، ممَّا يخالف الحقَّ البتة، أو كان حقاً ونسخه القرآن.

وقيل الضمير عائذٌ إلى ﴿مَنْ يَتَّخِذْ﴾، أو إلى ما يفهم من أنّ الذين يكتُمون، أو إلى المشركين؛ ولا يلزم من النزول في قوم ردُّ الضمير إليهم. والغيبة بعد الخطاب تلويح بأنَّهم ليسوا من أهل الخطاب، فصرف عنهم إلى أهله بإخبار أهله عنهم.

﴿أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ زيادة في كلامهم على طريق الاستفهام التوبيخي، والهمزة مَّما بعد الواو، أو مستأنف توبيخ، أي أيتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم، ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من أمور الدين التي خالفوها، وأمروا باتِّباعها، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحقِّ.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اليهود والنصارى وغيرهم ومشركي العرب و(١) الذين يدعونهم إلى الإيمان من النبيء والمؤمنين، أي مثل الكافرين مع المؤمنين كمثل الغنم مع راعيها كما قال: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ يصوت من رعاة الغنم عليها، ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي على ما لا يسمع وهو الغنم، ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ صوتاً بلا فهم لمعناه لماذا صاح بها لتمشي أو تقف، ولو فهمت منه على الاعتقاد أنَّها تقف أو تمشي، وأيضاً هذا الفهم ليس فهماً لوضع الصوت لمعناه، بل فهماً

١ - كذا في النسخ المعتمدة بالواو، وقد ذكر الشيخ فيما بعد أنه قدر "مع" لا الواو

ليناسب قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾. تأمل.

لاعتياد ضربها أولاً بالحجر لتقف أو تمشي.

وإنما قَدَّرْتُ مع الذين يدعونهم إلى الإيمان بلفظ «مع» لا بالواو ليناسب قوله ﴿كَمَثَلِ الَّذِي...﴾ إلخ، فإنَّ المتقدِّم فيه الراعي كذلك، فإنَّ مع أصلها أن تدخل على الراجح المصحوب فالراجح المصحوب هو النسيء والمؤمنون، أو يقَدَّرُ: «ومَثَلُ داعي الذين كفروا للإيمان كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعَقُ»، أو يقَدَّرُ: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ بَهَائِمِ الَّذِي يَنْعَقُ».

وعلى كل حال فالنبي ﷺ والمؤمنون يدعون الكفار إلى الإيمان ولا يعرفون المقصود لانهما كهم في التقليد، وكونهم أميين وإعراضهم تجاهلاً كما يصيح الرَّاعِي على غنمه، ولا تفهم حكمة موضوع الصَّوت ولو وَقَفَتْ به أو مَشَتْ، فهم أضلُّ منها إذ تمتثل ولا يمتثلون. أو المعنى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي دَعَاءِ الْأَصْنَامِ كَمَثَلِ النَّاعِقِ فِي غَنَمِهِ بَلِ النَّاعِقِ فَوْقَهُمْ، لِأَنَّ الْغَنَمَ تَسْمَعُ وَتَحْسُ بِخِلَافِ الْأَصْنَامِ.

(بلاغة) والدعاء والنداء مترادفان فيما قيل، فلعله كُرِّرَ تأكيداً، كأنَّه قيل: أصواتاً كثيرة، أو الدُّعاء ما يدلُّ على معنى امش أو قف أو اشربي أو كلي أو نحو ذلك، من فعل أو اسم فعل أو اسم صوت، والنِّداء ما يزداد على ذلك كهاء وياء ممَّا يتلفَّظ به في البهائم، ويبعد ما قيل: إِنَّ الدُّعَاءَ لِلْقَرِيبِ وَالنِّدَاءَ لِلْبَعِيدِ، كقول

الأعرابي أقرب ربُّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ لأنَّ النداء يكون أيضاً للقريب كما ينادى بالهمزة و«أي» للقريب، وقيل: الدعاء ما يسمع، والنداء قد يسمع وقد لا يسمع.

﴿صُمُّكُمْ عُمِّي﴾ هم صم بكم عمي، أي لا يسمعون الحق ولا ينطقون به ولا يرونه، ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الموعظة والأحكام الشرعيَّة، أي لا يدركونها، وليس المراد نفي عقل التكليف على سبيل تنزيل وجوده منزلة العدم، لفقد ثمرته لأنَّه لا يصحُّ ترتبه بالفاء كذا قيل، وفيه أنَّه لا مانع من أن يقال: هم صمُّ بكم عمي لا يدركون، فهم لذلك كمن لا عقل له كالمجنون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ ءِيتَاءَهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧١﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا ءَهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

الحلال والحرام من المآكل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ لذائد، ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لا تحرموها على أنفسكم ولو اعتقدتم حلها، نزلت فيمن عزم من الصحابة على أن يمنع نفسه منها، أو الطيبات الحلال مطلقاً، فيدخل

فيها اللذائذ، ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على حلِّ أكلها، والأمر بالأكل للإباحة العامة في الطيبات أو في اللذائذ إباحة تأكيدٍ لتقدمها في آي أُخَر، ولعدها في الأذهان وخارجاً وعملاً، كرَّر ذلك تشخيصاً للمؤمنين، وتخصيصاً بأنَّهم الأهل لها وتشريفاً لهم، وليرتَّب عليه ذكر الشكر وتحريم الميتة وما بعدها، ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إذ عبادته لا تتمُّ إلا بالشكر، أي إن كنتم تريدون عبادته عبادة تامَّة، والمراد الشكر باللسان، أو أن يستشعر في العبادة أنه يعبد لأجل نعمه، وأما الشكر بمعنى استعمال القلب واللسان والجراحة فلا تفسَّر به الآية، لأنَّ المعنى يكون بذلك واشكروا الله إن كنتم إيَّاه تشكرون وهو لا يصحُّ.

وتقديم إيَّاه للإهتمام والفاصلة، وإن جعلناه للحصر كان المعنى واشكروا الله إن كنتم خصَّصتموه بالعبادة، فالقيد حصرَ العبادة له لا نفس العبادة، فمن لم يشكر له بل شكر غيره لم يخصَّه بالعبادة، قال ﷺ «الحمد رأس الشكر ما شكر الله من لم يحمده»^(١)، والمراد بالحمد في الحديث الحمد اللفظي، قال الطبراني والديلمي والبيهقي: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى: إنِّي والإنس والجن في نيا عظيم، أخلق ويعبد

غيري! وأرزق ويشكر غيري!» (١).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ الحصر إضافي منظور فيه إلى السائبة وما معها لا حقيقي، لأنه قد حرم أيضاً المغصوب والمسروق، وأجرة الزنى وأجرة الكهانة، والربا وغير ذلك.

(فقه) وأما الموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع فداخلة في الميتة إن لم تدرك ذكاتها قبل الموت، وإن أدركت فمن الحلال، والحصر حصر قلب بالنسبة إلى من أحلّ الميتة وما معها، وحرّم السائبة وما معها، وحصر أفراد بالنسبة إلى ما حرّمه بعض المؤمنين من اللذات بأنّ شدّد عليهم، فعُدّ منعهم أنفسهم منها تحريماً فنهاهم بهذا الحصر، ففي كل من التحريم والمنع تحجير فيكون من عموم المجاز.

(فقه) ثمّ الحكم إنّما يتعلّق بالمعاني لا بالذوات، فالمراد حرم عليكم أكل الميتة وما معها ويبيعهنّ وشراءهنّ، ورهنهنّ والإجارة بهنّ، وإصداقهنّ والغسل بهنّ والاستصباح بهنّ، ولكن أسند الحكم إلى الذوات مبالغة.

١ - أورده الألويسي في تفسيره، ج ٢، ص ٤١، من حديث أبي الدرداء مرفوعاً.

(فقه) وألحق الحديث ما قطع من حي وهو حيٌّ

قال أبو داود والترمذي وحسنه عن أبي واقد الليثي قال رسول الله ﷺ حين قدم المدينة وهم يَجُبُّونَ الأَسْمَةَ، ويقطعون إليات الغنم، «ما قُطِعَ - أي وهو حيٌّ - من البهيمة - وهي حيَّةٌ - فهو ميِّتة» (١) واستثنى الحديث السمك والجراد إذ قال: «أَحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَانِ...» (٢). وزعم بعض أن ما مات من الحوت والجراد حرام، وعموم الحديث يرده، واستثنى الحديث أيضاً الجلد فإنه إن أزيل ودكه بدباغ أو غيره حلَّ ظاهراً وباطناً، واستثنى من الدم الكبد والطحال وخصَّ ذكر لحم الخنزير بالذكر لأنه معظم ما يؤكل، ولأنَّهم يستعظمون تحريمه، وغيره تبع له وكلُّه حرام حتى عظامه وجلده وشعره، وقيل بحلِّ شعره، وحلَّ خنزير البحر على الصحيح.

ومعنى ﴿أَهْلًا بِهِ﴾ رفع الصوت به، وذلك أن يذكر الصنم أو غيره عند ذكاته وحده أو مع الله.

- ١ - رواه الترمذي في الأُطعمة (٧)، باب ما قطع من الحي فهو ميِّت، رقم ١٤٨٠.
وأبو داود في الصيد، باب في صيد قطع منه قطعة، رقم ٢٨٥٨، من حديث أبي واقد الليثي.
وابن ماجه في الصيد، وأحمد في مسنده، عن أبي واقد كذلك.
- ٢ - رواه ابن ماجه في الصيد (٩)، باب صيد الحيتان والجراد، رقم ٣٢١٨، من حديث ابن عمر.
ورواه البيهقي في الطهارات، رقم ١١٩٧.

(فقهه) فيحرم ما ذكر عليه المسيح وقيل حلٌّ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أباح ذبائح أهل الكتاب، وقد علم أنَّهم يخلطون، ويحرم ما ذكر للجنِّ إتِّقاءً بهم لمريض، أو عند حفر بئرٍ، أو بناء دارٍ بأن يذبح في الموضع الذي يحفر نفسه، أو في الدار نفسها، أو في موضع مجاور لهما لذلك.

ورفع الصوت ذكرٌ للواقع في الجاهليَّة، فما ذبح لغير الله حرام ولو أسرَّ ذكر غير الله، أو ذكره في قلبه. والإهلال مأخوذ من الهلال إذ يرفع الصوت به إذا رئي ثم أطلق على رفع كلِّ صوت.

(فقهه) كلُّ ما نهى عن قتله في الحديث من نحو الصرد والهدهد فذبحة للأكل أو لمنفعة حلال، والآية تشملها.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ افتعل، من الضرِّ، وهو متعدُّ لواحدٍ كأصله، ألا تراه مبنياً للمفعول مع أنَّ نائب الفاعل غير ظرف ولا مصدر، وطاؤه عن تاء لتوافق الضَّاد في الجهر، والافتعال هنا للمبالغة، كأنَّه قيل: من ضرَّ ضرّاً عظيماً بالجوع حتَّى يخاف به الموت أو العمى أو الصَّمم أو البكم أو الشَّلل أو نحو ذلك ممَّا لا يُحمل، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالسَّفر في معصية، أو منع حقٍّ، أو نشوز عن زوج أو سيِّد، أو خروج عن المسلمين أو منع مضطرٍّ آخر عن أن يشاركه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ معلٌّ، كغازٍ وقاضٍ، من العداوة أو العدوان، وهو

تجاوز الحدّ، ومرجعهما واحد وذلك بقطع الطريق عن المسلمين أو أهل الذمّة، أو بأكل فوق ما يمسك الرمق، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل من ذلك بقدر ما يوصله أو يجيى به، ولا يأخذ معه من ذلك.

(فقه) والمذهب تحريم الزيادة على ما يمسك

الرمق، وكذا روي عن أبي حنيفة والشافعي، وقال عبد الله بن الحسن البصري: يأكل قدر ما يدفع الجوع، وقال مالك يأكل حتى يشبع ويتزوّد فإذا وجد الحلال طرحه، وإن تاب الباغي أو العادي حلّ له تناول من ذلك، وكذا لا يحلّ لهما التيمّم إن فقدوا الماء ويصليان به، ويقضيان إذا وجدا ماء، وإن تابا لم يقضيا ما صلّيا بالتيمّم بعد التوبة.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لأوليائه لأنّهم يتوبون، ﴿رَحِيمٌ﴾ بأهل طاعته حيث وسع للمضطرّ، وليس ذلك مختصاً بالموحدّين بل يحلّ لمشرك غير باغ ولا عاد أيضاً أن يتناول منها للاضطرار، لأنّهم مخاطبون بفروع الشريعة كأصلها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ بَعْضًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ



كتمان أهل الكتاب ما أنزل الله

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ هم علماء النصارى واليهود ورؤساؤهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل، ويرجون أن النبي المبعوث آخرًا منهم، فلمَّا كان من العرب خافوا من ذهاب ما يُعطون فكتموا صفاته التي في التوراة والإنجيل، واهتمَّ أهل الكتاب بأن لا يعلموها من يتعلَّمها، وبأن يخطُّوا عليها ويكتبوا كتابا ولا يكتبوها فيه، وبأن يبدلوا بعكسها، وبأن يبدلوا في التعليم وبكلِّ ما أمكنهم وهكذا كل ما ذكر كتمهم في القرآن.

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ بسبب الكتاب أو ما أنزل إذ كتموه، أو بكتمانه، ﴿ثُمَّ قَلِيلًا أَوْلَيْتَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ كلها بملئها، لا في بعض البطن لشهرة أنه أكل في بعض بطنه إذا أكل قليلاً، وأكل في بطنه إذا ملأه، ﴿إِلَّا النَّارَ﴾ ما يأكلون في الدنيا بكتمانهم إلا سبب النار، أو موجب النار، فحذف المضاف.

(بلاغة) ولا يصحُّ أن يكون مجازا بعلاقة التسبب أو المآل، أي إلا ما سيصير ناراً، وأنَّ النار مستعمل في ذلك المأكل، لأنَّه لو قيل: ما يأكلون في بطونهم إلا ذلك المأكل بالكتمان أو

الصَّيْرُورَةَ لم يصحَّ، فإنَّ شرط المجاز أن تصلح موضعه الحقيقة، أو المعنى: ما يأكلون يوم القيامة إلاَّ النار جزاءً على ذلك الأكل على الكتمان فأكل النار حقيقة، فالمضارع للاستقبال على هذا الوجه، وللحال على الوجه الأوَّل، نولا ينافي الحصر أنَّهم يأكلون الزَّقُومَ أيضاً لأنَّه إضافي أي ما يأكلون لهذا الكتمان والأكل عليه إلاَّ النار، فأكل الزقوم على غيره أو على الإطلاق أو أكل النار مجاز عن إحراق باطنهم، أو عدَّ الزَّقُومَ أيضاً ناراً، أو الكلام تمثيل شبه هيئة الراشي والمرتشي والرشوة بهيئة الأكل والنار وأكلها.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: كناية عن غضبه عليهم، أو تعريض بجرمانهم لكتمتهم من الكرامة التي يؤتيها المؤمنين لعدم كتمانهم، ومن حملتها الكلام الموحى إليهم من الله بالبشرى والرضى، أو المراد لا يكلمهم بخير كما يكلم المؤمنين، وذلك بالوحي، وإلاً فمطلق الكلام واقع لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٢) وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة الأعراف: ٦) ويسأل كلُّ مكلف، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من الذنوب، أو لا يمدحهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا كالأخرة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ في الدنيا، ﴿وَالْعَذَابَ﴾ في الآخرة أو الدنيا أو فيهما، و[خصَّ] ذكر الآخرة في

قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾، ﴿بِالْمَغْفِرَةِ﴾ المَعْدَّة لهم لو آمنوا ولم يكتموا، وعملوا الصَّالِحَاتِ وَاتَّقُوا، ﴿فَمَا﴾ تعجيبية، أو استفهامية توبيخية، ﴿أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ الأصل أن تكون المعصية شاقَّة على العاصي لعظمة حقِّ الله وشدَّة العقاب، حتَّى أن الصَّبر عليها كالصَّبر على النار، فجاءت الآية على ذلك، تقول لمن تعرض لغضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسَّجن، تُقَبِّحُ رأيه بأنَّه لا يتعرَّض لغضبه إلا من له طاقة على القيد والسَّجن، وأنت لا طاقة لك.

وكانت رابعة العدوية ترى المعصية ناراً. شبَّه مداومتهم على المعصية باعتبار مشقَّتها بحسب الأصل ولو لم تشقَّ عليهم وباعتبار الصَّديقين بالصَّبر على النار، أو يقال كذلك ما أصبرهم على موجبات النار، أو الصَّبر مطلق حبس النفس على الشيء ولو لم يشقَّ عليها، أي ما أدومهم على موجبات النار، وهي الكتم والكفر والاشترااء.

﴿ذَلِكَ﴾ أي أكل النار في بطونهم وعدم تكليم الله إيَّاهم، وعدم تركيته لهم وثبوت العذاب الأليم والنار، أو ذلك العذاب المسبَّب على الكتم والاشترااء، ﴿بِأَنَّ﴾ الله نَزَلَ الْكِتَابَ ﴿التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ﴾ ﴿بِالْحَقِّ﴾ فخالفوه وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، والذي آمنوا به كفروا ببعضه. أنكر اليهود والنصارى القرآن، واليهود الإنجيل وبعض التوراة، والنصارى التوراة وبعض الإنجيل، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ

اختلفوا ﴿ مشركوا العرب ﴾ ﴿ في الكتاب ﴾ القرآن، قال بعض: هو شعر، وبعض: كهانة، وبعض: سحر، وبعض: كذب، وبعض: علمه بشر، وبعض: أساطير الأولين، وبعض: كلام جنون؛ أو هو الكتاب الأول العام والمختلفون المشركون واليهود والنصارى، فإنَّ المشركين أيضاً كذبوا القرآن وآمنوا ببعضه، وكذبوا التوراة والإنجيل، وقد يؤمن بعضهم بهما أو ببعضهما؛ فاختلَفوا بمعنى تخالفوا أو تخلَّفوا عن الحق، ﴿ لفي شقاق ﴾ خلاف، ﴿ بعيد ﴾ عن الحق، وكل في جانب بعيد عن جانب الآخر.

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآتَى السَّبِيلَ وَالسَّالِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ وَعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

مظاهر البرِّ الحقيقيِّ

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ ﴾ الطاعة والإحسان، ﴿ أَنْ تُولُوا ﴾ فقط للصلاة وتصلُّوا، بل مع ذلك الإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبئين

وإيتاء المال على حبه، وإيتيان بالصلاة تامة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

﴿وَجُوهَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والتعريف للحصر، و«ال» للجنس أو للعهد، بمعنى ليس البرّ العظيم الذي أكثرتم الخوض فيه، وقيل: الخطاب لهم ولأهل الكتاب، ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ﴾ كما إذا كنتم غرب مكّة، ﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ كما إذا كنتم شرقها وكما كنتم تصلّون إلى المغرب قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، فإنّ بيت المقدس غرب المدينة، فإنّ الشمس تغرب إليه في أطول الصّيف، وما يلي أطوله فذلك المغرب، وليس كما قيل: إنّه شمال المدينة، ولم يذكر الجهات الأخر اكتفاء بذكر المشرق والمغرب، على طريق التمثيل لا التقييد، لأنّ من أهل الجهات من يستقبل ما بينهما، وقدّم المشرق مع أنّه قبله المتأخرين وهم النصارى لتقدّم شروق الشمس على غروبها.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ الإحسان الكامل من آمن بالله.

(صرف) البرّ مبالغة كقولك زيد عدل، فهو خير ومن مبتدأ أو بالعكس، وهو أشدّ مبالغة كمن قال: الصوم هو زيد، و«ال» للجنس أو العهد، أو لكن البارّ والأصل البارر، نقلت كسرة الراء للباء وحذفت الألف قصداً لسكون الراء بسلب حركتها، وأدغمت في الراء ولا

حذف مضاف في ذلك، ولا تأويلاً بالوصف لكن فيه تكلف، أو هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أو يبقى على مصدريته، ويقدر مضاف فيه أي: «ولكن ذو البر»، أو في قوله:

﴿مَنْ - آمَنَ﴾ أي برُّ من آمن، ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أي الكتب كلها، كما قال ﷺ: «أَنْ تُوْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ»؛ أو القرآن لأنَّه الذي أنكره أهل الكتاب، وأنَّه المقصود بالدعوة وأنَّه أكمل الكتب، والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع الكتب لأنَّه مصدِّق لما بين يديه؛ وقيل: التوراة، ولا قرينة له؛ وهي لا توجب الإيمان إلاَّ بتوسُّط اشتغالها على القرآن المستلزم لذلك، ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ وهذا كلُّه موجود في المؤمنين قبل نزول الآية.

فمحطُّ الكلام قوله: ﴿وَعَاتَى الْمَالَ...﴾ الخ، وما كان فيهم من بعض صفة فقد أمرُوا بتجويدها، أو الخطاب في ﴿تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ﴾ لليهود والنصارى ردُّ على اليهود، إذ قالوا: البرُّ استقبال المقدس، وعلى النصارى إذ قالوا: البرُّ استقبال مطلع الشمس، و«ال» في البر للجنس، ولا حصر في الآية. ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ مع حبِّ صاحب المال، فالهاء لـ«مَنْ»، والمفعول محذوف، أي مع حُبِّه المال، أو مع حبِّ المال، فالهاء للمال والفاعل محذوف ومحبُّه مؤتبه، أو الناس، وحُبُّه لجودته أو لقلته؛ أو على حُبِّه على حبِّ الله فالهاء للمال أو لصاحبه المؤتي، أو لله سبحانه، أو للإيتاء المفهوم من آتى.

والتقييد بقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ للتكميل، قال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح، تأمل البقاء وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان كذا»^(١)، فصدقة الفقير والبخيل أفضل من صدقة الغني والكريم، إلا أن يكونا أحب للمال منهما أو يتصدقاً بما هو أعزُّ عندهما قال ﷺ: «أفضل الأعمال أحزها»^(٢).

﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ القرابة بالنسب مع الحاجة أو دونها، وهو مفعول ثان والمال مفعول أول، لأنه الفاعل في المعنى، أي صيره آتياً ذوي القربى، فافهم ولا تهتم؛ فالمال يأتي ذوي القربى لا مفعول أول إلا بتكلف التفسير بـ«تناول» ونحوه، مما يكون ذوي القربى به فاعلاً في المعنى، ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ مع الحاجة أو دونها.

١ - رواه مسلم في الزكاة (٣١)، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، رقم ١٠٣٢-٩٢

والتسائي في الزكاة (٦٠)، باب أي الصدقة أفضل، رقم ٢٥٤١، من حديث أبي هريرة دون ذكر الفقرة الأخيرة.

٢ - قال في اللسان بعد ذكر الحديث رواية عن ابن عباس: «أحزها يعني: أمتنها، وأقواها، وأشدّها؛ وقيل: أمضا وأشقّها». اهـ

والحديث أورده الألويسي في تفسيره، ج ٢، ص ٤٦.

(فقه) وذلك بوساطة القائم بهم من ولي وغيره،
لأنه لا قبض لغير البالغ، ولا يُتم بعد بلوغ، ولكن يجوز إطعام يتيم ولو بلا
قائم ولو حقاً واجباً، كزكاة لمن هو في يده ويتفقده، وما أوتي قائم يتيم قد
أوتي يتيماً، لأن قائمه كرسول إليه فهو معطوف على ذوي، ولا حاجة
إلى عطفه على القريبى قصداً إلى معنى إعطاء ذوي اليتامى.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ أسكتهم الحاجة فقلت حركتهم، أو أسكتهم إلى
الناس بالميل إليهم، وعن أبي حنيفة: هو من لا يملك شيئاً، والفقير من يملك
أقل من نصاب، والشافعي: من يملك شيئاً، والفقير من لا يملك شيئاً؛ ﴿أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ (سورة الكهف: ٧٩) فللمساكين شيء، لكن ليس
في الآية أن الفقير لا شيء له، ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ المسافر مع حاجة في حاله
ولو غنياً في أهله، سمي لأنه يلقيه الطريق كما تلد الأم ولدها، ولأنه
يصاحب الطريق كالولد مع أبيه، ولأنه مبني السبيل كالولد مبني أبيه كأنه
ولده السبيل، أو لانفراده عمّن معه قبل، وقيل: ابن السبيل الضيف، لأنه
يقدم به إلى بيت المضيف.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ ألبأتهم الحاجة إلى السؤال، عطف عام على خاص،
لأن ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل يكونون سائلين وغير
سائلين، ويكون السائل أيضاً غيرهم دعاه داع إلى السؤال ولو كان غنياً
كتحمله دينا لإصلاح بين الناس، وكاشتغائه شيئاً ليس عنده كحامل

ومتوحّم، وحالف على موجوده لا ينتفع به في محلّه، وككلّ سائل ولو غنيّاً إذ لا يدرى هل هو غني، بل ولو غنيّاً قال ﷺ: «للسائل حقّ ولو جاء على فرس»^(١). رواه أحمد. وذلك سدّاً لذريعة الرّد، واحتياطاً للناس.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وصرفه في الرّقاب، بصيغة الماضي المحذوف، دلّ على صرّف قوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾، والمقام، ويجوز إبقاؤه على معنى: وإيتاؤه في الرّقاب، أي على طريق صرفه فيها بوزن المصدر، أي لفكّ الأسرى وإعتاق العبيد، وإعانة المكاتب، وشراء العبيد، ليكونوا في الإسلام عوناً له في الجهاد وغيره، وتنجية المضطّرّ، وشراء العبيد المسلمين الذين تملّكهم المشركون بالتقويم.

(فقه) ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أهلها فما

قبل هذا في غير الزكاة ترغيباً في النفل لا إيجاباً، إذ لا واجب في المال بعد الزكاة، إلا إن خيف موت أحدٍ أو نفقة العيال والضيّف، وإلا أنواع الكفّارات، وعن الشّعبي: «إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة» وتلا هذه الآية؛

١ - ورواه القطب في جامع الشمل بلفظ: «اعطوا السائل ولو جاء على فرس»، ج ١،

وسئل الشعبي: هل في المال حقٌ بعد الزكاة؟ قال: «نعم يصل قرابة، ويعطى السائل»، وتلا هذه الآية، وعنه عليه السلام: «لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شعباناً وجاره طاوٍ إلى جنبه»^(١). وفي الحديث: «في المال حقوقٌ سوى الزكاة». واجتمعت الأمة إلا من شذَّ أنه يجب دفع حاجة المضطرِّ ودفع الكفَّارات وذلك ثابت ولو مع قوله عليه السلام من حديث علي: «نسخ الأضحى كلُّ ذبح، ورمضان كلُّ صوم، وغسل الجنابة كلُّ غسل، والزكاة كلُّ صدقة»^(٢). وهو غريب، أخرجه ابن شاهين، وليس في سنده قوةٌ وأخرجه الدارقطني والبيهقي، ويجوز أن يكون أتى الزكاة ذكراً للخاصِّ لمزيته بعد العام، وهو ﴿آتَى الْمَالَ﴾.

﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ رَبَّهُمْ فِي طَاعَةِ أَوْ مَخْلُوقاً فِيهَا^(٣) أَوْ فِي مَبَاحٍ فِيهِ نَفْعٌ لغيرهم، أَوْ انتظار من غيرهم لهم لا في معصية أَوْ مكروه، أَوْ مَبَاحٍ لأنفسهم فلا ذمٌّ في خُلْفِ الثلاثة. والعطف على «مَنْ»،

-
- ١ - رواه الترمذي في كتابه، باب التهيب من أذى الجار، رقم ٢٤ و ٢٥، من حديث ابن عباس. وقال: رواه الطبراني والبيهقي والحاكم وإسناده حسن.
- ٢ - ذكره الألويسي في تفسيره، ج ٢، ص ٤٧، من حديث عليٍّ كرم الله وجهه، مرفوعاً. وأورده الزحيلي في التفسير المنير، بدون إسناد، ج ٢، ص ١٠٢.
- ٣ - يعني رحمه الله: أَوْ عَاهَدُوا مَخْلُوقاً مِنَ الْخَلَائِقِ فِي طَاعَةِ.

ومقتضى الظاهر: «ولكن إنَّه من آمن بالله... إلخ، وأوفى بعهده إذا عاهد»، ولكن غير الأسلوب لأنَّ ما تقدّم بإيجاب الله، وهذا بإيجاب المكلف على نفسه، كما قال: ﴿إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي لا يتأخّر إيفاءهم عن وقت عهدٍ إليه؛ وذلك حكمة التقييد بإذا، فليس ذلك فيما أوجه الله عليه بلا إيجاب منه كما قيل به، وبأنَّ ﴿إِذَا عَاهَدُوا﴾ تأكيد، ومّا يكون من إيجابهم برُّ اليمين والنذر وردُّ الأمانة، لأنَّ عقدهنَّ عهدٌ منهم بالوفاء، أو غير الأسلوب إشارة إلى وجوب استقرار الوفاء؛ أو إلى أنَّه أمر مقصود بالذات، أو لأنَّ هذا من حقوق الله خاصّة. ويطلق العهد على ما يجري في الناس ممّا لا يُحلُّ حراماً ولا يحرّم حلالاً، والظاهر أنَّ المراد حقوق الله وحقوق العباد، لأنَّ الوفاء بها من حقوق الله أيضاً.

﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ لا تنس الصابرين، في مقام الخير والثناء، أو: «اذكر الصابرين» أو «خصّ الصابرين»، ومعنى كون ذلك - نصباً على المدح - أنَّهم في مقام رفيع يعرف به المحذوف ولو لم يذكر.

(نحو) قال أبو علي الفارسي: إذا غير إعراب صفة المدح أو الذم فذلك تفنُّنٌ ويسمى قطعاً، وذلك أنَّ تغيير المألوف يدلُّ على مزيد الاهتمام بشأن المغيّر، فإنَّه لا فضيلة إلاّ وللصبر فيها أثر بليغ، وإلاّ فسدت وأدّت إلى مضرة.

﴿فِي الْبِئْسَاءِ﴾ شدة الفقر وفساد المال ولو بلا فقر، كفساد نوع دون آخر أو فساد فيه كله مع بقاء نفع فيه بلا فقر، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المضرة في البدن بمرض أو غيره كعرج وصمم وعنة، وذكر «في» لأن المدح في الصبر على البساء والضراء إنما يكون إذا عظما، وكان المصاب كالمظروف لهما، وأما الصبر على ما قلَّ منه ففي أكثر الناس. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ القتال، والمراد القتال في سبيل الله. ذكر «حين» لأن القتال لا يستمر.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالإيمان وإيتاء المال وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والموصوفون بالإيفاء بالعهد، والموصوفون بالصبر، ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في دين الله مع الله، وفي دعواتهم أنهم مؤمنون، وفي طلب البر، وذكر الثلاث على الترتيب، فالصبر على المرض أشد منه على الفقر، و[على] القتال أشد من المرض، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل.

قال بعضهم: هذه الصفات خاصة بالأنبياء استجماعاً وغيرهم لا يستجمعها، والصحيح أنها عامة في جميع المؤمنين، كما قال ﷺ دعاءً إلى العمل بها: «مَنْ عَمِلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ
وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ
ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ
فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

مشروعية القصاص وحكمته

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ أي فرض وأصله: حُطَّ، ولما كان الخطُّ لإنفاذ ما حُطَّ كان بمعنى فرض مجازاً، ثم صار حقيقة عرفية في معنى الإلزام، وتقوى ذلك بـ«على» في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون والقاتلون وولاة الأمر، فالخطاب بالكاف للذين آمنوا والقاتلين وولاة الأمر كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (سورة الطلاق: ١) فالخطاب للنبيء وسائر المطلقين يقال لرئيس القوم: «يا فلان إذا جنتم أكرمتكم». ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ المماثلة فيهم، أي في قتل القتلى أي في شأنه أو بسببه، ومنه المقصُّ لتساوي أطرافه، والقصة لأنها تساوي المحكي، والقاصُّ لأنه يذكرها بلا تغيير وإلا عُدَّ محرِّفاً.

وذلك بأن يقتل القاتل فقط كما قتل القاتل إنساناً فقط، ويُقتل العبد إذا قتل عبداً كما قتل العبد ولا يُقتل به الحرُّ وهكذا... ومعنى

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ أنه حقٌّ واجبٌ على القاتل لمن له الدَّم، ووجوبه لا ينافي أنه يجوز العفو مطلقاً، والعفو عن القتل مع أخذ الدِّيَّة، كما تقول: يجب على المدين أن يقضي الغريم، فإنه لو ترك الغريم الدَّين جاز فلا عطاء على المدين.

(سبب النزول) نزلت الآية في الأوس والخزرج، كان لأحدهما ولعلمهم الأوس على الآخرين قوَّة وشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بلا مهر، وأقسموا: لنقتلنَّ الحرَّ منهم بالعبد منَّا، وبالمرأة منَّا الرجل منهم بلا ردٍّ ليصفِ ديةَ الرجل، وبالرجل الرجلين، وجعلوا جراحاتهم ضعيف جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ فأمرهم الله بالمساواة فرَضُوا وسَلَّمُوا؛ ويقال: ذلك بين قريظة والنضير من اليهود، يقولون لبني قريظة إذا قتلتم منَّا عبداً قتلنا منكم حرّاً، وإذا قتلتم منَّا حرّاً قتلنا منكم حرّين، ونقتل رجلكم بأنثانا؛ قيل: ويردُّه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهؤلاء كفرة، ويجاب أنه وقع ذلك بين الأوس والخزرج، ووقع أيضاً بين قريظة والنضير، كما مرَّ أنَّهم تحالفوا إحداهما مع الأوس والأخرى مع الخزرج، فغلب المؤمنون وهم الأوس والخزرج، وبأنَّ المؤمنين هم الحكَّام على القاتل من اليهود أو من المسلمين.

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ يقتل الحرُّ الواحد بالحرِّ لا بالعبد، ولا حُرَّان بحرِّ

واحدٍ، أو الحرُّ يقتل بالحرِّ، وكذا ما بعد، ﴿وَالْعَبْدُ﴾ الواحد لا اثنان ولا الحرُّ ﴿بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى﴾ لا الأثنيان، ولا الذَّكر به بلا ردِّ لنصف دية الذَّكر ﴿بِالْأَنْثَى﴾ والخنثى بالخنثى، لا الذَّكر به بلا ردِّ زائدٍ، ولا الخنثى بالمرأة بلا ردِّ.

(فقهه) وقيل بيَّنت السنة أنَّ الذَّكر يقتل بالأنثى بلا ردِّ، وأتته تعتبر المماثلة في الدين وأنَّ الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه، فلا يقتل مسلم ولو عبداً بكافر ولو حرّاً، ويقتل كافر بمسلم، وعن علي: «مضت السنة أن لا يُقتل مسلم بذمي عهد ولا حرُّ بعبد». والمشرك غير ذي العهد أولى بأن لا يقتل به مؤمن. وكان أبو بكر وعمر كلُّما قتل حرّاً عبداً لا يقتلانه به، سواء أكان له أم لغيره، وهما عمدة بين الصحابة ولا يخالفهما أحد، وقتل رجلٌ عبده فجلده رسول الله ﷺ ونفاه سنة، ولم يصحَّ عن مالك والشافعي أنَّه لا يقتل الذَّكر بالأنثى؛ وقيل عن أبي حنيفة: أنَّه يقتل الحرُّ في العبد المؤمن لقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»^(١)، وردَّ بأنَّه استثنى منه

١ - رواه ابن ماجه في الديات (٣١)، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم ٢٦٨٣، من حديث ابن عباس.

ورواه أبو داود في الديات، باب أيقاد المسلم بالكافر؟ رقم ٤٥٣٠، من حديث

العبد إذ قال: «لا يُقتل حرٌّ بعبد»^(١)، وعن مالك والحنفية أنه ليس للوليِّ إلاَّ القتل، إلاَّ إن رضي القاتل بالديَّة، ويردُّه تخييره ﷺ للوليِّ بين القتل والديَّة وتركهما.

﴿فَمَنْ عُفِيَ﴾ سُمِحَ، ﴿لَهُ﴾ فالقاتل الذي ترك له، ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ المقتول أي من دم أخيه، والتارك ورثة المقتول؛ وقيل: الأخ وليُّ الدم، والمراد الأخوة في التوحيد. وفيه ردُّ على الصفرية القائلة بأنَّ فاعل الكبيرة أو المعصية مشرك، ويبعد التأويل بالأخوة في الآدمية، وذكره بلفظ أخيه ليرقَّ له، والقتل لا يقطع الأخوة. ﴿شَيْءٌ﴾ من القتل ولو جزاء من ألف جزاء، أو شيئاً من الديَّة، تركه الورثة كلَّهم أو بعضهم. ﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي فالواجب، أو فعلى المعفو له، أو فالأمر أن يتبَّعه العافي وسائر الورثة بالديَّة، أو ببعضها إن ترك البعض منها بلا عنف، وبلا ملازمة إن أعسر، وأن يؤدِّي القاتل الديَّة أو ما بقي منها بلا مطل ولا بخس، وإن ترك القتل والديَّة فلا اتباع.

قيس بن عبَّاد، من حديث طويل.

١ - رواه القطب في الشامل، ج ٢، ص ١٦٣، رقم ٢٦٥٤، من حديث ابن عبَّاس.

ورواه البيهقي في كتاب الجراح (١٠)، لا يقتل حر بعبد، رقم ١٥٦٣٩، من

(فقه) والواجب القتل والدية بدله، كذا ما دون القتل الأرشُ بدله، فلو قال: عفوت عنه، لم يكن له قتل لأنه الأصل وقد عفا، ولا دية لأنها بدله وقد سقط فلا دية، وقيل الواجب أحدهما على الإبهام فلو عفا لم يحمل عليه بل يستبقى له بأن يحمل العفو على العفو عن القتل فيعطى الدية، وإن صرح بما عفا فيه عمل به.

﴿ذَلِكَ﴾ التحجير لوليِّ الدّم بين القتل وأخذ الدية والعفو، ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ إذ لم يحتم عليكم القتل كاليهود ولا الدية كالنصارى، وفي تحميم أحدهما تضييق على الوارث والقاتل.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ بالقتل، ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد تركه أو بعد أخذ الدية أو بعد العفو الكلي، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا بالقتل فإنه لا يعفى عنه ولو عفا عنه وليُّ القاتل كما جاء به الحديث، وفي الآخرة بالنار إلا إن تاب فلا عذاب في الآخرة عليه في ذلك، وعليه القتل ولو تاب وروي عنه عليه السلام: «لا أعفي أحداً قتل بعد أخذ الدية»^(١).

حديث ابن عباس كذلك.

١ - رواه البيهقي في الجراح (٣٠)، باب من قتل بعد أخذه الدية، رقم ١٦٠٤٥، من

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ نوع من الحياة عظيم في شأنه، كثير بأفراده، لأنه إذا علم مريد القتل ظلماً أنه يقتل إذا قتل كفاً عن القتل، فلا يقتله الوليُّ، وإن قتلته قتل وحده فذلك القصاص، وقبل ذلك كانوا يقتلون جماعة فيهم القاتل ويقتلون غير القاتل واحداً أو جماعة، وذلك غير قصاص فينتشر القتل في ذلك، وفي الآية جعل القتل سبباً للحياة. وكالقتل الجروح وأنواع الجنايات في البدن، فقد يجنى على غير الجاني من واحد أو متعدّد أو عليه وعلى غيره، وتنتشر الفتنة فقد يفضي ذلك إلى الموت بقتل أو جرح، فقد تحتمله الآية أيضاً مع القتل، وإذا اقتصر من الجاني أو أخذ الأرض توقفت الفتنة، والآية زجر عن القتل الأوّل وعن القتل الثاني بزيادة قتل غير القاتل أو بقتل غيره؛ وإن جعلنا الحياة أخرويةً فالآية إغراء إلى الإذعان للقصاص، لأنه إذا أذعن إليه القاتل كانت له الحياة الطيبة الأبدية.

﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ العقول الخالصة عن الكدورات، وكلُّ المكلفين يجب عليهم تعاطي خلوص العقل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أن

حديث الحسن، بلفظ "رجلا" مكان "أحدا".

ورواه أحمد في مسنده، ج ٤، ص ١٤٨، رقم ١٤٩١٧، من حديث جابر بن عبد الله.

تقتلوا غيركم، أو تزيدوا على القاتل أو تقتلوا غيره، وتتقون الله بالمحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو تتقون القتل خوفاً أن تقتلوا. وختم آية القصاص هذه وآية الصوم بعدها بالتقوى لأن القصاص والصوم من أشق التكاليف.

﴿ كَيْفَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ وَعَلَى الَّذِينَ
بَدَّلُوا لُونَهُ إِنْ أَلَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا
إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

الوصية الواجبة

﴿ كُتِبَ ﴾ نائب فاعله الوصية، وذكّر للفصل، ولمعنى الإيضاء كما قال السعد، الأصل التأنيث ولو كان غير حقيقي، ويختار إلا لداع، كما لفصل في غير الحقيقي هنا، قال الرضي زاعماً: أن ذلك لإظهار فضل الحقيقي على غيره، وهو تعليل لا يرضى، كيف يقال: اختار الله عز وجل التذكير ليعلمنا بفضل الحقيقي على المجازي!

﴿ عَلَيْكُمْ، إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي أسبابه بحسب الظن،

وإلا فلا يدري أحد أنه يموت في ذلك الوقت ولو اشتدَّ ضرُّه، ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالا قليلاً أو كثيراً، بأن يكون له ربع دينارٍ زيادةً على ديون الخالق والمخلوق.

(فقه) والأنسب أنَّهُ إن قلَّ ماله عن ذلك، أوصى ولو بأقلَّ من ربع دينار، وذكره بلفظ خيرٍ تلويحاً بأنَّ الوصيَّة من طيب المال حلالاً وجودةً، ويجزي ما دون الجيِّد إلاَّ أنَّه لا يحسن؛ وقد استعمل الخير في المال مطلقاً كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (سورة العاديات: ٨)، وفي المال الحلال كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٢).

وقالت عائشة وعليُّ: الخير المال الكثير؛ والكثرة والقلة بالنسبة إلى الموصي وحاله رجلاً أو امرأة ككثرة حاجاته وكثرة الوارثين.

أراد رجل أن يوصي فسألته كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف درهم، فقالت: كم عيالك؟ فقال: أربعة، فقالت: إنما قال الله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، وإنَّ هذا يسير فاتركه لعيالك، ولا شكَّ أنَّه كثير في نفسه لكن قلَّته بالنسبة لعياله، وكذا سأل عليًّا مولى له الوصيَّة عند احتضاره وله سبعمائة درهم، - قيل: أو ستمائة - فمنعه لكونه ذا عيال، وقال: «إنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، والخير هو المال الكثير»؛ ولا شكَّ أنَّ سبعمائة درهم كثير في ذاتها إلاَّ أنَّها قليل

بالنسبة. وعن ابن عباس من لم يترك ستمائة دينار لم يترك خيراً؛ والخير في العرف العام: المال الكثير كما لا يقال: ذو مال، إلا إن كان كثيراً، وإن أوصى من قبل وعند حضور الموت نقص عما تجب الوصية معه فله إسقاط ما أوصى به للأقرب، والتقييد بالقلّة والكثرة إنما هو بالنظر إلى وصية الأقرب الباقية بلا نسخ. ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ كالإخوة والأخوات والأعمام، والأجداد والجدّات والأخوال، ثمّ نسخ بآية الإرث، وحديث: «لا وصية لوارث»، إلا أن يشاء الورثة.

قال في حجة الوداع إذ خطب فيها «إن الله تعالى قد أعطى كلّ ذي حقّ حقه فلا وصية لوارث»^(١)، وروي أنّه خطب على راحلته وقال: «إن الله تعالى قد قسم لكلّ إنسان نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية»^(٢).

١ - رواه ابن ماجه في الوصايا (٦)، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧١٣ و ٢٧١٤، من حديث أنس وكذا أبي أمامة.

ورواه البيهقي في الوصايا (١)، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين الوارثين، رقم ١٢٥٤١، من حديث أنس.

٢ - رواه ابن ماجه في الوصايا (٦)، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧١٢، من حديث عمرو بن خارجة. ورواه أحمد في مسنده، ج ٦، ص ٣١٤، رقم ١٨١٠٨ و ١٨١٠٩، من حديث ابن خارجة كذلك.

(فقهه) وذلك ولا عبرة بإجازة الورثة إذا كان ما أوصى به لوارث لا يرجع إليهم إن ردّوه، كالوصية لوارث بالكفارة أو بشاة الأعضاء أو نحو ذلك، وإن كان فيه عمل كالحجّ والقراءة في موضع فقد يجوز، ومن وقف مع الحديث عموماً منعه. وإن أوصى الوارث بحق له عليه جاز إجماعاً مع انتفاء الرية، مثل أن يوصي بأرش ضربة ضربه إيّاها، أو بمال له أكله منه بلا رضى، وخرج من الكلّ على أنّه متواتر، وإلا فالناسخ آيات الإرث والحديث مبين للنسخ بهنّ.

وبقيت الوصية للأقارب الذين لا يرثون من جهة الأب ومن جهة الأم على ترتيب نذكره في الفقه. قيل: المراد بالأقارب ما يشمل المشركين تأليفاً للناس، ورعاية لحقّ القرابة [في] أوّل الإسلام ولمّا كثر الإسلام شرع الإرث ونسخ الوصية للوارث. وثبت أنّ الكافر لا يرث الموحّد، أو هذه الآية هي الميراث بحسب ما يريد الموصي، ثمّ نسخ ردّ التفصيل إليه بالتفصيل في آيات الإرث. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بأنّ ينوي انفاذ حكم الله والتقرب إلى الله، لا الحمية أو الفخر أو الرئاء أو غرضاً من أغراض الدنيا، وأنّ يكون من الثلث، ولا يفضّل الغني لغنائه، وله تفضيل الفقير، وأنّ لا يكون فوق الثلث، وأنّ لا يكون جزاءً على معصية. ﴿حَقًّا﴾ حقّ ذلك حقاً، ولا شكّ أنّ ما كتبه الله على العباد حقّ، فهو مصدر مؤكّد للحملة. ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ فَمَنْ بَدَلَهُ﴾ بدل الإيضاء المدلول عليه بالوصية، بل المعبر عنه بالوصية،

فإنَّ الوصِيَّةَ اسم مصدر ومعناه الإيضاء، أو بدل الوصِيَّة، فذكر الضمير لأنَّها بمعنى الإيضاء، أو بدل الحقِّ المذكور أو بدل المكتوب المعروف من قوله: ﴿كُتِبَ﴾، أو بدل ﴿المعروف﴾، فالمبدل إما حكم الله، وتبديله تغييره بعد الحكم به، أو كتبه فينفذ غيره، أو تأويله بباطل، أو ترك الإيضاء للأمور به.

وإمَّا شأن الوصِيَّة بأن لا ينفذ الورثة أو الوصي الوصِيَّة، أو ينقصوا منها أو يغيروا صفتها، مثل أن يوصي بثوب جديد فينفقوا خَلِقًا، أو يعتق عبيدين فيعتقوا واحداً، ويكتم الشَّاهد، أو يغيِّر ما شهد به، أو يدخل الحاكم فيه بجور، أو ينكر الورثة الوصِيَّة.

﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ من كتاب الله أو من الموصي أو الشهود، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ إثم التبديل، ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ لا على الموصي، أو على من بدَّل حكم الله، لا على غيره، فإنَّه لا تزر وازرة وزر أخرى؛ والذين يبدِّلونه هم من بدَّله بعد ما سمعه، فمقتضى الظَّاهر لإضمار هكذا: «فإنَّما إثم عليه»، والماء عائدة إلى ما عادت إليه هاء «بدَّله»، ويجوز كونها مفعولاً مطلقاً عائدة إلى ما عادت إليه هاء إثم، وعليه فالمفعول محذوف وهو ضمير عائد إلى ما عاد إليه هاء «بدَّله»، كقولك: «الإكرام الشديد أكرمه الله زيداً». ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال والأصوات، أي عليم بها كلَّها. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأفعال

والأوصاف والاعتقادات وكلّ شيء، ومن ذلك علّمه بقول الموصي وغيره وفعل الموصي وغيره فيجازي على ذلك.

(فقه) وأنت خبير بأنّ وصيّة الأقرب واجبة فمن لم يوص بها وقد ترك خيراً هلك، كما قال علي: «ختم عمّله بالمعصية». وقيل: نُسَخَ الوجوب فهي مستحبة، وقيل: نُسِخَ في حقّ من يرث، وتجب لمن لا يرث ولو كافراً.

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ كإمام وقاضٍ ووصي وغيرهم، ﴿مِنْ مَوْصٍ﴾ علم منه بعد موته كقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ، وذلك أَنَّ الخوف من الشيء سبب وملزوم للبحث عنه هل كان؟ وللبحث عن أحواله كقرب وبعُد وشدّة وضعف فيحصل العلم، وأيضاً لا يخاف منه حتّى يعلم أنّه ممّا يخاف منه؛ أو الخوف بمعنى التوقُّع الجاري بمعنى الظنّ فيفهم حكم العلم اليقيني بطريق الأولى، وأصل الخوف توقُّع مكروه بسبب أمارّة مظنونّة أو معلومة، ولمّا لم يكن للخوف من الميل والإثم بعد الإيصاء معنى حملناه على العلم أو الظنّ للتسبّب واللزوم البياني، ويجوز إبقاء الخوف على أصله بأنّ أتّهم الموصي في إيصائه. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحقّ خطأً بنسيان أو غلط، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ بأنّ تعمّد خلاف الحقّ كالزيادة على الثلث، والوصيّة للوارث لأجل حقّ له على الموصي بأكثر من حقّه، مثل أن يقول:

أوصيت لزوجي بكذا لأجل أنني ضربتها، أو لم أوف حقها في الفراش، أو لأنني أكلت مالها بلا رضى منها، أو أكلته على أن أرده لها، مع أن حقها أو أرشها أو ما أُكِل من مالها أقل، ولم يوجد السبيل إلى تعيين كمية ذلك، وكذا في الوصية للولد وغيره، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى له والورثة المعلومين من المقام، أو بين الوالدين والأقربين الموصى لهم الذين تقدّم ذكرهم آنفاً، وهذا أولى، وإن جعلنا الخوف من موصي حال الإيذاء أو بعده في حياته فالإصلاح بينه وبين الورثة لأنّ المال إليهم، وبين الموصى له بأن يقال له زد كذا أو أنقص كذا، بمقتضى العدل، ومن ذلك أن يوصي لفسق أو مكروه، قيل: أو يفضّل غنياً، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الإصلاح، بل له الثواب، وذكر نفي الإثم إشارة إلى عظم ذنب التبديل حتى أنّه ليخاف على المصلح الإثم لما عساه أن يكون في إصلاحه من الخطأ، وكذا ذكّر لذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعد للمصلح بالمغفرة والرحمة لإقامته بأمر الحق، وإرشاد الضال، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، ولا يقال: المراد إن الله غفور رحيم للموصي بواسطة إصلاح الإمام أو القاضي أو المفتي أو الوصي أو غيرهم، لأنّه مات على غير صواب غير تائب، هذا ما نقول، وعند الله ما ليس عندنا، ولا يكون كمن لم يوقع إصلاحاً في شأن وصيته لأنّ ظلمه لم يصل غيره إذا أزيل بالصّلح

الجنف كله، ودون ذلك أمر الخطأ في الخطر إذ لم يتعمد^(١)، إلا أنك خبير بأن الجهل عمد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ كَان مِّنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مَّسْكِينٍ مَّن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّتِي أَنزَل فِيهِ الْقُرْءَانَ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِد مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمُ وَعَلَيْكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

فرضية الصيام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا﴾ حال من الكتب المحذوف المنصوب على المفعولية المطلقة، أي «كتب عليكم الصيام، الكتب ثابتاً كما»، أو نعت لمصدر محذوف أي: «كتب كتباً كما» أو «صوماً مماثلاً للصوم الذي كتب»، أو حال من الصيام، أو

١ - كذا في النسخ المعتمدة، ولم يتضح لنا معنى العبارة. تأمل.

نعت له لأنَّ «ال» فيه للجنس فهو كالنكرة، أو يقدر المتعلق معرفة أي: «الثابت كما»، و«ما» اسم في ذلك، إلا في الأولين فمصدرية.

﴿كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء وأمهم ولو تفاوت قدرًا وزمانًا، وقيل: لم يتفاوت من آدم إلى عهدكم، قال علي: «ما أخلى الله أمة من فرض الصوم، فارغبوا فيه وطيبوا نفساً به واستسهلوه». والمشقة إذا عمّت طابت. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي وما لا يعنى فيه، لأنه يكسر النفس فتغتنموا فيه، ويصفوا قلوبكم به لما بعد، قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإن الصوم له وجاء»^(١). أو تتقون التقصير فيه وإفساده، أو تركه يشير إلى أن قدمه وعمومه من موجبات المحافظة عليه، فلا تكونوا بتركها أنقص من غيركم وأنتم أفضل الأمم ونبئكم أفضل الأنبياء.

١ - رواه مسلم في النكاح (١)، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤونة...، رقم (١) ١٤٠٠.

ورواه أحمد في مسنده، ج ٢، ص ١٤، رقم ٣٥٩٢.

ورواه البيهقي في الصيام (١١٤)، باب ما جاء في فضل الصوم...، رقم ٨٤٥٣، من حديث ابن مسعود.

(قصص) ويقال: كان على النصارى صوم رمضان فربّما وقع في حرٍّ، وربّما وقع في بردٍ فحوّلوه للربيع، وزادوا عشرين يوماً كفّارةً لتحويله، والمراد أنّ غالبه في الربيع أمّا أقلّه ففي فبراير، فإنّ أوّل صومهم في ثامن فبراير فسبعة أيام قبل الربيع، ويقال: ترك اليهود رمضان وصاموا يوماً في السنة قالوا: أنّه يوم غرق فرعون، وزاد فيه النصارى يوماً قبله ويوماً بعده احتياطاً حتى بلغوا خمسين، فشق عليهم للحرّ والبرد فنقلوه إلى زمان حلول الشمس في برج الحمل، فالمماثلة في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ ماثلة في الوجود والمقدار والزمان، وهو عين رمضان؛ وقيل: في أصل الوجوب؛ وقيل: زادوا عشرة كفارة للتحويل ثم مرض ملكهم بأكل لحم فشفاه الله، فزاد خمسة، وقال آخر: أمّثوه خمسين؛ وقيل: زادوا عشرين لموت أصاب مواشيهم؛ وقيل: لموت أصاب أنفسهم.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ متعلّق بالصيام، أي كتب عليكم الصيام في أيّام معدودات، أي كتب عليكم أن تصوموا في أيّام معدودات، ولا بأس بالفصل لقلته وظهور المعنى، وهو أولى من الحذف، ومن كل ما هو خلاف الأصل؛ أو يقدر: صوموا أيّاماً معدودات تقيلاً لها، أي هي دون أربعين على ما قيل من أنّ المعتاد إذا ذكر لفظ العدد فالمراد ما دونها، وأيضاً من شأن القليل أن يعدّ ومن شأن الكثير أن يُهال، فيكون المعنى أيّاماً مضبوطة بالعدّ لا مجازاً بها.

وكلُّ من «أيَّام» و«معدودات» جمع قَلَّة فلو شاء لقال: أَيَّاماً معدودة، بإفراد معدودة، ولو شاء لقال: شهراً معدوداً، أو جملة معدودة، وفي ذلك تسهيل، أو لعلَّكم تتقون المكاره والمعاصي والكسل في أيام معدودات؛ أو يتعلَّق بضمير كتب الثاني لعوده للصيام عند الكوفيين، أي كما كتب على الذين من قبلكم أن يصوموا أياماً معدودات، أو بـ«كُتِب» الأول أو الثاني لتضمُّنه معنى صوموا، أو المعنى: كُتِب عليكم الصيام كتابة شبيهة بكتابته على من قبلكم في كونه في أيام معدودات؛ وقيل: الأيام المعدودات يوم عاشوراء وثلاثة من كلِّ شهر ثم وجب رمضان دونهن؛ وقيل: لم يفرض قبله صوم؛ وقيل فرض قبله عاشوراء؛ وقيل: أيَّام البيض.

ولا يقال: لو أريد بهنَّ رمضان لكان ذكر المريض والمسافر تكراراً لأننا نقول: وجب الصوم على التخيير بينه وبين الفدية، ثمَّ وجب بلا تخيير فنَّبه على أنَّ رخصة السفر والمرض باقية وأيضاً المسافر والمريض ممَّن شهد الشهر.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ معشر البالغين العقلاء الداخل عليهم رمضان، ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضاً يشقُّ معه الصوم بعض مشقَّة، أو يضرُّه أو يتأخَّر معه برؤه أو يزيد به المرض، وذلك بالتجربة أو بإخبار الطبيب المسلم الحاذق لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

(فقهه) فإذا كان الصوم يعسر مع مرض حلَّ الإفطار، لا كما قيل عن ابن سيرين أنه أفطر لوجع إصبعه، ولا كما قال الشافعي: لا يفطر حتى يجهده الجهد الذي لا يحتمل، وروي عن مالك أنه يفطر صاحب الرمد الشديد أو الصداع المضرّ، وليس به مرض يضحجه إن شاء، واحتجّ من أباح الإفطار بالمرض ولو لم يعسر ولم تكن فيه مشقة بإطلاق الآية، وهو رواية عن الشافعي، وهو قول ابن سيرين والحسن البصري، وبأنّ السفر قد يخلو عن مشقة وحلّ الإفطار فيه ولو بلا مشقة لأنّه سبب لها، ويجاب بأنّ الرخصة لم تتعلّق بنفس المرض لتنوّعه إلى ما يزداد بالصوم وإلى ما يخفّ به، وما يخفّ به لا يكون مرخصاً البتّة، فجعل ما يزداد به مرخصاً بخلاف السفر لأنّه لا يعرى عن المشقة فجعل نفس السفر عذراً.

(فقهه) ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ ثابتاً أو راكباً على سفر، ولو قصيراً بعد مجاوزة الفرسخين ممّا استوطنه، ولو لم يجاوز الحوزة على التحقيق إن جاوزهما ليلاً بيّت الإفطار من الليل، أو جاوزهما نهاراً فإذا جاء الليل بيّت الإفطار؛ أو صام يوماً في السفر، فإذا جاء الليل بيّت الإفطار، وإن أفطر نهاراً قبل المجاوزة أو بعدها نهاراً، أو بلا تبييت فلا كفارة عليه لشبهة السفر، ولشبهة أقوال العلماء فيه، حتّى أنّ منهم من أجاز أن يفطر من بيته.

وأما المريض فبيّت الإفطار من الليل، وإن أفطر بلا تبييت
 لشبهة المرض فلا كفارة عليه، وإن اشتدّ المرض بحيث لا يطيق الصوم
 وخاف على نفسه أو عضوه أفطر بقدر ما يصل به الليل، وقيل: أو بما
 شاء، فبيّت نيّة الإفطار في الليل المستقبل، وزعم بعض قومنا
 أنّه يفطر المريض بلا تبييت إفطار بخلاف المسافر، لقوله تعالى: ﴿أو
 على سفر﴾ وليس بشيء لقوله تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ (سورة
 محمد: ٣٣)، فليتمّ المريض يومه إن قدر على إتمامه كالمسافر، والمسافر
 متمكّن على السفر في أثناء اليوم كما تمكّن عليه وقت طلوع الفجر.

وإن كان السّفْر لمعصية لم يجز له الإفطار على الصحيح،
 وعليه الأكثر، ويجب الإفطار إن كان الصوم يضرّ المريض والمسافر وإلا
 ولا مشقّة فالصوم أفضل عند بعض، والإفطار أفضل عند بعض،
 وأوجبته الإمامية وأخطأوا.

﴿فَعِدَّةٌ﴾ قدر ما أفطر بمعنى معدودة، كالطحن بمعنى المطحون،
 ﴿مَنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فعليه صوم عدّة إن أفطر، أو يقدر: فأفطر عقب
 قوله: ﴿أو على سفر﴾، وكذلك عليه عدّة الشهر إن أفطره كلّ إن
 كان تسعة وعشرين قضى تسعة وعشرين فقط، ولو بدأ القضاء من
 أوّل شهر وكان فيه ثلاثون فلا تهمّ، فإنما عليه قضاء شهر رمضان
 الذي خوطب به، فإذا كان من تسعة وعشرين لم يزد، والآية حجّة

لي، وذَكَرَ بعض أصحابنا وشهَّروه وبعض قومنا أنه إنْ بدأ من أوَّل الشهر أتمَّه زاد على رمضان أم نقص، وبعض إنْ نقص أتمَّه، و «مِنْ» للبيان أو للتبويض، أي عدَّة من جملة أيَّام، مثل أنْ يَخَصَّ أيَّاماً من شهرٍ كأوله ووسطه وآخره.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ إنْ أفطروا في غير سفر، أو يقدر هذا بعد قوله: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ أي فدية هي طعام مساكين.

والجمع باعتبار الجمع في إفطاره بأنْ أفطر ثلاثة أيَّام فصاعداً، ولو أفطر يوماً لكان فدية طعام مسكين بالإفراد، أو يومين لكان طعام مسكينين.

(فقه) يكال لكل مسكين مدان من بُرٍّ أو أربعة من غيره عند العراقيين، ومداناً من برٍّ عند الحجازيين، ويجوز ذلك من غالب قوت البلد وأجيز مدان من شعير، ويجوز أنْ يأكل في بطنه حتَّى يشبع غداء وعشاء، وأجيز أكلة واحدة حتَّى يشبع، وإنْ لم يفطروا فلا فدية عليهم ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أو بقوله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل...﴾ إلخ، وبقوله: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ وذلك تدرّيج لهم لمشقته إذ لم يتعودوه ليتدربوا، والنسخ بعد العمل هنا، ولو كان الصحيح أنه يجوز قبل العمل أيضاً، وحكمته قبل العمل قبول المنسوخ والإذعان له قبل

نسخه، فيثاب على ذلك وغيره مما قرّرتَه في أصول الفقه، وعن ابن عباس كانوا يفطرون ويطعمون ولو أصبحوا على الصوم.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ عالج الطاعة بصوم أكثر من العدة التي أفطر فيها، أو بإطعام أكثر مما لزمه، ﴿فَهُوَ﴾ أي الخير وهو صوم الزائد على العدة، أو على الإطعام الواجب، أو الضمير للتطوع. ﴿خَيْرٌ لَهُ﴾ أفضل ثوابًا، فهو نفع له أخروي.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الإطعام والإفطار ولو مع زيادة على القدر الواجب في الإطعام، أو خير لكم من الإفطار والإطعام والزيادة فيه.

وإن قدرنا: لا يطيقونه لنحو كبر من العلل اللازمة، أو الذين كانوا يطيقونه ثم عجزوا لكبر ونحوه من العلل اللازمة، مع ما فيهما من التكلف فلا نسخ؛ وقدّر بعضهم: لا يطيقونه، أو كانوا يطيقونه شاملا لكبر ونحوه، وحمل ورضاع.

(فقهه) إلا أنّ الحامل والمرضع تقضيان ولو أطعمتا، ولا إطعام على مريض يرجى برؤه، وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ على إبقائه بلا تأويل بكانوا، ولا ب«لا» فغير شامل للحامل والمرضع، لأنّهما ولو تطيقان لكن خافتا على الحمل والرضيع، وتفطران وجوبًا وتطعمان وتقضيان، بخلاف الصحيح

المطيق فإنَّ إفطاره على التخيير بينه وبين الصوم ولا قضاء عليه، وذلك قبل النسخ، ومن عجز بعده على الصوم لكبر أو علة لازمة أفطر وأطعم، وقيل: لا إطعام عليه.

(فقه) وقال بعض: على الحامل والمرضع القضاء والإطعام إن خافتا على الولد، وإن خافتا عليهما فقط أو عليهما وعلى الولد فالقضاء فقط. وقال أبو حنيفة: لا إطعام على الحامل والمرضع لأنَّهما تقضيان بخلاف الكبير. وعن الحسن: أيُّ مرض أشدُّ من الحمل، تفطر الحامل وتقضي ولا تطعم، خافت على نفسها أو ولدها أو عليهما. ويقال: الصوم خير لمن تطوَّع به وهو مريض أو مسافر مع عدم شدَّة المشقَّة، وأمَّا معها فالإفطار خير. والمطيق بحسب الأصل: اسم القادر على الشيء مع شدَّة، فتشمل الآية الكبير بلا تقدير "لا" وبلا تقدير "كانوا".

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يظهر لكم أنَّه خير إن كنتم من أهل العلم، وإن كنتم تعلمون ثوابه وحُسن براءة الذمَّة احتراموه، أو فافعلوه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ إضافة عامٌ لخاص، كشجر أراك، وهي للبيان، أي شهر هو رمضان، فيجوز ذكر رمضان بلا شهر، وليس اسمًا لله كما ادَّعى من زعم أنَّه مروِّي. والمعنى كتب عليكم الصيام، صيام

شهر رمضان ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ﴾ أو تلكم الأيام المعدودات ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾ إلخ. أو شهر رمضان، الشهر الذي أنزل فيه القرآن بمرّة كلّه إلى السماء الدنيا.

(لغة) والشهر من شهرت الشيء: أظهرته، لأنّ الشهور تُعيّن للعبادة أو للمعاملة. ورمضان من الرمض بإسكان الميم، وهو مطر يأتي قبل الخريف يزيل الغبار عن وجه الأرض، فكذلك صومه يزيل الذنوب؛ وقيل: سُمّي لارتماضهم فيه عامًا بالجوع والعطش؛ أو لوقوعه أيّام رمض، أي شدّة حرّ، فسُمّي بعدد، ولو لم يكن جوع أو عطش أو حرّ؛ أو لاحتراق الذنوب، إلا أنّ هذا يناسب النزول لا ما قبله، ولا بأس، بل هو المروي عنه عنه أو لمرض الفصال.

قيل: نقلت أسماء الشهور على أسمائها الأولى دفعة، وقيل: تدريجيًا، واختير الأوّل، ووجه الثاني: أنّهم حفظوا لكلّ شهر ما وقع فيه، ولمّا تمت اتّفق أنّهم سمّوها لتحريم القتال في المحرم، وخلوّ مكة عن أهلها في صفر للحرب، وارتباع الناس في الربيعين، وجمود الماء في الجمادين، وشوال أذئاب اللقاح في شوال، ورجب الناس شجرهم بالعمد لعظم حملها، وتعظيمهم — ولو في الجاهليّة — رجبًا، حتّى أنّهم يحجّون فيها كما في ذي الحجّة، والرجب التعظيم؛ وقعودهم

عن الحرب في ذي القعدة، وحجهم من قبل الإسلام في ذي الحجة أصالة، وتشعب القبائل في شعبان.

﴿هُدَىٰ لِلنَّاسِ﴾ حال كونه هاديًا، وإسناد الهداية إليه مجاز عقلي، ولولا قوله: ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ لكان مفعولا من أجله، أي وآيات واضحات، والهدى أعمُّ لأنه يكون بواضح وخفي. ﴿مِّنَ الْهُدَىٰ﴾ مِمَّا يهدي إلى الحقِّ ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ ومن الفرقان، مِمَّا يفرق بين الحقِّ والباطل. الهدى الأوَّل هداية حاصلة بإعجازه، والهدى الثاني هو الهدى الحاصل باشماله على الحقِّ، والتفريق بينه وبين الباطل لما فيه من أنواع الحكمة وأمور الدين، من واجب وحرام ومستحب؛ أو الأولى: الآداب والديانات الاعتقاديَّة، والثانية أمور الدين؛ أو الأولى الاعتقادات، والثانية باقي ما ذكر، فلا تكرير.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ المذكور، أي حضره بالغًا عاقلًا صحيحًا قادرًا غير مسافر، رأى الهلال هو أو غيره، أو استكمل العدة لشعبان. وليس الشهر مرادًا به الهلال، فسُمِّي أوَّل الشهر باسم كلِّه، أو يقدر مضاف. قال ابن عبَّاس وعليُّ وابن عمر: من شهد أوَّل الشهر فليصمه جميعه ولا يفطر، ولو سافر، ولذلك قال الله جلَّ وعلا: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ ولم يقل: فليصم فيه.

والصحيح أنَّ لمن شهد أوَّلَه أن يسافر (فقه)

ويفطر، والآية لا تمنع ذلك بل توجب الصوم على حاضره ما لم يكن مريضاً أو مسافراً؛ ولو جنَّ في باقيه حتى انسلخ فإنه يقضي، أو جنَّ قبله وأفاق فيه فإنه يقضي ما مضى، وقيل: لا يقضيان بناء على أن كلَّ يوم فرض، وإن جنَّ قبله وأفاق بعده فلا قضاء عليه لأنه لم يشهده.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ كرَّره لئلاً يتوهم أنهما داخلان فيمن شهد المعبر به هنا دون ما مضى، ولئلاً يتوهم نسخ قوله أولاً ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا...﴾ إلخ بقوله هنا: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ بأن يجب الصوم على المريض والمسافر مع أنه ليس كذلك، كما نسخ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ في دينه، أي يشرِّعه، وهو مراد أبي حيان إذ فسَّر الإرادة بالطلب، قال: ذلك خروجاً عن تبدُّل الإرادة، فإنَّ إرادة الله لا تتبدُّل، وذلك منه خروج عن مذهب الاعتزال، إذ زعمت المعتزلة أنَّ إرادته تعالى قد يخالفها العبد وتبطل. ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ومن ذلك أنه أباح الإفطار في المرض والسفر دائماً، وخيَّر بين الصوم والإطعام أولاً، تسهياً أو تأنيساً ثمَّ نسخ لما تدرَّبتم فتوفَّر لكم الأجر.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ اللام ليست للأمر بإكمال ما أفطرتم فيه، أو بإكمال عدَّة رمضان ثلاثين أو تسعة وعشرين، بل للتعليل عطفاً على المعنى، كعطف التوهم في غير القرآن، لأنَّ قوله: ﴿يُرِيدُ﴾ في معنى العلة للأمر

بالصوم، وكذا قوله: ﴿وَلْتَكْبُرُوا اللَّهَ﴾ ولا تكون لام الأمر، لأنَّ أمرَ المخاطب باللام يختصُّ بالضرورة أو شاذًّا أو لغية (١). ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي ولتثنوا عليه لأجل هدايته إيَّاكم لدينه، أو ثنوا عليه حامدين عليها، والتكبير للتعظيم والثناء؛ وقيل: تكبير العيد من المغرب إلى صلاة العيد؛ وقيل: تكبير رؤية الهلال. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على التيسير والترخيص. ويجوز أن يكون المعنى: فصوموا عدَّةَ أيَّامٍ آخر لتكملوا العدَّةَ التي لم يصم المريض والمسافر في مثل تلك العدَّة، وهذاكم...

(فقه) كيفية القضاء متتابعًا كما دلَّ له لفظ عدَّة، كأنه قيل: مجموعة بنيَّة من الليل نية واحدة له، لتكبروا الله على إرشادكم إلى الحقِّ، ولا سيما القضاء المطلق، ورخص في الإفطار للمسافر والمريض وحامل ومرضع، لكي تشكروا؛ أو العطف على محذوف، أي ليسهل، ولتكملوا، أو لتعلموا ما تعملون، ولتكملوا.

(أصول الدين) ولا يخفى أنَّ أمر الله ونهيه يتخلفان، يأمر المكلف ولا يمتثل، وينهاه ولا ينتهي، وإرادته لا تتخلف كما قال أبو حيان ردًّا منه على المعتزلة، فلا يجوز العطف على اليسر بزيادة اللام، هكذا ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ وتكميل العدَّة، فقد لا يكملها ولا يكبر الله،

وقد قضى الله بالتكبير والتكميل، هذا باطل لا يصح، إلا أن يتكلف بتأويل الإرادة هنا بالأمر، وصائم رمضان يثاب على ثلاثين يوماً ولو نقص الشهر، لأنه نوى إن تم صامه تاماً.

قالت جماعة من العرب، (سبب النزول)

أو أعرابيٌّ لرسول الله ﷺ: أقرب ربُّنا فنناجيه - أي ندعوه سرًّا - أم بعيد فنناديه؟ - أي نجهر، فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ الصِّيَامِ الرَّفْعِ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَشِّرُوهُنَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَكُنَّ وَأَكْرَهُنَّ وَتَشْرَبْنَ وَأَشْرَبْنَ وَأَشْرَبْنَ وَأَشْرَبْنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

أحكام الصيام

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ بعلمي بهم، ونفعي

لهم، وإجابة دعائهم، وبأحوالهم، والله قريب سأل العباد عنه أم لم يسألوا، ولكن المعنى: وإذا سألك عبادي عني فقل لهم عني إنني قريب؛ سألوه عن القرب والبعد الحسيين، لأنهم حديثوا عهد بالإسلام، ولا سيما إذا قلنا: إن السائل أعرابي، فإن البدوي كثير الجهل، وأجابهم بأنه قريب قرباً معنوياً، ويحتمل أنهم مشركون سألوه عن القرب والبعد حساً فأجابهم بالقرب المعنوي، ولا يبعده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ لأنه يجب الإسلام إلى المشركين بهذا وبما هو أعظم، فليس كما قيل: إن قوله: ﴿عِبَادِي﴾ وقولهم فنناجيه يبعد كون السائلين مشركين.

وقيل: سألوه عن القرب والبعد المعنويين وهم مسلمون، ورجحه بعض، وهما قرب الإجابة وبعدها، وإذا قلنا: السائل واحد فالجمع لكون الحكم يعمُّ السائل وغيره، والسؤال لا يختصُّ به، وربما سأل غيره، ولذا قال: «إِذَا» مع أنه قد وقع السؤال من واحد أو جماعة، ويجوز أن تكون «إِذَا» لتنزيل حال النزول منزلة ما تقدّم عن السؤال. ﴿أَجِيبُ﴾ بإعطاء المطلوب ﴿دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾ تفسير للقرب المذكور في الآية خصوصاً، وإن أريد به عموم أنه عالم فهذا تقرير له، وعلى الوجهين هو وعد بالإجابة، ولا يشكل تخلفها لحكمة، فقد تتخلف مطلقاً، وقد تتخلف إلى بدل. قال ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله تبارك

وتعالى إحدَى ثلاثٍ: إمّا أن يُعجّلَ دعوته، وإمّا أن يدّخر له، وإمّا أن يكفّ عنه من السوءِ مثلها»^(١).

﴿فَلَيْسَتْ جِيبُوا لِي﴾ بالطاعة كما أجيب دعاءهم، أو ليطلبوا إجابتي، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ إن كانوا مشركين، وليدوموا على الإيمان إن كانوا موحدّين؛ وقيل: الاستجابة بعمل الجوارح كما فسّرتة، والإيمان بالقلب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ يهتدون إلى مصالحهم الدنيوية والدينيّة.

﴿أَحِلٌّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ حقيقة ليالي الصوم، وأضيفت للصوم مع أنّه لا صوم في الليل بل في النهار لاتّصالها بنهارها بعدها، ولأنّ نية الصوم في الليل، أو باعتبار ما قبل نزول هذه الآية من وجوب صوم ما بقي من الليل بعد صلاة العشاء، أو النوم، وهو متعلّق بقوله: ﴿الرَّفَثُ﴾ ولو كان منحللاً إلى حرف المصدر والفعل للتوسّع في الظروف لا بـ«أَحِلٌّ» لأنّ نزول الإحلال ليس في ليلة رفث مخصوصة، ولا كلّ ليلة رفث، إلّا بتأويل: أثبت لكم كلّ ليلة الرفث، أي يوقع ثبوته في كلّ ليلة، وهو بمعنى الجماع، وعدّي بإلى كما قال: ﴿إِلَى

١ - رواه أحمد في مسنده، ج ٤، ص ٣٧، رقم ١١١٣٣، من حديث أبي سعيد.

ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (٢٥)، باب بيان أنّه يستجاب للداعي ما لم يعجّل، رقم ٩٢، بالانقصار على السطر الأوّل منه، من حديث أبي هريرة.

نِسَائِكُمْ ﴿ لتضمُّنه معنى الإفضاء المستعمل مع النساء غالباً بمعنى الجماع، وهو جمع نسوة، أو لا مفرد له، يقال: أفضى إلى امرأته أي جامعها، قال: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

﴿هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ لَهُنَّ﴾ يمنع كلٌّ من الزوجين الآخر من الزنى بالفرج والعين والقلب واللسان واليد والرجل والإمضاء باليد، بكونه فيه كفاية للآخر، كما يمنع الثوب انكشاف العورة، وبقية من حرَّ جهنم وبردتها كما يمنع الثوب الحرَّ والبرد عن البدن، ويحتاج كلٌّ للآخر كما يحتاج للثوب، ويخالط كلُّ الآخر بالالتصاق كالثوب مع البدن. قال ﷺ: «من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه»^(١). وقدَّم كونهنَّ لباساً لأنَّهنَّ أشدُّ احتياجاً إليهنَّ، لأنَّهنَّ أقلُّ صبراً عن الجماع منهنَّ، وهنَّ أشدُّ حباً للجماع إلاَّ أنَّهنَّ أكثر صبراً وأشدُّ حياءً. قال ﷺ: «لا خيرَ في النساءِ، ولا صبرَ عنهنَّ، يغلبن كريمةً، ويغلبهنَّ لئيم، وأحبُّ أن أكون كريمةً مغلوباً، ولا أحبُّ أن أكون لئيمًا غالباً»^(٢).

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ أو كذَّ من تخونون، لأنَّ من

١ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ج ٤، ص ٢٥٥، من حديث أنس بما يقرب معناه.

ورواه الطبراني كذلك في الأوسط، ج ١، ص ١٦٢، رقم ١، من حديث أنس.

وذكر الألوسي في تفسيره أنه خير وليس بحديث.

٢ - لم نقف على تخريجه.

معاني "افتعل" العلاج والمبالغة، ولكثرة الحروف، والمعنى: تعرضون للعقاب وحرمان الثواب. ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بالجماع بعد النوم أو بعد صلاة العشاء، وقد حرّم ذلك ليلة الصوم، والمعنى: تحتانون أنفسكم في الجملة طبعاً لا في خصوص الجماع وقت تحريمه، بل هذا داخل في الجملة، ولهذا قال: ﴿كُنْتُمْ﴾، ويحتمل أن يريد خصوص ذلك الجماع، أخبر الله بعد وقوعه أنه عالم به حين كان.

(سبب النزول) وذلك أنّ عمر وكعب بن مالك

وغيرهما جامعوا وقت لا يجوز، وهو ما بعد أن ينام، فإذا نام حرم عليه الجماع والأكل والشرب إلى الليلة التي بعد، وقد سمر عمر عنده ﷺ، ووجد رائحة طيبة عند زوجه، وقالت: قد نمت، وقال: ما نمت، واعتذروا للنبي ﷺ، فنزل ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ...﴾ الآية.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ إذ تبتم من هذه الكبيرة، أو تبتم فتاب عليكم، أي قبل توبتكم، قال عمر: يا رسول الله، أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة، إنّي رجعت إلى أهلي بعدما صلّيت العشاء، فوجدت رائحة طيبة، فسوّلت لي نفسي فجامعتها، وهذه توبة، وكلّهم تابوا. ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ أزال العقاب كما تعفو الريح الأثر، أي تزيله؛ أو تاب عليكم: أزال التحريم، وعفا: غفر لكم ما فعلتم. ﴿فَالآنَ﴾ اسم الإشارة، ظرف زمان مبنيّ موضوع على «الآن»؛ وقيل:

"أَلٌ" للحضور، وهي المفيدة له، ويقال: أصله: آن، فعلاً ماضياً بمعنى حضر، ثم جعل اسماً وهو ظرف بمعنى الزمان الحاضر إلى قيام الساعة، أي باشروهنَّ في الزمان كله متى شئتم بعدما أجمت لكم، فصَحَّ أن يعلَّق بقوله:

﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ فليس اسماً لوقت النزول فقط، لأنَّ وقت النزول انقطع والأمر لِمَا بعد، أو يقال معنى باشروهنَّ، أجمنا لكم مباشرتهنَّ بعد الحضر، فيكون الآن لوقت النزول على هذا الوجه. وعبرَ هنا بالمباشرة عن الجماع، وهنالك بالرفث لأنَّه هنا حلال بخلافه هنالك فإنَّه فعل محرَّم قبيح، وسُمِّي مباشرة لأنَّ فيه إصاق البشرة أي الجلدة بالجلدة غالباً، بل لو لم يكن إلا فرج في فرج، ففيه مسُّ جلد الفرج بجلد الفرج. ﴿وَابْتَغُوا﴾ اطلبوا ﴿مَا كَتَبَ﴾ في اللوح المحفوظ أو قدره ﴿اللَّهُ لَكُمْ﴾ معشر المسلمين من الولد إجمالاً، إذ ليس لكل فرد ولد، بل الولد لبعض دون بعض، فتعبَّدهم بأن يطلب كلُّ واحد ولداً، ويرجو أن يكون مِمَّن قدر له ولد فيثاب على الدعاء، وعلى أنَّه كان له ولد مطيع لله نافع له بعد موته مثلاً لنيته، أو المعنى دونكم وما أباح لكم من الجماع، وخذوا منه ما شئتم، أو ذلك كله.

وهكذا يكون الجماع بقصد تحصين النفس

(فقه)

عن الزنى، وبقصد طلب ولد مسلم لا اللذة وحدها كالبهيمة، فتضمَّنت الآية

النهي عن الجماع في الدبر إذ لا ولد منه، والنهي عن العزل وهو صبُّ الماء خارجاً هرباً عن الولد، ولا يعزل عن الحرّة إلا بإذنها خلافاً لمن أجازته، ولا سيما من أجازته عند فساد الزمان، وجاز عن الأمة المتروجة بإذن مالکها، وقيل: بإذنها، وعن السريّة بلا إذن، ولفظ «ما» لعموم الجماع والولد، وإن كان للولد فلائناً النطفة وما قبل نفخ الروح غير عاقل.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الليل كلّهُ متى شئتم، لا ما قبل صلاة العشاء أو النوم فقط.

(فقه) والأكل واجب كما إذا خيف الموت بالجوع، أو مضرة في بدنه أو للحمل، وجائز إذا جاع دون ذلك، وحرام كأكل الحرام والميتة، والأكل على الشبع، إلا لعق الأصابع والصحفة فإنه جائز على الشبع، وإلا ماء زمزم، ومكروه كريمة في طعام من جهة المعاملة، وفي نفسه كالحيوان المكروه، ومستحب كأكل الحلو عند الإفطار في المغرب، والإفطار به صبح عيد الفطر، والإفطار ضحى بزيادة الكبد.

﴿حَتَّى﴾ غاية للأكل والشرب لا لهما وللجماع، لقوله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ جُنْبًا أَصْبَحَ مُفْطِرًا»^(١) فيجب الكف عنه إذا لم يبق ما يتطهر فيه.

١ - رواه الربيع بن حبيب في الجامع، كتاب الصوم (٥١)، باب ما يفطر الصائم، رقم

٣١٥، من حديث أبي هريرة.

ورواه مالك في الموطأ، كتاب الصيام، باب ما جاء في صيام الذي يصبح جنباً في

﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ الضياء الشبيه بالخيط الأبيض
 ﴿مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ من بقية الليل السواد الشبيه بالخيط الأسود،
 متعلق بـ«يَتَبَيَّنَ». ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ حال من الخيط الأبيض، و«مِنْ»
 للبيان، كأنه قيل: والخيط الأبيض هو الفجر، أو للتبعض اعتباراً
 لكون الفجر اسماً للكلِّ والبعض فإن أريد به الكلُّ فتبعية، وإن
 أريد به الجزء فبيانية، كما أنه إذا قلنا: اسم لكله، فإنها بيانية
 لتقدير مضاف، أي وهو بعض الفجر، ولم يبيِّن الخيط الأسود بقوله:
 من بقية الليل، أو قوله من الغبش اكتفاءً ببيان الخيط الأبيض لأنَّ
 بيانه بيان له، ولم يعكس لأنَّ غالب أحكام الصوم من حرمة المباشرة
 والأكل والشرب مرتبطة بالفجر لا بالليل، وبيان الشيء بيان لضده.

والمراد بالخيط الأسود طرف الظلمة المتصل بالفجر، فلا يشكل
 اتساع الظلمة حتى يكون كخيط، أو سَمَّاهَا كُلَّهَا خَيْطًا لمشكلة ما
 هو كخيط، وهو الفجر.

(فقه) ومعلوم أن الله لا يأمر الناس بأكل التراب
 وغير المغذي إلا ما كان دواءً، وأكل التراب حرام، فيلتحق به ما أشبهه،
 فليس الله يقول لنا: كلوا التراب وغيره حتى يتبين لكم... إلخ، فليس ما لا
 يغذي مفطراً للصائم، لأنه لم يدخل في الآية، هذا قلته من جانب من يقول:

لا يفطر إلا المغذي، ولم أر من ذكر مثله، ومشهور المذهب خلافه.

﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ﴾ من الفجر ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ والأمر للوجوب ولو في صوم النفل لوجوب الوفاء وتحريم إبطال العمل، إلا ما أجازته الشرع، كما إذا استثنى من الليل، أو اعترض له أخوه في الله بالإفطار فيما يقال، وفي الآية نفي الوصال.

(سبب النزول) نزلت الآية في صرمة بن قيس، صنعت له زوجه طعاماً فأخذته النوم من شدة تعبها في أرضه نهاراً فأيقظته، فامتنع من الأكل بعد النوم، ففي نصف النهار من الليلة عُشِيَ عليه، ولما أفاق أتى النبي ﷺ فأخبره، فنزلت، وكان رجال يربطون في أرجلهم الخيط الأبيض والخيط الأسود ويأكلون حتى يمتازا، وذلك قبل أن ينزل: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، وكذا جعل عدي رضي الله عنه عقلاً أبيض وعقلاً أسود في وسادته، وجعل ينظر ولا يتبين له الأمر فغدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «إِنَّ وِسَادَكَ لَعَرِيضٌ - أَوْ إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا - ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»^(١). ثُمَّ نَزَلَ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ كما فهمه ﷺ، أو نزلت قبل إخباره.

ولا تلتبس الآية بالفجر الكاذب لأنه يعقبه سواد، ولأنَّ معه

١ - رواه مسلم في كتاب الصيام (٨)، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع

الفجر، رقم ٣٣ (١٠٩١)، من حديث عدي بن حاتم.

خيطان أسودان لا واحد، وليس في الآية تأخير البيان عن وقت الحاجة لأن الآية موكولة إلى الفهم، فيفهم من الفجر قبل نزوله ولو لم يفهمه بعض. وقيل: نزل ذلك قبل رمضان، ففيه تأخير البيان عن وقت الخطاب لا عن وقت الحاجة وهو جائز، ولكن نزولها قبل رمضان لم يصح. ولا يقال: الآية خطاب بظاهرها من نحو العقالين ثم نسخ ذلك الحكم بقوله: ﴿من الفجر﴾ لأن قوله من الفجر نزل مع ما قبله بعمرة، ولأن الخطاب على المجاز وهو واجب، ولو لم يتفطن له نحو عدي.

﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي مقيمون فيما إذا اعتكفتم فيها فلا جماع ليلاً أيضاً كما لا جماع نهاراً، لا في بيوتكم ولا في المساجد.

(فقه) سواء اعتكفتم بالصوم، وهو واجب في الاعتكاف - ولو في غير رمضان، وهو مذهبنا - أم بغير صوم في غير رمضان. ويجوز الاعتكاف في كل مسجد لهذه الآية، وأفضلها ما فيه الجماعة والجمعة والأذان، ونخصه بعض بما فيه ذلك، وبعض بالمساجد الثلاثة، وبعض بالمسجد الحرام ومسجد المدينة، وبعض بالمسجد الحرام، ولا يصح اعتكاف دون ثلاثة أيام، ولا اعتكاف بلا صوم؛ وأجيز يوم ولو بلا صوم، لما روي

عنه ﷺ: «ليس على المعتكف صيام، إلا أن يجعله على نفسه» (١)،
ويفسد بالجماع.

﴿تِلْكَ﴾ الأحكام من المباشرة في الاعتكاف والوطاء بلا ابتغاء بل
لقصد اللذة، والأكل والشرب بعد الفجر. ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ حدّها
لعباده ليقفوا عندها. ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ لا تفعلوها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي
كما بيّن لكم تلك الأحكام ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ المراد
الآيات مطلقاً، أو الآيات الدالّة على الأحكام كما يدلُّ له قوله تعالى:
﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المحرّمات من ترك المفروضات، وفعل الممنوعات.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ
النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أكل الأموال بالباطل

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض لقوله:
أموالكم، إذ لا يُنهي الإنسان عن أكل ماله، ولقوله: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ثابتة

١ - رواه البيهقي في الصيام ١٤٢، باب من رأى الاعتكاف بغير صوم، رقم ٨٥٨٧، من
حديث ابن عباس.

بينكم، معتبرة بأخذك منه وبأخذه منك، ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الوجه الباطل، وهو الطريق الذي يبطل، أي لا يميز العقل الصحيح استعماله ولا الشرع، أو يميزه ولا يميزه الشرع كالرشوة والربا، وما يؤخذ على الزنى أو الكهانة، وكالسرقة والقمار والغصب، والتطيف وأجرة الغناء وثنم الخمر والملاهي، وشهادة الزور والخيانة في الأمانة، والمراد بالأكل الأخذ ولو بلا إتلاف، لأنَّ حبس المال عن مالكه بلا حق حرام، فيدخل الإتلاف بالأكل في البطن، وإعطاؤها وإفسادها بالأولى، وإذا أكل بعضهم مال الآخر ولم يأكل الآخر ماله فقد دخل في الآية، لأنَّ كلَّ واحد نهي أن يأكل مال الآخر، وهذا معنى الآية، وإن قلنا معناها: جمع الأكلين أن تأكل ماله ويأكل مالك، فأكل أحدهما مال الآخر دون أن يأكل الآخر ماله مستفاد من النصّ.

﴿وَتَدَلُّوا بِهَا﴾ تلقوها، والباء صلة للتأكيد وللسببية، أي لا تتوصلوا بها إلى الحكماء، أو للآلة، والعطف على «تأكلوا» أي: ولا تدلوا، أو الفعل منصوب والواو للمعية، والأوّل أولى لأنّه صريح في النهي عن كلِّ من الأكل والإدلاء. ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾ (١) أي: ولا تدلوا بحكومتها بظاهر الأمر أو بحكم الجور، فحذف المضاف، وبدلُ لذلك قوله: ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾، إذ لا معنى لإلقائها إليهم، وإنّما المراد الترافع

١ - في نسخة ج زيادة: عطف على لا تاكلوا.

بها إليهم بخصام الفجور ليأخذها أو بعضها، أو يثقل الخصام على صاحبها فيتركها، أو لا تلقوها رشوة إليهم، وأصل الإدلاء: إرسال الدلو في البئر، ثم استعمل لمطلق التوصل إلى الشيء ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ لتأخذوا ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة، هي كل ما خصم فيه أو بعضه، وعلى كل حال هي من أموال الناس كما قال ﴿مِنَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بسبب الإثم، فيتعلق به «تأكلوا»، أو معه فيتعلق بمحذوف حال من الواو، والإثم هو نفس شهادة الزور، واليمين الكاذبة، فإنَّ شهادة الزور إثم لشاهدها، ولا يحلُّ للمشهود له الأكل بها ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا حقَّ لكم في ذلك ودعواكم باطلة، وارتكاب الشيء مع عدم العلم بأنه معصية قبيح، ومع العلم أقبح.

(فقه) وفي الآية أنَّ حكم الحاكم لا يُحلُّ باطلاً، وقد قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ، فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ»^(١). وعنه ﷺ: «مَنْ حَكَمْتَ لَهُ بِحَقِّ صَاحِبِهِ فَإِنَّمَا أَجْزَا

١ - رواه الربيع في الجامع، كتاب الأحكام، رقم ٥٨٨.

ورواه البيهقي في آداب القاضي (٦١)، باب من قال ليس للقاضي أن يقضي بعلمه،

رقم ٢٠٥٠٢، من حديث أم سلمة. ورواه الطبراني، ج ٢٣، ص ٣٨٢، رقم ٨٠٣.

له جذوة من نار».

(سبب النزول) نزلت الآية في شأن أرض في يد

امريء القيس الكندي، — من كندة بن ثور، قبيلة من اليمن، يدعيها عبد الحضرمي، — وفي رواية ربيعة بن عبدان الحضرمي — ولا بيّنة له، فحكم ﷺ على امريء القيس باليمين، فأراد أن يحلف، فقرأ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآية (سورة آل عمران: ٧٧)، فترك اليمين، فسلم الأرض إلى عبدان، وأرضاً أخرى مكان ما أكل من غلتها، وذلك هو الحق.

وعن أبي حنيفة حكم الحاكم نافذ ظاهراً وباطناً، فهو كعقد عقده، ولعله لا يصح عنه ذلك إلا حيث لا يصل المحكوم له إلى إدراك ذلك، وإلا كان ذلك منه تحنفاً عن الحق إلى الضلال. وأما ما روي عن علي أن رجلاً خطب امرأة هو دونها فأبت، فأقام شاهدين، فقال: قد زوجك الشاهدان، فمعناه أنك زوجة في الحكم الظاهر لشهادة الشاهدين، والغيب لله سبحانه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التوقيت بالشهر القمريِّ وحقيقة البرِّ

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ الْآهْلِ﴾ السائل: معاذ بن جبل، وثلعة بن غنم؛ فالجمع لأنَّ أقلَّ الجمع اثنان، أو مجازاً، أو لأنَّهما من قوم رضوا هذا السؤال، أو حكم على المجموع، قالوا: يارسول الله، يطلع دقيقاً ثمَّ ينمو حتى يكمل، ثمَّ ينقص حتى يكون على حال طلوعه أوَّلاً ويذهب، لِمَ لم يكن كالشمس بحال واحدة؟.

(لغة) وسمي هلالاً لأنَّه يرفع الصوت عند طلوعه أوَّلاً، ورفع الصوت إهلال، وهو هلال في الأولى أو في الثانية أيضاً أو في الثالثة معهما، أو هو هلال حتى يحجز بخطِّ دقيق كما قال الأصمعيُّ، أو حتى يبهر ضوءه سوادَ الليل، وغياً بعضهم ذلك بسبع ليال، قيل: وكذا في آخره هو هلال، ولا يصحُّ، وبين ذلك قمر، والمراد هنا مطلق هذا الكوكب كما رأيت في السؤال، يسمَّى قمرًا مطلقاً مجازاً أو اشتراكاً.

وأما جمع الهلال مع أنَّه واحد فباعتبار ليالي طلوعه، والسؤال لم يختصَّ بهلال دون آخر، والمضارع لإمكان تكرير السؤال، أو لتنزيل الماضي منزلة الحاضر، أو الماضي منزلة المستقبل، أو تنزيل حالة النزول منزلة ما قبل السؤال، وقيل: إنَّ السؤال من اليهود للصحابة يعتبر أنَّ سؤال الصحابة سؤال للنبي ﷺ، لأنَّهم مستفيدون منه وسائلون له في كلِّ ما أرادوا.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ لأموهم الدنيويَّة والدينيَّة، كأجل الدين، والإجارة والعدَّة والحيض والصوم والحجِّ، وقد ذكره الله، وليس من ذلك المزارع لأنَّها بسير الشمس وشهورها. وهذا جواب على مقتضى الظاهر؛ سألوا عن الحكمة في اختلاف تشكُّل القمر، فقال: حكمته أنَّه مواقيت للناس، إذ لو بقي على شكل واحد لم تتعدَّد الأشهر، وإن كان سؤلهم عن السبب في ذاته.

كان الجواب على خلاف مقتضى الظاهر إرشاداً لهم بأنَّ الأليق أن يسألوا عن الحكمة، والنبوء ﷺ لم يبعثه الله لدقائق علم الهيئة بل للشرعيات، ولو أجابهم بالسبب لقال: ذلك لِقُرْبِهِ من الشمس وبعده، ولا بأس به لظهوره، ولا تأباه الشريعة، إلا أن تقول الشريعة: لا تجزموا بذلك، بل قولوه على الظنِّ، أو بأنَّ الله جعله سبباً لتولُّد ما يتولَّد، والله هو الخالق كما يخلق النبات بالماء، لكن لا دليل على هذا، وإنَّما ظهر بعضه في الشمس، والميقات آلة الحدِّ قياساً، فذلك آلة ما يعرف بها الوقت، أو مكانه شذوذاً.

﴿وَالْحَجِّ﴾ عطف على الناس باعتبار مضاف، أي: لأغراض الناس وللحجِّ.

(فقه) فذكر الحجِّ بعد تعميم لمزيته في التوقيت، إذ الوقت أشدُّ لزوماً له، إذ لا يقضى إلا في وقت أدائه من قابل أو بعده، وسائر العبادات تقضى في كلِّ وقت حتَّى سائر الأوقات، تقضى إذا فات وقتها

بحسب الإمكان واللياقة، ولا يلزم إبقاؤها إلى وقتها من قابل. واستدلَّ بعضٌ بالآية على جواز الإحرام بالحجِّ في كلِّ السنة، وفيه بُعدٌ ومخالفة للسنة، بل هي دليل على أنه مخصوص بأشهر يحتاج إلى تمييزها، وإلا لم يحتاج الكلام إلى ذكر الهلال مع الحجِّ، ولما ذكر علمنا أنه احتاج إلى جنس الشهر فبيَّته السنة.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ بعد إحرامكم بحجٍّ أو بعمره بأن تُنقَّبوا البناء ونحوه، أو ترفعوا خلفاً مخالفة لحالكم قبل، أو تدخلوا بسلمٍ لئلا يستركم شيء عن السماء، وإذا دخلتم بذلك الحاجة وقفتم حيث لا يظلكم شيء عن السماء، وترجعوا من ذلك، ذلكم بدعة مخالفة للشرع. والنقب إسراف.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ مرَّ مثله وهو قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرُّ مَنْ - أَمَنَ﴾ أي من اتقى عقاب الله بترك مخالفته وبترك هذه البدعة وسائر المعاصي، وذكر ذلك لأنَّهم سألوه أيضاً عن إتيان البيوت، ولم يذكره في السؤال استغناءً بالجواب، مع أنه ممَّا لا ينبغي السؤال عنه لظهور بطلانه، وإن لم يسألوا عنه فإنه ذكر لذكر الحجِّ، أو شبه سؤالهم عمَّا لا يهمُّ وهو الأهلَّة وترك السؤال عمَّا بهمُّ من الأحكام بحالٍ من ترك الدخول من الباب وعالجه من غيره.

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ بعد الإحرام كما قبله، أو باشيروا الأمور بوجوهها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بالهداية

إلى كلِّ برٍّ وبُغية، وإلى أنَّ في كلِّ أفعاله حكمة بالغة.

وعن جابر بن عبد الله، كانت قريش تُدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت العرب والأنصار لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، - وفي رواية: رفاعة بن ثالوث - فقالوا: يارسول الله، إنَّ قطبة بن عامر - أو رفاعة بن ثالوث - رجل فاجر، وإنَّه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت. قال: إنِّي رجل أحمسي، قال: فإنَّ ديني دينك (١)، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا...﴾ الآية. وعن البراء: كانت الأنصار إذا قدموا من سفر لم يدخل الرجل من الباب فنزلت الآية، والمراد اتَّقوا الله في شرع ما لم يشرِّعه، وفي تغيير أحكامه.

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾
 ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُمَازِنُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾
 ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾
 ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

١ - أورده ابن كثير في تفسيره، ج ١، ص ٢٢٥، رواية عن الطيالسي.

وَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ إِنْتَهُوَا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ
وَالْحَرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ إِبْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا إِبْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ
إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴿١٩٥﴾

قواعد القتال في سبيل الله

(سبب النزول) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ردَّ المشركون رسول الله ﷺ عن البيت عام الحديبية من الحديبية، وهي موضع فيه ماء وشجر، قاموا فيه ثلاثين يوماً وصالحوه على أن يرجع من قابل، وكانوا معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدى، فلما كان العام القابل تجهَّزوا بعمرة القضاء في ذي القعدة، وخافوا أن لا يفي المشركون بذلك، وأن يصدُّوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكرهوا القتال في الشهر الحرام فنزلت الآية، ودخلوا مكة معتمرين، فأقاموا بها ثلاث ليال، وقد فخروا حين ردَّوه، فأَنْصَفَهُ اللهُ مِنْهُمْ فَأَدْخَلَهُ مَكَّةَ فِي الشَّهْرِ الَّذِي رَدُّوهُ فِيهِ.

سمَّيت عمرة القضاء لأنَّهم وعدوه بها فوافقوا له بها، وذلك في العام السابع، وعدَّوه بها في العام السادس يوم الحديبية، وفيها وقع قتالٌ خفيفٌ بحجارة وسهام، والمسلمون ألف وأربعمائة.

وقدَّم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ترغيباً في الإخلاص لإعلاء الدين، والآية

تدلُّ على أنَّه لا يجوز لهم قتالٌ من لم يقاتلهم، وهذا المفهوم منسوخ بما نزل بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، فتكون الآيتان على ما زعموا ناسخة سبعين آية نهى فيها عن القتال، وأمَّا قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ فأوَّل آية نزلت في الإذن بالقتال، نزلت قبل هذه، وهي مثلها في أنَّه يقاتلون من يقاتلهم، ونسخ المفهوم بناء على أنَّه حكم شرعيٌّ. ومعنى يقاتلونكم: تتوقعون منهم القتال بأن أخذوا في أهبتهم.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ تجاوزوا ما حدَّ لكم، بابتداء القتال، أو بقتل من لا يقاتل كالنساء والصبيان والرهبان والشيوخ والمُعاهد، وكلٌّ من كفَّ يده، وبالقتال بلا دعوة والمثلة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عمومًا، وهو لعموم السلب، ولو تأخرت أداة العموم، وهي «ال» الاستغراقية عن السلب، والمعنى لا أحد منهم يحبُّ الله له الخير.

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أخذتموهم أو ظفرتهم بهم، أو أدركتموهم قادرين عليهم، ولو لم يبتدئوكم بالقتال، إلا عند المسجد الحرام فحتى يبدؤكم، كره المسلمون القتال في الشهر الحرام والبلد الحرام فأباحه الله لهم به. ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ موضع الإخراج وهو مكة، وسمي التسيب في الإخراج إخراجًا، لأنَّ أهل مكة ضيقوا على المسلمين بالضرب والحبس وإرادة ذلك، وإرادة القتل والمنع عن دين الله، فخرجوا لذلك، وكذا في قوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ

قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴿﴾ (سورة محمد: ١٣)، أي أخرجك أهلها على حذف مضاف، أو أسند الإخراج إليها لخلوهم فيها، ثم إن الإخراج منهم أيضاً مجاز.

وقد أخرجهم المسلمون يوم الفتح، وقتلوا من قتلوا، أحلت ساعة من نهار، وكان فيها قتل لبعضهم، وبعد الساعة أمروا بالإخراج، أمرهم الله بقتل من أمكن قتله، وإخراج من لم يقتل بحسب الإمكان. ﴿وَالْفِتْنَةَ﴾ الامتحان بالبليّة، أو نفس البليّة إذ من شأنها أن يمتحن بها، أو أن يعامل معاملة الامتحان بها، وذلك كالإخراج من الوطن.

لَقَتْلٍ بَجْدٍ السيفِ أهونُ موقعا على النفسِ من قَتْلِ بَجْدٍ فراق والحمل على الشرك، ولا سيما في الحرم، فإنّ الإشراك فتنة للباقي عليه ولغيره، وكالصدّ عن دين الله وعن المسجد الحرام، وكنفس الإشراك فإنّه يؤدّي إلى الظلم والفساد؛ وإشراك الإنسان أشدّ عليه مضرّة في الدنيا والآخرة من القتل؛ أو لا تركوا قتلهم للبلد الحرام والشهر الحرام، فإنّ شركهم فيهما أقبح إن ظهر لكم أنّ القتل فيهما قبيح، كما قال:

﴿أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لاستمرار ضرر الإخراج ونحوه من المضارّ، كمداممة الضرب والشتم، ولا يخفى أنّ شركهم أعظم من القتل لهم في الحرم والإحرام، أو القتل لهم فيه الذي استعظموه من المسلمين

أعظم من قتلهم المسلمين مطلقاً.

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾ لا تقاتلوا المشركين ابتداءً، وصيغة التفاعل لكون البدء يستتبع قتالاً، والمعنى لا تقتلوهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي في الحرم ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ﴾ يبتدأوكم ﴿فِيهِ﴾ أي في المسجد الحرام، أي في الحرم، وذلك أنَّ «عند» لموضع الحضور، وسائر الحرم حاضر الكعبة منه، ولكم قتلهم في غير الحرم ولو لم يبدأوكم. ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ﴾ فيه، بدأوكم بهيئة القتل، وقع القتل أم لم يقع، ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فيه وفي غيره، اقصدوا قتلهم وعالجوه، ولو أتى عليهم كلهم، ولم يقل: «فقاتلوهم» كما هو مقتضى الظاهر مبالغة ووعداً لهم بالنصر.

ونسخ تحريم القتال إلا إن بدأوا به بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ على قول بتأخير نزوله عن قوله تعالى: ، ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ (سورة التوبة: ٣٦)، أي لا بقيد القتال في الحرم بدءاً، أي الآي نزلت أولاً فهي الناسخة، وما بعدها تقرير لها، والكلُّ منافع لحكم المنسوخ.

﴿كَذَلِكَ﴾ الذي تفعلون بهم من الإخراج لهم من حيث

أخرجوكم، وقتلهم حيث ثقتموهم ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ المذكورين، فالظاهر في موضع المضمرة للتصريح بموجب الجزاء وهو الكفر أو الجنس، فيدخلون أولاً وبالذات. ﴿فَإِنْ اِنْتَهَوْا﴾ عن الشرك والقتال والصدّ يغفر لهم ما قد سلف، أو فاقبلوا عنهم، أو فانتهوا عن قتالهم، ونحو ذلك مما يصلح جواباً، وناب عن الجواب علته كما قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي لأن الله ﴿عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكل تائب، وإن قدرنا فإن الله غفور رحيم لهم فهو الجواب لا علة له، وهذا الانتهاء المذكور عنهم مسبب عن قتال المسلمين لهم بدليل الغاء، ويجوز أن تكون ترتيباً بلا تسبب إلا أنه قليل، وقاتل العمدة تقبل توبته ولو موحداً، ولا دليل لهذا في الآية لأنها في المشركين.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ عند المسجد الحرام وغيره، بدأوكم أو لم يبدأوكم، ﴿حَتَّى﴾ إلى، أو كي ﴿لَا تَكُونَ﴾ تثبت ﴿فِتْنَةً﴾ أي شرك وصدّ وقتال منهم، ولا تقبل جزية لأن الكلام في شرك العرب في الحرمين وما يليهما، وليسوا أهل الكتاب ولا مجوساً. ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ كله كما في الأنفال، ولم يذكره هنا لأن الكلام هنا في أهل مكة خاصة، والدين: العبادة والتوحيد والاعتقادات، والأمور التي هي صواب وحق، يحكم بها ويؤمر بها وتتخذ ديناً. ﴿لِلَّهِ﴾ لا يعبد سواه، ولا يعتبر شرع غيره من الأديان الباطلة، ولا تعتقد الألوهية

غيره. ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ عن الشرك والقتال والصدِّ فانتهوا عن قتالهم، أو فلا عدوان عليهم، كما قال: ﴿فَلَا عُذْوَانَ﴾ أي لأنه لا عدوان ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ بالشرك والحرب والصدِّ غير المنتهين عن ذلك، والمنتهي ليس ظالماً.

والعدوان البغض والقصد بسوء كالقتل والسبي والغنم، ولا يقال العدوان الظلم والاعتداء معبراً به عن الجزاء عليهما للمشاكلة، لأننا نقول: غير الظالم لا تسمى الإساءة إليه جزاءً أيضاً، وفي قولنا: المعنى: لا تفعلوا ما هو في صورة الظلم مجازاةً. يمثله إلا على الظالمين تكلف، وعلل قوله: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ تعليلاً جُملياً بقوله:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ ذو القعدة من السنة السابعة عند عمرة القضاء، قال الله: لا تكرهوا قتالهم في الشهر الحرام فإنه مقابل قتالهم وصدِّهم لكم عام الحديبية، فإن منعوكم في عمرة القضاء فقاتلوهم هتكاً لحرمتهم كما هتكوها لكم في الحديبية. ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ ذي القعدة من السنة السادسة في الحديبية، قاتلهم المشركون فيها ببعض سهام وحجارة كما روي عن ابن عباس، وما في البخاري من أنه لم يقع قتال في الحديبية معناه لم يقع قتال كبير، وعن ابن عباس: رمى المسلمون المشركين في عمرة القضاء حتى أدخلوهم ديارهم؛ وقيل: لم يقع القتال في ذي القعدة وإنه هو ما يراد عند النافي. ﴿وَالْحُرْمَاتُ﴾ جمع حرمة، ما يجب احترامه وحفظه، وهذا احتجاج بجواز هتك حرمة

الشهر بهتكهم إيَّاه في الحديبيَّة، والله أن يهتك ما شاء. ﴿قِصَاصٌ﴾ أي شأن الحرمات قصاص، أو الحرمات ذوات قصاص، كأنه قيل: الشهر الحرام من الحرمة، والحرمة يجري فيها القصاص في الجملة، نفساً أو عرضاً أو مالاً، والشهر الحرام ممَّا أراد الله فيه القصاص بالقتال، وأمَّا أن يقال: الشهر الحرام من الحرمة، وكلُّ حرمة يجري فيها القصاص، فالشهر الحرام فيه القصاص فلا، لأنه لم يثبت أنَّ كلَّ حرمة فيها قصاص.

﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ في عمرة القضاء بالمنع عنها، أو بالقتال في الحرم، أو الإحرام أو الشهر الحرام، ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ جازوه على اعتدائه، سمى فعلهم باسم الفعل الأوَّل للشبه، ولعلاقة الجوار، وباسم الملزوم، وباسم السبب، وكذا في سائر اعتبار المشاكلة. ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ بالدخول في مكَّة ولو كرهوا، كما منعوكم منها في العام الأوَّل، وقاتلوهم على المنع ولو لم يقاتلوا فيه، بل اقتصروا على المنع كما تقاتلونهم إن قاتلوا، ولا تزيدوا بأن تقاتلوهم، ولم يقاتلوكم ولم يمنعوكم، أو بأن تقاتلوا من لم يقاتل.

(فقه) عمم الشافعيُّ القتل بمثل ما قتل به محتجاً بالآية، كقتل بمحدّد وخنق وحرق وتجويع وتغريق، حتّى لو أغرقه في عذب لم يغرقه في ملح.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ احذروا عقابه على المبالغة في الانتقام، وعلى الاعتداء الحقيقي الذي هو فعل ما لا يجوز، واتقوا الله في الانتصار لأنفسكم بما لا يجوز، وترك الاعتذار بما لا يجوز. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون في أمر الدين والدنيا، وبالنصر وإصلاح الشأن والحفظ، والاتقاء اتقاء المعاصي إجلالاً لله، واتقاؤها خوفاً من عقابها، واتقاء الله أيضاً إجلالاً له.

﴿وَأَنْفِقُوا﴾ أموالكم على أنفسكم أكلاً ولباساً لتقووا على الجهاد، وفي شراء الخيل ونفقتها وآلتها للجهاد، وشراء السلاح، وللزاد وتجهيز الغزاة بقدر ما تطيقون، وفي صلة الرحم والمحتاج، والحج والعمرة، وأهل الحاجة والعيال، وجميع المصالح الدينية، وكل ذلك في سبيل الله، كما قال: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولو كان يتبادر هذا اللفظ في الجهاد، فيراد الكل، ولو كان المراد بالذات في المقام الجهاد، والآية أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالجسد. ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ﴾ لا تطرحوا أيديكم، ولا تفضوا بأيديكم، وسمي الطرح إلقاء لأنه تصيير الشيء، يلقي أي يصادف، والأيدي الأجساد لأنها بعضها الذي تدفع به وتجلب غالباً، وأقوى، أو لا تلقوا أيديكم منتهية أو منتهين ﴿إِلَى النَّهْلِكَةِ﴾ أي الهلاك، أي المضرة الدنيوية وهي القتل، والأخروية وهي عذاب النار.

(صرف) ولا مصدر على هذا الوزن إلا «تَضُرَّة»
 و«تُسْرَة». بمعنى الضرر والسرور، فهنَّ ثلاثة؛ وقيل: الضمُّ بدل الكسر، ولا
 داعي إلى إبدال الثقيل بالأثقل، وأمَّا الجوار بالضمِّ فلغة في الجوار بالكسر، لا
 نَقْل، مع أنَّ الضمَّ أنسب بالواو، وأيضًا التفعلة بالكسر مقيس في معلِّ اللام
 سماعٌ في الصحيح كحجربة وتكملة.

وقيل: الهلاك ما يمكن التخلص منه، والتهلكة ما لا يمكن
 التخلص منه، وزيادة الباء في المفعول به قليلة، أو لا تلقوا بأيديكم
 أنفسكم إلى التهلكة، أي باختياركم فتأخذ التهلكة بها وتقبضها،
 فذكرُ الأيدي إشعار بالاختيار وحذف المفعول، أو لا تجعلوا
 التهلكة آخذة بأيديكم، كما يقال في العاجز: «ألقي بيده إلى
 عدوه» فإنَّكم إذا تركتم الجهاد أو الإنفاق فيه أهلككم العدوُّ
 بالقتل والتغلب، إذا تركوا الإنفاق في الجهاد ضعف الجهاد فيؤول
 إلى تركه وإلى غلبة العدوِّ عليهم وقتلهم.

(سبب النزول) قال أبو أيُّوب خالد بن زيد الأنصاريُّ:
 لما أعزَّ الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أموالنا وأهلنا نقيم فيها ونصلحها،
 فنزلت الآية، فيحتمل أنَّ سببها ما ذكره، فتشمل بعموم اللفظ الإمساك عن
 الإنفاق لحبِّ المال، وذلك هلاك أخرويُّ، وقد سُمِّي البخل هلاكًا لأنَّه سبب
 الهلاك، ويشمل الإسراف حتى يبقى يتكفَّف.

ففي الإنفاق طرفان مذمومان: إفراط وهو الإسراف، وتفريط وهو الإمساك، نهى عنهما بقوله عز وجل: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وأشار إلى الوسط بقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا﴾. وللقنات طرفان: إفراط وهو التهور، وتفريط وهو الجبن نهى عنهما بقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا﴾ وأشار إلى الوسط وهو الشجاعة بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾.

وفي رواية: قالت الأنصار فيما بينهم: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ دِينَهُ وَكَثَّرَ نَاصِرَهُ، فلو قلنا له ﷺ: «نقيم لإصلاح مالنا وتدارك ما ضاع منها» فنزلت الآية.

(فقه) واستدلَّ بالآية على تحريم الإقدام إلى ما فيه الهلاك، وعلى جواز مصالحة الكفار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه، أو على المسلمين.

وفسر بعض التهلكة بالدخول في وسط العدو، وفسر بالبخل ونحو ذلك مما مر، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو اشتغال الأنصار بأموالهم كما مر، فمن مثل لها بمسلم دخل في صف الروم وحده بعده ﷺ لم يخطأ، إلا إن قصرها على مثله.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ بالإنفاق، لا تتركوه ولا تسرفوا، ولا تجعلوه في المعصية، بل على أهلكم وقرابتكم وأهل الحاجة، وفي الجهاد في سبيل الله، وبأعمالكم وأخلاقكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

أي يثيبهم على إحسانهم أو يعطيهم الخير، لأن من لازم الحب في الشاهد فعل الخير.

﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَمْلِكُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

أحكام الحج والعمرة

﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ إيتوا بهما تامين بشروطهما وأركانهما، لا تقطعوها ولا تكذروها بشيء، والأمر للوجوب، فهما واجبان ذاتاً وتاماً. وإن قرئ برفع العمرة فالمعنى: والعمرة ثابتة لله على وجه الوجوب، أو العمرة واجبة لله؛ ويدل للوجوب أيضاً: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾؛ والقائل بعدم وجوبها يقول: الآية أمر بإتمامها بعد الدخول فيها، وكل نفل يجب إتمامه بعد الدخول فيه صحيحاً.

(فقه) فالحج واجب لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى

الناس حُجَّ البيت ﴿ (سورة آل عمران: ٩٧) كالصيام وجب بقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾، ﴿ وَأَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أمر بإتمامه، والعمرة نفل، لما روي أنه ﷺ قيل له: «العمرة واجبة يا رسول الله؟» قال: «لا، ولكن أن تعتمر خير لك» (١) كما روي عنه ﷺ: «الحجُّ جهاد، والعمرة تطوع» (٢)، فالحديث يبان للآية لا نسخ، فضلاً عن أن يقال: الآحاد لا ينسخ القرآن، فأقول: نسخ هذا الحديث بقوله ﷺ: «العمرة داخلة في الحجِّ إلى يوم القيامة» (٣) ولا يضرُّنا احتمال أن وجوبها تبع لوجوب الحجِّ، أو يصحُّ بها الحجُّ ولو نفلاً. وقد قيل لعمر: «وجدت الحجَّ والعمرة مكتوبين عليَّ فأهللتُ بهما جميعاً» - بالفاء - فقال: هديت لسنة نبيك، فلم يقل له عمر: لم تفرض العمرة، ولا يحتمل مع الفاء أن يقال: وجبت عليه بالشروع، ورواية إسقاط الفاء تبينها رواية الفاء. وعنه ﷺ: «الحجُّ والعمرة واجبان، لا يضرُّك يأيُّهما بدأت» (٤). فيجمع بين الروايات بأنَّها غير واجبة استقلالاً

١ - رواه الترمذي في الحج (٨٨)، باب ما جاء في العمرة...، رقم ٩٣١، من حديث جابر.

٢ - رواه الطبراني، ج ١١، ص ٣٥٠، رقم ١٢٢٥٢، من حديث ابن عباس، بتعريف لفظ الجهاد.

٣ - رواه مسلم في الحج (٣١)، باب جواز العمرة في أشهر الحج، رقم ٢٠٣.

ورواه الترمذي في الحج (٨٩)، باب منه، رقم ٩٣٢، من حديث ابن عباس.

والبيهقي في الحج (٢٧)، باب من قال بوجوب العمرة...، رقم ٨٧٧٢،

من حديث مالك بن جعشم.

٤ - رواه البيهقي في الحج (٢٧)، باب من قال بوجوب العمرة استدلالاً...، رقم ٨٧٦٥،

كما وجب الحجُّ، وواجبة على مرید الحجِّ أن يعتمر معه قبله أو بعده، ولو كان الحجُّ نفلاً. ومن أحرم لحجَّ نفل أو عمرة وأفسده أو أفسدها أتمَّه أو أتمَّها وأعادها وأعادها. والحقُّ أنَّ الصحابي حجةٌ خلافاً للشافعي، لقوله ﷺ: «اقتدوا بأصحابي»^(١). ولا يخصُّ هذا بما روه صريحاً عنه ﷺ. ويقال إتمام الحجِّ أن تحرم به من دارك إن دخل شوال، أو إتمام العمرة أن تحرم بها من دارك مطلقاً، وإن دخل شوال جاز قرنهما؛ ويقال: إتمامها أن تفرد لكلٍّ منهما سفراً؛ ويقال: أن لا تشوبهما بغرض دنويٍّ كتجر ونكاح؛ ويقال: أن لا تكون النفقة حراماً ولا شبهة.

﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أي حصرتم، فهو موافق للثلاثيِّ، أي منعم عن الإتمام بعدوٍّ أو مرض، أو غيرهما كضياع نفقة، فيقدَّر في قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أو شفيتم، أو زال المانع، أو يؤوَّل: أمتم بزوال المانع مطلقاً، بل الأيمن يكون من المرض كقوله ﷺ: «الزكأمُ أمان من الجذام». ونزولها في الحديدية لا ينافي عموم الحكم، فإنَّ خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم لعموم اللفظ، وإلاً فالآية في العدوِّ فقط لقوله:

من حديث ابن عباس.

١ - لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، ورواه أصحاب السنن بلفظ: «اقتدوا بالذين من بعدي» ورواية القطب في الشامل بزيادة: «من أصحابي»... في كتاب النبي ﷺ... رقم ١٠٨، من حديث ابن مسعود.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فيقاس عليه غيره، هذا مذهبنا ومذهب أبي حنيفة، ويدلُّ له قوله ﷺ: «من كُسِرَ أو عَرِجَ — أي حدث له العرج — فعليه الحجُّ من قابل»^(١)، وقوله ﷺ: «لا إحصار إلا من مرض، أو عدوٌّ، أو أمر حابس»^(٢) وهو عموم. قال عروة: كلُّ شيء حبس المحرم فهو إحصار.

(فقهه) وروي عن بعض الصحابة: «من أحرم بحجٍّ* أو عمرة ثم حبس عن البيت بمرض يجهده، أو عدوٌّ يجبسه، فعليه ذبح ما استيسر من الهدى». وأهلُّ عمر بن سعد بعمره فُلسِع، فقال ابن مسعود: ابعثوا بالهدى واجعلوا بينكم وبينه يوم أماره، فإذا كان ذلك فليحلُّ، وخصَّ مالك والشافعيُّ الحكم بحصر العدوِّ لقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾. وقول ابن عباس: «لا حصر إلا حصر العدوِّ» ويعتزُّ بالحديث المرفوع قبل هذا، وليس ضعيفاً كما قيل، لأنَّه روي من طرق مختلفة. وإن شرط الحاجُّ: «محلِّي حيثُ

١ - رواه أحمد في مسنده، ج ٥، ص ٣٣٤، رقم ١٥٧٣١.

ورواه الطبراني في الكبير، ج ٣، ص ٢٢٤، رقم ٣٢١١.

ورواه البيهقي في الحج (٣٠٢)، باب من رأى الإحلال بالإحصار بالمرض، رقم ١٠٠٩٩، من حديث الحاج بن عمرو الأنصاري.

٢ - أورده الألويسي في تفسيره أثرا عن ابن مسعود، وأيده بكلام ابن عباس: «لا حصر إلا حصر العدو»، وأورده كذلك صاحب موسوعة فقه ابن مسعود، ص ٣٤، نقلا

عن ابن كثير، ج ١، ص ٤١٠.

حُبْسْتُ» فلا هدي عليه إن حبس بعدو أو غيره، لقوله ﷺ لضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب: «حَجِّي واشترطي وقولي: محلي حيث حبستني يا الله»^(١)، والأصل أنه لا يختص هذا بها، بل هو لها ولغيرها عند أحمد، وأحد قولَي الشافعي، والحديث حجة لنا ولأبي حنيفة أن غير العدو كالعدو في الآية. والعمرة كالحج.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فالواجب ما استيسر، أو فعليكم ما استيسر، أي تيسر: من شاة ثنية أو بقرة، أو بعير. قال ابن عباس: «وما عظم فهو أفضل». وعن ابن عمر: «الهدى بقرة أو جزور، ولا تكفي الشاة». والهدى بمعنى: المهدى، وهو ما يسوق الحاج أو المعتمر هدية لأهل الحرم بموجب كما هنا، أو بلا موجب. ﴿وَلَا تَخْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ﴾ للتحلل كما لا تخلقون لغيره إلا الضرر. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ﴾ المستيسر المذكور ﴿مَحَلَّهُ﴾ وهو موضع حلوله المعهود.

(فقه) ومحلُّه هو منى: أيَّام منى، أو الحرم مطلقاً، ولو قبل أيَّام منى عندنا وعند أبي حنيفة، ويوقت لذبحه، فإذا كان الوقت

١ - رواه مسلم في كتاب الحج (١٥)، باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض... رقم ١٠٤ (١٢٠٧).

ورواه الطبراني في الكبير، ج ٢٤، ص ٣٣٤، رقم ٨٣٣، من حديث عائشة.

الذي حدّ لرسوله احتاط وحلق. وعن ابن مسعود: لدغ رجل محرم بعمرة فأحصر، فقال: «ابعثوا بالهدي، واجعلوا بينكم وبينه يوم أمار» أي أماره. وعن أبي حنيفة: إن كان حاجًّا فبالحرم متى شاء ويجعل يوم أمار، وعند أبي يوسف ومحمد في أيّام النحر؛ وإن كان معتمرًا فبالحرم في كلِّ وقت عنده وعندهما، وقال الشافعي: يُنحرُ حيثُ أحصر، ولو في الحلِّ فمحلُّه عنده موضع حلول المحصر؛ ويتقوى مذهبا بقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾. وعلى المحصر الحجُّ أو العمرة أو كلاهما من قابل كما تُقضى الصلاة والصوم، وكما اعتمر ﷺ من قابل، وهكذا شأن النفل إذا دخل فيه صحيحًا، وقطع أعيد كما يوفي بالنذر والوعد، بل زاد بالدخول.

واحتجَّ الشافعي في عدم وجوب القضاء بأنَّ الله لم يذكر القضاء، قلت: يلزم عليه أن لا يلزم قضاء ما وجب من حجٍّ أو عمرة إذا أحرم به وأحصر عنه، ولا قاتلا بذلك، وإنَّما لم يذكر لأنَّ المقام لشأن الإحصار لا لبيان كلِّ ما يجب عليه، ووجه اللزوم أنَّ الآية في الإحصار مطلقًا لا في الإحصار عن النفل خاصَّة. واحتجَّ الشافعيُّ في أنَّ النحر حيثُ حلَّ بالحبس أنَّ النبيَّ ﷺ نحر حين حبس في الحديبية، وهي من الحلِّ كما قال مالك، فأجيب بأنَّها من الحرم كما قال الزهريُّ عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الحديبية من الحرم»^(١). فقال لذلك: «إنَّ رسول الله ﷺ نحر هديه

١ - أورده بعض الفقهاء أثرًا عن الزهري وابن إسحاق وغيرهما لا حديثًا، لاختلافهم في

بالحرم» وبه قال أبو حنيفة، وصحَّح أرباب الحديث أنَّها من الحلِّ، ويجمع بأنَّها في طرف الحرم، كما قال الواقديُّ، على تسعة أميال من مكة.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾ مرضًا يحوجه إلى الحلق، وأمَّا المرض الذي لا يحوجه إلى الحلق فكلاً مرضاً بالنسبة إلى الحلق، ولو اشتدَّ، ومعنى الفاء: التفريع على ما قبلها، فإنَّه يلزم من منع الحلق حتَّى يبلغ الهدى أنَّه لا بدَّ من كفارة على الحالق ولو لعذر.

﴿أَوْ بِهِ أَذًى﴾:

(نحو) جملة معطوبة على «مريضاً»، وساغ لأنَّ «مريضاً» خبر كان، أو يقدر: أو ثابت به أذى، عطفاً لـ «ثابتاً» على «مريضاً»، فأذى فاعل ثابتاً، أو فاعل به. وأمَّا أن تعطف الاسمىة على «كان...» إلخ فلا، إلاَّ إن جعلنا «مَنْ» موصولة، جعلت في خبرها الفاء لعمومها كالشرطيَّة، لا شرطيَّة، لأنَّ الأداة الشرطيَّة لا تليها الاسمىة، خلافاً للأخفش والكوفيَّين؛ ودعوى أنَّه يُغْتَفَرُ في الثواني كالعطف هنا ما لا يغتفر في الأوائل لا تتمُّ لأنَّه لا يطرد ذلك الإغْتِفَارُ.

﴿مَنْ رَأْسِهِ﴾ أي في رأسه أو برأسه، أو من رأسه. بمعنى أنَّه أتاه الوجع منه، وذلك كجراحة وقمل. ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية، وهذا

التقدير مطرد، وإنما جاز أن يقدر: فالواجب فدية لأن النهي عن الحلق يشير إلى واجب على الخالق، فبيّنه بقوله: الواجب فدية ﴿مَنْ صِيَامٌ﴾ أي هي صيام ثلاثة أيام، ﴿أَوْ صَدَقَةٌ﴾ اثني عشر مدًا من غالب قوت مكة، على ستة مساكين من أهلها. ﴿أَوْ نُسْكَ﴾ يفرقه لأهل مكة الفقراء شاة ثنية، وإن شاء فبقرة أو بعير كذلك إن حلق؛ أو يقدر: فمن كان منكم مريضًا وحلق.

(فقه) وكلُّ فعل مناف للإحرام فيه ذلك، إذا فعل لأذى كلبس المخيط والتطيّب، وإن فعل لغير أذى فشاة. وقال الشافعي: كحكم الآية. والحلق كناية عن التحلل، فإن معنى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ﴾: لا تحلّوا، فالآية على التخيير، قال عبد الله بن مغفل: قعدتُ إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ...﴾ الآية، فقال: حُمِلْتُ إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا! أما تجد شاة؟» قلت: لا، قال عليه السلام: «فصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين واحلق رأسك»^(١)، فنزلت في خاصة ولكم عامة؛ وتقديم الشاة بوجلتها استحباب منه

١ - رواه الربيع في كتاب الحج (٨)، باب في الهدى والجزاء والفدية، رقم ٤٣٢، من حديث ابن عباس.

ورواه مسلم في كتاب الحج (١٠)، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى...، رقم ٨٥، من حديث عبد الله بن مغفل.

ﷺ لا ترتيب، وأجاز بعضهم الإطعام في غير مكة، وأمّا الذبيح ففي مكة خاصة.

وفي رواية: «أحلق وصم ثلاثة أيّام، أو تصدّق بفرق، أو أنسك بشاة»^(١)، والفرق اثنا عشر مدّاً، ثلاثة أصوع، والصاع ثمانية أرطال بالعراقي، وقال أبو يوسف: «خمسة أرطال وثلث» وهو قول الشافعي، لقوله ﷺ: «صاعنا أصغر الصيعان»، وعنه ﷺ: كان يتوضأ بالمدّ - رطلين - ويغتسل بالصاع - ثمانية أرطال -، وكذا كان صاع عمر رضي الله عنه، وهو أصغر من الهاشمي، وكانوا يستعملون الهاشمي.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿أُحْصِرْتُمْ...﴾، إلخ، أي إذا أمنتم من العدو، أو بأن ذهب العدو، أو ظننتم أنه كان وتبين أنه لم يكن، وفي الوجهين الإحصار، أو لم يكن ولم تظنوا أنه كان وأمنتم من المرض ونحوه، ولا إحصار في ذلك، ولا حكم إحصار، أي أمنتم الإحصار وسائر الموانع، أو كنتم في الأمن من ذلك. ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ﴾ انتفع ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾ بسبب الاقتصار على العمرة والتحلل منها بالطيب ولبس المخيط وتغطية الرأس والجماع وصيد الحلّ وقطع التفث

والنسائي في المناسك (٩٦)، باب في المحر يؤذيه القمل، رقم ٢٨٥١، من حديث كعب بن عجرة، مع اختلاف اللفظ.

١ - رواه مسلم في كتاب الحجّ (١٠)، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، مع زيادة في آخره وهي: «تصدّق بفرق بين ستة مساكين أو أنسك ما تيسر»

والزينة والطواف بالبيت كلما شاء، سواء أحرم بها وحدها أو مع الحج ثم فسخه، أو بالحج ثم فسخه إلى العمرة، وذلك كله في أشهر الحج، وقيل: أو بإتمامها في أشهره مع أنه لم يعد إلى الميقات للإحرام بالحج، ولا إلى أهله أو مثل أهله في البعد ولم يكن من أهل الحرم، وأنه حج من عامه وبالتقرب إلى الله بعقد الحج في ذلك العام. ﴿إِلَى الْحَجِّ﴾ مستمراً بتمتعه إلى الحج، ومنتها تمتعه أو تحلله إلى أن أحرم بالحج ولو بلحظة، وذلك أن الدم يلزم بالحل منها. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ فالواجب، أو فعليه ما تيسر ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾ شاة ثنية أو بقرة أو بعير، كذلك يتصدق به في الحرم، على فقراء الحرم مطلقاً، بعد الإحرام بالعمرة والإحلال منها لا قبل الإحلال، وقيل بعده، وبعد الإحرام بالحج، والأولى أن يكون يوم النحر أو أيام التشريق.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ هدياً أو ثمنه أو كليهما ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ في حال الإحرام بالحج.

(فقه) فيجب أن يحرم قبل السابع من ذي الحجة لكرهية صوم يوم عرفة لئلا يضعف عن القيام والدعاء، وإن كان لا يضعف لم يكره، ولا تؤخر هي أو بعضها لما بعد يوم النحر، ولا يجوز صوم يوم النحر، وأجيز صومها في عشرة ذي الحجة، ولو قبل الإحرام بالحج فتؤخر رجاء وجود الهدي، إلى أن تبقى ثلاثة قبل يوم النحر، والواضح أنه لا يصومها إلا وهو محرم بالحج في العشرة أو قبلها، والراجح في العشرة، وعند الشافعية كل حق مالي تعلق بسببين يجوز تقدمه على ثانيهما، فجاز ولو

– عندهم – تقديم الذبح للمتمتع على الإحرام بالحجّ، ورجّحوا إيقاعه بعد الإحرام، والسببان: العمرة في أشهر الحجّ، والإحرام بالحجّ بعد التحلّل منها، بخلاف صوم المتمتع فلا يجوز عندهم تقديمه على الإحرام بالحجّ لأنّه عبادة بدنيّة لا ماليّة، فلا يجوز تقديمها على ثاني سببها، وزعموا عن الشافعيّ أنّه يجوز صومها أيضاً في أيّام التشريق في قول له ضعيف عنه، إذ ربّما تمّ حجّه قبل كمال ثلاثة أيّام التشريق، والله يقول: ﴿فِي الْحَجِّ﴾.

(فقه) وعن ابن عمر أنّه رخص ﷺ للمتمتع إذا لم يجد هدياً، ولم يصم حتى فاته أيّام العشر أن يصوم أيّام التشريق مكانها، وعن الزهريّ أنّه ﷺ بعث عبد الله بن حذافة فنادى في أيّام التشريق: «إنّ هذه أيّام أكل وشرب وذكر الله عزّ وجلّ، إلّا من كان عليه صوم من هدي»^(١). وعن عائشة أنّه لم يرخص ﷺ في أيّام التشريق أن يصمّن إلّا لمتمتع لم يجد هدياً. وقال الحنفية: إذا جاء يوم النحر لم يجز إلّا الذبح. ومذهبنا ترجيح تأخير ذبح هدي المتعة إلى يوم النحر. والمشهور عند أبي

١ - رواه مسلم في كتاب الصيام (٢٣)، باب تحريم صوم أيّام التشريق، رقم ١٤٤ (١١٤١)، من حديث نشيبة الهذلي.

وروى الشطر الأوّل منه أحمد في مسنده، ج ١، ص ١٦٦، رقم ٥٦٧ و ٨٢٤، من حديث عمرو بن سليم عن أمه.

ورواه الطبراني في الكبير، ج ٢، ص ٣٧، رقم ١٢١٢، من حديث نشيبة الهذلي.

حنيفة أنه بين الإحلال من العمرة والإحرام بالحجّ، وأجازته بعد الإحرام به. وقال الشافعي: يذبح بعد الإحرام بالحجّ. وعن أبي حنيفة أنه يذبح يوم النحر فقط، ويذبح في الحرم فقط.

(فقه) وأنه نسك يأكل منه هو والغنيُّ والفقير، لأنه وجب لشكر الجمع بين النسكين فكان كالأضحية في التقربُ بها إلى الله، وكذا قال كثير من أصحابنا: يأكل منه. وقال الشافعي: دُمُ جَبْرِ خَلَلِ إحرامه بالعمرة في أشهر الحجّ إذ لم يحرم به ولا بهما معاً، فهو جارٍ بحرى الجنائيات فلا يأكل منه، واعترض بأنه كيف يكون جبراً للخلل مع أنّ الله أباح التمتع؟ فيجاب بأنّ الله أفهمنا من الكفارة أنه خلاف الأصل، وأنه خلل.

﴿وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فرغتم من أعمال الحجّ: رمي الجمار وطواف الزيارة والسعي، ويكره صوم أيّام التشريق. سُمِّي الفراغ رجوعاً إلى الأهل أو لغيره لأنه سبب، أو سُمِّي القصد إلى غير الحجّ رجوعاً، فإنه كان في غيره من الإحلال، أو من كونه غير محرم أصلاً، فقد رجع إلى حالٍ كان فيها قبل، وهي كونه غير محرم ولا ملتبس بأفعال الحجّ، وذلك مذهبنا ومذهب أبي حنيفة في مكّة، إلا أنّنا نجزئ صومها أيضاً في الطريق راجعاً، ولو وصل أهله قبل تمامها. وقال الشافعي: «إذا وصلتكم أهلكم»؛ وله قول كقولنا وقول أبي حنيفة. وعن ابن عباس: «إذا بلغتكم أمصاركم». وحكم ناوي الإقامة بمكّة

حكم واصلِ أهله. واسظهر بعض أن الرجوع ظاهر في هذا المعنى، وقال مالك: «يجوز صيامها في أيّام التشريق» يروي في ذلك حديثاً. وقيل: معنى الآية صومها في الطريق حال الرجوع، وفيه أن الله عز وجل لم يوجب صوم رمضان في السفر فكيف هذه الأيام؟!.

﴿تلك﴾ الثلاثة والسبعة، أي تلك الجملة ﴿عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: هذه فذلّكة.

(لغة) والذلّكة إجمال الحساب بعد تفرّقه، كقولك بعد تفرّقه: فذلّك كذا وكذا، سواء قلت بعد تفرّقه: ذلّك كذا، أو تلك كذا، أو هؤلاء كذا، أو هذه كذا، أم ذكرت المقرّق، مثل أن يجتمع عندك ألف وخمس مائة وست مائة تذكرها ثم تقول: فالجملة ألفان ومائة، وهي مركّبة من فاء التفرّيع و"ذا" الإشاريّة مع حذف ألفها وإسكان ذالها، ولام البعد وفتحها وكاف الخطاب وتاء التأنّث.

وفي هذه الفذلّكة فوائد دفع ما ربّما يتوهم من أن الواو بمعنى "أو"، فصرّحت الفذلّكة بعدم ذلك، فإنّها قد ترد بمعنى "أو" نحو: «جالس الحسن وابن سيرين» بالواو، وتريد جالس هذا أو هذا بأو، وأنت تريد بـ"أو" أيضاً جواز الجمع. ووجه الواو أنّه لا يمنع عنك أحدهما إلاّ أنّه لا بدّ منهما جميعاً.

قال السيرافي في شرح سيبويه: الصواب أن الواو كاف في الإباحة،

لأنَّ الإباحة إنَّما استفيدت من الأمر، والواو جمعت بين الشئيين في الإباحة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (سورة النساء: ٣)، فالواو بمعنى أو في بعض التأويل.

الفائدة الثانية: الإعلام بأنَّ المراد بالسبعة حقيقتها لا كثرة العدد، فإنَّها قد تطلق للكثرة كما تطلق السبعون، والفائدتان احتراسان.

الثالثة: الإعلام بالعدد إجمالاً كما علم به تفصيلاً، كما تقول العرب: «علمان خير من علم»؛ وهذه الفائدة تتميم فإنَّ أكثر العرب لا تحسن الحساب. قال رجل لابنه في سفر: يا بني، استبحث لنا عن الطريق، فقال: إنِّي عالم، فقال: «يا بني، علمان خير من علم».

الرابعة: أنَّ المعتاد أن يكون البديل أضعف حالا من المبدل منه، فأخبرنا الله عزَّ وجلَّ أنَّ هذا ليس كذلك، فتطمئنَّ نفس الصائم عن الهدى. فإنَّ معنى كاملة أنَّها كاملة في البليَّة عن الهدى، قائمة مقامه، وأنَّها كاملة في أنَّ ثوابها كتاب الهدى، وكاملة في المتمتَّع الصائم لها كالحجِّ بلا تمُّتع، وأيضاً كاملة صفة تقييد المبالغة في محافظة الصائمين على العدد، كأنَّه قيل: فصورها غير ناقصة.

وتفيد أنَّ العشرة عدد كامل. بمعنى انتهاء الأعداد إليه، وكلُّ عدد بعده مركَّب منه وممَّا قبله. وإذا علمنا التوكيد فائدة فهو فائدة خامسة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨). وتعدُّ ما مرَّ من

أَنَّ الْعَرَبَ لَيْسُوا أَهْلَ حِسَابٍ، فَفَذَلِكَ لَهُمْ، فَهَذِهِ فَائِدَةٌ سَادِسَةٌ.

السابعة: دفع توهم وجود مخصّص يخصّ عموم الثلاثة والسبعة.

الثامنة: دفع تصحيف سبعة بتسعة في الكتابة.

التاسعة: ما قيل: دفع توهم أنه تتم السبعة بالثلاثة السابقة، ثلاثة في

الحجّ، وأربعة إذا رجع.

العاشرة: أنّ الجملة الاسميّة أنسب بالتكميل، كما قال: ﴿وَأَتِمُّوا

الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ أي اجبروه إجباراً تاماً، وذلك توكيد للأمر، كأنّه امثل

فهو يخبر عنه.

الحادية عشر: أنّ الصوم طاعة كاملة كما قال ﷺ: «قال الله:

الصوم لي...» (١).

(خواص الأعداد) والعشرة عدد كمل فيه خواصُّ

الأعداد، فإنّ الواحد مبدأ العدد، ولا عدد فيه إذ لا تكرير فيه. والثنان: أوّل

العدد فإنّه أوّل تكرير. والثلاثة: أوّل عدد فرد. والأربعة أوّل عدد مجذور،

والخمسة أوّل عدد دائر، فلا يمكن تدوير المجلس قبله. والستة أوّل عدد تامّ،

أي تستفرغه أجزاءه. والسبعة عدد أوّل تامّ فيه أنواع العدد كما يأتي إن شاء

١ - رواه القطب في جامع الشمّل، وقال: رواه البيهقي في سننه، وتمامه: «وأنا أجزئي به،

يدع طعامه وشرابه من أجلي»..

الله تعالى. والثمانية أول عدد زوج الزوج. والتسعة أول عدد لثلاثة ثلاث يستفرغه. والعشرة ينتهي إليها العدد، وكل عدد بعدها مركب منها ومما قبلها.

ويقال أيضاً السبعة عدد تام لا شتماله على أنواع العدد، وهي أن العدد إما زوج وإما فرد، وإما مركب من زوج، وإما مركب من فرد، وإما مركب من زوج وفرد، فالإثنان مركب من فردين، والواحد فرد، والثلاثة من زوج وفرد، والأربعة من زوجين، والستة من فردين وهما ثلاثة وثلاثة، أو من زوجين: أربعة واثنين.

﴿ذَلِكَ﴾ الحكم من لزوم الهدى أو بدله وهو الصيام، أو ذلك التمتع، ويضعفه أنه قال: ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ﴾ كناية عن السكنى، ولو لم يكن له أهل. ﴿حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ولم يقل: على من لم يكن، وتأويل اللام بعلى بخلاف الأصل.

(فقهه) وحاضروا المسجد الحرام عندنا من سكن في الحرم ولو لم يستوطنه، ومن في داخل الميقات عند أبي حنيفة، ومن في مكة عند مالك، ومن بينه وبين الحرم أقل من مسافة القصر عند الشافعي على مذهبه في مسافة القصر.

والقارن لزمه ما لزم المتمتع، قرن من أول، أو أدخل الحج على العمرة، أو العمرة على الحج، ووجه ذلك في العمرة أو في إدخال الحج عليها

أَنَّ الْأُقْبِيَّ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْرِمَ عَنِ الْحَجِّ مِنَ الْمِيقَاتِ لَا عَنِ الْعِمْرَةِ، ثُمَّ أَحْرَمَ
عَنِ الْحَجِّ لَا مِنَ الْمِيقَاتِ، فَحَصَلَ التَّحَلُّلُ فَجَبِرَ بِالْدَّمِ، وَالْحَرَمِيُّ مِثْلًا لَا يَجِبُ
إِحْرَامُهُ مِنَ الْمِيقَاتِ فَلَا خُلَلَ فِي تَمَتُّعِهِ، فَلَا هَدْيٍ وَلَا صَوْمٍ عَلَيْهِ، لِأَنَّ إِحْرَامَهُ
مِنْ مَحَلِّهِ حَقٌّ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالمحافظة على أوامر الحجِّ والعمرة بالامتثال،
ونواهيهما بالاجتناب، وعلى سائر الأوامر والنواهي. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في ترك واجب حجٍّ أو عمرة أو غيرهما، وفي
فعل محرَّم فيهما أو غيرهما، والعلم بذلك يمنعكم عن المقارفة، وأظهر
لفظ الجلالة لتربية المهابة.

﴿إِنِ الْحُجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ مِّنْ قَبْلِهَا فَمِنْ فِيهَا الْحَجُّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ
وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
يَأْتُوا فِي الْآلِيبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ إِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ
عَرَقٍ فَإِذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا
فَإِنَّ النَّاسَ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ

لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ
 فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا
 أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾

تَمَّةُ أَحْكَامِ الْحَجِّ

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ عند الناس، وقت الحجّ أشهر، أو الحجُّ ذو أشهر، شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة، ولا يشكل علينا الجمع لأنّ المعنى أنّ الحجّ يوقع في ثلاثة أشهر والأمر كذلك، فإنّه يوقع في التسعة الأولى وفي ليلة النحر للمراهق، فذو الحجة بذلك محلّ للحجّ، بل يوقع باقي أعماله أيضاً بعد ذلك، ولا يلزم من كون شهر محلاً لكذا أن يكون في كلّ يوم منه، تقول: فعلت كذا سنة كذا، وإنّما فعلته في ساعة منها، أو عشرون أو ثلاثون، ووقت العمرة السنة كلّها. وقيل: نزل بعض الشهر منزلة الشهر في قوله: ﴿أشهُرٌ﴾ إذ لم يقل: شهران وعشرة أيّام، أو شهران وعشرون يوماً. وزعم بعض أنّ الجمع المركّب من أحاد بعضها حقيقة وبعضها مجاز، ليس جمعاً بين الحقيقة والمجاز، وليس كذلك عندي، وأجاز الشافعية الجمع بينهما.

(فقه) وزعم بعض أنّ الآية على أنّ أقلّ الجمع اثنان مجازاً أو حقيقة، وأمّا من قال ثلاثون يوماً فقد أتمّ ثلاثة أشهر،

ومذهبنا الأوّل فلا يفوت طواف الزيارة والسعي ما دام غير ناقض لإحرامه، ولو عامًا أو أكثر، وفاته بالعشرين على الثاني، وبالثلاثين على الثالث، فيقضي الحجّ مستأنفًا على القولين، ونسب الثالث لمالك في رواية عنه، وابن عمر والزهري، وروي عن الشافعيّ شاذًا، وأمّا الإحرام به فلا يجوز بعد عرفة، وأجازه الشافعيّ ليلة النحر شاذًا مردودًا، وعن إملاء الشافعيّ يجوز الإحرام به في جميع ذي الحجّة، وهو أشدُّ وأبعد؛ وأمّا الوقوف فلا يصحُّ إلا في يوم عرفة في عرفة، أو المراهق فله الوقوف فيها ليلة النحر^(١). وعن أبي حنيفة شهران وعشرة لأنّ الطواف ركن يوقع فيه لا قبله، والخلاف لفظيٌّ، فإنّ ما قبل طلوع فجر النحر من وقت الإحرام والركن الأعظم وهو الوقوف، وما بعد ذلك وقت للركن العظيم وهو الطواف وما ليس ركنًا. وزعم أبو حنيفة فيما قيل عنه أنّه يجوز الإحرام قبل شوال بالحجّ على كراهة، والتحقيق أنّه أجازه قبله، لأنّه عنده شرط كالوضوء للصلاة.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ على نفسه بالإحرام به مع النية ولو بلا لفظ، ومع التلبية به مع اللفظ والقصد للدخول فيه، كالدخول في الصلاة، هذا مذهبنا، وقال أبو حنيفة بالتلبية مع النية، أو سوق الهدي معها أيضًا، لأنّ الإحرام في الحجّ عقد على الأداء، فلا بدّ معه من ذكر

١ - المراد بالمراهق الذي أزهقه السفر ولم يصل عرفة إلا ليلة العيد.

وهو التلبية أو ما قام مقامه وهو السوق كالإحرام في الصلاة. وقال الشافعيُّ: تجزي النية بلا تلفظ ولا تلبية، لأنَّ الإحرام التزام الكفِّ عن المحظورات، فيصير شارعاً بالنية كالصوم. ومن أفسد حجاً أو عمرة ولو نفلاً لزمه قضاؤها ولو عند من لا يوجب قضاء نفل العبادة مناً، وكذا قال الشافعيُّ وأبو حنيفة.

وقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ دليل على أنَّه لا يصحُّ الإحرام بالحجِّ في غير أشهره فيبطل، وقيل: يصير عمرة، وأجيب بأنَّ المراد بفيهِنَّ الكمال ونفي الكراهة، وليس كذلك فإنَّ قوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ نصٌّ في تخصيص أشهر، وقوله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحجِّ إلا في أشهره»^(١) أراد به التحريم، بدليل الأحاديث الناصة على أنَّه لا يصحُّ الإحرام بالحجِّ قبل أشهره.

﴿فَلَا رَفَثٌ﴾ لا جماع، كما تُعرف شرعاً، أو فلا فحش: كلام في أمر الجماع ومقدماته، وهو المعنى الحقيقي للرفث، وعليه فبالأولى أن لا جماع. ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾ في الحجِّ ولا غيره، ومنها السبُّ والتلقيب^(٢)، فمن فعل كبيرة بعد الإحرام لزمه دم. ﴿وَلَا جِدَالٌ فِي﴾

١ - أورده ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس، وقال: رواه الشافعي والبيهقي من طريق

بن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله، ج ١، ص ٢٣٥.

٢ - في نسخة (ب) و(ج): "واللقب".

الْحَجَّ ﴿٢﴾ فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ الْإِحْرَامِ بِهِ، وَلَوْ مَعَ الْمَكَارِي أَوْ الْخَادِمِ أَوْ الرَّفِيقَةِ.

(فقهه) ومن جادل حتى أغضب أو غضب

لزمه دم، ولو في الحق أو المباح، وقيل: المراد: لا جدال في أيام الحج ولو قبل الإحرام، واللفظ إخبار والمعنى إنشاء، أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا؛ أو إخبار لفظاً ومعنى، أي لا يثبت ذلك في دين الله، وإن كان فمن دين الجاهلية والشيطان، والفسوق محرم على الحاج وغيره، وذكر هنا للتغليظ كالنهي عن لبس الحرير في حق الرجل حال الصلاة مع أنه محرم في غيرها أيضاً. أو الفسوق بمعنى الخروج، أي لا تخرجوا عن حدّ الشرع إلى المعصية ولو صغيرة، وإلى ما لا يجوز في الإحرام كلبس المخيط والتطيب والصيد. وزعم بعض أنّ الجدال بالحق غير منهي عنه، ويردّه مخالفة ظاهر الآية، وأنه يفضي إلى شر، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَمَارِ فِيهِمْ، إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ وقال ﷺ: «من ترك المراء وهو محقّ، بني له بيت في أعلى الجنة؛ ومن تركه وهو مبطل بني له في ربضها»^(١) وغير ذلك... وعدم ذكره في قوله ﷺ: «من حجّ ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٢) لا يدلّ على عدم النهي عنه، لأنّ عدم ذكر الشيء لا يدلّ

١ - أورده صاحب قناطر الخيرات.

٢ - رواه النسائي في كتاب الحج (٤)، باب فضل الحج، رقم ٢٤٦٤.

على انتفائه.

ويروى أنَّ معنى ﴿لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ اتركوا الخلاف في الحجِّ، إذ كان قريش تقف بالمزدلفة وسائر الناس بعرفة، وكانوا يقدمون الحجَّ عامًا ويؤخِّرونه عامًا، فأزال الله ذلك؛ فنقول أيضًا: لا جدال في ذلك ولا في غيره، ولو لم يضرر للحجِّ لتأكيد شأنه. ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ كالكلام الحسن مكان الرفث، والبرِّ والتحصُّن مكان الفسوق، والوفاق بالأخلاق الحميدة مكان الجدال في الحجِّ، وغيره كالصدقة والصوم والنفل وسائر العبادة، ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ فيجازيكم به، وكذلك يعلم الشرَّ لكن لم يذكره، لأنَّ المقام مقام مقابلة الخير بالخير، أو أراد العلم بالجزاء.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ لاخرتكم بالأعمال الصالحة وترك ما ينهى عنه، وترك الطمع والسؤال مع وجود الغنى عنه، فمن لم يتزوَّد لها

هلك بالنار، كما يموت مسافر بلا زاد ﴿فَبِإِنَّ﴾ لأنَّ ﴿خَيْرَ الزَّادِ﴾ لأنَّ الزاد يشمل زاد الدنيا وزاد الآخرة ﴿التَّقْوَى﴾

ورواه ابن ماجه في الحج (٣)، باب فضل الحج والعمرة، رقم ٢٨٨٩.

ورواه البيهقي في الحج أيضًا (٣٨٣)، باب فضل الحج والعمرة، رقم ١٠٣٨٤، من حديث أبي هريرة.

الحذر عن ترك الفرض وفعل المحرّم، ومنه الإلحاح في السؤال، بل مطلق السؤال، بلا حاجة إليه مضطرّة، والخروج إلى الحجّ بلا زاد فيكون عيلاً على الناس وثقلاً عليهم فالتحرّز عن ذلك من جملة التقوى.

ويروى أنّ حُجَّاج اليمن كانوا يفعلون ذلك، ويزعمون أنّ ذلك توكل على الله، فأوحى الله أن تزودوا ما يبلغكم ويرجعكم، كما رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، حتّى فسّروا الزاد بطعام المسافر وشرابه طبق ما يفعل اليمانيّون، ويقولون: «نحن حجّاج بيت ربّنا ووفد إليه فلا يُطعمنا!» وربّما أفضى بهم ذلك إلى النهب والغصب، وما ذكرته أوّلاً هو الراجح لأنّه ظاهر الآية، وعلى الأخير يكون المعنى: اصنعوا الزاد لسفر الحجّ، لأنّ خير الأزواد تقوى، ومن لا يصنعه يخرج عن التقوى بالطمع والسؤال.

﴿وَاتَّقُوا يَأْ أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فقد وضعت فيكم من العقل ما يميل

بكم عن المخالفة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيّها المسلمون على الإطلاق ﴿جُنَاحٌ﴾ إنّهم

﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ في أن تطلبوا ﴿فَضْلاً﴾ رزقاً ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ التجارة

في الحجّ، هذا ترخيص ونهي لهم عن تحريم التجر بعد الإحرام، فإنّه لا

ينقص ثواباً ولا يبطئه، والترك أولى، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ﴾، وإن كانت التجارة تنقص فرضاً حرمت، أو مستحباً كرهت.

(فقه) وإذا شورك العباد بغيرها، قال ابن عبد السلام: فلا أجر لها، ولو كانت الأغلب والباعث. وقال الغزالي: إن كان الأغلب ذنبياً فلا ثواب، أو أخروياً فبقدره، وإن تساوى سقطاً؛ وعندى أنه يثاب بقدره، ولو أقل قليلاً، وبه قال ابن حجر، وكانوا يكرهون التجر أو يجرّمونه في الحجّ، فنزلت الآية مبيحة بلا جدال ولا فسوق في أسواقكم: عكاظ ومجنة وذى الحجاز وغيرها، أسواق تقام في مواسم الحجّ.

وعكاظ من التعاكظ وهو التفاخح، يتفاخرون ويتناشدون بين نخلة والطائف عشرين يوماً، من أوّل ذي الحجّة، ومجنة على أميال من مكة، وذو الحجاز على فرسخ من عرفة. ومنع أبو مسلم التجر في الحجّ، وحمل الآية على ما بعد الفراغ من الحجّ، كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ إلخ، ويردّه أنّ الحمل على إباحة ما توهم حرّمته أو كراهته أولى من الحمل على ما علم إباحته، وهو التجر بعد الفراغ من الحجّ، وأمّا الصلاة فأعمالها متّصلة لا يقاس عليها الحجّ، لأنّ أعماله متفرّقة؛ وكان ابن عباس يقرأ قراءة تفسير: «أن تبتغوا فضلاً من ربّكم في مواسم الحجّ»، وكذا ابن مسعود.

(سبب النزول) قال أبو أمامة لابن عمر: «نكري للحجّاج

ويقول الناس: لا حج لنا، ونحن نفعل أفعال الحج كلها، فقال: سئل ﷺ عما سألت فنزلت الآية، فقال: «أنتم الحجَّاج أنتم الحجَّاج»، وتدلُّ على ذلك الفاء في قوله:

﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ﴾ أفضتُم أنفسكم، أي دفعتموها دفعًا شبيهاً بإفاضة الإنسان الماء في الكثرة والسرعة، وذلك هو الأصل، ولا يرد أن غير الكثير وغير المسرع لا يتم بل يتم، أو لا يذكر الله ﷻ عند المشعر الحرام بل يذكره فيه. ﴿مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ منون تنوين مقابلة، لأنه بصيغة جمع المؤنث السالم، أو جمع مؤنث سالم سمي به؛ والمفرد عرفة.

(لغة) وعرفة جمع عارف، تسمية للمحلِّ باسم الحال، وذلك أنه تعارف آدم وحواء فيها، ويتعارف الناس فيها، وعرفها جبريل لآدم وإبراهيم ومحمد ﷺ، ولقول جبريل فيها: «اعترف بذنبك، واعرف المناسك»؛ أو لعلوها كما قيل لعرف الديك، أو عرفة اسم مفرد وضع للبقعة كعرفات بصيغة الجمع فهما اسمان، ويرجح أن الأصل عدم الانتقال من الجمع إلى جمع آخر، ولكون تنوينه للمقابلة ثبت مع العَلَمِيَّة والتأنيث كحزمات، وهو تأنيث البقعة؛ وصيغة جمع المؤنث لسالم صيغة تأنيث فيراعى التأنيث في المنع ولو مما يردُّ إليه الضمير مذكراً، كالهندات علماً لرجل، وسكون ما قبل تائه لا يبطل تأنيثه، ولو لم يكن في نية التأنيث كَرَعْبُوت، وأيضاً هي عوض عن تاء المفرد في الجملة. ولزم من الإفاضة

أنَّهُم فِيهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: قَفُوا فِي عِرْفَاتٍ وَأَفِضُوا مِنْهَا، فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِنْهَا فَاذْكُرُوا اللَّهَ... إلخ.

(فقهه) والإفاضة من عرفات واجبة لأنَّ الأمر المجرَّد للوجوب، وهو لا يتمُّ إلاَّ بالكون في عرفات، وما لا يتمُّ الواجب إلاَّ به فهو واجب، وهو ظاهر بلا تكلف عندي، إلاَّ أنَّ الكون فيها لا يستلزم اللبث، فيتقوَّى وجوب الوقف بالإجماع والحديث، بل يدلُّ على ذلك لفظ الإفاضة، لأنَّهما بعد لبث الماء في شأن الماء، فكذا في شأن اللبث.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ولزم من الذكر عنده أنَّهم أفاضوا إلى المزدلفة ولبثوا فيها، وكأنَّه قيل: أفيضوا منها إلى المزدلفة ثمَّ إلى المشعر الحرام فاذكروا الله فيه، أي بعد المبيت فيها بالتلبية والتهليل والدعاء.

والمشعر الحرام جبل في آخر المزدلفة يسمَّى «قُزَح» كعُمر، اسم للملك موكل بالسحاب، أو لملك من الملوك، أو شيطان في الأصل. روى مسلم أنَّه ﷺ وقف به يذكر الله ويدعوه حتَّى أسفر جدًّا^(١). وسمِّي المشعر لأنَّه علامة من علامات الحجِّ معظمة لأنَّه من الحرم ومحلُّ العبادة؛ وقيل: المشعر الحرام ما بين مأزمي عرفة ووادي

١- هذا الحديث جزء من الحديث الآتي ذكره، مع زيادة: «ثم دفع قبل أن تطلع

محسر، ويروى ما بين وادي مزدلفة المشعر الحرام، ووادي محسر ليس من الموقف.

ووادي محسر خمس مائة ذراع طولاً، وخمس وأربعون ذراعاً عرضاً. وفي مسلم عن جابر رضي الله عنه أَنَّهُ لَمَّا صَلَّى الْفَجْرَ - أَي فِي الْمَزْدَلِفَةِ - بَغَلَسَ، رَكِبَ نَاقَتَهُ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَدَعَا وَكَبَّرَ وَهَلَّلَ^(١)، فَدَلَّ الْحَدِيثَ عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي، إِلَّا أَنَّ يُوَوَّلُ الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ فِي الْحَدِيثِ بِالْجَبَلِ، أَوْ بِتَسْمِيَةِ الْجُزْءِ بِاسْمِ الْكَلِّ، وَالْمَعْنَى: وَاذْكُرُوا اللَّهَ لِدَاتِهِ إِعْظَامًا وَإِجْلَالًا وَاسْتِحْقَاقًا عِنْدَ الْمَشْعَرَ الْحَرَامِ.

﴿وَاذْكُرُوهُ﴾ أَيضًا ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أَي لَهْدَايَتِهِ إِيَّاكُمْ عَنِ الضَّلَالَةِ إِلَى الْمَنَاسِكِ وَغَيْرِهَا مِنْ دِينِهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ اذْكُرُوهُ ذِكْرًا شَبِيهَاً بِبَهْدَايَتِهِ إِيَّاكُمْ إِلَى ذَلِكَ فِي الْحَسَنِ، أَوْ اذْكُرُوهُ عَلَى نَحْوِ مَا عَلَّمَكُمْ لَا تَغْيِرُوهُ. ﴿وَإِنْ﴾ الشَّانَ، أَوْ أَنْكُمْ، خَفَّفْتَ وَأَهْمَلْتَ، وَليست نَافِيَةً بِدَلِيلِ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَي مِنْ قَبْلِ الْهَدْيِ الْمَعْلُومِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾ ﴿لِمَنِ الضَّالِّينَ﴾ الْجَاهِلِينَ لِلتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ، وَهَدَاكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمَا أَحْوَجَ مَا أَنْتُمْ لِلْفِتْرَةِ. ﴿ثُمَّ

١ - رواه البيهقي في الحج (١٩١)، باب من بات بالمزدلفة حتى يصبح، رقم ٩٥١٧ من

حديث جابر، وذكره ابن كثير في تفسيره، وقال: هو من حديث زمعة بن صلاح،

أَفِيضُوا ﴿﴾ منها ياقريش ومن يكون معهم، والمفعول به محذوف، أي أنفسكم، ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ سائر العرب والعجم أنفسهم، أو أفاض في الموضوعين موافق فاض فهو لازم، والمراد الإفاضة من عرفات. والخطاب لقريش والحكم عام، لأنَّ خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم.

وقيل: الضمير للعموم لا لقريش خاصة فيدخلون بالأولى، قيل: هو أوضح لأنَّ الضمائر قبلُ وبعْدُ للعموم، قلت: يناسب خصوص قريش عموم إفاضة الناس، وأنَّهم الذين لا يفيضون كما يفيض غيرهم، وقيل: الناس إبراهيم لأنَّه أبوهم والمعروف بالمناسك، وكرَّر الإفاضة من عرفات للتأكيد، وليبيِّن لهم أنَّهم ليسوا أولى من غيرهم، بل هم وغيرهم سواء، وإنَّما الشرف بالتقوى لا بالنسب والمكان، وكانوا: يقولون: نحن من ولد إبراهيم، ثمَّ أنَّا سَكَّانُ الحَرَمِ وأهل الله، فلا نخرج منه فيقفون بالمزدلفة منه، وسائر الناس يقفون بعرفات خارجة عنه.

أو «ال» للكمال، أي أفاض الناس الكاملون في شأن الوقوف، وهم الذين يقفون في عرفات، فذلك ذمُّ لقريش ومن ينحو نحوهم، ترفعوا فجازاهم الله بأنَّهم دون غيرهم لأنَّهم خالفوا موقف إبراهيم عليه السلام وغيرهم وافقه. و«ثمَّ» للترتيب في الرتبة لا في الزمان، يعني أنَّ الإفاضة في من عرفات هي العالية لا الإفاضة من المزدلفة

للواقف فيها دون عرفات؛ وقيل: الإفاضة الثانية من المزدلفة إلى منى بعد الوقوف في عرفات، وهو قول جماعة، وعليه الضحَّاك ورجَّحه الطبريُّ، فيكون الخطاب للناس كلَّهم، قريش وغيرهم، أو لهم وفي حكمهم غيرهم، فالترتيب في الزمان على أصله، أي من حيث أفاض الناس الأوائل قبلكم من لدن آدم ومن لدن إبراهيم عليهما السلام، لا تغيِّروه كما غيَّره جاهليَّتكم، إذ كنتم من قبل الهدى من الضالِّين.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من ضلالكم وتغييركم المناسك، وفيه دليل أنَّ الكفار مخاطبون بالفروع، وأنَّهم مؤاخذون على الذنوب. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن آمن واستغفر.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ عباداتكم الحجَّية من وقوف بعرفات والمزدلفة والذكر فيهما ورمي العقبة والحلق وطواف الزيارة والسعي، واستقررتم بمنى.

(فقه) ويجوز تأخير الطواف والسعي عن أيَّام منى.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتكبير والثناء، وبالغوا في الذكر بالكيفيَّة، ولو أمروا بالإكثار أيضًا. ﴿كَذِكْرِكُمْ، ءَأَبَاءَكُمْ﴾ كما تبالغون في كيفية ذكر آبائكم عند المفاخرة في منى بين الجبل والمسجد، كانوا يعتادون ذلك في جميع يومهم، ويذكرون محاسن حروبهم، رواه ابن جرير وغيره. والآية تلويح إلى جعل ذكر الله مكان ذكر الآباء

والحروب، وإلى ترك ذكرها. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أو كونوا أشدَّ ذكراً لله منكم لأبائكم، أو عطف على الكاف، أو على ثابتاً، أي فاذكروا الله ذكراً مثل ذكر آبائكم، أو ذكراً ثابتاً كذكركم آباءكم.

(نحو) فيكون ذكرهم ذاكرًا، كقولهم: «شعرٌ

شاعر» - بتنوين شعر - وصومه صائم، من المجاز العقلي، والفتح نصب، ويجوز عطفه على ذكر فالفتح جرٌّ، وإذا جعلنا «ذكرًا» مصدرًا من المبني للمفعول لم يكن من المجاز العقلي، أو «ذكرًا» بدل من «أشدَّ» أو معطوف، و«أشدَّ» حال منه بخلاف: «وأشدَّ» فإنه على كلِّ حال من فعل مبني للفاعل، ولا تهم، ويجوز تقدير: «أو كذكر قوم أشدَّ ذكراً منكم». واختار أبو حيان أنَّ «أشدَّ» حال من «ذكرًا» بعده، ووجهه أنَّ قوله: اذكروا الله ذكراً كذكركم آباءكم، أو ذكراً أشدَّ منه، أبلغ من قوله: اذكروا الله ذكراً كذكركم آباءكم أو أشدَّ، وليس في إعراب أبي حيان طلب حالة الذكر، بل فيه طلب الذكر بقيد أن يكون أشدَّ.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ تفریع على قوله فاذكروا الله، وهذا

تفصیل بالجملة بعد الفاء لا بالفاء، فقد تكون الفاء تعليلاً لقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي لأنَّ الناس بين مقلِّ ومكثر، ومصيب في ذكره ومخطئ في منى، فكونوا من المكثرين المصيبين فيها، لأنَّ من الذاكرين من يقلِّ ومخطئ، وهو من يقتصر على الدنيا في دعائه. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ مالا وولداً، أو جاهاً ونحو ذلك، أو بعض ذلك، ومتاع

الدنيا كله قليل، ولا يدعو لآخرته، فقد يؤتى ما يدعو به وقد لا يؤتاه. ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ بعد الموت من الجنة ﴿مِنْ خَلْقٍ﴾ نصيب، لأنه لم يتعرض له في الدنيا، ولا يطلق خلاق إلا على نصيب الخير، وسمي خلاقاً لأنه خلق له، كما سمي نصيب لأنه نصب له، أو ماله في ذكره ودعائه نصيب يدعو به لآخرته، أي وماله في شأن آخرته نصيب من دعائه.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أشياء حسنة كالإيمان والاعتقاد الحق، والعمل الصالح، والتقوى والعلم، والتوفيق والنصر، والولد الصالح والزوجة الصالحة، والرزق الحلال، وصحة البدن، وصحبة الصالحين. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أشياء حسنة كالْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ، وتخفيف الحساب، والسلامة من هول الموقف، وإيتاء الكتاب بالآيمان، والشرب من الحوض، والخور والأزواج والأجنة والقصور.

وعن علي: «الحسنة الزوج الصالحة»، وكأنه أراد الآدمية لأنه ليس للرجل منهن إلا واحدة وهو قول مشهور، وإلا فالأزواج الحور للرجل كثيرة، وهمني ذلك حتى اطلعت أنه يكون للرجل الواحدة من الآدميات واثنان وأكثر.

﴿وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة بأن لا ندخلها بأن توفقنا في الدنيا للهدى، والتوبة من الذنوب. وعن علي: «النار: المرأة السوء»،

أي دعوا الله أن يمنعمهم عنها في الدنيا، وهو تمثيل لجميع الأسواء. ﴿أَوْلَيْكَ﴾ القائلون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ عظيم في الآخرة ثبت لهم، ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ في الدنيا من الإيمان والأعمال الصالحة والتقوى، أي تولد ونتج من كسبهم، أو نصيب عظيم في الآخرة هو ما عملوه في الدنيا، أي ثوابه فكأنه هو لأنه عوضه، أو نصيب مما دعوا به دنيا وأخرى، والباقي نكفر به سيئاتهم أو نعطيهم فيه ما هو خير منه، أو نكفي عنهم المصائب، أو أولئك القائلون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾ والقائلون: ﴿...آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾، ونصيب الفريق الأول ما ذكر له من متاع الدنيا، وما له في الآخرة من العذاب، لأنَّ النصيب يطلق على الخير وعلى الشرِّ.

وروي أنه ﷺ قال لرجل كالفرخ المنتوف: «هل كنت تدعو بشيء؟» فقال: كنت أقول: «اللهمَّ عَجِّلْ عِقَابِي فِي الدُّنْيَا»، فقال ﷺ: «لا تطيق ذلك، قل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾» (١) فقال: فشفي.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ جاء الحديث: «يحاسب الله الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا» وهو تمثيل للقلَّة، كما روي أنه

١ - أورده ابن كثير في تفسيره، ج ١، ص ٤٣٣. والألوسي، ج ٢، ص ٩١.

يحاسبهم في قدر حلب شاة أو ناقة، فهو قادر أن يحاسبهم في أقل من لحظة، يخلق في قلوبهم معرفة أعمالهم وجزاءها، أو سرعة الحساب قرب يوم الحساب أو المجازاة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾، فبادروا لطلب الآخرة، وأعرضوا عن الدنيا.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: بالتكبير وغيره أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغير ذلك... قال مسلم عن نبیثة الهذلي عن رسول الله ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبِ وَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى» (١) وقال البخاري عن ابن عمر أنه كان يكبر بمعنى تلك الأيام خلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه، في تلك الأيام جميعاً، يعني يوم النحر وثلاثة الأيام بعده المرادة هنا في قوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ جمع يوم معدود مع أنه مذكر لأن لفظ معدود أكثر من ثلاثة أحرف لغير عاقل، فجاز جمعه بألف وتاء.

(فقه) وذلك التكبير وسائر الذكر في تلك الأيام مستحبان عندنا وعند أبي حنيفة، إلا عند ذبح القرابين فعنده وجب التكبير، وعندنا يستحب.

ويحتاج إلى الجمع بين الحقيقة والمجاز في الأمر، أو عموم المجاز. والمراد بالأيام ما يشمل الليالي، وعن ابن أبي ليلى: «الأيام يوم النحر

١ - تقدّم ترجمته، انظر قوله تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾.

ويومان بعده»؛ قيل: وهو وهمٌ، ونُسب لعمر وعليٍّ، والمشهور عنهما وهو قول ابن عباس أن الأيّام يوم النحر وثلاثة بعده، وعن ابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة: «الثلاثة بعد النحر»، قلت: لا يلزم الوهم ولعله خصّ مزيداً للتأكيد في ذلك بالحجّ، والواجب ما عدا اليوم الرابع بالعيد، ولا يخفى استحباب الذكر في الأيّام الثلاثة ويوم النحر قبلها في الحجّ وغير الحجّ.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ النفرَ، أو بالنفر، أو عن منى، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يوم القرّ، واليوم بعده، والقرُّ والقرار وهو عدم النفر، ولا بدّ منه في اليوم بعد العيد، فأضيف للقرّ، وأمّا النفر بفاء ساكنة فهو الذهاب، يضاف إليه اليوم الثاني والثالث، فنقول: يوم النفر الأوّل ويوم النفر الثاني، لجواز أن ينفر في اليوم الثاني أو في الثالث، ولا قرّ بعد الثالث، ويسمّى اليوم بعد العيد يوم الرؤوس لأنّه تؤكل فيه رؤوس الضحايا. ونسب التعجّل لليومين مع أنّه في الثاني فقط تنزيلاً لهما منزلة اليوم الواحد، لأنّه لا بدّ منهما، وهو حكم على المجموع، أو يقدر مضاف، أي تعجّل في ثاني يومين، والتعجّل فيهما صالح للتعجّل قبل تمام اليوم الثاني وهو المراد، والظرفيّة لا تصلح لهما في ليلة الثالث.

(فقه) فمن دخلت عليه ليلة الثالث لزمه البقاء إلى الزوال فيرمي قبله أو بعده، وذلك أنّه من نفر في ليلة الثالث لا يصدق عليه أنّه نفر في اليومين؛ وذلك مذهبنا ومذهب الشافعيّة، وقال أبو حنيفة: له

النفر ما لم يطلع فجر الثالث، وإن طلع فيه لزمه اللبث إلى الزوال فيرمي، وعن أبي حنيفة: له الرمي قبل الزوال فيه وفي اليومين قبله، وعنه لا يجوز إلا بعد الزوال، وكذا عند الشافعي؛ وقيل: من لم ينفر قبل زوال اليوم الثاني لزمه اللبث إلى الثالث فيرمي.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ كما يزعم بعض الجاهليّة، ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ عن نفر فيهما حتى رمى في الثالث، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ كما يزعم بعض الجاهليّة، ويجوز الوجهان بلا إثم، والثاني أعظم أجراً لزيادة الرمي والذكر. ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي ذلك لمن اتقى الله في حجّه، وهو الذي ينتفع بحجّه ولو كان أيضاً لغيره، أو ذلك لأجل المتقي ليصان عن ترك الواجب لو وجب الثلاثة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الحجّ وغيره، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَكُمْ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره، ولو كان إلى غيره لأمكنكم الإنكار والإخفاء ونفعكم. ﴿تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء على مثاقيل الذرّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الأول من تيسير التفسير، ويليها بإذن الله الجزء الثاني، وأوله قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ...﴾

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الصفحة	المسألة
٤	لا يحمد الله على صفاته بل على أفعاله، وصفاته ليست ضرورية ولا اختيارية.....
٤	لفظ الجلالة ليس فعلا ولا صفة، بل هو علم على ذات الواجب الوجود جامد.....
٣٤	لا يقال في المستحيل في حقه تعالى يستطيعه أو لا يستطيعه، لأنه صفة عجز تعالى عنها.....
٤٧	لا تفنى الجنة ولا النار كما زعمت الجهمية.....
٥١	الحياء انكسار وانقباض عن عيب، والله منزّه عن ذلك.....
٥٢	السعيد في حال فسقه فاسق عند الله في تلك الحال، ولكنه في ولاية الله.....
٥٦	استواء الله هنا بمعنى توجه إرادته.....
٧٦	ولاية الله وعداوته لا تقلبان.....
٧٧	لا يقال الله تائب لعدم وروده في القرآن، وأسماء الله توقيفية.....
٩٣	لا شفاعة لأهل الكبائر المصيرين عليها.....
١١٩	هل يعتبر الحرام رزقاً.....
١٢٧	من كفر بعيسى أو بالقرآن فهو مشرك لا ينتفع بعمله.....
٢١٦	النسخ في القرآن دليل على أنه حادث مخلوق لا قديم.....

-
- ٢٣٦ لفظ الشرك شرك، ولو قصد به المجاز كبنوة المسيح لله
- ٢٧٦ الكبيرة لا تصدر من نبيء ولو قبل البلوغ
- ٣٣٨ الفعل لا يكون من فاعلين والمصطلحان عاجزان
- ٣٩٤ أمره ونهيه تعالى يتخلفان وإرداته لا تتخلف

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

الصفحة	المسألة
٦	طاعة الله على درجات وأعلاما طاعته إجلالا له تعالى.....
٥٦	لا ينتفع بسم الميتة ولا يشتري لأنّه من الميتة.....
٦٩	الآية دليل على أنّ الأمر للوجوب.....
٧٧	النطق بلفظ الشرك حرام ولو لم يقصده.....
٧٨	هل قول البربر لله: بابا شرك ؟
٨٠	اتباع الهدى: بالإيمان والعمل والتقوى.....
٨٦	الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.....
١٠١	كلّ من عصى الله فقد ظلم وقته ومكانه.....
	الكفارة اللازمة ليست من حدّ التوبة، وإنّما تؤخذ من تعريفها..
١٠٤	
١٠٣	يكفر بجزء رؤية الله تعالى دنيا وأخرى.....
١١٢	هل وضع الطعام بين يديك إيدان لك بالأكل ؟
١٣٠	لا يجبر أحد على الدين ورفع الجبل فوقهم ليس إجباراً.....
١٤٢	المنوع تأخير البيان عن وقت الحاجة لا عن وقت الخطاب.....
١٥٩	الإصرار محبط للأعمال والسيئة لا تخصّ الشرك.....
٢٠٠	تعلم السحر للعمل به حرام.....
٢٠٣	الملائكة معصومون من المعاصي.....

- ٢٠٦ لا يجوز تعلمُ السحرِ إلا لمن استوثق من نفسه أنه لا يعمل به
- ٢٢٢ على أصحاب الزكاة مؤونة حملها لأربابها
- ٢٣٣ لا يجوز ترك المساجد للمشركين يدخلونها كيف ما شاؤوا
- ٢٤٦ الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم فأتَمَّهَنَ
- ٢٤٩ إذا تصدَّرَ الفاسق أو المشرك لا يكون إماما بل هو غاصب لها
- ٢٥٠ لا يقام الحدُّ في الحرمِ إلا على من جنى فيه
- ٢٥٢ مقامات المذاهب في الحرم
- ٢٥٥ وجوه من الأمن في الحرم وفضله
- ٢٦٢ توبة العامة، وتوبة الخاصة، وتوبة خاصة الخاصة
- ٢٧٣ يجوز أن يعمل أحد طاعة وينوي ثوابها لغيره
- ٢٩٦ فعل ما كان لإصلاح الصلاة لا يضرُّ
- ٢٩٧ من كان يعاين الكعبة يكلف جزما بمقابلتها
- ٣٢٥-٣٢٤ حكم السعي بين الصفا والمروة وحكم تاركه
- ٣٢٧ حكم كتم العلم
- ٣٤٦ الأكل يكون واجبا للتقوى ويكون مستحباً لأيناس الضيف مثلاً
- إن اختلف المجتهدون فالحق عند الله مع واحد وغيره مأجور
- ٣٤٨ يجوز العمل بما قال
- ٣٥٣ ما ذكِّي قبل موته من المتردية وغيرها حلال لأنه أدركت ذكاته
- ٣٥٣ الحكم يتعلّق بالمعاني لا بالذوات
- ما قطع من حيٍّ فهو ميتة
- ٣٥٤ استثنى من الميتة السمك والجراد ومن الدَّم الكبد والطحال

- يحرم ما ذكر عليه المسيح. ويحرم ما ذكّي للجنّ اتقاء بهم
 لمريض أو غيره ٣٥٥
- يحلُّ ذبح كلِّ ما نهى عن قتله كالصرد ونحوه ٣٥٥
- تحرم الزيادة من المميتة عن قدر ما يمسك الرمق وينجي من الموت ٣٥٦
- تعطى الزكاة لليتيم بواسطة القائم به ٣٦٤
- في المال حقوق بعد أداء الزكاة على الصحيح ٣٦٥
- بيّنت السنة أنّ الذكر يقتل بالأنثى بلا رد، وأنّ المماثلة تعتبر في
 الدين، وأنّ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ٣٧١
- الواجب في القصاص القتل، والدية بدله ٣٧٣
- الوصية على من له المال، والأنسب أن يوصي ولو قلّ ماله ٣٧٦
- لا عبرة بإجازة الورثة إن كان ما أوصى به لوارث لا يرجع
 إليهم إن ردّوه ٣٧٨
- يجوز ما أوصى به من حقّ الوارث إجماعاً إن انتفت الرية ٣٧٨
- وصية الأقرب واجبة على المختار فمن تركها هلك ٣٨٠
- إذا كان الصوم مع مرض عسيراً حلّ الإفطار ٣٨٦
- يفطر المسافر إن شاء ولو في القصير بعد مجاوزة الفرسخين
 وتبييت النية ٣٨٦
- يكال لكلّ مسكين مدّان في الإطعام وقيل غير ذلك ٣٨٨
- الحامل والمرضع تقضيان ولو أطعمتا، وقيل: إن كان ذلك
 خوفاً على الولد ٣٨٩-٣٩٠
- هل رمضان فريضة واحدة أو كلّ يوم على حدة ٣٩٣
- القضاء يكون متابعا كما دلّ عليه لفظ: عدّة ٣٩٤

- ٤٠١ الهدف من الجماع وحكم العزل
- ٤٠٢-٤٠١ الأكل تجري عليه الأحكام الخمسة
- ٤٠٤ الاعتكاف في كلِّ مسجد ولو بلا صوم
- ٤٠٧ حكم الحاكم لا يحلُّ حراماً أو باطلاً
- العبادات والأوقاف تقضى في سائر الأوقات إن فات وقتها
- ٤١٠ حسب الإمكان واللياقة إلا الحجَّ
- ٤٢٠ عمم الشافعي القتل بمثل ما قتل به
- ٤٢٢ قيل: يحرم الإقدام إلى ما فيه الهلاك
- ٤٢٤ دليل وجوب الحجَّ
- ٤٢٦ حكم من أحرم بحجَّ أو عمرة ثمَّ حبس بأن أجهده المرض مثلاً
- ٤٢٨ محلُّ الهدي منى، أيَّام منى أو الحرم مطلقاً
- كلَّ فعل منافٍ للإحرام ففيه فدية إذا فعل لأذى، وإن فعله لغير
- ٤٣٠ أذى فشاة
- ٤٣٣ ترجيح تأخير ذبح هدي المتعة إلى يوم النحر
- ٤٣٤ شاة المتعة نسك يأكل منها هو والغني والفقير
- ٤٣٨ يلزم القارن ما لزم المتمتع
- ٤٤٠ لا يفوت طواف الزيارة والسعي ما دام غير ناقض لإحرامه
- من أفسد حجاً أو عمرة ولو نفلاً لزمه قضاؤها ولو عند من لا
- ٤٤١ يوجب قضاء النفل مناً
- ٤٤٢ من جادل في الحج حتى أغضب أو غضب لزمه دم
- ٤٤٦ حكم ما إذا شاب العبادة غرض دنيوي

-
- ٤٤٨ وجوب الإفاضة من عرفات ودليله
- ٤٥١ يجوز تأخير الطواف والسعي عن أيام منى
- ٤٥٥ التكبير وسائر الذكر في أيام الحجّ مستحبٌ
- ٤٥٦ وقت النفر من منى، والرمي

فهرس بعض مختارات الشيخ

الصفحة	المسألة
٣٤	المعلوم لا يسمَّى شيئاً، وهو الصحيح عندي.....
	الأصحُّ أنَّ نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يشمل العبد المكلف شرعاً كما
٣٦	يشمله لغة.....
٣٦	الكافر مخاطب بفروع الشريعة على الصحيح.....
٥٠	الصحيح ما ذكر ابن عباس في سبب نزول آية الحج ٧٣.....
	الصحيح أنَّ السماء أفضل من الأرض، والأرض أسبق خلقاً من
٥٧	السماء.....
٧٠	الصحيح أنَّ جنة آدم هي دار السعادة.....
١٠١	عجل السامري لحم ودم على الصحيح.....
١٠٢	الصحيح أنَّ الغفران يستعمل كالغفو بلا عقاب ومع عقاب.....
	الصحيح أنَّ حديث «لو ذبحوا أيَّ بقرة...» موقوف على ابن
١٤٢	عباس لا مرفوع.....
	الذي عندي أنه لا يجوز تعلُّم السحر إلا من استوثق من نفسه أنه
٢٠٦	لا يستعمله.....
	الصحيح أنَّ آية ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ في أهل الكتاب،
٢٤١	أو فيهم وفي سائر المشركين، لا في أبوي النبي عليه السلام.....
	آية ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ...﴾ في إبراهيم بن آزر، وهو

- ٢٤٦ الصحيح
- ٢٧٦ الأسباط ليسوا كلهم أنبياء على الصحيح.....
- ٢٧٦ الصحيح أنَّ الكبائر لا تصدر من نبي ولو قبل البلوغ.....
- ٣٣٣ الظلمة سابقة على الضوء، والنهار لليلة قبله، وهو الصحيح.....
- ٣٥٤ حلّ خنزير البحر على الصحيح.....
- الصحيح أنَّ الصفات الواردة في آية: ﴿ليس البرُّ...﴾ عامّة في
- ٣٦٨ جميع المؤمنين.....
- ٣٨٧ إذا كان السفر لمعصية فلا يجوز الإفطار على الصحيح.....
- النسخ بعد العمل هنا، وإن كان الصحيح أنه يجوز قبل العمل
- ٣٨٩ أيضا.....
- ٣٩٣ الصحيح أنَّ لمن شهد أول رمضان أن يسافر ويفطر.....
- إذا شورك العبادة بغيرها، فعندي أنه يشاب بقدره ولو أقلّ
- ٤٤٦ قليل.....
- ٤٤٨ الإفاضة من عرفات واجبة، وهو ظاهر بلا تكلف عندي.....

فهارس عامّة للموضوعات الفرعية

(البلاغة، تاريخ، سبب النزول، سيرة، صرف، قصص، لغة، نحو، نسخ)

بلاغة.....	١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ١٧٤ ، ٢٥٠ ، ٢٧٩ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٥٠ ، ٣٥٧
تاريخ.....	١٦٦ ، ١٧٠ ، ٢٦٠
سبب النزول.....	٤٨ ، ٥٠ ، ١٢٨ ، ١٧٦ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٣١٧ ، ٣٣١ ، ٣٧٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤٤٧ ، ٤٢١
سيرة.....	٢٩٤ ، ٤٩٦
صرف.....	١١٥ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٤٨ ، ٢٦١ ، ٤٢١
قصص.....	٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٣٢٣ ، ٣٨٤
لغة.....	٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٣٠٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٩١ ، ٤٠٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٧

٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ١١٨ ، ١٤٤ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ،	نحو
١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٨٢	
٢١٤	نسخ

فهرس المواضع والآيات

الآيات	العنوان	الصفحة
تفسير سورة الفاتحة		
٧-١	سورة الفاتحة.....	٢
تفسير سورة البقرة		
٥-١	صفات المؤمنين وجزاء المتقين (سورة البقرة)	٨
٧-٦	صفات الكافرين.....	١٣
١٠-٨	صفات المنافقين (١)	١٥
١٣-١١	صفات المنافقين (٢)	٢٠
١٦-١٤	صفات المنافقين (٣)	٢٣
٢٠-١٧	إيراد الأمثال للمنافقين.....	٢٧
٢٢-٢١	الأمر بعبادة الله وحده والأسباب الموجبة لها.....	٣٥
٢٤-٢٣	تحذري الجاحدين بالإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن....	٤٠
٢٥	جزاء المؤمنين العاملين.....	٤٣
٢٧-٢٦	فائدة ضرب الأمثال للناس في القرآن.....	٤٩
٢٩-٢٨	مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وإماتته، وخلق	

٥٥	الأرض والسماء.....	
٥٨	استخلاف الإنسان في الأرض وتعليمه اللغات.....	٣٣-٣٠
٦٦	التكريم السامي لآدم بسجود الملائكة له.....	٣٤
٦٩	آدم وحواء في الجنة وموقف الشيطان منهما.....	٣٩-٣٥
٨١	ما طُلب من بني إسرائيل.....	٤٣-٤٠
٨٧	نماذج من سوء أخلاق اليهود.....	٤٨-٤٤
٩٤	نعم الله تعالى العشر على اليهود.....	٥٤-٤٩
١٠٦	تممة النعم العشر على اليهود.....	٦٠-٥٥
١١٩	مطامع اليهود وبعض جرائمهم وعقوباتهم.....	٦١
١٢٥	عاقبة المؤمنين بنحو عام.....	٦٢
١٢٩	بعض جرائم اليهود وعقابهم.....	٦٦-٦٣
١٣٥	قصة ذبح البقرة.....	٧٣-٦٧
١٤٦	قسوة قلوب اليهود.....	٧٤
١٤٩	استبعاد إيمان اليهود.....	٧٨-٧٥
١٥٥	تحريف أحبار اليهود وافتراءاتهم.....	٨٢-٧٩
١٦١	مخالفة اليهود المواثيق.....	٨٣
١٦٤	بعض حالات مخالفة اليهود الميثاق.....	٨٦-٨٤
١٦٩	موقف اليهود من الرسل والكتب المنزلة.....	٨٩-٨٧
١٧٨	كفرهم بما أنزل الله وقتلهم الأنبياء.....	٩١-٩٠
١٨٢	تكذيب ادعائهم الإيمان بالتوراة.....	٩٣-٩٢
١٨٦	حرص اليهود على الحياة.....	٩٦-٩٤
١٩١	موقف اليهود من جبريل والملائكة والرسل.....	٩٨-٩٧

١٩٥	كفرهم بالقرآن ونقضهم العهود.....	١٠١-٩٩
١٩٨	اشتغال اليهود بالشعوذة والطلاسم.....	١٠٣-١٠٢
	أدب الخطاب مع النبي ﷺ ومصدر الاختصاص	١٠٥-١٠٤
٢٠٩	بالرسالة.....	
٢١٢	إثبات نسخ الأحكام الشرعية.....	١٠٨-١٠٦
٢٢٠	موقف أهل الكتاب من المؤمنين وكيفية الردّ عليهم.....	١١٠-١٠٩
٢٢٣	رأي كل من اليهود والنصارى في الآخر.....	١١٣-١١١
	ظلم مانع الصلاة في المساجد، وصحة الصلاة في أيّ	١١٥-١١٤
٢٢٩	مكان.....	
	افتراءات أهل الكتاب والمشركين بنسبة الولد لله	١١٨-١١٦
٢٣٥	ومطالبة تكليمه الناس.....	
٢٤٠	التحذير من أتباع اليهود والنصارى.....	١٢١-١١٩
٢٤٤	تذكير بالنعمة وتخويف من الآخرة.....	١٢٣-١٢٢
	اختبار إبراهيم عليه السلام وخصائص البيت الحرام	١٢٦-١٢٤
٢٤٥	وفضل مكة.....	
٢٥٧	بناء البيت الحرام، ودعاء إبراهيم وإسماعيل.....	١٢٩-١٢٧
٢٦٥	سفه من يرغب عن ملة إبراهيم.....	١٣٢-١٣٠
	إبطال دعوى اليهود أنّهم على دين إبراهيم	١٣٧-١٣٣
٢٦٩	ويعقوب.....	
٢٧٨	صبغة الإيمان وأثره في النفوس والعبودية لله تعالى...	١٤١-١٣٨
٢٨٤	التمهيد لتحويل القبلة.....	١٤٢

٢٨٧	تحويل القبلة	١٤٧-١٤٣
٣٠٥	الاختلاف في القبلة وأسباب تحويلها	١٥٢-١٤٨
٣١٤	الصبر على البلاء	١٥٧-١٥٣
		حكم السعي بين الصفا والمروة وجزاء كتمان آيات الله	١٦٢-١٥٨
٣٢٢		
٣٣٠	وحدانية الإله ورحمته ومظاهر قدرته	١٦٤-١٦٣
٣٣٨	حال المشركين مع آلهتهم	١٦٧-١٦٥
٣٤٥	تحليل الطيبات، ومنشأ تحريم المحرمات	١٧١-١٦٨
٣٥١	الحلال والحرام من المأكول	١٧٣-١٧٢
٣٥٦	كتمان أهل الكتاب ما أنزل الله	١٧٦-١٧٤
٣٦٠	مظاهر البرِّ الحقيقيِّ	١٧٧
٣٦٩	مشروعية القصاص وحكمته	١٧٩-١٧٨
٣٧٥	الوصية الواجبة	١٨٢-١٨٠
٣٨٢	فرضية الصيام	١٨٥-١٨٣
٣٩٥	أحكام الصيام	١٨٧-١٨٦
٤٠٥	أكل الأموال بالباطل	١٨٨
٤٠٨	التوقيت بالشهر القمريِّ وحقيقة البرِّ	١٨٩
٤١٢	قواعد القتال في سبيل الله	١٩٥-١٩٠
٤٢٣	أحكام الحجِّ والعمرة	١٩٧-١٩٦
٤٤٥	تتمّة أحكام الحجِّ	٢٠٣-١٩٨

الفهارس

- ٤٦٠.....الفهرس التفصلي للمسائل الأصولية
- ٤٦٢.....الفهرس التفصلي للمسائل الفقهية
- ٤٦٧.....فهرس بعض مختارات الشيخ
- ٤٦٩.....فهارس عامة للموضوعات الفرعية
- ٤٧١.....فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

تم بحمد الله

رقم الأيداع: ٢٠٠٤/١٦